

الطبعة الثانية
ريشار لابيفيير
مجزرة إهدن
أو لعنة العرب المسيحيين
الفارابي

ريشار لابيڤيير

مجزرة إهدن

ترجمة: ميشال كرم



دار الفارابي

Richard Labévière

La tuerie d'Ehden

ou

la malédiction des Arabes chrétiens

Fayard

الكتاب: مجزرة إهدن
المؤلف: ريشار لابيڤيير
الترجمة: ميشال كرم
صورة الغلاف: كريستيان المكاري

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: info@dar-alfarabi.com
www.dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى 20 أيار 2009
الطبعة الثانية 25 أيار 2009
ISBN: 978-9953-71-452-3

الإهداء

إلى شهداء إهدن الاثنين والثلاثين، دون أن ننسى المئة والعشرة آلاف ضحية ونحو عشرين ألف مفقود في الحـروب اللبنانية. والى هادي م. لأجل مستقبل بلد الأرز والشرقين الأدنى والأوسط.

تمهيد

يحط المرء رحاله دوماً في بيروت، كما لو أن حال هذه المدينة تلتبس مع حال البشرية جمعاء. بيروت الخارجة من الزمان والموجسة، العاصية والمتعاونة، الشهوانية والمقرفة. بيروت أقصر طريق إلى لبنان. «يختصر لبنان، على أرضه الصغيرة لكن المتنوعة، كل التناقضات، وللأسف، الاخفاقات التي تميز بها مجموع العلاقات بين الشرق والمغرب»[1].

إخفاقات وتناقضات: بين الاسلام والمسيحية، بين العولمة وبقاء الهويات، بين القوة العظمى الأميركية مع شريكتها إسرائيل والقومية العربية، بين الاسلاموية القومية والاسلاموية الأصولية. قلب بيروت لا يزال ينبض على حد موسى «الشرخ الوهمي»[2] بين غرب يشك في نفسه، ويلج انكماشاً اقتصادياً وثقافياً، وشرق أبدي الغوص، تتنازعه نوبات الثراء والسلطان وحالات الجمود اللاهوتي - السياسي.

---

(1) بول-مارك هنري، بستانيو جهنم، منشورات أوليفييه أوربان، 1983.

(2) نستعير هذه العبارة من العالم السياسي جورج قرم، الذي ينطلق، في محاولة هامة تحمل عنوان «الشرخ الوهمي»، من العداء القديم الألفي المفترض بين الشرق والغرب والذي أعيد إحياؤه بمناسبة أحداث 11 أيلول/سبتمبر 2001، لكي يشرح أن في الأمر «اختلاقاً» يخفي وراءه بشكل مناسب مصالح سلطانية دنيوية جداً.

الوصول إلى مطار بيروت، قبل أن يطلق عليه اسم رفيق الحريري، كما بعده، يحمل إليك نسمة من الحرية، نوعاً من الخلاص، كجنة عدن جديدة: بعيداً عن فرنسا المضطربة، خصوصاً في هذه الأيام حيث ترزح بلادنا تحت عبء حكم شخصي استبدادي تهريجي ومبتذل، خليط تقريبي من سيزار بورجيا، ونابوليون الصغير، وفيليب بيتان[3].

من ذكريات سن المراهقة: فترات إقامتي الأولى ترتبط بطلبي العلم في مدارس «إخوة المدارس المسيحية والآباء اليسوعيين»، الذين كانوا ينظمون مبادلات عديدة مع نظرائهم البيروتيين في شارع مونو، والمكتبة الشرقية وجامعة القديس يوسف. كان ذلك بمثابة ولوج جميل إلى التعقد اللبناني، لكنه كان شديد التوجيه من جانب الأوساط المحافظة، إن لم أقل الرجعية، في جو من الـ «Cria Cuervos»[4]. لقد أنتج ذاك العالم الخليط من أوبوس ديي (Opus Dei) وقوات مسلحة، شعارات كان بينها واحد لا يطاق عندي: «لبنان، سويسرا الشرق الأدنى!» فما الذي يمكن أن يجمع بين عالم بلد الأرز، العالم الباروكي والمفتوح على كل احتمال، وبين بلد الكوكو المنظم والمضبوط؟ وما الذي يمكن أن يجمع بين الحركات الصاخبة المتوسطية وألاعيب بلد كالفان الماكرة والمرهفة؟ لعله الهوس شبه الماورائي بالمال، المال الذي يكدس في صناديق المصارف؟

على أن بين البلدين شبهاً في محله أكثر من ذلك: غياب

---

(3) انظر آلان باديو، ما مسمى ساركوزي؟.

(4) Gria cuervos فيلم إسباني أنتجه كارلوس سورا، وعرض سنة 1975.

الدولة. يصنع هذا في إحدى الحالتين نعيماً ضريبياً مضجراً، وفي الحالة الأخرى عدم استقرار مشوق دائماً.

بعد أن احترفت الصحافة، في أعقاب مغامرات في أميركا اللاتينية، عدت إلى لبنان وهو في غمرة الحرب. خفف من صدمتي ذكاء اثنين من الدبلوماسيين الفرنسيين لوي دولامار، الذي اغتيل يوم 4 أيلول/سبتمبر 1981، وبول-مارك هنري الذي حل محله، وهو مؤلف كتاب ممتاز عن التشنجات اللبنانية: بستانيو جهنم. بصمات هذين السفيرين الفرنسيين الكبيرين في لبنان لا تزال باقية؛ وهي على تفارق كبير مع الذين حلوا محلهما في الألفية الجديدة. تصح هذه الملاحظة أيضاً بالنسبة إلى رئيس مركز الدوائر الخارجية الفرنسية آنذاك، الذي جنّب كثيرين من الصحافيين مخاطر عديدة. كان السفر يجري آنذاك بين قبرص والمرافىء الحرة على الساحل اللبناني، على متن مراكب يونانية غير مأمونة لا تكفي طبقات الطلاء المتعاقبة عليها لطمأنة المسافرين.

كان اغتيال بشير الجميل، قبل إقامة مراسم تسلم مهامه كرئيس للجمهورية، صدمة أخرى. ثم كانت مجازر صبرا وشاتيلا. كنت حينذاك أعمل لدى تلفزيون سويسرا الرومانديه (TSR). لقد حاول زميلي بيار ـ باسكال روسي، الذي سبق له أن شهد فظائع كثيرة، أن يقوم ببث مباشر، لكنه سرعان ما انهار، وانهار معه المصور ومسجل الصوت أيضاً. لم يسبق لأحد منا أن شاهد مثل هذه الفظاعة! المؤتمرات المسماة مؤتمرات الصلح في جنيف وفي لوزان كانت أشبه بمسرحيات يونيسكو، مع مقاعد فارغة ووحيدي القرن. بعد ذلك بقليل، كانت القصة الطويلة للرهائن الفرنسيين ذات العبثية المحزنة، وبينها الدسيسة التي أودت بحياة الباحث ميشال سورا.

في سنة 1989، فتحت اتفاقات الطائف في المملكة العربية

السعودية الأبواب إلى إعادة بناء مرتجّة وعفو عن جماعات الميليشيات. ولكنَّ هذا العفو، المرهق هو أيضاً، لم يحلْ دون عودة جرائم حرب ظلت بلا عقاب.

على مدى كل تلك السنوات، كانت مجزرة إهدن تطفو مجدداً على السطح كلما كنت موجوداً في لبنان. لقد كانت مفتاح «العقدة المارونية»: التنافي العضوي بين قسم من مسيحيي لبنان المتمسكين بانتمائهم التام والكامل إلى العالم العربي، وقسم آخر منهم يدّعي أنه متحدر حصراً من الفينيقيين ولا يربطه شيء بثقافة العالم العربي-الاسلامي وتاريخه. فاختار القسم «الفينيقي» من مسيحيي لبنان منطقياً إسرائيل، التي كانت آنذاك تعتبر الدولة التي تشكل رأس جسر مع الغرب اليهودي ـ المسيحي، والعالم الحر، والقيم الديموقراطية، الحصن الحصين في وجه البربرية الشرقية المتحالفة مع الاتحاد السوفياتي.

بالاضافة إلى البعد الانفعالي لمجزرة إهدن ـ موت زوجين شابين وصغيرتهما ذات الثلاث سنوات وثلاثين شخصاً آخرين ـ فإنها لا تزال حدثاً تاريخياً كبيراً. ولقد باتت بالنسبة إلي موضع انشغال مهني، ولا سيما أن كل الأبحاث التي جرت حولها أفضت إلى مأزق أو إلى تصورات خيالية بشكل واضح.

فما كانت دوافع وعواقب هذا الاغتيال السياسي، الأول من نوعه الذي يرتكب بين أعضاء في الطائفة المسيحية اللبنانية؟ من كان منفذوه ومدبروه؟ وكيف كان موت المستهدف الرئيسي ـ النائب طوني فرنجية ـ يمكن أن يخدم مصالح أولئك المدبرين، ومصالح بعض من «بستانيّي جهنم» السفير بول ـ مارك هنري: الفاعلين الخارجيين، المتلاعبين الكبار بالحروب اللبنانية؟ كان معظم مصادري يلتفت صوب تل أبيب، وبعض منها يضيع في اعتبارات

أنتروبولوجية حول سنن الدم المحلية، كما يشير بعض آخر إلى «لعنة العرب المسيحيين»، أنصار روما وبيزنطية قبل الحروب الصليبية بكثير.

كان قدامى أصدقائي اللبنانيين والسوريين والفلسطينيين يحذرونني بتحفظ من لعنة أخرى تنزل على من يتجاسر بكشف خفايا مجزرة إهدن. ألم يكن الاغتيال نصيب أحد الشهود الرئيسيين يوسف فرنجية، الملقب بأبي جو، مؤخراً في ظروف غامضة تكاد لا تحجب الارتباط المباشر بمجزرة إهدن التي جرت لثلاثين سنة خلت؟

كثير من الأشخاص الذين طرحت عليهم أسئلة طلبوا عدم ذكر أسمائهم قطعاً، ورفض كثيرون آخرون ضرب موعد للقاء أو اعتذروا عن اللقاء في آخر لحظة. وسألني آخرون حتى أن لا أذكر أسماءهم في لائحة الشكر التي تصحب هذا النوع من التحقيق بحسب العادة.

فالمرء لا يقوم بمفرده بمثل هذا النوع من العمل. أفكر أولاً بعائلات زغرتا ـ إهدن التي فتحت أمامي أبواب بيوتها ومحفوظاتها، وبواحدة من بينها خصوصاً تجاوز سخاؤها ورقتها حدود جبال شمال لبنان وحدود البلد منذ زمان طويل.

لقد أمن «الطبيب» اللوجستية والبحث عن الوثائق التي لا غنى عنها لأجل فهم تلك الحقبة وفهم سكان الجبال الشمالية.

أما «المهندس» فقد رسم خريطة هذا التحقيق الذي استغرق ثلاث سنوات.

وأشركنا «الجنرال» في معرفته الاستراتيجية الكبيرة، التي تليق بكلاوزفيتس، بالتشكيلات المسلحة اللبنانية والأجنبية.

ولما كان أي شيء ممكناً لولا الثقة، التي صارت صداقة بالسلطان سليم، حارس ذاكرة زغرتا.

وكما هي الحال دائماً، أفادني آلان تسويه من خبرته الواسعة.

لقد وافق على استقبالي كثير من الموظفين، والجنرالات والضباط الكبار، ورجال الأعمال والدبلوماسيين اللبنانيين والسوريين والفلسطينيين والأوروبيين والأميركيين. معظم هؤلاء لا يزالون في الخدمة، ومن المتعذر ذكر أسمائهم هنا. لكنهم سيتعرفون إلى أنفسهم. فلهم شكري على صبرهم وسخائهم.

من جهتهما، منير سالم ووليد شراره، الباحثان والحافظان اللذان لا يعرفان الكلل في تواريخ الشرقين الأدنى والأوسط، فقد أشركاني، قليلاً، في ما يعرفان.

كذلك ساعدتني ألكسندرا ريشار بفاعليتها الاعتيادية، بينما أعطاني كريم بقرادوني لمحة عن معرفته وممارسته للحياة السياسية اللبنانية وفي الشرقين الأدنى والأوسط.

إنَّ الاضاءات التاريخية من جانب جيرار خوري كانت لا غنى عنها منذ زمن بعيد.

ومنذ زمن بعيد أيضاً، وجدتني أعود إلى مؤلفات جورج قرم التي تنير منهجيته الطلبة والأصدقاء بسخاء وصرامة.

وقد حملت إلى الكثيرين ملاحظات سيسي ر. الفطنة، العالمة السياسية الخبيرة بالشرقين الأدنى والأوسط، وملاحظات وكيلي المحامي ديديه ب. الخبير بالمالية الدولية وبمجالات أخرى كثيرة.

كما أن صديقي ألان مينارغ، الذي كان عزله من إذاعة فرنسا الدولية فضيحة لأنه ألف كتاباً مرجعياً عن جدار أرييل شارون، قد كشف لي جملةً من خفايا حروب لبنان التي عاشها وكتب عنها الكثير.

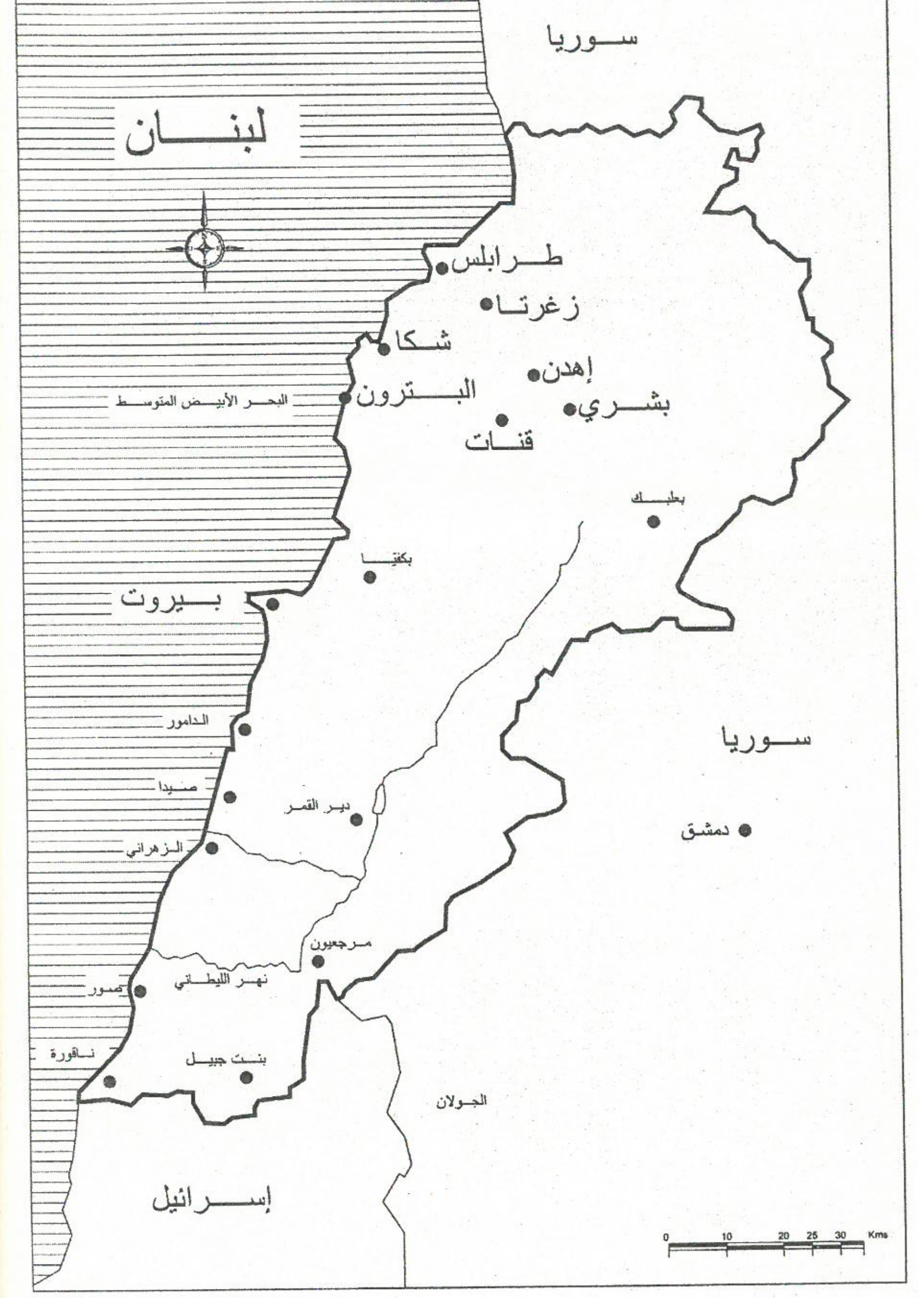
ولا يسعني، أيضاً، إلّا أن أنوّه بأنوشكا فيرنيه، الطالبة في العلاقات الدولية، التي كانت تغذي منذ سنين المسائل التي توجه هذا العمل. كما أن ماري – نويل ريو، القارئة التي لا غنى عنها، قامت بمراجعة المجموع بصرامة هيغلية كاملة.

أخيراً، إن برونو جانمار، الفيلسوف والمحلل النفساني، جاد عليّ أيضاً باستماعه العرضي.

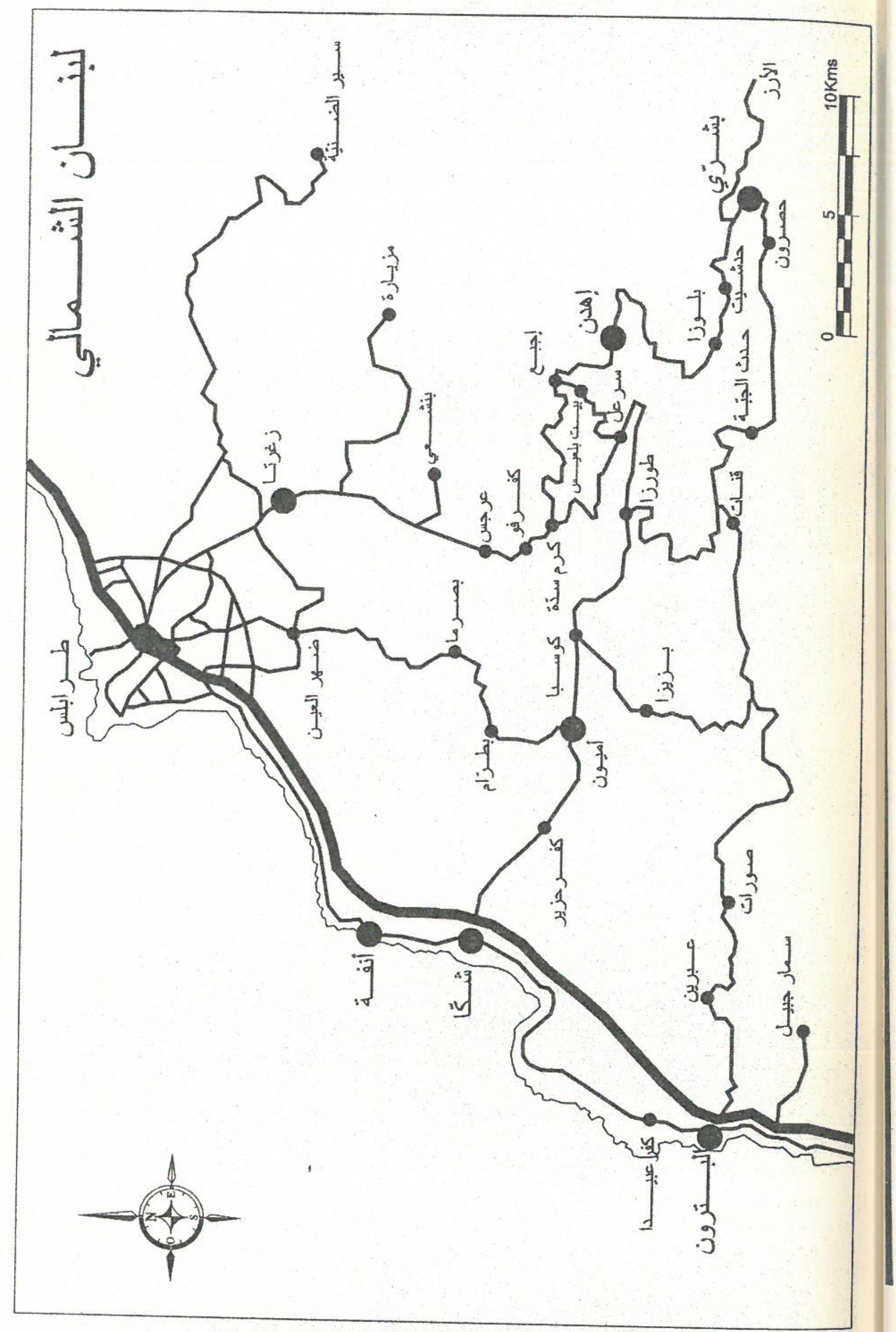
لهؤلاء جميعاً عميق امتناني.

الجزائر، 28 شباط/ فبراير 2009

ريشار لابيفيير



لبنان
سوريا
طرابلس
زغرتا
شكا
إهدن
البترون
بشري
قنات
البحر الأبيض المتوسط
بعلبك
بكفيا
بيروت
الدامور
صيدا
دير القمر
الزهراني
سوريا
دمشق
مرجعيون
نهر الليطاني
صور
ناقورة
بنت جبيل
الجولان
إسرائيل
0 10 20 25 30 Kms



لبنان الشمالي
سير الضنية
مزيارة
زغرتا
بنشعي
طرابلس
ضهر العين
بصرما
عرجس
كفرفو
كرم سدة
كرسبا
بطرام
أميون
إجبع
إهدن
سرعل
طورزا
بزيزا
كفرحزير
أنفة
شكا
البترون
كفرعبيدا
عبرين
سمار جبيل
صورات
قنات
حدث الجبة
حدشيت
بلوزا
حصرون
بشري
الأرز
0 5 10Kms

مقدمة

ليل السكاكين الطويلة

«كانت المدينة كلها ضالعة في الاغتيال. وكان في وسعه أن يقلب أي حجر، أن يطرق أي باب: في الأسفل أو في الخلف؛ كان على يقين من العثور على صلة وثيقة إلى حد ما بالقضية. وهو لم يكن يتصوّر أبداً أنه يمكن لمثل هذا العدد من الأشخاص، الذين لا تجمع بينهم علاقة ظاهرة، أن يتلاقوا في مناسبة كهذه، وأن توجد تحت هذه القشرة من الشرعية آلية لا شرعية كاملة التنظيم وخاضعة لشرائع الظلمات».

فاسيليس فاسيكيلوس
منشورات غاليمار، 1967.

ثلاث جثث ممددة بشكل مثلث على البلاط داخل منزل بورجوازي. الجثة الكبرى كانت جثة رجل، عارية الساقين، جاثمة على غطاء سرير، والوجه مغطى بقماشة داكنة اللون. وكان وجه الجثة الثانية مغطى هو أيضاً بما يشبه منديلاً أبيض فيما يتراءى العنق الملتوي من خلال سماط أسود أشبه ببريكة من الدم. أما

الثالثة فكانت لعبة صغيرة مفككة الأوصال، غارقة هي أيضاً في دمها وقد انفتحت شفتاها في حيرة تامة امتزجت بسكون الأبدية، في الوقت الذي كان فيه الذراع الأيسر مرفوعاً كما لو أن الطفلة كانت تريد إدخال إبهامها في فمها.

لا شك في أن الذين رتبوا هذا المثلث ليسوا القتلة. المثلث كان مرتباً، إذ من البديهي أن الضحايا الثلاث لم يلفظوا أنفاسهم الأخيرة وهم في هذه الوضعية. ولكأن القاتل شاء أن يثبت أن الذين قتلوا للتوّ هم أفراد أسرة واحدة، وأن الأجساد الثلاثة مترابطة ارتباطاً سرمدياً، وعلى نحو لا انفصام له. هذا ما جال في خاطر تشين في بداية حال البشر حيث كتب: «الاغتيال ليس القتل وحسب...».

الاغتيال جريمة، والاغتيال السياسي جريمة ترتكب بقصد إحداث تأثير سياسي من شأنه أن يعدل مسار التاريخ.

نحن في قلب وادي قاديشا، على بعد نحو ثلاثين كيلومتراً شرق طرابلس. هذا الوادي في شمال لبنان مشهور بطبيعته المهيبة وبكونه مهد الطائفة المارونية قبل أن تنزح باتجاه كسروان والمتن والشوف. في أسفل امتداد الوادي تتلألأ بضعة أضواء في البحر، مخترقة ضباباً أصفر يغشى الجبال التي تحتضن قرى يأهلها ألوف الناس الأبرياء، الذي سيواصلون العيش على الرغم من الدم المسفوح، على بعد مئات الأمتار إلى فوق، في الدار الكبيرة التي يطلق عليها سكان إهدن باحترام اسم «القصر».

ففي ليل 12 ـ 13 حزيران/يونيو 1978، وبعد الساعة الرابعة بقليل، طوق ثلاثون رجلاً مدججين بالسلاح قصر النائب المسيحي

أنطوان فرنجية المعروف بطوني فرنجية الذي أبصر النّور يوم أول أيلول/سبتمبر من العام 1939 في أسرة فرنجية الكبيرة في شمال لبنان، وهو ابن سليمان فرنجية، رئيس الجمهورية اللبنانية سابقاً، وقد شغل منصب وزير للاتصالات، وكان نائباً عن زغرتا سنة 1972. وقد سمى ابنه باسم جده سليمان.

لقد سقطت قذيفة مدفع على واجهة المبنى الرئيسية فكانت تلك إشارة البدء بالهجوم. رد طوني من الداخل. ومنذ الطلقات الأولى، أصيب قائد المهاجمين سمير جعجع ـ مزيج من شارل مارتل وآل كابوني ـ بجرح بليغ. فجنّ جنون رجال حرسه الشخصي واقتحموا القصر، وبين الصراخ، والأوامر، والأوامر المضادة، قتلوا طوني وزوجته فيرا وابنتهما الصغيرة جيهان ذات الثلاث سنوات.

استفاق سكان إهدن على أصوات الرصاص وطرحوا الصوت على القرى المجاورة. حملوا أسلحتهم وهرعوا إلى المكان وهم لا يعلمون أن ما حصل لا يمكن تعويضه بأي شكل من الأشكال. وفي زغرتا(-) مركز القضاء المسيحي(-) شمال طرابلس، أخذت الأجراس تقرع منذرة بالخطر. عند الفجر، وفيما كان الكتائبيون ينكفئون صوب الشاطىء، وقعوا في كمائن نصبها الأهالي، وتركوا وراءهم عدة قتلى، كما سقط من الأهالي نحو ثلاثين قتيلاً.

إنّها الساعة السادسة. بيروت تستيقظ. إذاعة حزب الكتائب تعلن أن سمير جعجع مصاب إصابة خطرة. وراحت تنتشر الشائعات الأكثر تناقضاً. السلطات المدنية والعسكرية في حالة ارتباك. أرسل رئيس هيئة الأركان في الجيش طائرتين في مهمة استطلاعية. نفى

الزعيمان الكتائبيان بيار الجميل وابنه بشير كل مسؤولية لهما عن المجزرة، التي وصفت بأنها عملية تهديد ما لبثت أن تحولت إلى ما هو أسوأ. وراحت الشائعة تتضخم وتغذي الروايات الأكثر خيالية. لقد ابتدأت عندها أسطورة إهدن، وابتدأت معها معركة بين تثبيت الوقائع التاريخية وتزويرها.

تناول محررو الأخبار «مجزرة إهدن» من دون التعمّق في أسبابها، وكيفية حصولها، والمسؤوليات المترتّبة عنها. وحتى اليوم لم يصل أي تحقيق قضائي وأي استقصاء بوليسي، وأي إجراء قانوني، إلى نتيجة، ما يفسح المجال لكل أنواع الروايات، ووصف الوقائع، والاستغلالات المتحيزة. لقد غسل المسؤولون الرئيسيون ضمائرهم وانطلقوا بنجاح في مسيرة سياسية جديدة، وانتصر قانون الكتمان المافياوي.

لقد حشدت عملية إهدن، التي جرى الإعداد لها منذ مدة طويلة، مقاتلي قوات المجلس الحربي الكتائبي، وهي ميليشيا حزب الكتائب اللبنانية التي كانت في الواقع خاضعة لسلطة المؤسس الرئيسي للحزب: بيار الجميل. كان هذا لأخير من هواة الرياضة الكشفية، وقد زار إيطاليا الفاشية، ثم حضر الألعاب الأولمبية في برلين سنة 1936، وعاد من هناك شديد التأثر بالنظام والتنظيم اللذين فرضتهما الاشتراكية ـ القومية. تأسس حزب الكتائب اللبنانية بتاريخ 21 تشرين الثاني/نوفمبر 1936، وكان شعاره «الله والوطن والعائلة» و «لبنان قبل كل شيء»، يفصحان عن نهجه. كانت هذه الحركة تناضل من أجل الاعتراف بكيان لبناني نوعي مرتبط بإرث «فينيقي» لا ينتمي إلى الشرق ولا إلى الغرب، فكانت ترفض بشدة كل إيديولوجيا «مستوردة» أكانت عروبية أو ماركسية ـ لينينية: إنها

شبه فاشية اقتبست منذ البداية أساليب القوة من نموذجيها الايطالي والألماني.

هذا التاريخ ليس تاريخ الموارنة وحدهم، ولا تاريخ لبنان وحده، ولا تاريخ الشرقين الأدنى والأوسط فحسب، وإنما تتداخل فيه تناقضات عالمية المدى، بالمعنى الهيغلي، إذ إنه قد دارت في داخله، ولا تزال تدور، وستدور في المستقبل، تسويات أساسية تترك أثرها على توازن العالم، لكأن الوضع اللبناني يحتوي الوضع البشري بكامله. «الصيغة اللبنانية تبدو كأنها التحقيق الممكن، المرغوب فيه، للتعايش الاسلامي ـ المسيحي في العالم» كما يقول الأسقف جورج خضر. إن لبنان يرتدي، في نظر المسيحيين اللبنانيين، وبشكل أوسع، مسيحيي الشرق، كل الشرق، أهمية مماثلة للأهمية التي يجسدها بيت المقدس في نظر ديانات الكتاب الثلاث.

وحين توجه صاحب الغبطة اغناطيوس الرابع هزيم، «بطريرك أنطاكيه وسائر المشرق»، الحبر السوري الذي كرسيه في دمشق، إلى ملوك ورؤساء الدول الاسلامية المجتمعين في الطائف خلال شهر كانون الثاني/يناير 1981، قال عن لبنان ما يلي: «إن وحدتنا مشروطة بوحدة لبنان، وحيويتنا تتوقف على حيويته. وحدة لبنان حق له، وحيويته حق له، والسلام أيضاً حق له (...). إنه رجاء وغاية، ينبوع إبداع واختراع، وجه بشوش يبتسم للجميع (...). لبنان في نظر الجميع مكان راحة، مكان تلاق وتفاعل بين الأفكار بما يجعلها مشتركة بين الجميع. إن جمال تلاقي المسيحيين والمسلمين فيه لا يساويه جمال (...). إن لبنان اليوم، في فرادته وحقانيته يذكر بالقدس. والقدس تذكّر أيضاً بلبنان في حقانيتها وفرادتها (...). نحن في القدس نبحث عن وجه الله، كما نبحث

عن وجه الله في لبنان أيضاً (...). القدس ولبنان، في دنيا العرب، قطبان وقاعدتان ضروريتان لكل سلام»[1].

بهذه الروح تحدث البابا يوحنا بولس الثاني فيما بعد عن لبنان واصفاً إياه بـ «الأمة ـ الرسالة». كما ردد ياسر عرفات مثل هذه الكلمات وبقناعة مماثلة في مناسبات مختلفة.

فإذا كانت الحياة السياسية لهذه «الأمة ـ الرسالة»، المتخبطة في الألاعيب العشائرية والعائلية والتجمعات الأيديولوجية والطائفية، قد اتخذت أشكالاً عنيفة بعض الأحيان، فهي نادراً ما انحدرت إلى مستوى الوحشية الذي بلغته في إهدن. «إنَّ الانتقال إلى الاغتيال السياسي مرتبط أولاً بالاغتيال «الشرعي» لأنطون سعاده سنة 1949» على حد قول هنري لورانس. «فزعيم الحزب السوري القومي الاجتماعي، الذي كان معارضاً للسلطة في لبنان، سلمته السلطات السورية إلى حكومة رياض الصلح اللبنانية، التي دبرت له محاكمة صورية آلت إلى تنفيذ حكم بالاعدام صدر بحقه. ومنذ ذلك الحين راح الحزب السوري القومي الاجتماعي يسعى إلى الانتقام له، ونجح في اغتيال رياض الصلح سنة 1951 في الأردن. وفيما خلا هذه الحالة، وحتى سنة 1967، وربما حتى 1975، فإنَّ الاغتيالات السياسية كانت تستهدف شخصيات أخرى (نواباً، صحافيين)»[2].

ابتداءً من 1967، وبعد أن بات لبنان ملجأً للمقاومة الفلسطينية، حصلت فيه اغتيالات عديدة لكوادر فلسطينية وعمليات انتقامية

(1) ورد عند غسان تويني في حرب لأجل الآخرين. منشورات ج س لاتيس، 1985.

(2) هنري لورانس، الشرق الأدنى وثقافة العنف في القرن العشرين، مجلة جيوبوليتيك، العدد 103، تشرين الثاني/نوفمبر 2008.

تحمل غالباً بصمات أجهزة المخابرات الاسرائيلية. ومع نشوب الحرب، سنة 1975، ابتدأ مسلسل اغتيالات ومحاولات اغتيال استهدفت شخصيات كانت ترفض الانضمام صراحة إلى الكفاح المسلح أحياناً وتنتقي من بينها قادة محتملين اختار بعضهم طريق المنفى. إنَّ عمليات الاغتيال الأولى كانت تتوخى التهويل وتندرج في استراتيجيات التوتر المعقدة، لكنّ بعض الاغتيالات ارتدت أهمية كبيرة كاغتيال الزعيم الدرزي كمال جنبلاط سنة 1977؛ وتلتها اغتيالات هدفت إلى إلغاء منافسين خطرين داخل المعسكر السياسي الواحد حيث كان محررو الأخبار يسرعون في اعتبارها عمليات ثأرية.

إن مجزرة إهدن كانت بداية هذا المسلسل اللبناني من الاغتيالات التي استهدفت كوادر من الدرجة الأولى. وهي تحتل، في التاريخ المضطرب لمسيحيي لبنان والشرق مكاناً مماثلاً لمجزرة «ليل السكاكين الطويلة»[3]، التي قضى فيها هتلر على الخصوم

(3) ليل السكاكين الطويلة، أو الـ روهم بوتش، هو الاسم الذي أطلق على الاغتيالات التي ارتكبها النازيون في ألمانيا بين 29 حزيران/يونيو و2 تموز/يوليو 1934، ويطلق بنوع خاص على ليلة 29 ـ 30 حزيران/يونيو 1934، التي اغتيل فيها نحو مئة شخص ينتمي معظمهم إلى الستورما بتيلونغ (SA) على يد أعضاء في الشوتزتافل (SS) والغستابو، وأوقف نحو ألف شخص. أتاحت هذه العملية لهتلر أن يحطم نهائياً كل ميل إلى الاستقلال لدى (SA) وأن يخلص الحركة النازية من «جناحها اليساري» الذي كان يتمنى أن تعقب الثورة السياسية ثورة اجتماعية. وهو بذلك طمأن الرايشوير، والأوساط المحافظة التقليدية، وكبار رجال المال والصناعة، المتحدرين بصورة رئيسية من البورجوازية البروسية والمعادين للاصلاحات الاجتماعية الواسعة النطاق، كما أنه خلق جواً من الارهاب الشرعي في وجه كل معارضي النظام.

الذين كان يمكن لهم أن ينازعوه على قيادة الحزب الاشتراكي ـ القومي.

هنا، كان المقصود إزالة أول العوائق التي كانت تعترض طريق بشير الجميل، ابن مؤسس حزب الكتائب، الذي كان يحدوه طموحٌ مزدوجٌ: كسب السيطرة على مجمل الطوائف المسيحية، الأمر الذي كان يختصره بشعاره الأثير «توحيد البندقية المسيحية»؛ والفوز برئاسة الجمهورية التي تعود إلى مسيحي ماروني وفقاً للميثاق الوطني الذي يعود لسنة 1943.

في 31 آب/أغسطس 1976 ولدت بنية قيادة موحدة: القوات اللبنانية، وكانت تتألف من مجلس قيادة يشارك فيه ممثلون لكل ميليشيا، واحتل بشير الجميل مركز القائد فيها. إلا أنه، بعيداً عن تلك الارادة، إرادة ممارسة وتجسيد وشخصنة «الأمير المسيحي»، يعبّر ليل السكاكين الطويلة في إهدن أيضاً عن مفهوم ما للأمة: مفهوم «التقسيمية» الذي لا تبوح به القوات اللبنانية، مفهوم «كنتنة» المنعزَل المسيحي، الذي هو تعبير مكاني وخجول عن التطهير الاثني.

إن لبنان، من خلال هبّاته التقهقرية واستشرافاته العالمية، كان في آخر السبعينيات شبيهاً من وجوه كثيرة بإيطاليا النهضة حيث غدا الاغتيال السياسي السمة الغالبة لحياة سياسية غارقة في الخصومات بين الامارات الصغيرة. في ظل هذا الاضطراب السياسي ـ الذي كان صورة مسبقة للفوضى التي عرفتها أوروبا الحديثة فيما بعد على أثر زوال المسيحية السياسية ـ كانت تسود شريعة الأقوى، والانحدار إلى الحالة البدائية، إن لم يكن إلى زوال الشرائع. وفي مثل هذه الحال يصبح الاغتيال خير وسيلة للاستيلاء على الحكم. وبوصفه لذلك يتحدث ماكيافيلي عن الاغتيال إذ يستشهد بنموذج

الأمير العصري الذي هو في نظره سيزار بورجيا، والذي يبرر أساليبه بكلمات دفاعية، قائلاً: «للقتال طريقتان، إحداهما بواسطة القوانين، والأخرى بواسطة القوة. الأولى هي طريقة البشر، والثانية هي طريقة البهائم. غير أن الأولى لا تكون كافية في كثير من الأحيان، فتكون هناك حاجة لاعتماد الثانية. فمن الضروري للأمراء إذن أن يعرفوا كيف يستخدمون هاتين الطريقتين أو إحداهما وفقاً لاحتياجاتهم»[4].

وإذ يعلق ماكيافيلي كل نوع من أنواع الحكم الأخلاقي في ما خص الاغتيال السياسي، في الفصل الثامن من كتاب «الأمير»، وعنوانه «في أولئك الذين ارتقوا إلى السيادة بواسطة جرائمهم»، فإنه لا يحفظ من هذا الاغتيال سوى وجوهه التقنية وغايته السياسية، معتبراً أن كل شيء «يتأتى من حسن أو من سوء استعمال القساوة. لذلك يمكن القول بأنه قد أُحسن استعمالها (إذا جاز القول إنَّ شراً ما هو خير) إذا كان ذلك الاستعمال لمرة واحدة، وضرورياً للحصول على الأمان الذاتي، وإذا كان يؤدي أخيراً إلى ما فيه خير الرعية. ويمكن القول إنه قد أسيء استعمالها إذا ما زيدت مع مرور الزمن بدلاً من إيقافها تماماً. إن الذين يستعملونها بحسب الطريقة الأولى يستطيعون، بعون الله والبشر، أن يجدوا علاجاً ما لقضاياهم (...). أما الآخرون فيستحيل عليهم البقاء حيث هم. أخلص من هذا إلى القول إن على من اغتصب دولة أن يباشر كل القساوات دفعة واحدة كي لا يضطر إلى العودة لمباشرتها كل يوم...»[5].

(4) «الأمير»، الفصل 18، منشورات غارنييه إخوان، 1962.
(5) المرجع المشار إليه آنفاً، الفصل الثامن.

بعد دماء إهدن، تضاعفت «الزيادات»، دافعةً قتلة الليل وفروعهم، بشكل لا مردّ له، إلى فئة ماكيافيلي الثانية. إن هذه «الزيادات» القاتلة لم تؤد قط إلى استقرار ما للبنان، ولم تجلب إلا الخيبات والأحزان لمسيحيي الشرق الآخرين. لكن إذا كان البعد الذبيحي لمجزرة إهدن يكرس أصل الحروب الأخوية التي لن يكف مسيحيو لبنان عن خوضها ويرسم بالتالي، خطها الدامي، فإنه يستمد صفته المرضية من خطيئة أصلية أخرى: خطيئة التحالف السياسي مع إسرائيل واعتناق تقنيات الموساد، كمخترع بديل «مقبول سياسياً» للاغتيال السياسي: «الاغتيال الموجه».

تعود أولى الاتصالات للوكالة اليهودية ببعض الأوساط المارونية إلى ثلاثينيات القرن المنصرم. ولقد ازدادت في أعقاب استقلال لبنان سنة 1943 حتى عشية قيام دولة إسرائيل سنة 1948. وهي لم تكف عن النمو حتى باتت رسمية في أعقاب لقاء اسحق رابين والرئيس السابق كميل شمعون على متن زورق حربي إسرائيلي في خليج جونيه مطلع سنة 1976. لقد كان الموساد يقوم بدور لولب الحركة في هذا التحالف الاستراتيجي بين تل أبيب وحزب كتائب بيار الجميل وابنه بشير والقوات اللبنانية. وفي هذا الخصوص، كتب أوري دان، مستشار العقيد أرييل شارون والعضو النافذ في الموساد، ما يلي: «كفاح الموارنة في لبنان ضد منظمة التحرير الفلسطينية يقع تحت سيطرة الموساد الذي يسهر بعناية على علاقاته بالجميل وشمعون وسائر القادة المسيحيين. وينتقل ضباط من الجيش الاسرائيلي إلى لبنان لأجل إرشاد المقاتلين المسيحيين، لكن الموساد هو الذي ينظم هذه الزيارات، وعملاؤه يؤمّنون حركة

الذهاب والإياب بين إسرائيل ومرفأ جونيه اللبناني ومعقل آل الجميل في بكفيا، ويقومون حتى بجولات استطلاعية في بيروت»[6].

إن دم إهدن، الذي أحدث أول شرخ بين موارنة جبل لبنان وموارنة الشمال المتصارعين على الزعامة المسيحية، قد سجل التعارض المديد بين المسيحيّين المنادين بانتمائهم إلى العالم العربي والمسيحيين الذين اختاروا إسرائيل. هذا أول جرح بين جراح المسيحيين الخمسة في لبنان. والجرح الثاني، المرتبط هو أيضاً بالصراع على الزعامة المسيحية، كان ذاك الذي حصل في الصفرا يوم 7 تموز/يوليو 1980، حين قامت كتائب بشير الجميل بتصفية المنظمة العسكرية لحزب الوطنيين الأحرار التابع لكميل شمعون. وحصل الثالث خلال آذار/مارس 1985 داخل الكتائب بالذات. وشهد الرابع المجابهة بين سمير جعجع، أحد المشاركين الرئيسيين في مجزرة إهدن وإيلي حبيقة داخل قيادة القوات اللبنانية. أما الخامس فحصل ابتداءً من 31 كانون الثاني/يناير 1990 بين القوات اللبنانية وعلى رأسها سمير جعجع وبين الجيش اللبناني بقيادة الجنرال ميشال عون. وسيبقى هذا الجرح الخامس في التاريخ بوصفه «حرب المسيحيين». وفي ربيع 2009، أي قبيل الانتخابات التشريعية في لبنان، فإننا نجد القوات اللبنانية بقيادة سمير جعجع، مجدداً، في مواجهة التيار الوطني الحر بقيادة الجنرال عون.

إذن، انطلاقاً من دم إهدن «تخاطب الموارنة خمس مرات فيما

(6) أوري دان، الموساد، 50 سنة من الحرب السرية. منشورات بريس دو لا سيتيه، 1995.

بينهم بلغة السلاح على مدى ست عشرة سنة من الحرب» كما كتب كريم بقرادوني. لقد «واجهتهم حالتان نموذجيتان: إهدن والصفرا من جهة ـ صراع على السلطان داخل الطائفة ـ ومن جهة أخرى، انتفاضة 12 آذار/مارس وانتفاضة 15 كانون الثاني/يناير ـ خصام على الدور الذي ينبغي أداؤه في المشاريع الاقليمية. الفصل الخامس في المأساة، «حرب المسيحيين»، تترجم صراعاً وخصومة في آن. إنها مآل وذروة هذا التدمير الذاتي الممتد على مراحل عدة»[7].

إن المسألة اللبنانية، التي رُفعت إلى أعلى مستوى للمجابهة الاستراتيجية بين الشرق والغرب، بين إسرائيل وسوريا، بين إسرائيل والولايات المتحدة وإيران، ما زالت خاضعة للعنة مسيحيي الشرق. واليوم، بعد مرور ثلاثين سنة على مجزرة إهدن، وقبيل انتخابات تشريعية تاريخية لا يتوقف عليها مستقبل لبنان فقط، بل مستقبل الشرق الأدنى أيضاً، فهل يمكن لمسيحيي لبنان أن ينبذوا دينامية «التدمير الذاتي على مراحل»، فينعتقون من لعنتهم ويقلبون صفحة صراعاتهم القديمة؟

إن سليمان فرنجية، زعيم المردة اليوم ـ الميليشيا السابقة التي كان يقودها والده طوني والتي غدت اليوم حزباً سياسياً لبنانياً ـ قد انضم إلى كتلة المعارضة التي تجمع بين حزب الله وأمل والحزب السوري القومي الاجتماعي والتيار الوطني الحر الذي يرأسه الجنرال ميشال عون. والقطيعة مع القوات اللبنانية بقيادة سمير جعجع، حليف تيار المستقبل التابع لسعد الحريري ودروز وليد

---

(7) كريم بقرادوني، الفخ ـ من اللعنة اللبنانية إلى حرب الخليج. منشورات غراسيه و FMA، بيروت، 1991.

جنبلاط، لا تزال قائمة وهي تتحكم بنتيجة المجابهات الانتخابية القادمة. لكن بالرغم من صفحه صراحة عن قاتلي أبيه، فإنه، أي سليمان فرنجية، لم يتمكن حتى الآن من أن يفرض نفسه صانعاً لمصالحة داخل المعسكر المسيحي تفضي إلى حل «العقدة المارونية». وبما أنها خاضعة لمرجعين يضبطان الأمور ـ البطريركية (القانون الالهي) ورئاسة الجمهورية (القانون الدستوري)، فإن هذه «العقدة المارونية» لا تكف عن تصفية حساباتها القديمة وصيانة لعنتها.

ففي يوم 15 أيلول/سبتمبر 2008، أصيب يوسف فرنجية الملقب بـ«أبو جو»، وهو أحد الشهود الرئيسيين والمشاركين في مقاومة أهالي إهدن، برصاصة قاتلة في أثناء تبادل لإطلاق النار جرى في قرية بصرما في شمال لبنان بسبب وضع لافتة للقوات اللبنانية على مقربة من أحد مكاتب المردة. ولقد قتل في الحادثة أيضاً أحد أنصار القوات اللبنانية بيار إسحق، وجرح ثلاثة أشخاص آخرين.

وفي 26 كانون الأول/ديسمبر 2008 كتبت جريدة الحياة السعودية إنَّ «رئيس الجمهورية اللبنانية توصل إلى الجمع بين البطريرك صفير وسليمان فرنجية (...). ولقد كانت زيارة الرئيس ميشال سليمان للبطريركية المارونية لأجل التهنئة بعيد الميلاد مناسبة لمفاجأة سياسية بكل معنى الكلمة، إذ تمكن الرئيس من الجمع بين البطريرك نصرالله صفير وزعيم حزب المردة سليمان فرنجية. وهكذا وضع هذا اللقاء حداً لمقاطعة دامت أشهراً وتخللتها انتقادات حادة أطلقها فرنجية بحق البطريرك. إن هذا الاجتماع يسمح بإعادة إطلاق جهود الرابطة المارونية لأجل مصالحة بين المسيحيين حيث نقلت مصادر حسنة الاطلاع أن لقاء صفير ـ فرنجية تحت رعاية

الرئيس سليمان قد فتح الطريق «للعودة إلى وضع طبيعي» بين الرجلين، وربما حتى لتوسيع نطاق المصالحة المسيحية».

وفي اليوم التالي، كتبت جريدة السفير اللبنانية ذات الاتجاه القومي العربي في ختام تقريرها عن اللقاء: «شدد الوزير السابق فرنجية على ضرورة أن تبقى بكركي (مقر البطريركية) غير منحازة حول المواضيع الخلافية، آملاً طي الصفحة».

لكن، من أجل البدء بطي هذه الصفحة، ينبغي للبنان أن يفتح يوماً ما ورشة تاريخه المعاصر، أسوة بلجان «الحقيقة والمصالحة» التي رأت النور في إفريقيا الجنوبية وفي المغرب.

فإذا كانت هذه التساؤلية، أي هذا الأمل بتحويل الأحقاد السابقة، غير كافية لإيجاد الحلول المطلوبة، لكنها، بالتأكيد، ستكون المرحلة الأولى في إعادة البناء.

يقول تشين أيضاً: «لا أحب الانسانية المصنوعة من تأمل الألم».

الفصل الأول

13 حزيران/يونيو 2008، قداس ـ اجتماع حاشد

«الماضي لا يموت أبداً. إنه ليس حتى بماضٍ»

وليم فولكنر (1897 ـ 1962)

من «قداس لراحة نفس راهبة».

بيروت! الصدمة إياها على الدوام. الفتنة ذاتها التي تعوض نقصاً أكيداً في الجمال. بيروت، بما فيها من آثار حرب، وإعادة بناء لافتة، لا تشكّل ما يمكن تسميته «مدينة جميلة»، لكن كم لها من الألق والجاذبية! هي جنة باروكية، مدينة سينمائية في الهواء الطلق كان يمكن أن يصور فيها فيلليني روائعه، إذ يكتفي بتصوير الحياة اليومية، ونبض الشوارع والمتجوّلين فيها وهم أكثر ادهاشاً مما في أية مدينة أخرى في العالم.

يوم الجمعة، ومع بداية الأصيل، فإنَّ حركة المرور تكون يسيرة على الطريق الساحلية عند الخروج من المدينة باتجاه طرابلس. المشهد يذكّر قليلاً بميامي بيتش. غابة من اللافتات والملصقات الاعلانية تتشابك فيها الحروف العربية، وملصقات إعلانية

بالانكليزية، وهايكو يابانية، ولافتات أفران فرنسية. هذه ذروة التخصيص للفضاء العام، الذي تزرعه الأطياف السوداء ذاتها التي تغشى شوارع حي الأشرفية الذي غادرناه لتوِّنا، وهي أطياف خدم مواقف سيارات المطاعم، وهم يركنون سيارات الزبائن كيفما اتفق في أصغر قطعة أرض مازالت خالية بأعجوبة. ولا يخطرن في بال من أَلِف الحي من زمان أن يتفوّه بأصغر ملاحظة إذ إنه لو فعل لندم على ذلك ـ إنها رواسب الممارسات الميليشياوية الباقية من زمن آخر ولم تندثر تماماً بعد.

على مسافة نحو خمسة عشر كيلومتراً من بيروت، نصل إلى مصب نهر الكلب. هنا، للجبل الذي يغازل أمواج البحر، صورة شدق كلب بالفعل، وهو يشكل مضيقاً طبيعياً يخشاه الفاتحون و «ناشرو السلام». بعد النفق، تعبر الطريق فوق واد صغير مخضوضر، هو أحد ربوع ذاكرة لبنان، وما من دليل[1] إلا ويتوقف طويلاً عند المغامرات التي شهدها هذا الكلب، ليكوس الأقدمين. كان هذا الموقع مأهولاً منذ ما قبل التاريخ، وكان في الزمن القديم محطة استراتيجية على الطريق الساحلية. وقد حفر الفاتحون على صخره شواهد للاحتفال بانتصاراتهم العابرة. عدد هذه النقوش يربو على العشرين بدءاً بأقدمها ـ هناك شاهدتان لرعمسيس الثاني تمثلان الفرعون مضحياً بأسرى للإلهين آمون وحرماكيس، وأخرى للبابليين، والاغريق، والرومان، والعرب ـ حتى أحدثها عهداً ـ شاهدة جنود أللنبي سنة 1918، وشاهدة رحيل القوات الفرنسية

(1) بيار بنتا، لبنان، منشورات أوليزان، 1994.

سنة 1946 ـ تمثل أولاهما قادومية مؤثرة لاحتلال والأخرى محاولة لنيل استقلال.

في أعالي الزوق ينتصب تمثال يسوع الملك، مشرفاً على أفق من الأبراج العصرية ذات الكثافة المماثلة لكثافة مانهاتن أو ساوباولو، وهو النصب إياه الذي يشرف على ريو دوجانيرو ـ يفتح ذراعيه كأنه، بعد أن استدرك، راح يبارك تجار الهيكل. من فافيلا الأغنياء هذه تبرز نباتات استوائية غريبة تغطي واجهات مبان بكاملها، وحوريات مضنات، عملاقة وسمراء، تشيد بجمال ملابس داخلية، وبمراهم ليلية، أو بأحدث سيارة رباعية الدفع مع خيارات الكترونية. وهناك خليط غير أكيد من جين فوندا وشهرزاد، محظيات الأزمنة الحديثة اللواتي لا يتمتعن برشاقة جداتهن في الحريم العثماني، وينتهي بهن الأمر، لكثرة ما يتوسلن الجراحة التجميلية، إلى التماثل مع السيارات الرباعية الدفع حيث ينتظرهن بلا شك فرسان أحلامهن المتقولبون هم أيضاً وفق البربرية التجارية.

وبمحاذاة واجهات صالونات التجميل، هناك السيارات الرباعية الدفع، الموجودة في كل مكان، والتي تذكّر بأيام الحرب أو أنها تستدعي ذلك. لذلك، فإنَّ أصحاب مرائب جونيه يعرضونها في واجهاتهم كغنائم. من مرفأ جونيه دخلت معظم أسلحة الحروب بين سنتي 1975 و1990 وفي تلك المرحلة حملت المدينة بنفسها اسم «العاصمة مكرر»، أي عاصمة المنطقة المسيحية. كما أنه في جامعتها، جامعة الكسليك التي يديرها رهبان موارنة، صُنعت الايديولوجيا الرسمية للطائفة الأشد رجعية بين الطوائف المسيحية. الى أبعد من ذلك، يطل برج قلعة جبيل الصليبية، مترائياً في

مياه المتوسط المتماهي مع السماء، الذي شيد بواسطة مواد جيء بها من القلعة القديمة، وهو يذكر بأن التاريخ في لبنان، كما في كل مكان، هو في حالة إعادة تركيب دائمة. في لبنان كما في غيره، لكن بكثافة أكبر هنا مما في أيّ مكان آخر.

ابتداء من تحويلة البترون، وبعد حاجز الجيش اللبناني، نتسلق نحو بلدة إهدن، برفقة رتل متواصل من السيارات الفخمة السوداء التي تجري بسرعة زائدة على هذه الطريق الجبلية. هناك مدرعات للجيش متمركزة في مواقع غير اعتيادية: إنه نهار خاص. لذاذة الشاطىء تتلاشى تدريجياً، تغدو ذكرى بعيدة، والعالم يتبدل: إنه الجبل.

الجيش حاضر أيضاً في أسفل إهدن. وهناك مدنيون، مسلحون، ينظمون السير، يرشدون المركبات إلى مواقف مرتجلة. هناك أيضاً، وفود بثياب يوم الأحد تصعد نحو القصر، مقر طوني فرنجية، الابن الشهيد لسليمان فرنجية الذي كان رئيساً للجمهورية اللبنانية من 22 أيلول/سبتمبر 1970 إلى 22 أيلول/ سبتمبر 1976.

الأسرة بكامل أعضائها مصطفة منذ الساعة الخامسة عشرة أمام القصر الصيفي الذي شهد مذبحة 13 حزيران/يونيو 1978، لكي تتقبل التعبير عن مشاعر التعاطف: سليمان الذي نجا من المجزرة وكان في الثالثة عشرة من العمر، ومعه زوجته ريما وابنه الذي سمّاه طوني، والعم روبير فرنجية وشقيقاته بنات المرحوم الرئيس سليمان، سونيا، ولميا، ومايا. إنّ تقديم التعازي، في الشرق، بمناسبة القداديس التذكارية، هو تقليد له الأهمية ذاتها لما يتمّ تقديمه يوم الدفن. وهو غالباً ما يتيح تسوية خلاف ما، أو مباشرة مصالحة ما، أو عقد أو إتمام صفقة. قداس اليوم هو القداس التذكاري الثلاثون في إهدن. والناس الذين يمرون يصافحون أو

يقبّلون أفراد العائلة تبعاً لدرجة القربى، وخصوصاً تبعاً لدرجة الدعم الذي ينبغي لهم أن يظهروه بحسب مكانتهم الاجتماعية والسياسية.

المسيرة كاملة التنظيم، يبدأها النائب السابق ناظم الخوري ممثلاً رئيس الجمهورية اللبنانية الحالي ميشال سليمان، تليه وفود سياسية بينها كتلة الوفاء للمقاومة التي تضم الوزير محمد فنيش والنائبين أمين شري وحسن فضل الله، فوفد حزب الله وعلى رأسه عضو المكتب السياسي غالب أبو زينب ومحمد صالح مسؤول الحزب في مناطق الشمال.

المراسم التقليدية محددة بدقة، وهذا دليل حي على مدى التعقد اللبناني. هذا وفد كتلة التحرير والتنمية الذي يضم النواب علي حسن خليل وغازي زعيتر وعلي بزي، والذي يمثل رئيس مجلس النواب نبيه بري. وهناك أيضاً ممثل لرئيس الجمهورية السابق اميل لحود، ووراءه وفد التيار الوطني الحر يتقدمه رئيسه الجنرال ميشال عون ومعه أعضاء مكتبه جبران باسيل والجنرال فايز كرم وبيار رفول. أما رئيس مجلس الوزراء السابق نجيب ميقاتي، من طرابلس، فقد مثّله شقيقه عبدالله. وكان بصحبة النائب حسين الحسيني، الذي كان رئيس مجلس النواب في زمن الطائف سنة 1989، النائب السابق سليم سعادة المسؤول في الحزب السوري القومي الاجتماعي. وكذلك حضر رئيس الكتلة الشعبية، الوزير إيلي سكاف، والوزير يعقوب الصراف، ونائب رئيس الحزب الديموقراطي اللبناني زياد شويري على رأس وفد من المكتب السياسي ضم الأمير مالك أرسلان والدكتور شرف الدين.

ثم توالى النواب السابقون كريم الراسي، وعبد المجيد الرافعي،

وجهاد الصمد، وجبران طوق، واسطفان الدويهي، وفايز غصن، وأحمد حبوس، وقيصر معوض. وجاء أيضاً رئيس حزب التضامن إميل رحمه على رأس وفد من الشخصيات المسيحية، ورئيسة حزب الوعد جينا حبيقة، وعميد السلك القنصلي جوزف حبيس، والقنصل أنطوان عقيقي.

وفي آخر الموكب وصل ممثلو العائلات الكبيرة المحلية والأنسباء الآتون من مناطق أخرى في البلاد، والهيئات البلدية في إهدن وزغرتا، وكذلك الجمعيات المهنية في الشمال. وكان هناك أصدقاء جاؤوا من الخارج، وفضوليون، وأناس عاديون، متضامنون، يتعاقبون للتعبير للعائلة عن مشاعرهم، فاستمر ذلك حتى الساعة الثامنة عشرة تقريباً، ثم توجّه أفراد العائلة سيراً على الأقدام إلى كنيسة مار أنطونيوس التي تبعد 300 متر عن القصر. الضريح بسيط جداً، من الطراز الماروني الصرف، مبني بالحجر المنحوت، ويضم أضرحة طوني فرنجية وزوجته وابنته. تسري في الحشد، وبشكل دائم ومستمر، تمتمة غامضة عند مرور هذه الشخصية أو تلك، وتصاحبها أحياناً بضع حركات سريعة من المولجين بالنظام. الارتجال الظاهر لا يدع شيئاً للمصادفة. فمن سلسلة التعازي إلى مسير الموكب نحو الكنيسة ينبسط نص حي على الطائفة مجتمعة أن تقرأه وهي تلتفت إلى أفق الانتخابات النيابية التي ستجري يوم 7 حزيران/يونيو 2009. لذا، فإنّ هذا القداس التذكاري، في حقيقته، مشحون تماماً بهذا البعد الانتخابي.

«نحتفل هذه السنة بالذكرى الثلاثين لمجزرة إهدن والتي راح ضحيتها الشهيد طوني بك فرنجية وزوجته فيرا وطفلتهما جيهان ومجموعة من أبناء هذه الرعية من شبان وشيوخ ورجال ونساء،

معظمهم استشهدوا ولم يعرفوا هوية القتلة ولأي سبب يقتلون»؛ قال هذا بوقار الأب اسطفان فرنجية الذي يشارك في القداس مع الأب نادر نادر رئيس ديري مار سركيس وباخوس، والأبوين سمعان سمعان وقيصر إسحق. الكنيسة الصغيرة غاصة بالناس. وفي الخارج، تجمع في قلب البلدة نحو عشرة آلاف شخص بحسب تقدير قوى الأمن الداخلي؛ كانوا هناك متراصين، يصغون في صمت إلى العظة التي كانت تنقلها مكبرات الصوت.

«بعضهم نياماً في منازلهم والبعض الآخر متوجهاً إلى عمله أو إلى حقله والبعض الآخر هبّ لنصرة مدينته إهدن التي علم بأنّها محاصرة فذهب مغدوراً على الطريق...» قال الأب اسطفان متابعاً، ثم سأل: «لماذا لا تزال هذه المجزرة حاضرة في أذهان شعبنا؟»، وصمت بضع ثوان، ثم رفع رأسه متوجهاً إلى الحضور وقال: «نترك الإجابة عليه لكلٍّ من وضعهم الله قيّمين على أمر لَمّ شمل هذا الوطن عموماً والمسيحيين خصوصاً».

ثم عاد إلى عظته فقال: «المهمّ بالنسبة لنا هو كلام المسيح يسوع: «أنا هو القيامة والحياة» الذي يبلسم الجروح الكبيرة ويمنح النعم لنبذ الحقد والكراهية وعيش الحب والمصالحة على الرغم من كل شيء. أتى يسوع إلى بيت عنيا وكان صديقه لعازر قد دفن منذ أربعة أيام، قامت مرتا شقيقة لعازر تلاقيه وتعاتبه «لو كنت هنا لما مات أخي». عتاب مريم ترافق بالثقة بيسوع: «فأنا واثقة تماماً بأنّ الله يعطيك كلّ ما تطلب منه». يسوع كعادته يظهر كصاحب سلطان ويقول لها جازماً «أخوك سيقوم»». وعلق الأب اسطفان على ذلك بقوله: «هذا الكلام الذي قاله يسوع هو الذي يُعطي المعنى لحياتنا البشرية وكلّ ما عدا ذلك نضعه في خانة «اللهو»».

في الكورس، وراء أعضاء أسرة فرنجية، انتشر مسؤولو الحرس

الشخصي من المردة[2] وهم من الميليشيا التي أنشأها الرئيس اللبناني الأسبق سليمان فرنجية سنة 1968 في زغرتا على أثر المواجهات بين الجيش اللبناني والفلسطينيين، وترأسها ابنه طوني ابتداءً من سنة 1969. بعد «حرب السنتين»[3]، عشية مجزرة إهدن، كان الجهاز العسكري للمردة شبه محلول حيث أعيد تشكيله في أعقاب الليلة الفاجعة، ثم عاد إلى السبات بعد توقيع اتفاق الطائف سنة 1989 الذي وضع حدّاً للحرب. لكن في ذلك اليوم فإنَّ ميليشيا المردة كانت موجودة في كل مكان، في الكنيسة وفي الخارج، حيث تؤمن سلامة الاحتفال وتراقب مداخل البلدة.

كانت كلمات الأب اسطفان تدوي في الوادي عبر مكبرات الصوت: «إنّ من نحتفل اليوم بذكرى انتقالهم من هذه الحياة قد تعمّدوا مرّتين، مرّة بالماء والروح ومرّة ثانية بدمائهم الذكية التي لن ترتاح إلّا بخلاص الوطن من منطق «قابين»، منطق «إلغاء الآخر»، منطق «السعي إلى السلطة بأيّ ثمن ومهما كانت النتيجة». على

(2) تحمل الميليشيا الزغرتاوية اسم «المردة»، تيمناً بالمردة الذين لا يزال أصلهم منذ بداية الزمن المسيحي موضع سجال. يقال إنهم يتحدرون من أقدم سكان الجبل اللبناني. ويقال أيضاً إنهم كانوا محاربين أشداء أرسلهم الأباطرة البيزنطيون إلى الجبل في القرن السابع كي يشكلوا «سوراً منيعاً» لصد تقدم الاسلام. إن كاهن زغرتا الأب يوسف يمين، الذي أطلقت عليه الرعية اسم «أبو المردة» هو الذي استنبط، إبان الحرب على المنظمات الفلسطينية (1975 ـ 1976)، اسم وشعار الميليشيا الزغرتاوية، مستنداً إلى محفوظاته وسعة علمه التي تعتبر مرجعاً.

(3) بين سنتي 1975 و1976، نشبت «حرب السنتين» بين الميليشيات المسيحية ومختلف المنظمات الفلسطينية المقيمة في لبنان منذ أواخر الستينيات، مدشنة بذلك الحروب اللبنانية التي استمرت حتى بداية التسعينيات.

الرغم من كل الضباب الذي يلفّ مستقبلنا، يبقى صوت المسيح المدوّي «لا تخافوا، أنا غلبت العالم». فلنكن معه ليكن معنا».

في عمق الكنيسة، ثلاث نساء شابات يلتقطن صوراً بواسطة أجهزتهن الهاتفية الخلوية ويخرجن بانتظام إلى فناء الكنيسة ليعرضن صور القداس على نساء أكبر منهن سناً لم يستطعن دخول الكنيسة. أمّا النّسوة فكنّ بمناديلهن السوداء، يؤشرن على أجوبة الجمهور التي تصاحب وقع العظة: «يا إخوتي وأخواتي الأعزاء، طريق الغفران تقودنا إلى السماء».

يتوجه الأب اسطفان الآن إلى سليمان فرنجية، الابن الذي نجا من المجزرة، الواقف في الصف الأول، ويطلق نداء سياسياً مستوحى من الأسقف الأفريقي الجنوبي ديسموند توتو، الذي ترأس لجنة «الحقيقة والمصالحة» التي كلفت بإلقاء الضوء على الجرائم التي ارتكبت في ظل نظام التمييز العنصري، قائلاً: «أيها الأحباء، إنّ الغفران طريق السماء، وقد أعطيت يا صاحب المعالي مثالاً في الغفران الهادف إلى استعادة وحدة المسيحيين، وتنقية القلوب والعيش بسلام وهذا ما نريده منك على الرغم من كلّ السلبيات التي جوبهت بها والتي دفعتك إلى قبول فتح ملفّ إهدن إعلامياً لتبين الحقيقة للعالم الذي لم يتسنّى له معرفتها للتعتيم الإعلامي الذي كان حاصلاً في ذلك الوقت ونحن نرجو أن يكون عرض

(4) أوتي في، محطة تلفزيون التيار الوطني الحر الذي يرأسه الجنرال ميشال عون، بثت ليلة 13 حزيران/يونيو 2008 برنامجاً استغرق ثلاث ساعات حول المجزرة، مباشرة من قصر إهدن بحضور فعاليات سياسية وعسكرية من تلك الحقبة. تخللت البرنامج ريبورتاجات تاريخية وبيوغرافية وأُنتج بموافقة ومشاركة أسرة فرنجية.

الملف على الإعلام دافعاً للجميع على المصالحة وتنقية الذاكرة والاستفادة من خطأ إهدن لا محاولة تجاهله وكأنّه لم يحصل».

توقفت التمتمات وحل محلها صمت في غاية التنبه. لم يعد الحشد سوى كتلة واحدة تحت شمس إهدن المائلة نحو الغروب، حيث يُستشف مصير مسيحيي لبنان؛ ميزان الطقس هذا الذي ينبىء بمصير مجموع مسيحيي الشرقين الأدنى والأوسط، أولئك الذين يفاخرون بالقول إنهم العرب المسيحيون[5].

ختم الأب اسطفان عظته قائلاً: «نصلّي على نيّة عائلاتهم ليسكب الله بلسم عزائه في قلوبهم ونسال الله أن تطوى أيامنا السوداء بمصالحة حقيقية وبقيام وطن يمنح الحياة لأبنائه لا أن يودعهم شهداء في حروب عبثية لا فائدة منها. ونذكر بصلاتنا أيضاً صاحب المعالي رئيس تيار المردة الوزير سليمان فرنجية لكي يمنحه الله الحكمة والنعمة لكي يكمل المسيرة بما عُرف عنه من فروسية وكِبر وتواضع وتغليب المصالح العامة على المصالح الخاصة. آمين!».

آمين، إهدن! هذه العظة ـ الخطاب في قداس ـ اجتماع حاشد تكشف كل غيرية هذا العالم الذي حيَّر كثيرين من الراصدين الأجانب. فقضية إهدن كانت موضوع افتتاحية صحيفة لوموند بتاريخ

(5) اقترح علينا عالم السياسة ووزير الاقتصاد السابق جورج قرم اعتماد مصطلح «العرب المسيحيين» الأكثر دقة على الصعيد اللغوي كما على صعيد الحقائق التاريخية، بدلاً من عبارة «مسيحيي الشرق»، الفكرة المهيمنة في الأيديولوجيا الاستعمارية والتي تعني أن وجود مسيحيين في الشرق ما كان ممكناً إلا بفضل الغرب، دونما أخذ في الاعتبار لا لتاريخ ولا لتنوع أولئك المسيحيين بالذات. حديث مع المؤلف بتاريخ 19 كانون الثاني/يناير 2009.

15 حزيران/يونيو 1978، كما تصدرت الصفحة الأولى في كثير من الصحف اليومية والاسبوعية الفرنسية والانكليزية، وكان المشتركون فيها وجغرافيتها يثيرون ملاحظات متحمسة ومتناقضة. لقد وصل المبعوثون الخاصون يوم الجناز بالذات حيث أنزلوا بالمظلات على بعد بضعة كيلومترات من شاطىء المتوسط الشرقي، في عالم كانوا يجهلون وجوده ولا يعرفون تاريخه ولا هويته الثقافية والسياسية.

كتب مراسل صحيفة فرانس ـ سوار الحربي غبريال داردو: «لقد فر كل الذين يمكن أن يشعروا بأنهم في خطر. على الشاطىء اللبناني، بين البترون، آخر مدينة كتائبية، وطرابلس، مررنا أمام مصانع لا عمّال فيها، ومخازن مغلقة، وبيوت بلا سكان. إنها صحراء طولها عشرون كيلومتراً تكونت خلال أربع وعشرين ساعة. في وسط البلاد عبّأ الكتائبيون كل جيشهم. الطرق مقطوعة، والمركبات توقف ويتم تفتيشها. اليقظة والاستنفار على مدى الليل والنهار. إنهم يعلمون أن الزغرتاويين سيهاجمون، وفجأة باتت كل مشاكل لبنان طي النسيان. لم يعد أحد يهتم بما إذا كانت قوات الأمم المتحدة ستبقى أو سترحل بعد أن تعيد الاسرائيليين إلى الحدود، وبما إذا كانت كتائب بيار الجميّل تسعى إلى الحرب أو إلى السلام. شيء واحد بقي عالقاً في أذن الجميع هنا هو ولولات نساء زغرتا المتشبثات بالتوابيت».

لقد وصف كريستيان آست في صحيفة لورور سكان إهدن وزغرتا بأنهم «شرسون في الدفاع عن استقلالهم، قساة، نزقون، يطلقون النار بسهولة» ويتجمعون في «كتل عائلية يسود كل زعيم فيها على أعضائها بوصفه بطريركاً بلا منازع» في «هذا الجبل اللبناني

الشمالي، الذي خلده الأرز الألفي الذي يغطي قممه»[6]. أما فيما خص الثأر، فإنه في رأي برنار زاراك «تقليد محلي يبدو الثأر في كورسيكا بالمقارنة معه لعبة فروسية ودية (...) وهو ثأر ينتقل من جيل إلى جيل بواسطة الروابط العائلية التي لا تزال مقدسة»[7].

من جهته تحدث جان ستوكلين في صحيفة لوفيغارو عن المردة، الذين اتخذوا هذا الاسم «لأنهم يجزمون بأنهم أحفاد أوائل سكان الجبل اللبناني». ويضيف إن السلطان المحلي في إهدن ـ زغرتا يتوزع «بين خمس عائلات كبيرة تذكّر أسماؤها بعض الأحيان بمرور الصليبيين، مثل فرنجية (الآتي من فرنسا) أو الدويهي (وأصلهم من دوييه)، وهي تتنازع منذ القدم، عن طريق لعبة دقيقة للتحالفات العائلية، على نيل ولاء سكان الجبال الموارنة في الشمال...»[8].

وفي فضاء إهدن ـ زغرتا المتوسطي ـ الجبلي، لا يكتفي التاريخ والجغرافيا، أياً تكن التفسيرات الاستشراقية، بتغذية الأسطورة وحسب، بل يغذيان هوية غير قابلة للحصر في البعد الطائفي.

فعلى مسافة نحو عشرة كيلومترات من شاطىء المتوسط، إلى الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس الساحلية، بنيت زغرتا على هضبة صغيرة تقع بين جدولي رشعين وجوعيت اللذين يرويان تاجاً من البساتين وسط حقول واسعة من شجر الزيتون تتوسط البحر والجبل في هذه البقعة من شمال لبنان. وفي غياب أي إحصاء للسكان في لبنان منذ أكثر من نصف قرن ـ جرى آخر إحصاء سنة 1932 ـ فإنَّ عدد سكان زغرتا يتراوح بين خمسة وثلاثين إلى

---

(6) لورور، في 15 حزيران/يونيو 1978.

(7) لونوفيل أوبسرفاتور، 19 ـ 25 حزيران/يونيو 1978.

(8) لوفيغارو، في 15 حزيران/يونيو 1978.

أربعين ألفاً، ما يجعلها أكبر تجمع سكاني في القضاء، هذا الذي يحمل اسمها[9]، والذي يضم زهاء خمسين بلدة وقرية ويمتد على مساحة 18123 هكتاراً[10].

زغرتا ـ مدينة السهل وفصل الشتاء ـ تؤلف مع إهدن ـ مدينة الجبل وفصل الصيف ـ وحدة عمرانية وسكنية فريدة في لبنان تذكر بالنظام الزراعي الغابي الرعوي لجبال الألب أو لغرب السودان. «بين آخر شهر حزيران/يونيو وأول تموز/يوليو تجرى الطلعة إلى إهدن: في غضون عشرة أيام يغادر الزغرتاويون مدينة السهل قاصدين بلدة الجبل (...). ويبلغ هذا الانتقال من الضخامة ما يجعل الدوائر العامة التي مقرها زغرتا باعتبارها مركز القضاء تنتقل بدورها إلى إهدن. هكذا تبقى زغرتا طيلة أشهر الصيف الثلاثة خالية من السكان. وبين آخر أيلول/سبتمبر ومطلع تشرين الأول/أكتوبر يقوم السكان بالنزلة إلى زغرتا»[11].

تصل زغرتا بإهدن، الواقعة على ارتفاع 1450 متراً، طريق طولها حوالى ثلاثين كيلومتراً تنطلق سريعاً من سهل كروم الزيتون وتروح تتعرج صعوداً كطرق جبال الألب أو الجوار الفرنسية. «من هنا، وفي كل الاتجاهات، يمتد أفق بلا حدود» كما كتب فولني في آخر القرن الثامن عشر، «من هنا، متى كان الجو صاحياً، يتيه

---

(9) ينقسم لبنان إلى خمس محافظات تنقسم بدورها إلى أقضية ـ يشكل القضاء أيضاً دائرة انتخابية.

(10) مجموعة الاحصائيات اللبنانية ـ العدد الخامس ـ مديرية الاحصاء المركزية، 1965.

(11) أنطوان الدويهي، البنى الاجتماعية ـ السياسية للجبل اللبناني ـ مجتمع زغرتا، أطروحة دكتوراه المرحلة 3 بإدارة البروفسور أندريه آدم، باريس، 1979.

البصر، صوب البيداء التي تلامس الخليج الفارسي وصوب البحر الذي يغسل أقدام أوروبا؛ وتخال النفس أنها تحتضن العالم»[12].

من زغرتا المتوسطية، ننتقل إلى إهدن الواقعة بين أودية عميقة تروي منحدراتها سواقٍ عديدة تظللها غابات الصنوبر والشوح والأرز. وتشرف على إهدن أكمة مار سركيس المقعرة التي تكملها قمة سيدة الحصن، التي تطوق القرية من الشمال إلى الشرق. القمم هنا تظلّ مكسوة بالثلج من ثمانية إلى تسعة أشهر خلال السنة. أما اسم القرية فيحتمل أن يرجع إلى اسم عدن التوراتية. تقول الأسطورة إن السكان الأوائل كانوا يتحدرون من قبيلة سام بن نوح. فحوالى سنة 850 قبل الميلاد، جاء الملك أراميك هاد أزار إلى إهدن ليقيم فيها تمثالاً لإلهه المعروف باسم بعل لبنان، أي إله الثلج. بعد ذلك بأربعماية سنة، قام سلوقس، أحد قادة جيش الاسكندر الكبير بزيارة إلى إهدن التي استقر فيها فريق من المقدونيين حول هيكل ونُصب مكرسين للإلهة الشمس.

بعد خروجها من تاريخها الوثني، باتت إهدن مهد المسيحية في لبنان. إن كنيسة مار ماما التي شيدت سنة 749 على موقع وثني، هي إحدى أقدم كنائس العالم الماروني. غير أن كنيسة سيدة الحصن، التي شيدت في القرن السادس عشر ورممت سنة 1989، والقائمة في الجبل المشرف على البلدة، هي المركز الروحي للمنطقة منذ جعل جبل لبنان، سنة 1861، ولاية تتمتع بحكم إداري ذاتي ضمن السلطنة العثمانية، حتى قيام دولة لبنان الكبير في ظل الانتداب الفرنسي سنة 1920. لقد لعبت مدينة زغرتا ـ إهدن

(12) قسطنطين ـ فرانسوا فولينه، رحلة إلى مصرو سوريا. منشورات موتون وشركائه، باريس ـ لاهاي، 1959.

دوراً من الدرجة الأولى في التاريخ الوطني منذ تحولات المجتمع الجبلي السابق حتى حرب 1975.

في سنة 1860، إبان مذابح المسيحيين في دمشق وفي جنوب الجبل اللبناني، التي استتبعت تدخل جيش نابوليون الثالث، نظم زعيم أهالي زغرتا يوسف بك كرم التصدي للمهاجمين الدروز على رأس رجاله المحاربين الجبليين. وبعد مرور سنة، في أعقاب التسوية الدولية التي أنشأت الحكم الذاتي لجبل لبنان، والتي كانت موضوع مفاوضات بين الدول الأوروبية الخمس والسلطنة العثمانية، انتفضت هذه الزعامة نفسها على النظام الجديد. فقد رفض يوسف كرم تنصيب حاكم غير لبناني ولو كان مسيحياً. ومع أن الانتفاضة انتصرت عسكرياً، فقد فرض على أمير الجبل أن يغادر البلاد منفياً سنة 1865. وبهذا النفي رسخت في الذاكرة المحلية خرافة زعيم رجال الجبل الأحرار المقاومين لفرض مشيئة المدينة والسهول. وبات يوسف كرم صورة الزعيم «الخفي» الذي يشكل رجوعه المنتظر حلاًّ للصعوبات القائمة.

هذه الميثولوجيا تتجسد تكراراً في كل خليفة من سلالة آل كرم على رأس الزعامة الزغرتاوية. ومن خلال هذه الثابتة تتجدد خاصية مسيحيي الشمال، ليس عن طريق البعد الديني فقط، بل البعد الأشد تعقيداً، أي بعد الهوية الجبلية. إن الطموحات السياسية لهذه الهوية لا ترمي فقط إلى المطالبة بحق في الاختلاف على صعيد إقليمي، بل إلى التأثير في المسرح الوطني اللبناني إن لم يكن إلى الهيمنة عليه. لقد برزت الخرافة مجدداً سنة 1944، يوم كان لبنان قد حصل للتو على الاستقلال، حين دخل يوسف فيلكس كرم ـ حفيد يوسف كرم الكبير الذي خلفه على رأس أهالي زغرتا ـ إلى البرلمان. يومها سرت شائعة تقول إن أنصاره ـ وهم قوميون

لبنانيون ولكنهم مناصرون لبقاء الوصاية الفرنسية ـ ينوون القيام بانتفاضة عامة تحت قيادته تتيح له أن يدخل بيروت على متن حصان أبيض[13] على رأس جيشه الجبلي، الذي تحدوه رغبة قديمة في إخضاع العاصمة.

لقد سمحت إعادة تركيب الصراعات والتحالفات العائلية لأسرة فرنجية بأن ترث وتجسد مستقبل أسرة كرم النافذة. في خمسينيات القرن المنصرم، كان حميد فرنجية المرشح الأوفر حظاً لرئاسة جمهورية لبنان. لكن مرضاً خطيراً وضع حداً لمسيرته السياسية سنة 1957، ودفع إلى الواجهة شقيقه سليمان الذي كان دوره حتى حينه ثانوياً ومحصوراً بالمهام اللوجستية العسكرية والمالية للعائلة.

كان سليمان فرنجية محرك المعارضة لرئيس الدولة الموالي للأميركيين كميل شمعون، طيلة مدة ولايته من سنة 1952 إلى سنة 1958. وإنه لفي إطار صعود قوة الوحدة العربية الذي جسده الضابط الحر المصري جمال عبد الناصر واحتمال تجديد ولاية شمعون، انفجرت الحرب الأهلية اللبنانية سنة 1958، التي كانت بمثابة تمرين على حروب 1975 ـ 1990. لقد اتهمت الحكومة اللبنانية سوريا الموالية للاتحاد السوفياتي وخصوصاً مصر الناصرية بأنها وراء تلك الاضطرابات. وفي 14 تموز/يوليو 1958، عجّل انضمام العراق إلى معسكر «الاشتراكية العربية» في احداث رد السلطة التنفيذية اللبنانية والتدخل الغربي: دخل الأسطول السادس الأميركي (40000 رجل) المياه الاقليمية اللبنانية ونزل 15000 من مشاة البحرية في بيروت بناء على طلب صريح من الرئيس شمعون.

---

(13) كان يوسف بك كرم، حسب المتخيل الشعبي، يقاتل الجيش العثماني ممتطياً حصاناً أبيض.

لقد مزقت هذه الأحداث أهالي زغرتا، وأثارت حرباً أهلية محلية بين جبهة المعارضة المؤلفة من تحالف عائلتي فرنجية ومعوض، وجبهة الموالاة المؤيدة للرئيس شمعون والمؤلفة من عائلتي الدويهي وكرم. وهكذا فقد دام هذا الانشطار واستمر طويلاً.

بين مطلع الستينيات وأواخر السبعينيات، خلال ولاية الرئيس فؤاد شهاب (1958 ـ 1964) وولاية الرئيس شارل حلو (1964 ـ 1970) ظلت زعامة آل فرنجية الزغرتاوية تجسد المعارضة المدنية للجهاز العسكري في النظام اللبناني الذي تميزت به الشهابية، «المكتب الثاني في الجيش» الذي احتكر كامل السلطة الفعلية تقريباً. «إن الانتخابات الرئاسية التي جرت سنة 1970 قررت مآل هذا التناقض الكبير بين «السياسيين» و «العسكريين» الذي كان قائماً منذ عشر سنوات» كما يقول انطوان الدويهي[14]. «لأجل مواجهة المكتب الثاني في الجيش، لعبت جبهة السياسيين ورقة الزعيم الزغرتاوي سليمان فرنجية الذي كانت قواعده المحلية توفر له أساساً ذا بنية كافية ومتينة لكي يرفع تحدي الجيش. فانتخب سنة 1970 رئيساً للجمهورية بأكثرية صوت واحد، في جو متوتر للغاية. وكرس انتخابه نهاية الشهابية».

في سنة 1975، كان نشوب الحرب في لبنان متزامناً مع نهاية ولاية سليمان فرنجية. وكانت الميليشيات الزغرتاوية، ومن بينها المردة، تشكل آنذاك العمود الفقري لقوات المعسكر المسيحي شبه العسكرية. على الصعيد السياسي، وبينما كانت أجهزة الدولة تتفكك، انتظمت قيادة المعسكر المسيحي حول «جبهة لبنانية» جمعت بين الأخوة الأعداء بالأمس: الرئيسين سليمان فرنجية

---

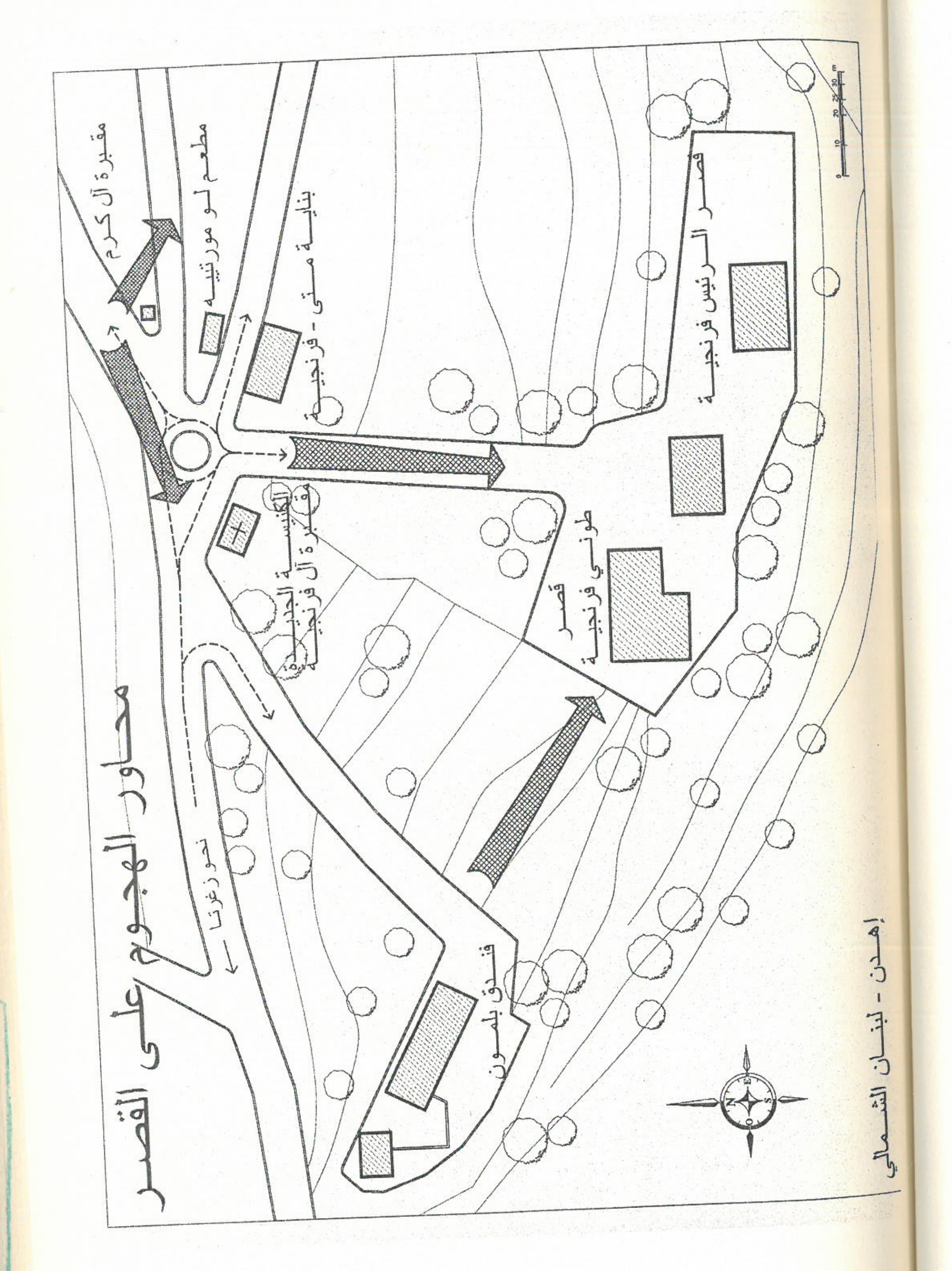
(14) أنطوان الدويهي، المرجع المذكور آنفاً.

وكميل شمعون الذي صار رئيس حزب الوطنيين الأحرار، وبيار الجميل رئيس حزب الكتائب، وشربل قسيس رئيس الرهبنة المارونية اللبنانية.

بعد «حرب السنتين» (1975-1976) في مواجهة الفلسطينيين، انقسمت الجبهة اللبنانية إلى محورين سياسيين ـ عسكريين لهما استراتيجيتان متعارضتان. كان محور شمعون ـ الكتائب وطيد التمركز في وسط لبنان المسيحي وجنوبه، فاختار التحالف مع إسرائيل ضد محور أهل الشمال المعارض بشراسة لأي نوع من التفاهم مع تل أبيب، والمتحالف بشكل راسخ مع جبليين آخرين: أهل المنطقة العلوية التي تتحدر منها عائلة الرئيس السوري حافظ الأسد. إن التقليد الاستقلالي القديم عند العرب المسيحيين لم يقل كلمته الأخيرة، ولم يكشف كل حيله وأسراره.

إن لا اختزالية العرب المسيحيين هذه تكرس ما سمته الأوساط السياسية اللبنانية في أواخر السبعينيات بـ «العقدة المارونية»، وهكذا فإنّ النزاع بين الكتائب وجبليّي زغرتا، قد حال دون تأليف حكومة لبنانية جديدة. من جهته، لم يغير تضافر جهود الكنيسة المارونية والفاتيكان شيئاً من هذه العقدة وبالتالي، فإنها لم تتوصل إلى إرساء قواعد مصالحة مارونية مديدة. وحتى اليوم، وقبيل الانتخابات النيابية التي ستجري في حزيران/يونيو 2009، لا تزال المصالحة بين المسيحيين معلقة، مع أنه من خلال هذه المصالحة يتقرر مآل هذا الاقتراع التاريخي.

إن فاجعة إهدن تمثل الحلقة الأكثر مأساوية، إن لم نقل الأكثر معنى من الناحية السياسية، في العقدة المارونية، التي تتحكم دوماً، ليس بمستقبل مسيحيي لبنان فقط، بل أيضاً وعلى نحو أوسع، بمستقبل العرب المسيحيين في مجمل الشرقين الأدنى والأوسط.



الفصل الثاني

13 حزيران/يونيو 1978، الهجوم على القصر

«لم يعد يجوز للإنسان أن يخاف من البغضاء. لم يعد يجوز للمرء أن يخجل من أن يكون متزمتاً. أنا مدين لهم بالأذى: كادوا أن يهلكوني. البغضاء ستتنامى بفعل الغضب الناجم عن العلم بأن البغضاء بعد من أبعاد الكائن. قال سبينوزا إن البغضاء والتوبة عدوان للجنس البشري: كنت أجهل التوبة على الأقل، لكنني سأتعايش والبغضاء، وسأحسن مساكنة النسيان، فالفروض المؤداة، والمآسي السحرية النابعة من القلوب، ليست بعد الآن سوى رموز ألعاب قاتلة بالنسبة إلى الناس».

بول نيزان، عدن شبه الجزيرة العربية، 1931.

بلدة إهدن، الساعة الثالثة وخمس وأربعون دقيقة، ليل بلا قمر. أما نهايات الربيع فقد بدت عليها ملامح فصل الصيف. إنه موسم الكرز. عطور الوزال، والبابونج، والورد البري، والصعتر، والمردكوش تفوح كبخور في الجبال.

ثلاث نقاط حمراء صغيرة متوهجة في ظلمة الليل. أصوات

اتصال عبر الأجهزة اللاسلكية لا تليق بهذا المشهد الذي كان ليستوحي منه سيزان لوحة النصر المقدّس.

– أطفئوا هذه السجائر، تباً!

نزل الصوت كضربة سوط.

– فوراً، يا ريّس سمير.

– هل كل شيء جاهز؟ ساعاتكم مضبوطة؟

– كل شيء كما يجب، يا ريّس سمير.

سمير جعجع، البالغ من العمر 24 سنة، عُين لتوه قائداً لقوات الكتائب في الشمال.

صعد الريّس سمير إلى سيارة جيب يقودها رجل بلباس عسكري معصوب الرأس بشريطة بيضاء. توقفت السيارة على بعد بضع مئات من الأمتار أسفل مبنى من خمس طبقات تعلوه لافتة نيرة، هو فندق بلمون.

كان المدخنون الثلاثة يتحركون حول سيارة لاند روفر مشرعة الأبواب كجناحي ذبابة، ركنت في عرض الطريق. على جزئها الخلفي، في مواجهة الوادي، أنبوب طويل منصوب بواسطة سيبة. إنه مدفع غير ارتدادي من طراز ب – 10، روسي الصنع، من عيار 82 ميلمتراً، وذو قوة تعادل قوة الهاون 60 والهاون 81. لقد كان هذا الطراز من المدافع جزءاً من كميات الأسلحة الأولى التي سلمها الجيش الاسرائيلي منذ 1976 إلى قيادة الكتائب؛ وهي أسلحة غنمها الاسرائيليون بعد أن تركها المصريون والسوريون وراءهم في حرب حزيران/يونيو 1976[1].

(1) قبل سنة 1975، كانت بلغاريا هي التي تورّد القسم الأكبر من سلاح الميليشيات المسيحية وقد ثابرت على ذلك بعد نشوب الحرب، إلى أن احتج

إنها الساعة الثالثة وخمسون دقيقة. تردّد من جديد صوت الأجهزة اللاسلكية.

إنَّ الأحداث تجري في قلب البلدة، عند أقدام ضريح آل كرم الجليل، وهو مكعب من الحجر المنحوت تعلوه قبة – على مسافة مئتي متر من القصر، المقر الصيفي لطوني فرنجية الذي يناديه الجميع طوني بك.

الساعة الآن تمام الرابعة: دوي انفجار يمزّق الليل وبخور الجبال.

سقطت القذيفة مباشرة على طنف الباب الرئيسي للدار النبيلة. شبت النار في الباب وفي السقف، وتطاير الزجاج وراء الشبابيك الخارجية. امتشق طوني فرنجية سلاحه، الذي هو دائماً في متناول يده وهرعت زوجته فيرا إلى الغرفة الملاصقة، غرفة ابنتهما الصغيرة جيهان.

في الخارج، من مكان قريب جداً، سمع صوت سمير جعجع يصرخ: «طوني فرنجية، نحن الكتائب. أنت مطوق وستخرج ميتاً أو حياً». من الباب الرئيسي المحطم، أطلق طوني النار باتجاه الصوت. جاء الرد عليه برشقات من أسلحة أوتوماتيكية انهمرت على الواجهة طيلة عدة دقائق. تؤكد بعض الافادات بأن سمير جعجع جُرح من قبل طوني فرنجيه منذ هذه التبادلات الأولى لاطلاق النار، الأمر الذي أصاب رفاقه بالجنون.

= الحزب الشيوعي اللبناني على ذلك فتوقفت الامدادات. الأسلحة السوفياتية التي غنمها الاسرائيليون على الجبهات العربية في حرب حزيران/يونيو 1967 بيع قسم منها إلى عصاة بيافرا، ثم نقلت إلى المرافىء الحرة اللبنانية بدءاً من خريف 1976.

راح طوني فرنجيه، وهو حافي القدمين وفي ملابسه الداخلية، يتنقل بين شظايا الزجاج، ثم تمركز قرب الباب المحطم، متأهباً لإطلاق النار. نادى المربية فدوى وصاح بها أن تنذر زغرتا بالأمر لكنها بقيت قابعة مكانها، خائرة القوى، في غرفة الغسيل، قرب الغسالة، وقد شلها الخوف. تسلّل السائق جوزف إلى المطبخ وأخذ سماعة الهاتف. اتصل بمركز هاتف إهدن، لكن الخط قُطع قبل أن يتمكن من شرح الوضع. سمع عامل الهاتف دوي انفجار قذيفة ب – 10، وهو الآن يسمع الرشقات ويدرك أن القصر يتعرض لهجوم. لقد أصيب بالجنون، ولم يعد يميز بين أسلاكه، وحاول إجراء عدة اتصالات بزغرتا. أخيراً أفلح في الاتصال بالأب يمين، كاهن زغرتا، الذي أطلق الانذار وأيقظ أبناء رعيته النائمين.

عند الرابعة وعشر دقائق، لا يزال طوني فرنجية يتبادل إطلاق النار مع مهاجميه. البلدة شبه خالية قبيل الانتقال الصيفي، ولا يقطنها بصورة دائمة سوى بضع عائلات من المزارعين والحرفيين. لقد لجأ إلى إهدن عدد من الطلبة الذين أتوا للدرس استعداداً لامتحانات آخر السنة. وهكذا أيقظت طلقة المدفع معظم من كانوا في البلدة، فهرعوا صوب قصر آل فرنجية.

يقول أحد أوائل الواصلين إلى المكان، فؤاد عنتر، إنه في منتصف حزيران/يونيو يبتدىء الحر في زغرتا، حيث يملك مطعماً. لقد أمضى السهرة في إهدن، مع أصحاب له، يتابع مباراة كأس العالم بكرة القدم على التلفزيون عند زميله صاحب مطعم «لو مورتييه» الذي يبعد أربعمائة متر عن القصر.

«غادرنا قبيل الساعة الثانية بقليل وعدت إلى منزلي الصيفي في وسط البلدة. وقبل أن أغفو – حوالى الثالثة والنصف – سمعت

طلقات نارية بعيدة فقلت في نفسي: لا شك في أنهم أهل بشري[2] مجدداً، فهم يحاولون التحرش بالقرى المجاورة، كعادتهم. بعد ذلك بنصف ساعة تقريباً، سمعت دوي انفجار قوي جعلني أسقط عن السرير. ومن خلال النافذة المفتوحة صاح بي جاري أنطوان فرنجية قائلاً بأنه متّجه إلى القصر ليرى ما يجري هناك طالباً مني أن ألحق به. فلحقنا به، أصدقائي الثلاثة وأنا».

توقفوا عند مطعم «لو مورتيبه» حيث كان صاحبه وسط تجمع صغير. لقد كان فؤاد عنتر المسلح الوحيد بينهم، فهو لا ينفصل أبداً عن مسدسه من طراز كولت ـ 38، وهو مسدس عتيق من عيار تسعة ميلمترات، لكنه سلاح ممتاز كما يقول. هرع نحو الشارع الرئيسي باتجاه القصر حيث كان يتصاعد لهيب شديد في السماء المظلمة. وعندما وصل إلى مسافة نحو خمسين متراً من المستديرة التي تقود إلى القصر، أدرك أنه الوحيد في الطريق. فأنطوان بولس فرنجيه (26 سنة) الذي سبقه إلى هناك أرداه سلاح حربي. وعند المستديرة، كانت هناك سيارة رينو 12 مقلوبة على الطريق تلتهمها النيران. أما سائقها، المحامي أنطوان عيروت، الذي أصيب بجرح في كتفه، فقد تمكن من مغادرتها والاختباء وراء جدار صغير. لكن الحظّ لم يحالف صاحبه خليل كرم (20 سنة) الذي لم يتمكن من النجاة فسقط برصاصة أصابته في الرأس. وبعيداً عن المكان قليلاً

(2) توجد منذ القدم بين زغرتا وبشري اللتين تتلاصق أراضيهما منافسة حول الزعامة على شمال لبنان. بشري هي بلدة الشاعر جبران خليل جبران، صاحب كتاب «النبي». وهي أيضاً مسقط رأس جعجع الذي صار سنة 1986 قائد القوات اللبنانية والعدو الألد للجنرال ميشال عون، رئيس التيار الوطني الحر وحليف حزب الله.

نحو الأسفل، كانت هناك سيارة رمادية اللون من طراز مرسيدس منقلبة إلى جانب الطريق وخالية حيث استطاع سائقها جورج مصري أن يتوارى.

يروي فؤاد عنتر قائلاً: «شعرت فجأة بألم في ساقي اليسرى. فلقد اخترقت رصاصة فخذي. تمكنت من بلوغ الجانب الأيسر للشارع، وتدحرجت إلى وهدة تبعد نحو خمسة عشر متراً تحت الطريق. كمنت هناك بضع دقائق دون حراك قبل أن أسمع الأصحاب آتين لمساعدتي. حاول نبيل غالب فرنجيه (27 سنة) أن يلقي الي بحبل، لكنه، قبل أن ينتهي من ذلك أردته رصاصة أصابته في صدره. لقد ظلت الرشقات مستمرة بصورة متقطعة، لكنني نجحت في تسلق المنحدر زحفاً على البطن حتى بلغت الطريق، فأمسك بي من وسطي سركيس اسكندر ـ ابن كوكب، الوجه المعروف في زغرتا ـ وسحبني باتجاه الرصيف، قبالة مطعم «لو مورتيبه». ومن المكان الذي احتمينا به، فهمنا أخيراً لماذا كان الرماة يطلقون النار بغزارة باتّجاهنا. فقد كان هؤلاء يكمنون على مسافة نحو ثلاثين متراً فوق المطعم، محتمين بضريح آل كرم».

وفيما كان سركيس اسكندر (24 سنة) يحاول الإطباق على المهاجمين من الخلف ومعه أربعة من الأهالي، حصدته رشقة من رشاش كلاشنيكوف. أما أنطوان يوسف فنيانوس (22 سنة)، الملقب بالوحيد لكونه الصبي الوحيد بين ست بنات، الذي كان يجتاز الطريق راكضاً للقيام بعملية الالتفاف إياها، فقد سقط بدوره جرّاء طلقات الرصاص. وبينما كان هجوم الأهالي المضاد في أوجه، كان رشاش ثقيل، نصب في مكان أعلى، عند مخرج البلدة الشمالي الشرقي لجهة بشري، على ما يبدو، يمشط المحاور الرئيسية التي تقود إلى القصر.

ويروي مقاتل آخر، ضابط في تنظيم المردة ـ طوني وجيه فرنجية ـ سبق له أن اشترك قبل أسبوع في أحداث منطقة شكا الساحلية(3)، أنه بعد الطلقات الأولى هرول ومعه شقيقه حنا إلى القصر. وعند وصولهما إلى جوار مطعم «لو مورتيبه»، قاما بتنظيم الهجوم المضاد مع الأهالي المتواجدين في المكان. لقد قرر حنا\ وأبناء أسرة \اسكندر وبينهم سركيس ابن كوكب، أن يلتفوا حول ضريح آل كرم، بينما قام هو ونبيل، الذي قتل لاحقاً وهو يحاول مساعدة فؤاد عنتر، بالهجوم على الجناح الشرقي للقصر. اقترب الضابط من المقر الصيفي للرئيس فرنجيه، على مسافة نحو مئة متر من القصر، حيث كانت توجد مجموعة من الكتائبيين، «ذوي الرؤوس المعصوبة بشريطة بيضاء». أطلق النار عدة مرات، وقتل أحد الكتائبيين وجرح اثنين آخرين. ولما نفذت ذخيرته، اضطر للاختباء والانتظار. لقد شاهد من مكمنه إعادة انتشار للمهاجمين، حيث سمعهم يتخاطبون بواسطة أجهزتهم اللاسلكية قائلين: «بدأنا نتعرض للتطويق. الأجدر بنا أن ننسحب!».

«فيما كان يُشد رباطٌ على فخذي»، يتذكر فؤاد عنتر، «وجدت علبة سجائري التي أضعتها، هنا على الرصيف، فسررت لأنني سأتمكّن من تدخين واحدة منها. في تلك اللحظة وصل أبو جو ـ يوسف فرنجيه، الكادر في ميليشيا المردة ـ الذي بات يلقب بـ «القناص» بعد تلك الليلة».

أعلم فؤاد عنتر أبا جو بالمواقع الثلاثة التي يتربّص فيها المهاجمون: ضريح آل كرم، ومحور المستديرة، وأعلى البلدة

(3) انظر الفصل 12: غطاء معامل الترابة في شكا والاقتصاد الجناحي.

باتجاه بشري، ونصحه بأن يكمن في المبنى المواجه لمطعم «لو مورتيبه».

يحكي أبو جو قائلاً: «حوالى الساعة الرابعة، سمعت دوي انفجار عنيف تبعه إطلاق رصاص. ارتديت ثيابي بسرعة وهرعت بالسيارة نحو القصر حاملاً مسدسي الكولت 45. عند وصولي إلى محطة البنزين، أُطلقت عليّ النار. وخطر ببالي فوراً أنهم الكتائب. فعدت إلى البيت لأجلب بندقية الـ م-16 التي تخص صهري. ولدى عودتي إلى المحطة، ركنت السيارة وتوجهت سيراً على القدمين نحو مقر آل فرنجيه الصيفي. كان عم صديقي سليم فرنجيه مسلحاً أيضاً ويتجه مثلي نحو القصر. كذلك كان أحد الأهالي فؤاد عنتر، المحتمي أمام المطعم، والذي جرح في ساقه، جالساً على الرصيف، يدخن سيجارة، مسدسه إلى جانبه، ويصدر تعليمات. لقد أرشدني على مصادر النار. فدخلت مبنى متى ـ فرنجيه المواجه للمطعم».

«بعد أن طلبت من منصور غالب، أحد رجالنا الجاهزين والمسلحين، بمنع أي كان من صعود الدرج، تسلقته مسرعاً حتى الطبقة الأخيرة وحاولت الخروج إلى السطح بواسطة سلّم معدني صغير، لكن باب السطح كان مقفلاً.

وفيما كنت أعود أدراجي طرقت باب عدد من الشقق التي كانت غير مأهولة. في الطبقة الثانية، فتح أحدهم الباب. كان الرجل مرعوباً ورفض السماح لي بالدخول لكنه أعطاني طلقات. فصعدت إلى الطبقة الثالثة، وفتحت النوافذ الثلاث المطلة على القصر كي لا يتم تحديد موقعي بالضبط. وضعت ركبتي على كتلة من الاسمنت كانت هناك، وركزت بندقيتي على حافة النافذة اليسرى، البعيدة عن المركز، مؤمناً أفضل زاوية للتسديد.

أمام مدخل القصر، وعلى ضوء اللهيب الذي شب في السطح، رأيت بوضوح ثلاثة رجال بلباس عسكري. حسبت أنهم من الجيش اللبناني، لكن عندما أطلق الرجال النار باتجاه الدار تأكدت أنهم من الكتائب أيضاً. صوّبت بندقيتي باتجاه أحد الرجال الذي كان معصوب الرأس بشريطة بيضاء فهوى على الأرض. عرفت فيما بعد أنه طوني زين، أحد كتائبيي بلدة بشري. لقد كانت هذه أول مرة في حياتي أقتل فيها إنساناً. يومها خامرني شعور غريب! فاستجمعت قواي وأطلقت النار على طيف آخر، في محور فندق بلمون، ولم أعرف آنذاك أنني أصبت سمير جعجع بجرح بليغ».

وبالاستناد إلى شهادات أخرى، كما رأينا، فإنَّ طوني بك بالذات هو الذي جرح سمير جعجع. لكن قبل أن نتابع شريط الأحداث انطلاقاً من جرح الريس سمير، لنستمع إلى رواية صاحب مطعم «لو مورتييه» طنوس القارح.

«أغلقت أبواب المطعم عند الساعة الثانية وخمس دقائق. وما عدا زيارة خمسة أصدقاء، لم يرتد المطعم في تلك الليلة سوى ثلاثة زبائن، من بلدة القاع الواقعة في البقاع. لقد تابع هؤلاء مباراة كرة القدم على التلفزيون ثم غادروا في سيارة فولكسفاغن زرقاء اللون باتجاه فندق بلمون حيث قالوا إنهم سيبيتون. سجلت رقم لوحة السيارة بصورة عفوية. ففي شهر أيار/مايو انفجرت سيارة ملغومة في زغرتا، وأوصى طوني بك أهل المنطقة بأن يكونوا يقظين جداً. خلدتُ إلى النوم حوالى الساعة الثانية والنصف، واستيقظت مذعوراً على دوي الانفجار.

رأيت من خلال النافذة الخلفية مدفعاً منصوباً على سيارة جيب قرب ضريح آل كرم، فوق المستديرة. حوالى الرابعة والربع، ارتديت ثيابي وخرجت مسرعاً فرأيت ألسنة اللهيب ترتفع من

القصر. صادفت الوحيد، ورشاشه الكلاشنكوف في يده، وساقه تنزف كثيراً. ثم سقط على الأرض أمام عيني ولفظ أنفاسه من دون أن أتمكن من تحريك ساكن. لقد كان صديقي فؤاد عنتر، الذي فارقته قبل ساعتين، يدخن سيجارة. لقد كان جريحاً؛ ويبدو أن الكتائب يطلقون النار على كل الأشخاص الذين كانوا يركضون. فانتشرت على الفور كلمة السرّ: سيروا، سيروا بصورة طبيعية تحاشياً لأن تصيروا هدفاً. في تلك اللحظة كان عدة عشرات من المسلحين يتوجهون إلى القصر. عرفت من بينهم صديقاً آخر، هو ابن كوكب اسكندر.

عند هذه المرحلة، تتطابق الشهادات كلّها.

صاحب المرآب بطرس فنيانوس، الذي يستثمر المحطة الواقعة في أسفل البلدة، استيقظ هو أيضاً على دوي الانفجار، وهرع إلى سيارته المرسيدس 220 الزرقاء اللون التي يحافظ عليها محافظته على بؤبؤ عينيه، وهرول مسرعاً بصحبة جار له وصديق من بعلبك نحو القصر الذي كانت ترتفع منه ألسنة النار. لكن قبل وصولهم إلى فندق بلمون أوقفهم حاجز نصبه بعض العسكريين. فر البعلبكي باحثاً عن ملجأ في دارة مجاورة فيما بقي بطرس وجاره مع الجنود الذين حسبناهم في البداية فلسطينيين لأنهم «كانوا يشتمون مريم العذراء بلا توقف».

راحت سيارات جيب عسكرية وأخرى مدنية مصادرة تتدفق نحو فندق بلمون في الوقت الذي كان يجري فيه إنزال جرحى ممدّدين في مؤخرة بيك ـ آب/أغسطس. عرف بطرس أنهم من الكتائب حين قال أحدهم مشيراً إلى الرجلين: «هذان ليسا من جماعة آل فرنجية».

«كانت هناك مجموعة غلب عليها هيجان عارم تقوم بنقل جريح

بلباس عسكري ينزف كثيراً. عرفت الجريح الذي كان سمير جعجع لأنه سبق لي أن صادفته عدة مرات في بلدته بشري: طلب الجنود مركبة تأخرت في المجيء، فوضعوا الجريح في سيارتي الجديدة وقالوا لي إنهم سيعوضون عليّ. رحت أفكر بمقاعد سيارتي! تباً لهم! الأنذال، الكذابون! لم أحصل على أي تعويض ولم أشاهد سيارتي المرسيدس بعد ذلك اليوم».

سلكت السيارة الزرقاء الجميلة الطريق الرئيسية التي تنحدر صوب البحر لتنقل الريس سمير إلى مستشفى آمن، خارج منطقة القتال، بعيداً عن الشمال.

في تلك الأثناء، كانت البلبلة والهستيريا تسودان محيط القصر. أما الضابط المعاون إدمون صهيون من كفرعبيدا، القرية الواقعة على ساحل البترون، فقد أوكلت إليه مهام القيادة ومتابعة العمليات. وبعد إخلاء سمير جعجع، باتت الشهادات أقل دقة. هل القائد الجديد يسيطر على رجال سمير جعجع الذين هم جميعاً تقريباً من أبناء بشري؟ هذا سؤال جوهري. وستأتي فيما بعد أسئلة أخرى.

ازداد رجال سمير جعجع شراسة بعد جرح قائدهم، فكثّفوا من إطلاق النار، وانفصلت مجموعة صغيرة عن الرجال الثلاثين الذين طوقوا الدار واتجهت نحو فندق بلمون بغية الانتقال إلى ما وراء واجهة القصر ومهاجمة طوني من الخلف. لكن هذا الأخير استبق المناورة فقفز إلى المطبخ الذي يستطيع من داخله أن يطلق النار في الاتجاهين: صوب الباب الرئيسي وصوب نافذة المطبخ كي يحمي ظهره. وهكذا، حين أكملت المجموعة التفافها استقبلت بثلاث طلقات من بندقيته. فجرح أحد عناصرها في كتفه، وألقى عنصر آخر قنبلة يدويّة إلى داخل المطبخ. حاول طوني الارتداد كي يحمي

نفسه، لكن القنبلة انفجرت قبل أن ينهي حركته وانتشرت شظاياها في كل اتجاه. أصيب طوني بك إصابة بليغة في الظهر، وسقط منبطحاً على بطنه فاقداً الوعي. كذلك أصيبت بجرح مميت المربية فدوى بركات (55 سنة) التي كانت قد لحقت به.

بعد توقف إطلاق النار خيّم على الدار صمت ثقيل. وبعد انفجار الرمانة اليدوية دخل المطبخ ثلاثة من المهاجمين. أجهزوا على السائق جوزف منصور (23 سنة) برصاصة في مؤخرة رأسه، بعد أن كانت الشظايا قد جرحته هو أيضاً. سحبوا طوني من قدميه إلى وسط الصالون، وأجهزوا عليه، ونادوا الرجال الذين كانوا لايزالون كامنين في الخارج. دخل الكتائبيون القصر بينما كانت فيرا، زوجة طوني، تدخل الصالون حاملة ابنتها جيهان بين ذراعيها.

عندما وقع بصرها على جسد زوجها، أطلقت صرخة دهشةٍ وألم، وارتمت عليه، وأخذت رأسه بين يديها، كما لو أنها شاءت أن تتثبت من حقيقة الموت. صرخت ملتاعة وتركت الصغيرة التي كانت تبكي إلى جانبها. باتت الاثنتان الآن محاطتين بغابة من الأقدام والأسلحة الأوتوماتيكية المصوبة نحو الأرض. في تلك اللحظات كانت سحابة خفيفة لا تزال عالقة في سقف الصالون تلسع العيون، بينما ارتفعت جلبة غامضة متنافرة، ربما نتجت عن أوامر متناقضة، فحجبت صراخ وعويل الأم وطفلتها.

بدءاً من تلك اللحظة تضاربت الروايات، حيث يقال إن نائب القائد، إدمون صهيون، كان آخر من وصل إلى المكان؛ وإنه فقد سيطرته على الرجال، وأن هؤلاء كانوا لا يكفون عن تبادل الشتائم وحتى التهديدات. كانت الأوامر والأوامر المضادة تتعاقب في جو من البلبلة الشاملة. ويقال إنَّ إدمون صهيون تشاجر بصورة فجة مع

حنا شليطا أحد مقاتلي كفرعبيدا الذي كان يريد «إكمال العمل» بأي ثمن. فجأة ارتفعت ماسورة أحد الرشاشات.

وبرشقة من رشاش توقّف الصراخ وتحجّرت الدموع. خمس عشرة ثانية من الرنين الذي يصم الآذان. بعد اللازمة المعدنية للأغماد المتساقطة على الأرض، ساد الصالون سكون أشبه بسقوط شفرة مقصلة. كانت جثّتا فيرا وجيهان المصبوغتان بالدم جاثمتين على جـثة طوني بك، الزوج، والأب، والنجم الصاعد عند أهل الشمال. قضي الأمر، وباتت القاعة خاوية. راح المهاجمون يفرون على عجل عن طريق مركزهم المتقدم عند فندق بلمون تاركين خلفهم جثث عدة كتائبيين ملقاة على الأرض ومن بينها جثة سمير شليطا، ابن قرية كفرعبيدا. تمركز مسلحون آخرون من الأهالي حول القصر وراحوا يردون على إطلاق النار. لكن على الرغم من الخسائر، فقد كان ضغط الأهالي يزداد خطورة وتهديداً.

فوزي أبو ضاهر، وهو صاحب مطعم آخر في زغرتا وشقيق مرافق الرئيس سليمان فرنجيه، هو أحد أهم الشهود على عملية مهاجمة القصر لأنه صادف في الطريق تلك الليلة جميع المتقاتلين تقريباً. فقد هرع، أسوة بسائر الأهالي، إلى القصر في أعقاب دوي قذيفة المدفع، ويذكر تماماً أنه صادف ابن كوكب ماضياً إلى مهاجمة ضريح آل كرم؛ والوحيد المنتعل حذاءه الجديد «الذي كان يزعجه في المشي»؛ وصاحب الحبل الذي كان يحاول أن ينجد فؤاد عنتر، وهذا الأخير الذي كان قد أعطاه رشاشاً من طراز ستين مع مشط واحد «سرعان ما نفذ». هو أيضاً شجع أبا جو على التموضع في المبنى المقابل لمطعم «لو مورتيبيه» قبل أن يواصل سيره نحو القصر، الذي وصل اليه عند انتهاء المعركة. إن روايته هذه تتقاطع نقطة فنقطة مع ذكريات كل واحد من هؤلاء الأبطال.

«فجأة توقف إطلاق النار» يقول فؤاد عنتر. «كنت لا أزال قاعداً أمام «لو مورتيبيه» أدخن السجائر، فتعرفت على جبور رهبان من زغرتا. ناديته، فوافاني بسرعة ونقلني بسيارته إلى المستشفى».

أضاف فوزي أبو ضاهر: «شاهدت تحت فندق بلمون مقاتلين معصوبي الرأس بشريطة بيضاء يفرون مذعورين بسيارة لاند روفر. وعثرت على صاحب المرآب بطرس فنيانوس فنزلنا معاً نحو القصر. كنا بالتأكيد أول الداخلين إلى الدار بعد المجزرة».

أما بطرس فنيانوس فإنه قال: «كنا نتهيَّب الدخول. لقد ارتفع في المكان دخان ورائحة تلسع الحلق. تعرفت سريعاً على فيرا، التي كانت مفتوحة العينين، مصابة في رأسها. أما الطفلة جيهان فكانت تبدو نائمة كلعبة صغيرة. أما جثة طوني، فكانت تحمل عدة جراح في الظهر وكسوراً في القفص الصدري. لقد بدا جليّاً أنه مات وهو يقاتل. وقبل أن نستعيد روعنا، سمعنا نأمة خلفنا بعثت فينا أشد رعب عرفناه في حياتنا. ولحسن الطالع، كان هذا أبو جو الذي جاء يعدو وراءنا».

من جهته يقول أبو جو: «أخذ فنيانوس وأبو ضاهر يبكيان. لم أكن أحسن حالاً منهما. لم أستطع الاقتراب من الطفلة، لم أقدر... قمت بجولة في البيت فعثرت على جثة المربية وجثة السائق... وجثة الكلبة أيضاً. قتلوا حتى كلبة البيت مع صغارها. بعد ذلك، وصل أشخاص آخرون ووضَعتُ أغطية على الجثث ثم خرجت لتأمين محيط القصر».

أسئلة كثيرة لا تزال معلقة. فإذا كان البعض على يقين من أن طوني بك هو الذي جرح سمير جعجع في بداية الهجوم، يؤكد البعض الآخر أن من أصابه هو أبو جو؛ وقد حصل ذلك، تبعاً للوقائع التي سردنا، بعد مقتل طوني فرنجية وعائلته بأكثر من

ساعة. وبذلك يكون القناص قد أربك بشكل خطير مجمل العملية وحال كما يبدو، بمساعدة من سائر الأهالي، دون احتلال إهدن عسكرياً من جانب الكتائب.

وتؤكد عدة شهادات لاحقة أن طوني بك وزوجته طعنا بالسكاكين، وحتى أجهز عليهما بالسلاح الأبيض. وإذا كان ممكناً أن يكون طوني فرنجيه قد قتل بطعنات حربة، فمن غير الممكن أن تكون فيرا قد قتلت بالطريقة إياها، نظراً إلى جراحها.

لكن هناك تساؤلات أكثر جوهرية تتعلق بمسؤولية سمير جعجع عن المجزرة التي حصلت داخل القصر وبدور قادة آخرين للكتائب تواجدوا في إهدن. أين كان بشير الجميل، المسؤول العسكري الأعلى في الكتائب، لحظة حصول الهجوم؟ وهل كان والده الشيخ بيار على علم بالعملية؟ هذه كلها نقاط يجب الرجوع إليها عند النظر في الإعداد العسكري لتلك الليلة الشهيرة.

انتهى الهجوم على القصر، وانسحب الكتائبيون في حالة ارتباك تام، واستمرت مجابهات أخرى تدور في الوادي.

مات طوني بك وزوجته وابنته، والمربية وسائق العائلة. وقتل خمسة من الأهالي قرب المستديرة وضريح آل كرم ومطعم «لو مورتيبيه». وأحصي في صفوف الكتائب سبعة قتلى، فيما تركت ثلاث جثث في مكانها. تزعم الأخبار المحلية أن الغضب الشعبي العارم جرّها في الشوارع قبل أن يحرقها. «كي لا يبقى منها شيء».

وفي تلك اللحظات، بدأت للتوّ معركة إهدن.

الفصل الثالث

جبهة الشرق

«ما لا تشتهيه أي نفس بشرية، لا تكون هناك حاجة لمنعه، لأنه ينفي نفسه بنفسه. إن التشديد، بالضبط، على الوصية: «لا تقتل»، هو الذي يعطينا اليقين من أننا نتحدر من سلالة لا نهاية لها من القتلة الذين كانت متعة القتل في دمهم، ربما كما في دمنا اليوم أيضاً»

سيغموند فرويد،
في «حاليات حول الحرب والموت» (1915).

طلقات الرشاشات الآتية من أعلى البلدة كانت تصدر عن غير المجموعة التي هاجمت قصر فرنجيه والتي كانت قد وصلت من طريق الجبال، أي من البترون، نحو صورات، وقنات، وطورزا، وسرعل فإهدن، متحاشية الطرق الساحلية التي تمر بشكا، المنطقة التي تسيطر عليها المردة والجيش السوري.

انطلقت مجموعة الأعالي من بشري، واجتازت قرى حدشيت وبلوزة وحوقا ثم سلكت الطرق الجبلية واندفعت عبر جلول البساتين نحو مدخل البلدة الشمالي والشمالي الشرقي. وانطلاقاً من

هذين المحورين الرئيسيين للاختراق، انقسمت القوات الكتائبية إلى عشر وحدات تضم كلّ منها نحو ثلاثين مقاتلاً. وبالتزامن مع مهاجمة القصر، انتشر هجوم خلفي للتغطية انطلاقاً من الجبال. أطلق الأهالي على هذا الهجوم اسم «جبهة الشرق» حيث نشبت هناك معركة حقيقية دامت حوالى ثلاث ساعات، حتى طلوع النهار.

ريمون مكاري، الذي هو صاحب محطة بنزين في زغرتا اليوم، كان آنذاك طالباً في العشرين من العمر. وكان بحسب العادة قد غادر زغرتا منذ بداية موجة الحر الرطبة لينعم ببرودة إهدن، وكي يستعد لامتحانات آخر السنة في الرياضيات. ففي إهدن، هذه البلدة الصيفية، يصنع الزغرتاويون دائماً أهم الأشياء. إلى هنا يدعو الشاب خطيبته لأول مرة، وهنا تلتئم المجالس العائلية لتدبير أمور الزواج والإرث، أو لتقرير مستقبل الأولاد المهني. إهدن، الخليط من جزيرة روبانسون كروزويه ومن الفردوس، هي بمثابة معبد وخرافة، خارج تداعيات التاريخ: «إهدن، المعتصمة وراء أسوارها الجبلية التي تمنحها ابتعاداً ما في الفضاء، هي في نظر الزغرتاويين الملجأ الأخير الذي لا يطاله أي خطر. حتى الطائر لا يستطيع دخول إهدن، كما يقال عادة في زغرتا. آخر مرة لجأ فيها الزغرتاويون إلى إهدن في فصل الشتاء كانت في أثناء حرب لبنان الأخيرة؛ آنذاك بقي المقاتلون وحدهم في زغرتا، على مرمى مدفعية القوات الاسلامية والوطنية والفلسطينية، وانسحب مجمل السكان إلى إهدن»[1].

بين فترتين للتحضير والمراجعة، كان ريمون مكاري يساعد والده

(1) أنطوان الدويهي، المرجع المذكور آنفاً.

طنوس في إنجاز آخر أشغال المبنى العائلي، وهو مبنى كبير يتألف من خمس طبقات جزء منه معد للايجار. طنوس الذي يلقبه الأهالي بالنايلون نظراً للدانته ونحافته ومتانته كخيط النايلون، هو قناص مشهور، ومن أفضل رماة البندقية في البلدة، وقد نقل هواه هذا إلى ابنه. إنه يحتفظ في بيته، منذ حرب السنتين (1975 ـ 1976)، أسوة بمعظم الأهالي، ببعض الأسلحة تحسباً لإمكانية «عودة الأيام السيئة...»، الأيام السيئة التي أعادت نوعاً ما وحدة البلدة. «إن عائلات زغرتا، التي دخلت مرحلة من الوئام النسبي في ظل ولاية الرئيس فرنجيه، لم تستعد وحدتها العملية إلا مع اندلاع حرب لبنان سنة 1975، التي شكلت في خلالها جبهة موحدة في مواجهة المعسكر الاسلامي ـ الفلسطيني» كما يقول انطوان الدويهي. «كان التحدّي على جانب من الكبر بحيث لا يدع مجالاً للتباينات السياسية والعائلية. وظهر هذا الموقف الوحدوي إياه سنة 1978، مع بعض الفوارق، حين انفجر الصراع بين عائلات زغرتا وحزب الكتائب»[2].

إن الزغرتاويين، الشديدي التأثر بمجابهات 1975 ـ 1976، دائمو الحذر، سلاحهم إلى جانبهم ومتأهبون للتعبئة مجدداً عند أول إشارة. «لكننا في تلك الليلة لم نسمع ما كان يدور في الجانب الآخر من البلدة. لم نعرف شيئاً» يقول ريمون مكاري. «استيقظنا حوالى الساعة الثالثة والنصف فقط على دوي انفجار قنبلة يدوية ألقيت على بيت مجاور تقيم فيه مجموعة من الطلاب الذين يراجعون دروسهم استعداداً للامتحان مثلي. لاحظ والدي تقدم جنود أمام مبنانا، كانوا يسيرون بحذر كأنهم يتوقعون هجوماً

(2) أنطوان الدويهي، المرجع المذكور آنفاً.

مضاداً. وكان يبدو أن عملية واسعة النطاق تجري. كان الجنود آتين من جهة الجبل، إذن من بشري، واعتقدنا أن أهل البلدة المجاورة عادوا شأنهم من قبل!».

إنَّ تاريخ العلاقات بين بشري وزغرتا ـ إهدن هو في أحد أشكاله تاريخ إسبارطة وأثينا: تاريخ خصومة مغرقة في القدم تعود إلى الظهور بصورة منتظمة دون أن يعرف أحد السبب جيداً. كانت هناك مشاكل منذ القدم: حول الأراضي، والري، واختطاف نساء، مشاكل تغذي عمليات أخذ بالثأر محلية متكررة وفتاكة إلى حد ما. لقد كتب الحاكم التركي السابق في مذكراته سنة 1916 ما يلي: «سكان المدينتين ينتسبون إلى عرق واحد وديانة واحدة، هم موارنة وكاثوليك، لكن حقداً غريباً ومستعصياً يفرق بينهم منذ أكثر من قرن. هذا الحقد الكامن دائماً يبدو أنه يغفو، لكنه سرعان ما يستيقظ ويلتهب عند أصغر حادثة. وتبدأ حينذاك مرحلة جديدة من الأخذ بالثأر. إن سبب وأصل حالة العداء هذه على جانب من التعقيد والابهام، لذلك ينبغي البحث عنها في الاضطرابات التي جرت في لبنان خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر؛ تلك الاضطرابات التي كانت نوعاً من ثورة فلاحين على النبلاء مالكي الأرض، لكن الحركة لم تكن، على ما يبدو، من صنع الفلاحين أنفسهم، بل إنها تعزى إلى دسائس صغار رجال الدين، وربما حتى إلى صغار عائلات النبلاء، الذين كانوا يحسدون إخوتهم الكبار على امتيازاتهم. هذه الصراعات الاجتماعية، التي تركت بذوراً للحقد بين البورجوازيين الفلاحين الإهدنيين وصغار إقطاعيي بشري، انتشرت إلى حد ما في كل لبنان، وتحولت في الجنوب إلى حرب دينية حين انتفض الأقنان المسيحيون على أسيادهم الدروز. فالمذابح الأولى التي جرت سنة 1840 كان سببها، مبدئياً، حركة

التحرر الديموقراطي هذه. ويمكن أن نشبّه حالة العداء هذه بين إهدن وبشري بالخصومات بين البلديات الايطالية في العصر الوسيط»[3].

يضيف ريمون مكاري قائلاً: «في آخر الأمر، إن البشراويين أرادوا دائماً أن يهيمنوا على الشمال، الذي تشكل زغرتا ـ إهدن مركزه الاداري منذ ثورة كرم الكبير. لذلك، لم يقبل أهل بشري هذا الواقع وحاولوا دوماً أن يخاصمونا، فجاؤا وأحرقوا إهدن عدة مرات. نحن لم نهاجمهم قط. كنا دائماً ندافع عن أنفسنا». ويروي يوهانس قوميوجيان أيضاً: «ولما يئس أهل بشري من طول المعاملات الاجرائية التي بدت لهم مشبوهة، عمدوا في احدى الليالي إلى أخذ حقهم بأيديهم وعلى طريقتهم، فاتجهوا في حشد غفير إلى إهدن تحت جنح الظلام، وبعد مناوشة قصيرة بالرصاص أضرموا النار في عدد من بيوت البلدة. لقد جرت العملية بصورة فجائية وسريعة بحيث لم تترك مجالاً للقتال وبالتالي لسقوط ضحايا. على أي حال، إن معظم سكان إهدن يمضون فصل الشتاء في زغرتا. وهذا الاعتداء من جانب أهل بشري على بيوت شبه خالية لم يشرفهم...»[4].

وكما كانت الحال في اليونان التقليدية، يشرح المؤرخ برنار إيك، فإن «العدو ليس فقط ذاك الذي يمثل ايديولوجيا تجب محاربتها، وإنما هو أيضاً عدو شخصي قبل أي شيء. كل هذه العوامل العاطفية تسهم في زيادة حدة النزاع وقساوته، وتشرح

(3) أوهانس قويومجيان، لبنان قبيل ومع بداية الحرب الكبرى ـ مذكرات حاكم (1913 ـ 1915)، منشورات مركز التاريخ، 1916.

(4) المرجع المذكور آنفاً.

أيضاً، بالمقابل، تواتر المصالحات النسبي، التي غالباً ما تكون عابرة، وظاهرة الخيانة المألوفة، إذ يماط اللثام عن المؤامرة أمام الخصم الذي يبقى مع ذلك صديقاً»[5]. لقد جيء على ذكر الخيانة في عدة مناسبات على جبهة الشرق.

كان ريمون واثقاً من أنه يجابه غزوة جديدة من جانب جيرانه، فهرع إلى رشاشه الكلاشنكوف واتخذ موقعاً في الطبقة الأرضية من مبنى العائلة، حيث ينكشف أمامه منظر بانورامي على الوادي والطريق التي تتخذ هنا شكل دبوس شعر مما يجبر السائق على خفض سرعته. وما كاد يباشر رش الطريق حتى انهمر عليه رصاص رشاش متمركز على مستوى المطاعم الثلاثة ـ الأرزة، الفردوس، الزعيم ـ من مسافة نحو ثلاثمائة متر فوق المبنى.

تسلق طنوس ـ النايلون ـ مسرعاً السلالم الداخلية إلى الطبقات العليا وتموضع حاملاً رشاشه من نوع فال الذي تصنعه فبركة هرستال البلجيكية وهو المعادل لرشاش آك ـ 47 الروسي، وأخذ يطلق الرصاص على مصدر الطلقات الخطاطة التي تلتمع في الليل. كان الأب والابن يتكلمان بلا انقطاع لتبادل التشجيع وتنسيق الطلقات. هكذا احتفظا بالسيطرة على الطريق طيلة ساعتين، حتى الخامسة والنصف تقريباً.

عند الفجر حاول ريمون الخروج بغية الالتفاف حول المطاعم. كان يتقدم زاحفاً على بطنه تحت عين دير مار سركيس، المطل على مبنى عائلة مكاري، حين سقطت قذيفة صاروخية على الواجهة تحت موقع والده محدثة صدمة قوية وكثيراً من الشظايا في

(5) برنار إيك، محاولة لنمذجة المجازر في اليونان الكلاسيكي في المجزرة، موضوع تاريخي، بإدارة دافيد الكنز، غاليمار، 2005.

الواجهة. ومع أن «النايلون» جرح في يديه، فقد واصل إطلاق النار، ثم سقطت ثلاث قذائف مماثلة على المبنى وهزته. ظل النايلون صامداً في مكانه، وأفلح في الاتصال بمركز هاتف البلدة الذي أخبره بأن النجدة لن تتمكن من الوصول فوراً لأن الطريق السفلى مقطوعة على مستوى كرم سده. «يجب الصمود بأي ثمن. الصمود، والاقتصاد في الذخيرة!».

بين الموقعين، في جل مزروع، كانت تُرى جثة ملقاة على الأرض. إنها جثة البستاني حليم الجعيتاني (59 سنة) المعروف في البلدة بأنه يذهب ليروي ما زرعه من بندورة وخس كل صباح قبل شروق الشمس، وهذا هو السر المطلق، كما يزعم، لتفوق إنتاجه الشخصي. يُستفاد من عدة تقاطعات أن قتل هذا الشاهد، الذي لم يكن يحمل إلا مرشّته، يمكن تفسيره بأن البستاني قد يكون تعرف على أشخاص من البلدة أو من البلدة المجاورة كانوا يرشدون المهاجمين عبر جلول البساتين. وبما أن هؤلاء الخونة خافوا من انفضاح أمرهم، فلربما طلبوا من الكتائبيين أن يرتكبوا هذه الجريمة البعيدة تماماً عن الضرورة العسكرية.

واصل الكتائبيون تقدمهم، فوصلوا إلى مقهى أسعد كوسى (65 سنة)، فجرحوه في كتفه وسرقوا أربع عشرة ليرة من الصندوق قبل أن ينتشروا في الحرج وراء الصخور فوق منعطف حادٍ. ريمون مكاري، الذي كان منبطحاً على الأرض وراء أرومة شجرة على مقربة من المكان يقول: «عند سماعهم الطلقات النارية هبّ أصدقاؤنا من آل الدويهي للدفاع عن البلدة فتمكّنوا من السيطرة على الطريق من الجهة العليا وقطعها فحالوا بذلك دون احتلال أعالي إهدن والوصول إلى قلب البلدة». ويضيف: «بالنظر إلى عتادهم وتكتيكهم، كان يبدو أنهم جاؤوا ليتمركزوا ويبقوا هناك».

الموقع الكتائبي الرئيسي على «جبهة الشرق» كان على مصطبة مطعم الفردوس، بين مطعم الأرزة ومطعم الزعيم. لقد كان حميد فرنجية قد تزوج منذ خمسة أشهر وكان يمضي مع زوجته هنا شهر عسل طويلاً بصحبة جدّيه لأبيه حيث كان والدا حميد يملكان هذا المطعم ويستثمرانه. «كنا قد تابعنا بطولة العالم بكرة القدم على التلفزيون. وعند الساعة الثالثة والنصف تقريباً» يروي حميد الذي لا يزال تحت الصدمة بعد ثلاثين سنة، «استيقظنا مذعورين على رشقات رشاشات كلاشنكوف. في موقف السيارات، حيث كان المهاجمون يرمون قنابل في كل اتجاه، على السيارات وباتجاه المطعم. كانوا بلا شك يعرفون من يهاجمون، لأنهم كانوا لا يفتأون يكيلون الشتائم والتهديدات لأسرة فرنجيه ويصيحون: «يا أنذال!». اختبأت النساء تحت الأسرّة، أما أنا وعمي فقد امتشقنا أسلحتنا وانسحبنا إلى غرف الطبقة الأولى. كان عناصر الكتائب يقومون بتدمير قاعة الطعام الكبيرة بواسطة القنابل اليدوية».

تذكر لورانس، الزوجـة الفتية، أن أحد الرجال راح يصرخ: «توقفوا، لم نأت إلى هنا لأجل هذا. لدينا عمل آخر!». كان صاحب الصوت ذا لهجة زغرتاوية. لهجة البلدة! «كيف يمكن أن يشارك أحد من أبناء البلدة في عملية كهذه؟» الخيانة، أيضاً.

كنا قد تبادلنا بضع طلقات نارية مع المهاجمين قبل أن نتموضع في الطبقة الأولى - يتابع حميد. اعتقدنا حقاً أن أجلنا قد دنا. لكن الكتائبيين لم يحاولوا إخراجنا، بل كانوا مشغولين أكثر من اللزوم بتحطيم الواجهات الزجاجية المطلة على المصطبة حيث ركزوا خمسة أنابيب معدنية ضخمة تشبه البازوكا[6]. سمعنا أربع

(6) قاذفات الصواريخ ذات الطلقة الواحدة والتي تطرح بعد الاستعمال.

مرات انفجارات قوية كانت تشير إلى أنهم يستهدفون في الأسفل، المباني المواجهة لدبوس الشعر على طريق الأرز. كذلك كنا نسمع صوت راديو ومحادثات قصيرة مرمزة. واستمروا يسبّون ويشتمون بكلمات نابية!».

إبان الساعات الثلاث من المجابهات، كنا نسمع صوتاً يرتفع في الليل: نداءات استغاثة آتية من أسفل الطريق. لعل أحدهم تمكن من الاختباء في فجوة صخرة ناحية بيت أبشي، على أطراف حي الدواليب. في الداخل، في الغرفة الرئيسية، كانت توجد ضحية ثانية: الرجل المسن قبلان أبشي (94 سنة). وقد تمكن ابنه من الفرار بالقفز من الشرفة، حيث سقط من علو عشرة أمتار فانكسرت إحدى ساقيه، وأخذ يستغيث.

لا يزال أبشي الابن حتى اليوم يعمل بستانياً بين إهدن وزغرتا. يقول إنه في تلك الليلة كان لديه هاجس سيء. يتذكر تفاصيل تبادل إطلاق النار: «أيقظني كلبنا الصغير. كان في الفناء يتقاتل مع كلب المزرعة المجاورة الـ «بيرجيه» الضخم. أطلقت الرصاص من بندقيتي في الهواء كي أجعله يهرب، فلفت بذلك انتباه المجموعة الجهنمية التي حسبت أنها تُهاجَم. فاندفع نحو عشرة جنود صوب بيتنا، وحطموا الباب بأقدامهم وأطلقوا رشقات رشاشة على الغرفة الرئيسية. سقط أبي قتيلاً على الفور، وقفزت من النافذة في آخر لحظة. كانت ساقي تسبب لي ألماً مبرحاً. ومن المكان الذي كنت فيه، تحت الطريق، كنت أشهد عبور سيارات جيب مجهزة في مؤخرتها بمدافع ب-10، وهي أسلحة نعرفها جيداً لأنها استعملت في الدفاع عن زغرتا إبان حرب السنتين، وعلى مسافة خمسماية متراً تقريباً إلى تحت، اكتشفت على وميض القذائف عدة محاور

للإطلاق مصوبة على بيت منير كرم، الذي يبدو أنه كان يقاوم بشراسة. منير بك كان مقاتلاً لا يشق له غبار، وزوجته أيضاً!».

هذه الأخيرة تروي: «ابتدأ إطلاق النار حوالى الساعة الرابعة فجراً. حسبنا في بادىء الأمر أن هناك هجوماً جديداً يقوم به الفلسطينيون، لكن سرعان ما فهمنا أنهم الكتائب لدى مشاهدة سيارات الجيب تتحرك عبر الجبل آتية من بشري. بدأوا بالتأكيد يطلقون النار على البيت لأنه كان مضاء... وبسبب حالات أرق منير، ارتديت ثيابي كي أساعده؛ النوافذ في المكان الذي ننام فيه في البيت صغيرة جداً لحسن الطالع وتشبه المرامي. ركزنا سلاحاً في كل من هذه الفتحات الأربع ـ كلاشنكوف، وم ـ 16، وبندقية انكليزية قديمة، وهرستال. ورحنا نطلق في وقت واحد قصد الايهام بأن ثمة مجموعة هامة من الرجال. كنت أعمل بصورة رئيسية في إعداد الذخائر وتعبئة البنادق فيما كان منير ينتقل من نافذة إلى أخرى، آملاً أن يحدث كثيراً من الضجيج، وبذلك استدراج تعزيزات من قرى أخرى. لكن التعزيزات لم تصل قط، وصمدنا على هذه الحال حتى الساعة الثامنة والنصف أو التاسعة، حين صدر الأمر بالانسحاب. فتوقف إطلاق النار من الجانبين، وراح الكتائبيون يهرولون كالأرانب، عبر الدروب الجبلية التي جاؤا منها، عائدين كما يعود الشر إلى منبعه».

وكانت هناك مجموعة ثالثة، على طريق عين بقرة، مهمتها بالتأكيد منع وصول أية نجدة إلى إهدن من الطريق الشرقية التي تقود إلى الأرز وتفضي إلى أمام مبنى مكاري. وبحسب التقرير عن المعركة الذي وضعته قيادة المردة، فإن «مجموعة من المركبات المجهزة برشاشات ثقيلة سلكت طريق عين بقرة وتمركزت فيها. ومن هذا المكان فتحت الرشاشات النار على أطراف إهدن لكي تقطع الطرق المؤدية إلى البلدة وتصرف الانتباه عن العمليات التي

بوشرت حول قصر طوني فرنجية. وانتشرت وحدة عسكرية أخرى تضم نحو ثلاثين عنصراً على طول طريق بكوفا الزراعية. وعندما وصل الكتائبيون إلى بيت يوسف صليبا فرنجية، قرب جسر «أبو تراب»، أضرموا النار في البيت وركّزوا على مقربة منه مدفع ب ـ 10 أخذ يقصف إهدن. كذلك قطعت سيارات جيب أخرى طريق الجسر. لقد تم تدمير اثنتين من هذه المركبات تركت في مكانها، على أثر الرد الذي جاء من أهل البلدة».

بعد بضع دقائق على انتهاء القتال، عادت سيارات جيب أخرى ناحية الجسر الذي يشكل مدخل البلدة الشرقي، وصادفت أنطوان سمعان فرنجية (21 سنة)، فقتلته ببرودة مع أنه لم يكن مسلحاً، بلا سبب ظاهر ودون سابق إنذار. بعد هذه المأثرة الحربية توقفت سيارات الجيب الثلاث من جراء نيران منير بك، فتركها راكبوها في مكانها مهرولين للاختباء وراء الصخور. بدوي شهاب غالب فرنجية (35 سنة)، وهو رجل أكتع جاء للنجدة حاملاً مسدسه بيده الوحيدة، هاجمهم، فتمكّن من قتل اثنين وجرح ثالث قبل أن يتمكنوا من قتله. واختطفت زوجته التي كانت ترافقه.

تركت المجموعة عرباتها اللاندروفر على الطريق وانسحبت حوالى الساعة الثامنة والنصف في وقت واحد مع المقاتلين الآخرين، سالكة الدروب الجبلية. لقد سقط في معركة جبهة الشرق أربعة قتلى ونحو عشرة جرحى، بالاضافة إلى ضحايا الهجوم على القصر. لقد تقدم الضحى الآن، وتبدد الضباب الصباحي، وبانت التربة الحمراء في جلول بساتين التفاح والاجاص، وكانت طائرتان نفاثتان للجيش اللبناني ـ من طراز هوكر هانتر القديم ـ تحلّقان في سماء إهدن.

الفصل الرابع

اجبع، فاجعة آل غالب

«إذبحوهم، لأن الله يعرف خاصته».

أرنو أموري، سفير البابا إينوسان الثالث،
إبان نهب بيزييه سنة 1209،
في زمن الصليبية على أهل ألبي.

نستعيد الوضع بإيجاز. اغتيل طوني فرنجيه وزوجته فيرا وصغيرتهما جيهان والمربية وسائق العائلة بين الساعة الرابعة والربع والساعة الرابعة والنصف. استيقظ سكان الأحياء الجنوبية في إهدن على صوت المدفع فهرعوا إلى القصر حيث شكلوا أول خط دفاعي، بينما كان سكان الأحياء الشمالية المتصلة بالجبل قد تنبهوا لمجموعات الكتائبيين الآتية من بلدة بشري، ففتحوا «جبهة الشرق» دون أن يعرفوا ما كان يدور حول القصر.

وبعد أن اتصل سائق أسرة فرنجية في آخر لحظة بعامل الهاتف في مركز إهدن الهاتفي، وسمع هذا الأخير إطلاق العيارات النارية، نجح في الاتصال بالأب يوسف يمين في بيته الملحق بكنيسة زغرتا.

الأب يوسف يمين أشهر من نار على علم في كل لبنان الشمالي. فقد تربى عند اليسوعيين، وهو أشبه بـ«دون كاميليو» محلي، مولع بتيار دو شاردان وأنشتاين، ولا يأنف إطلاق الرصاص، أو حتى القتال إلى جانب أبناء رعيته. لقد نال لقب «أبو المردة» كونه أطلق اسم المردة على الميليشيات الزغرتاوية، تيمناً باسم محاربي القرن السابع، ورسم شعارهم، وقد تناقلت وسائل الاعلام أخباره إبان حرب السنتين ضد الفلسطينيين. كان لا يفارق الجبهة، متنقلاً من موقع إلى آخر، مشجعاً أبناء رعيته ومساعداً إياهم. هناك صورة شمسية في إطار تزين مكتبه ويظهر فيها بلباس القتال، رابضاً فوق دبابة شيرمان، بين مقاتلين ملتحين يتنكبون بنادق الكلاشنكوف. لقد نصحني عدة زغرتاويين، في بداية تحقيقي، بأن أزوره «سيراً على البيض» لأن «الاتصال قد يحصل أو لا يحصل!» مع الغرباء، كما قيل لي. وكان ماضيّ عند اليسوعيين جواز سفري عنده.

- هذا بالتأكيد أنت يا أبتي في هذه الصورة للجبهة، على دبابة شيرمان مع المقاتلين؟
- نعم يا ابني.
- لكن لماذا ترتدي البزة؟
- لكي أكون أكثر قرباً من أبناء رعيتي يا ابني.
- أقرب، بأي معنى؟
- لكي أبث فيهم أمام المحنة نعمة المسيح وعزيمته. لكنني، كما تلاحظ، لا أحمل سلاحاً.
- هل ساقتك الأمور إلى حمل سلاح في النزاع مع الفلسطينيين؟
- نعم حصل ذلك، لكن دائماً في حالات قصوى ووفقاً لقول المسيح: «لا تقتل». كنت أقرب إلى حض أبناء رعيتي على الدفاع

عن أنفسهم، على أن لا يُقتلوا بأيدي المهاجمين. كل الديانات الكبرى، كما تعلم، تسلّم بمبدأ الدفاع عن النفس.

ـ ماذا تعني بـ «مبدأ الدفاع عن النفس»؟

ـ أن تدافع عن نفسك حين تتعرض لهجوم. غير أنه يجب الاستعانة بهذا المبدأ بأكبر قدر من الحذر. أنت تعرف المثال القائل «من لطمك على خدّك الأيمن فدر له الأيسر»، وهو قول يتعلق بحالات فردية، ينبغي وضعه في إطاره التاريخي عند تطبيقه في إطار أوسع، إطار الجماعة. فإن بقاء الجماعة، متى تعرضت للخطر، يتقدم على كل ما عداه. قراءة الأناجيل تؤكد هذا، يا ابني! أعد قراءة الأناجيل! في ليلة 12 ـ 13 حزيران/يونيو 1978، حين علمت بالهجوم على إهدن، أحسست بدمي يغلي في عروقي: كنا فعلاً في حالة بقاء أو عدم بقاء الجماعة، وهذا يستوجب الدفاع عن النفس، كما كان الأمر إبان حرب السنتين!

ثم سرد لي الأب يوسف يمين روايته لتلك الليلة الفاجعة.

«أيقظني مركز هاتف إهدن حوالى الساعة الرابعة وعشر دقائق، وأخبرني أن البلدة تتعرض لهجوم. نهضت وارتديت ملابسي بسرعة كي أذهب وأبلغ قصر زغرتا الذي لا يبعد كثيراً عن منزلي الكنسي. أيقظت الحارس الذي قال لي إن الدار خالية بالنظر إلى إقامة الرئيس سليمان فرنجية في بيروت. طلبت بندقية وسيارة وسائقاً. ناولني شاب من أبناء الرعية يحرس القصر بندقية من طراز م ـ 16 وانطلقنا على جناح السرعة.

أطلقت من نافذة الباب الأمامي ثلاث طلقات في الهواء. العسكريون، أو الملمون بالأمور العسكرية، يعلمون أن إطلاق ثلاث طلقات متوالية يعني طلب النجدة، طلب العون بالسرعة القصوى. قصدنا كل كنائس زغرتا لكي نقرع الأجراس إيذاناً بوجود

خطر. وكنت كلما غادرت كنيسة أطلق ثلاث طلقات من جديد. جلنا على كل الأحياء في ظرف ساعة أو أقل. كان الناس يفتحون نوافذهم ويسألوننا عما يجري. كنت أجيب «انهم يهاجمون إهدن بالمدفعية! إصعدوا بسرعة! إصعدوا فوراً!».

قبل الساعة الخامسة بقليل، عدنا إلى القصر وشرعت أنبه الرئيس فرنجية وعائلته. تمكنت من الاتصال بسهولة باحدى شقيقات طوني، سونيا زوجة النائب عبدالله الراسي. ثم طلبت من سائقي أن ينقلني إلى سعيد عيد، آمر الدرك، ثم إلى مقر قيادة الجيش اللبناني في طرابلس، على مسافة نصف ساعة تقريباً من زغرتا. طلبت من ضابط الحراسة أن أتحدث إلى أحد من المكتب الثاني، جهاز استخبارات الجيش. رد عليّ مكتب الدوام بواسطة الهاتف مؤكداً أنه سيبلغ رئيس المكتب الثاني على الفور العقيد جوني عبده. لا بد أن هذا الأخير سيتصل برئيس الجمهورية.

عدت إلى قصر زغرتا. في هذه الأثناء كان مركز هاتف إهدن قد اتصل ليقول إن طوني بك وعائلته قُتلوا. كانت الساعة السادسة والنصف، وقد أخذت حرارة الجو ترتفع قليلاً. قلت في نفسي إن الأحداث الأكثر مأساوية في تاريخنا حصلت في شهر حزيران/يونيو: الحرائق، والهجمات على القرى، وأعمال الثأر الأكثر دموية، واندلاع الحرب على الفلسطينيين...».

قبل ذلك بساعة ونصف، كان مارسيل خازن أحد أوائل الزغرتاويين الذين أيقظتهم جولة الأب يمين.

«أنا سمكري، وأسكن في ساحة كنيسة مار يوسف في زغرتا. كنت آنذاك في الواحدة والعشرين من العمر. تساءلت، كما تساءل الجميع، عن سبب قرع الأجراس على هذا النحو في الصباح الباكر، لكن الطلقات الثلاث هي التي حملتني على الارتياب.

وعندما رأيت الأب يمين من النافذة يتنكب الـ م ـ 16، ظننت أن الحرب استؤنفت. فأخرجت بزتي ونزلت إلى الساحة حيث وجدت أبا واكيم، رئيسنا في المردة سابقاً، فقال لي: «قصر إهدن يتعرض لهجوم! إصعد! إصعد! واجمع كل الرجال الممكن جمعهم!».

جرت الأمور بسرعة كبيرة. عثرت على جاري غالب فرنجيه والبندقية في يده. ركن سيارته المرسيدس البيضاء في الجوار لكي يصعد إلى إهدن. جلس وراء المقود. كان معنا ابنه جوزف وجار آخر يدعى وجيه. لحظة انطلاقنا، رأينا زوجته تريز تجري صوب السيارة ملوحة بشال. ظن غالب أنه نسي شيئاً. فأوقف السيارة وأنزل زجاج النافذة. كانت شديدة القلق على ابنهما حميد وعروسه الشابة اللذين كانا يمضيان شهر العسل برفقة والدي الزوج[1] في مطعمهم المعروف بالفردوس، على مرتفعات إهدن، ففتحت الباب ورمت بنفسها إلى داخل السيارة: كانت لا تريد أن تبقى وحيدة في زغرتا تتبرم بانتظار الأخبار التي ستصل بالتأكيد بعد المعركة. هكذا انطلقنا نحن الخمسة.

اجتزنا كفرفو وكرم سده بلا صعوبة، وصادفنا في الأعلى سيارتين مدنيتين، وهما من السيارات المصادرة دون ريب، والمشحونة بجنود كانوا يرفعون في وجوهنا علامة النصر «V»، وينحدرون نحو الشاطىء. ولما وصلنا إلى إجبع، أمام القلب الأقدس، تبدل كل شيء فجأة!

استهدف رشاش ثقيل سيارتنا التي جن جنونها فانزلقت إلى يسار الطريق وتوقفت فوق رجمة تطل على حفرة. كان عنق غالب متشحاً بالدم، وقد فقد وعيه. وكان ابنه إلى جانبه قد قتل على الفور،

(1) راجع الفصل الثالث: «جبهة الشرق».

وفي الخلف كان الجار وتريز مصابين. أما أنا فقد كنت في الوسط ونجوت بأعجوبة. فاستعدت روعي، ودنا كتائبي مسلح من السيارة الجاثمة فوق الرجمة. تطلعت إلى عيني تيريز الجميلتين، الزرقاوين بلون السماء، وكان الدم يسيل على وجهها، فأومأت الي بأن ألوذ بالصمت، ولا أبدي حراكاً، كما لو أننا جميعاً أموات. قال الكتائبي لأحد زملائه وهو ينحني فوق غالب: «هذا أعرفه، شاهدته أحياناً كثيرة في قصر آل فرنجية»، ثم أطلق رصاصة على رأسه من مسدسه. كان غالب بطرس فرنجيه في الخامسة والأربعين من العمر. أنا وتيريز لم نبد حراكاً.

بعد بضع دقائق، أخذت رشاشي من طراز «ستين» الذي كان تحت أحد ركاب السيارة والذي لفظ أنفاسه بدوره. انزلقت بين ساقيه ونجحت في فتح الباب لجهة الحفرة، ثم انزلقت على طول المنحدر حتى الساقية التي تجري إلى أسفل. عاد الكتائبي ليفتش سيارة المرسيدس من جديد، وصاح باتجاه مجموعته التي كانت على بعد مئة متر منه: «كانوا خمسة! نقصوا واحداً! نقصوا واحداً!». وبعد بضع ثوان، سُمع ضجيج معدني ودوي انفجار قوي. وتحولت السيارة إلى كتلة من نار. كانت قذيفة RPG[2] بلا شك. في مخبأي كنت أسمع كل شيء: قرقعة السيارة التي كانت تحترق، والرنين المعدني لمكالمة بواسطة الأجهزة اللاسلكية. كان هذا رئيس وحدة ينادي رئيسه مكرراً: «من فرنسا إلى أرز، من فرنسا إلى أرز...».

كنت أرى من هنا بوضوح شعار «SKS» وهو شعار القوات الخاصة في الكتائب. وكان معظم الرجال معصوبي الرؤوس، كما

(2) قاذفة صواريخ مضادة للمدرعات محمولة، معروفة بـ «ب7».

الهنود في أفلام الوسترن. كانوا وهم في هذا الزي يستدعون المزيد من السخرية لا سيما وأنهم كانوا في مشيتهم يقلدون ألدو ماشيوني! كان هذا كله في منتهى السماجة، وفي الوقت ذاته، يزيد من مأساة موت أصدقائي. عند الفجر، رأيت طائرتين نفاثتين تحلّقان في السماء، لا بد أنهما كانتا من سلاح الجو اللبناني. ولا بد أنني فقدت الوعي حين رفعت رأسي لأتابع حركتهما. ولا أدري كم من الوقت بقيت على هذه الحال قبل أن توقظني أصوات حادة: كانت أصوات صفارات، صفارات كشافة يمكن معرفتها من بين جميع الصفارات. كانت هناك جلبة شديدة ورحل الكتائبيون في لحظة.

تريثت بعد ذلك أكثر من عشر دقائق في الساقية قبل أن أصعد إلى الطريق. شاهدت في تلك اللحظة سيارة تتوقف قرب المرسيدس، وراح أشخاص يتكلمون، دون أن أفهم شيئاً. كان بعضهم يبدو متألماً، وربما كان يبكي. ثم عادوا إلى سيارتهم واتجهوا نحو زغرتا. إلى الأسفل، كانت ألسنة اللهب تتصاعد من مزرعة آل دحدح.

مرت سيارة أخرى في الاتجاه المضاد، صاعدة من زغرتا: سيارة أجرة نجت من كمين كرم - سدة، وتباطأت حين وصلت إلى جانبي. قلت للسائق إنني أريد أن أرى «أبو واكيم» كي يتعرف عليَّ فوراً لكوني عضواً في المردة. رميت بنفسي إلى داخل سيارة الأجرة التي كانت ستوصلني إلى المستوصف كي أعالج بعض الجروح وأتخلّص مما علق في جسدي. حينها أخبرني السائق أن أبا واكيم قد قتل، وأن طوني بك وزوجته وابنتهما قتلوا على يد الكتائب في القصر.

ما زلت حتى اليوم اتساءل كيف تمكنت من النجاة، ويبدو لي أني نجوت بأعجوبة».

في إهدن، كانت المعركة قد انتهت منذ بضع دقائق. والكتائبيون الذين جاؤوا من الجبال تراجعوا، هم أيضاً، وعاد السكون يلف المطاعم الثلاثة ومن بينها مطعم الفردوس، حيث صمد العروسان حميد فرنجية ولورانس والعم والجد والجدة للحصار حوالى ساعتين في وجه كتائبيين شاغلتهم مقاومة ريمون مكاري ووالده النايلون وكذلك نيران منير كرم وزوجته. هرعت عمة حميد إلى المكان وأخبرت عن مجزرة القصر. وجاء في أثرها آخرون من أبناء البلدة. سأل حميد عن أبيه، فأشاحت عنه العيون؛ وانفجرت العمة بالبكاء، وأخيراً قالت: «نعم يا حميد، أبوك سقط في القتال!».

يتذكر حميد: «ارتديت ثيابي على وجه السرعة، وقبل أن أصعد إلى السيارة قاصداً زغرتا، أحسست من خلال نظرات الناس أن شيئاً خطيراً حدث للتو. عند مدافن آل كرم، كانت الطريق تغص بالناس، وكان هناك حطام معدني، ومظاريف بنادق هجومية، ومغاليق قذائف، وأنابيب إطلاق صواريخ، منتشرة على الزفت، تدل على عنف المعارك. تعرف عليّ عناصر من المردة مسلحون ففتحوا لي الطريق. لاحظت في عيونهم ذاك الضيق إياه الذي لاحظته فوق لدى الناس في المطعم.

عند الخروج من إهدن، قبل منعطف القلب الأقدس الحالي في إجبع، شاهدت تجمعاً جديداً لزغرتاويين مسلحين يقطعون الطريق. لدى وصولي، انفكّ الحزام البشري وبدت سيارة التهمتها النيران. لقد كانت سيارة أبي المرسيدس. هرعت إليها. على المقعدين الأماميين كان يوجد جسدان متفحمان، يستحيل التعرف عليهما: والدي غالب وشقيقي جوزيف (18 سنة). على المقاعد الخلفية، صدمة رهيبة! كانت أمي، منقلبة، محملقة العينين، والدم يصبغ وجهها. نصفها الأسفل كله، من القدمين حتى الحوض، أتت عليه

النيران، وباقي الجسد كان لا يزال يحترق. كانت إلى جانبها جثة أخرى متفحمة، يستحيل التعرف عليها. عاودت النظر إلى عينيها، وفي بضع ثوان، عادت زحمة من الصور تمزق روحي كأنها شريط سينمائي متسارع، لحياتي كلها حتى المحرقة الفظيعة».

كان هذا كل ما تبقّى من تيريز بولس فرنجية (41 سنة) ووجيه موسى غريزي (52 سنة).

أخيراً انبرى شبان من المردة وأبعدوا حميداً عن هذا المشهد. وضعوه في السيارة التي تابعت سيرها نحو زغرتا. لقد كان خائر القوى، ينظر إلى مشهد الطبيعة ولا يراه. عند مزرعة آل دحدح، كان مشهد الدمار إياه: سيارة محترقة، رجال مسلحون ينظمون المرور. لقد سقط في حالة من الذهول عند قرية كرم - سدة حيث تظهر آثار معركة أخرى غير منتهية. وعلى جانب الطريق عدة سيارات خاصة، محترقة، ونحو خمس عشرة مركبة مدنية وعسكرية مشرعة الأبواب وفي داخلها أسلحة. عتاد نصف ثقيل، مدافع صغيرة وهواوين، تركت في أرض المعركة. كان يسود المكان حراك كبير. في وسط الطريق، صادف بعضاً من الأهالي الذين يعرفهم فلوحوا له بأيديهم؛ كانوا وهم يعملون على تنظيم السير بين إهدن وزغرتا، يحاولون أن يفتحوا هذه الطريق التي هي حبل السرة بينهم وبين بلدتهم الجبلية.

في يوم واحد، فقد حميد أمه تيريز، وأباه غالب، وشقيقه جوزف واثنين من أبناء عمه.

لكن مأساة عائلية أخرى حدثت، ودفعت بالكتائبيين دون ريب إلى تبديل خططهم.

الفصل الخامس

بيت بلعيس، مقاومة آل دحدح

«في الحقول التي نتعامل معها، لا تظهر المعرفة إلا كالبرق. أما النص فهو هدير الرعد الذي يأتي متأخراً».

والتر بانجامان «داس باساجن - فيرك». (1939)

في إهدن كما في زغرتا، لا تنفك عقدة الألسنة بسهولة، خصوصاً مع الغرباء. لكن لحسن الطالع كان هناك سليم. إنه زغرتاوي وعضو في لفيف آل فرنجية، وهو كالأب يوسف يمين معروف جيداً ويتمتع بثقة كل أهل البلدة الذين يعتبرونه حافظ ماضيهم. لقد لقبوه بالسلطان. إنه مسؤول عن مديري موائد الألعاب في كازينو لبنان، وحافظ تواريخ العائلات، والمشرف الكبير على تنظيم الجنائز والمدافن. إنه يعرف كل شيء.

حين تذكر أمامه ردة فعل الأهالي على الهجوم، يتضاعف حذره، فيغربل ملاحظاته، ويكثر من أساليب الانتقال المألوفة، لا ليذكر الوقائع وحسب، بل لكي يثبت ما يعتبره الحقيقة التاريخية،

الأمر الذي لا يزال يمثل مشكلة في لبنان حتى اليوم. «الاثبات، الاثبات» هذه هي كلمته السحرية؛ «الاثبات من أجل تحاشي التكرار...» كما يقول.

بعد جلسات عديدة لاستعادة ما جرى، وبعد مقابلة عشرات الشهود من الذين عاشوا تلك الحقبة، يشرح سليم أن المعنى الأخير ـ المعنى الحقيقي إن لم يكن الوحيد ـ للمأساة التي جرت قبل ثلاثين سنة، مسجل في ردة فعل آل دحدح. اصطحبني بعد ذلك لأشاهد الشخص الناجي من هذه الأسرة المرتبطة تاريخياً بأسرة فرنجية. «مقاومة آل دحدح» هي اليوم جزء غير منفصل من أسطورة إهدن، الأسطورة التي تنتقل من جيل إلى جيل. لكن قبل الذهاب لزيارة المقاومين، لا بد من مقابلة شخص آخر: مدوّن الأسطورة، الكاتب الزغرتاوي جورج فرشخ الذي ألّف كتاباً بعنوان[1]: «خيط رفيع من الدم». يقول: «حتى اليوم، لا تزال تلك الليلة المأساوية تمثل خط تماس، ليس فقط في ما يتعلق بالذاكرة بل أيضاً وخصوصاً في ما يتعلق بالحياة الراهنة. فالناس، حتى الجيل الجديد الذي ولد بعد الأحداث، يحددون هويتهم السياسية، والاجتماعية، والانسانية، تبعاً لمجزرة إهدن».

ويضيف: «أعرف موارنة كانوا ظلوا غاطسين في فرشهم وزادوا من شخيرهم عند سماعهم الرصاص والقنابل. خصوصاً وأنهم لا يعرفون من يعتدي على من. لكن هؤلاء فدماؤهم على تحملهم. فمنذ الطلقة الأولى صاروا في الخارج. قتلوهم أمام أبواب منازلهم. قتلوا كل من تحرك، من بنت السنوات الثلاث إلى ابن

(1) المرجع، خيط رفيع من الدم، الكاتب جورج فرشخ.

التسعين. قبلان قبشي، صاحب التسعين، قتلوه في فراشه. وحليم الجعيتاني-55 سنة، كان ذاهباً إلى بستانه في بقوفا، قتلوه. وبدوي شهاب-45 سنة، قام يركض من كفر صغاب قتلوه عند جسر «بو تراب» بزخة رشاش. وقتلوا انطوان سمعان انطوان فرنجية-28 سنة، عند الدواليب».

كان جورج فرشخ يعرف شخصياً كل واحد من هؤلاء. وهو حين كتب قصتهم «أراد أن يعطيهم بعضاً من وجه» كما يقول، «وإن كان ذوو السلطان اليوم يسعون إلى محو هذه الوجوه. ذلك أنه حين يأتي الأوان، ستكون هذه الوجوه في قبرها، كعين قايين، تنظر إليهم وتطلب محاسبتهم...».

«ولو رأيت ابن دحدح. نهض كالنمر الجارح عندما سمع الانفجارات من جهة إهدن. حمل بندقيته المجلوفة في حرب السنتين، وركض على الطريق النازل من إهدن باتجاه بيت بلعيس/العربة. عند المفترق، تقف سيارات عسكرية وحولها رجال كثيرون. سألهم من بعيد وهو لا يزال يركض: «ماذا يجري؟ من أنتم؟ لماذا كل هذا الرصاص في إهدن؟». صرخوا به: «نحن الحزب. ارم سلاحك بأرضه». جمد. الحزب؟ وفي لحظة، في ثانية، في أقل من ثانية، فكر: «وماذا يفعل الحزب هنا بمثل هذه القوة؟ ولماذا لهجة العداء هذه؟ ولماذا يرمي سلاحه إذا كانوا من الحزب؟». صرخ: «إذا كنتم رجالاً تعالوا خذوه». وعاد يركض راجعاً. ابن دحدح يا مقدام. نادى ابنه منير-27 سنة، ومن دون شرح ولا تفسير، قطعا الطريق. وعندما تقدمت السيارات العسكرية الحزبية سالكة تلك الطريق الفرعية التي ليس عليها ردع سوري ولا

حواجز، تصدى لها الدحداحان، غير عابئين بالعدد الكبير ولا بالسلاح الثقيل ولا بالحزب. القديسون والملائكة إذا هاجموا إهدن يطلق النار عليهم دحدح.

منعا رتل السيارات من التقدم ساعة كاملة، وظلا يقاومان إلى أن نفدت منهما الذخيرة، ولم يبق معهما خرطوشة واحدة. نادته زوجته أن يرتد هو وابنه إلى البيت، فقال لها الدحدح: «لن يقال إنَّ الهاجمين على إهدن مروا من أمام بيت محسن دحدح وفي جسمي روح». قتلوه هو وابنه وتابعوا هربهم».

كان ابنه الثاني، بدوي، آنذاك في الخامسة والعشرين من العمر. وهو لا يزال حتى اليوم مزارعاً في إهدن، في المزرعة العائلية، إحدى آخر المزارع التي تعمل على مدار السنة في البلدة. لكن حتى لو ظل النشاط الزراعي على حاله، فإنه لم يعد الوحيد والمميّز إذ أخذت مكانه النشاطات الخدماتية وخصوصاً إرسال الأموال من النازحين إلى المدينة أو إلى الخارج، الذي يؤمن جزءاً لا بأس به من مداخيل البلدة. وفيما عدا مصانع الترابة في شكا وبضع شركات للنسيج وصناعة الأغذية الزراعية في طرابلس، لا توجد أية بنية تحتية أو وحدة إنتاجية صناعية في إهدن ولا في منطقتها.

«مع انتقال السكان إلى إهدن، في شهر حزيران/يونيو، كان يبتدىء الموسم الزراعي الثالث. وفي الأراضي الجبلية، المرتبة بدقة على شكل جلول، كانت تجري، منذ بداية الصيف وحتى الخريف، مختلف الأنشطة والأعمال الزراعية الكثيرة التنوع. كذلك كان هناك موسم ثان من مزروعات الخضار، والأشجار المثمرة، والحبوب، والبطاطا، يجري في الجرد حتى بداية شهر تشرين

الأول/أكتوبر، إذ لاتزال تهيمن على المشهد الاهدني، حتى اليوم، زراعة تكاد تكون محصورة بصنفين من التفاح (غولدن وستاركنغ) وصنف من الإجاص المعد بالأساس للتصدير، إلى بيروت أو إلى الخارج»[2].

ومع أنه من الصعب توضيح كل قنوات الاقتصاد المحلي، لكن يمكن أن ندرك بسهولة أن بقاء آخر المزارع له قيمة تتعلق بالحراسة. ففي الواقع، إن النفر القليل من المزارعين الذين يعيشون طوال السنة في إهدن يقومون عملياً بحراسة البلدة، ويؤمنون صيانة شوارعها والمزارع الكبيرة. إنَّ أسرة آل دحدح هي أباً عن جد إحدى هذه العائلات ـ الجنود «التي تبقى هناك بهدف تأمين الحراسة». إن بدوي، المتحدر من هذه الأسرة، ما زال يذكر الهجوم «كما لو أنه جرى البارحة، لأن الموت ينبعث كل يوم» يقول هذا وهو يتطلع ناحية الوادي.

ـ كان والدي محسن وشقيقي منير يهتمان بشؤون المزرعة بصورة رئيسية. وفي ذلك اليوم، نهض والدي بحسب عادته اليومية قبل الساعة الرابعة فجراً لكي ينزل باتجاه أطراف البلدة ويوزع العمل على العمال الزراعيين، الذين كانوا في هذا الموسم يعملون بنزع الأعشاب وبالسهر على أغراس البندورة والثمار الحمراء قبل القطاف. وفيما كان يصعد نحو إجبع، سمع طلقات نارية ولاحظ وجود رجال مسلّحون على مسافة مئة متر. سألهم عما يفعلون هناك ولماذا يحملون أسلحة. أجابه الكتائبيون: «أبو واكيم قتل ونحن الكتائب جئنا لنحتل إهدن!». لاحظ في أثناء تبادل الكلام وجود رشاش على سطح بيت صغير بالقرب من القلب الأقدس. ظن

(2) أنطوان الدويهي، المرجع المذكور آنفاً.

الكتائبيون في البداية أن والدي وأخي من القرية المجاورة، فتركوهما وشأنهما.

ـ أثناء ذلك قال لهم والدي: «الأتراك لم ينجحوا قط في احتلال البلدة ولستم أنتم من سينجحون في ذلك». فراحوا يطلقون الرصاص باتجاهه. لكن والدي ومنير راحا يعدوان بسرعة ووصلا إلى البيت، حيث أيقظاني. كنت قد أخلدت إلى النوم متأخراً، حوالى منتصف الليل، بعد جدال طويل مع صديقي القديم الوحيد، في سيارته. كانت أخته لا تكف عن حضه على أن يجد فتاة ويتزوجها. بقينا هكذا هنيهة نتبادل الحديث كصديقين قديمين حول أمور الحياة والموت. وقبل أن نفترق، طلب مني صديقي الوحيد شيئاً مستغرباً إذ قال: «إذا متُ يوماً، أتمنى أن يوضع فوق قبري مصباح كي أتمكن من الرؤية بوضوح أكثر في الليل...». لقد كان أول ضحية في معركة القصر[3].

ولكي يحسن والدي النفخ في نفير الايقاظ، راح يصيح: «الكتائب هنا! هيا بنا!». نزلنا نحن الثلاثة إلى الطريق، تحت المزرعة وتموضعنا خلف صخور كبيرة. كان والدي يحمل بندقيته الحربية، ومنير يحمل الكلاشنكوف، وكنت أنا أحمل مسدساً. حوالى الساعة الخامسة، ظهرت سيارة أولى في النزلة مطلقة منبهها على فترات منتظمة، كما لو أنها كانت تفتح الطريق. لاحظنا من بعيد وعلى الفور سيارة فنيانوس المرسيدس 220 الزرقاء اللون، التي كانت قد سرقت بالتأكيد لأننا كنا نرى أسلحة تخرج من نوافذها. أطلق والدي عدة عيارات نارية دون أن يفلح في إيقاف

---

(3) انظر الفصل 2: 13 حزيران/يونيو 1978، الهجوم على القصر.

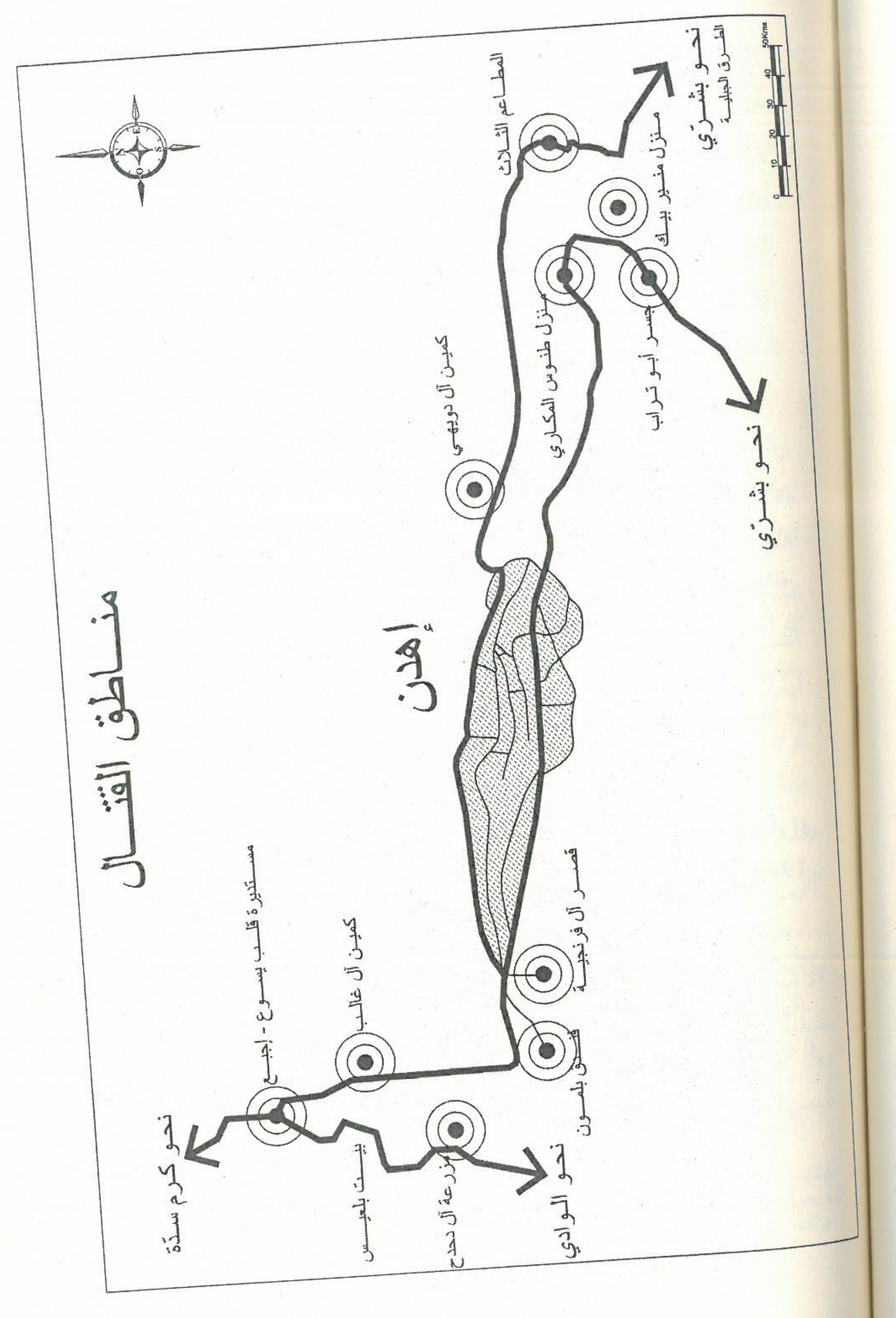
السيارة لكنه لاحظ مع ذلك أنه أصاب من في داخلها. عرفت فيما بعد أنه أصاب سمير جعجع بعدة جراح، وأن رجال حرسه الخاص كانوا ينقلوه على وجه السرعة بعد إصابته في محيط القصر. كان الصباح قد أخذ يبزغ. لا غيوم في الجو، والسماء بدت جميلة.

ـ بين السادسة والسابعة، كنا نسيطر على الطريق مستهدفين كل سيارة تحاول التحرّك، إلى أن فوجئنا برجال مشاة ظهروا خلفنا آتين على ما يبدو من صوب القلب الأقدس. كانوا يطلقون النار في كل الاتجاهات لكي يغطوا انسحابهم. وعندما لاحظوا وجودنا، حاولوا أن يطوقونا. كانت ذخيرة أبي قد نفذت، فخرج أخي من حيث يتموضع باتجاه البيت لجلب علب الخرطوش. قتل منير دحدح (22 سنة) في المنعطف، فوق المزرعة بالذات، أما أنا فكنت على مسافة خمسين متراً إلى فوق. شاهدته يسقط كما شاهدت أبي محسن دحدح (54 سنة) وقد طوقه البرابرة وقتلوه برشقة رشاش عن كثب. كانت الطريق نزولاً تعج بالرجال، كانوا مئة ربما. اختبأت بين الصخور وكان الكتائبيون يمرون بقربي. كنت أرى أحذيتهم العسكرية وأسمع هواتفهم اللاسلكية. كانوا وهم يواصلون النزول نحو الطريق يتلصصون كالضباع.

خلال انسحابهم، توقف الكتائبيون في المزرعة وطلبوا من أمي أن تزوّدهم بالماء. فتشوا كل الغرف وهم يشتمون عائلة فرنجية والرئيس سليمان. تمكن صهرنا بالكاد من النزول من غرفته وجاء إلى غرفة الأولاد واندس بينهم في السرير. ولحسن الطالع لم يعثروا عليه لأنهم قتلوا بصورة منهجية كل الرجال في البيوت التي دخلوها في أثناء انسحابهم الدموي.

بعد فترة جاء الجيران وساعدوني على الخروج من المكان وصحبوني إلى البيت. بعدها حملنا جثتي والدي ومنير لكي ننقلهما إلى زغرتا، حيث عبرنا آخر العوائق ومخلفات معركة كرم-سدة.

بالفعل، إن المعركة الحاسمة قد دارت بين قريتي كرم-سدة وكفرفو، على مسافة خمسة كيلومترات نزولاً من المزرعة-القلعة، مزرعة آل دحدح.



الفصل السادس

معركة كرم ـ سدة

«على من يكون الموت أسهل، في اعتقادك؟ على الذين لهم ديانة أم على ذاك الذي يأخذ الأمر على طبيعته؟ الديانة تعزيهم كثيراً، أما نحن فنعلم أن ليس هناك شيء نخافه. الأمر يكون قبيحاً إذا أخفقنا فقط. الموت ليس قبيحاً إلا متى طال أمده وكان موجعاً إلى حد يعود علينا بالمهانة. هاك ما أنت محظوظ فيه، أترى؟ ما من شيء تخشاه من هذا القبيل».

ارنست هامنغواي
«لمن تقرع الأجراس حزناً» 1940.

عند الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين كانت الأجراس التي بادر إلى قرعها الأب يوسف يمين لا تزال في أوج نشاطها.. إذ بالإضافة إلى سيارة غالب فرنجيه وهي الأولى التي توجهت إلى إهدن، كانت سيارات تخرج من زغرتا سالكة الطريق الرئيسية الممتدة بطول عشرة كيلومترات حتى عرجس.

بعدها، تطالعك قريتا كرم ـ سدة وكفرفو بين المنعطفات الحادة

حيث يبدأ من هناك تسلق الجبل. بعد ذلك تتوالى سلسلة لا متناهية من المنعطفات الحادة حتى إجبع، مدخل إهدن. وعلى عكس غالب ومن معه الذين كانوا الوحيدين الذين اجتازوا المنعطفات قبل أن يقتلوا برصاص الرشاشات في أجبع، لم تتمكن أي سيارة من التقدّم أبعد من كرم ـ سدة، الموقع الرئيسي في دائرة الحماية التي أقامها الكتائبيون لحماية هجومهم الليلي. هناك دارت المعركة الحاسمة.

توقفت السيارات الأخرى عند المنعطف الأول بعد أن أمطرتها رشقات ثلاثة رشاشات ثقيلة على الأقل. الأول كان يطلق نيرانه على محور الطريق من فوق سطح ميتم كفرفو المشرف على القرية على ارتفاع خمسين متراً تقريباً. وفي اتجاه الصعود دائماً، على مسافة نحو مئة متر إلى اليسار، تجثم دبابتان قديمتان من أيام حرب السنتين في أرض مكشوفة. ركّز الرشاش الثاني فوق أحدهما. وإلى أبعد من ذلك نحو اليسار، وعلى مسافة مئتي متر فوق الطريق، يوجد دير مار يعقوب، القائم فوق نتوء متقدم يطل على الوادي. هنا كان مربض الرشاش الثالث، وإلى جانبه مركز قيادة الكمين المدعوم بأكبر تجمع للكتائبيين، وعددهم نحو مئة عنصر، بالإضافة إلى عشر مركبات، معظمها من اللاند روفر.

عند الساعة الخامسة فجراً تقريباً، طرق باب الدير كما يذكر الأب يوسف طحش: «كنا آنذاك ثلاثة كهنة نقيم في دير مار يعقوب التابع لأبرشية طرابلس. كان المطران أنطوان جبير بالذات هو الذي رد على طرق الباب صائحاً: «من أنت؟».

الجواب: «الأمن العسكري! نحن مكلفون بمهمة. إفتحوا!».

نهضت لمساعدة الأسقف، وكنت أنا من بادر لفتح الباب الذي كان خلفه نحو عشرين رجلاً لا أعرف أي واحد منهم. دخل ستة من

هؤلاء وساروا خلفي باتجاه الأسقف الذي بادرهم قائلاً: «إفعلوا ما تشاؤون، لكن خارج الدير!». ابتعدت مفسِحاً في المجال لمتابعة النقاش مع الأسقف. بعد ربع ساعة، نزل الرجال إلى الباحة، وبوشر إطلاق الرصاص. أمام الدير، كان الفناء يعج بالجنود الذين راحوا يخرجون معدات وجهاز راديو كان يعمل بدون انقطاع. كنت أسمع صدى طلقات رشاشات بصورة متقطعة ناحية الوادي».

على الطريق، في السيارات الأولى التي كانت تسير في الطليعة، كان يوجد ابن كوكب، يوسف بدوي اسكندر (١٦ سنة) وابن عمه، شهيد رومانوس اسكندر (31 سنة)، اللذان قُتلا معاً. ونجا السائق قبلان بدوي اسكندر بأعجوبة. وسقط أيضاً كل من يوسف بولس سمعان فرنجيه (54 سنة) وابنه أنطوان يوسف فرنجيه (21 سنة). ثم جاء دور طوني جريس بدوي فرنجيه (30 سنة)، وسمعان جريس ابراهيم فرنجيه (25 سنة) وشقيقه سايد جريس ابراهيم فرنجيه (27 سنة) الذين استدارت سيارتهم وتوقفت في عرض الطريق. لقد أطلقت عليهم نيران الرشاشات فيما كانوا يحاولون القفز باتجاه إحدى الحفر. ظلت نيران الكمين تطلق بغزارة على مدى نحو عشر دقائق، حاصدة أيضاً كلاً من موسى الرعيدي (42 سنة) وجوزف مخايل المقسيسي (٢٤ سنة).

بعد انتهاء هول المفاجأة وسقوط أوائل القتلى، صار إطلاق رصاص الرشاشات أقل تركيزاً، وراح يستهدف بشكل تقريبي المركبات التي كانت تحاول العبور. لقد كانت هذه السيارات تتلاحق شيئاً فشيئاً بكثير من الهدير، وتتكوم خلف سيارات المقدمة التي توقفت في وسط الطريق وشكلت رتلاً تحول إلى زحمة سير خانقة. أما راكبو السيارات، فبعد أن أوقفوها، راحوا يقفزون إلى الحفر ليحتموا فيها قبل أن يباشروا الرد على إطلاق النار من

الرشاشات الكتائبية الثلاثة. وراح آخرون يزحفون على بطونهم محاولين الوصول إلى مقدمة صف السيارات، باتجاه البيوت الأولى حيث كان قد ابتدأ إعداد الهجوم المضاد. كان الأهالي يفدون في مجموعات من ثلاثة أو أربعة رجال، حيث وصل معظمهم بين الساعة السادسة والساعة السادسة والنصف: جمهرة متعددة الألوان من رجال ونساء، بعضهم بثياب النوم، يحملون جميع أنواع أسلحة الحرب والصيد. أما عددهم فكان يقارب المئة شخص.

كان مهاجمو قصر فرنجيه قد فروا منذ ساعة تقريباً. أما مجموعات الحماية، المكلفة بمراقبة مداخل البلدة، فقد انسحبت سيراً على الأقدام. كانسةً كل مقاومة في طريقها. بعدها أخذت تسمع في الوادي عدة طلقات نارية آتية من إجبع بينما بدأت معركة كرم - سدة.

لقد أطلق الأهالي لاحقاً اسم «أنديانا جونس»[1] بسبب قبعته وبسالته المعروفة، على فوزي العريجي، الذي كان بين أوائل الذين عملوا على تنظيم الأهالي المتوافدين تباعاً. إنه صاحب مؤسسة تعنى بأشغال الحفر في المنطقة، وله معرفة تامة بتضاريس الأرض. إنه يتذكّر الأحداث كما لو أنها جرت بالأمس. اصطحبنا إلى الساحة لكي يؤمن «تمثيل الجريمة» كما يقول. لقد أقيمت بضع منشآت إضافية اليوم حول بيت أبو الحن وجرى توسيع الطريق. «لكن الشكل العام والنباتات لم تتغير إلا قليلاً منذ ثلاثين سنة» كما يقول فوزي العريجي وهو يواصل سرده:

- ما كدت أصل إلى مكان توقف السيارات في كرم - سدة، بعد المذبحة، حتى سمعت بضع طلقات متقطعة، ثم ساد الصمت.

---

(1) شخصية غربية سينمائية معروفة ببسالتها.

حسبنا في البداية أن الفلسطينيين قد عادوا وهم يحاولون احتلال إهدن. أمامنا، إلى فوق، في محيط دير مار يعقوب، كنا نلاحظ حركة ناشطة لسيارات لاند روفر مجهزة بمدافع. لم نكن ندرك بعد أن الكتائبيين هم الذين يهاجموننا. لقد كانت هناك بلبلة كبيرة إلى أن تقدّم رجل من صف السيارات مصدراً أوامر ونداءات إلى الهدوء ومانعاً الناس من الركض. بعدها جمع هذا الأخير كل حاملي السلاح استعداداً لشن هجوم مضاد وفتح الطريق.

ـ كان هذا أبو واكيم، الذي راح يؤنبنا. . . قائلاً «ماذا تفعلون؟ سنهاجمهم الآن من الخلف مروراً بالميتم. لكن يجب أن ننقسم إلى مجموعات!».

«أبو واكيم» هو الاسم الحربي لطنوس يمين الذي هو أحد القادة العسكريين لميليشيا المردة. كان إبان حرب السنتين يتولى قيادة جبهة زغرتا. إنه رجل شجاع، مستقيم، «شديد الحرص على الرجال»، ما أكسبه احترام الجميع وهو يتمتع بنفوذ طبيعي في لبنان الشمالي كله. لقد وضعت زوجته صبياً ـ واكيم ـ منذ شهر تقريباً، ولم يره لأول مرة إلا منذ بضع ساعات، لأنه منذ أكثر من شهر يمضي لياليه في القيام بدوريات في منطقة شكا، في جوار معامل الترابة حيث التوتر في ذروته بين المردة وكتائبيي بشير الجميل. إنه مقرب جداً من طوني بك، وقد نبهه عدة مرات إلى خطر نشوب مجابهة مع الكتائب، الذي يتفاقم يوماً بعد يوم، وإلى أن الوضع قد ينقلب في أية لحظة. كان الرهان مزدوجاً: اقتصادياً أولاً، إذ إنّ معامل الترابة ونظام مدفوعاتها تدر كثيراً من المال؛ وسياسياً، لأن الكتائب يحاولون أن يرسخوا أقدامهم في منطقة الشمال في محاولة منهم لإضعاف نفوذ آل فرنجية.

لقد بنى أبو واكيم كل خططه للدفاع عن سلامة منطقة زغرتا على

هذا التحليل، وحدد مواقع الضعف والاستهداف في شكا وليس في إهدن التي تعتبر قلعة منيعة. وعلى هذا، فإذا كان أمر ما سيحصل فمن المنطقي أن يكون ذلك في المنطقة الساحلية لا الجبلية. لكنّ ما جرى في كرم ـ سدة قد كذب توقعاته وأطاح بفرضيته وبكل التخطيط العسكري المنبثق منها. كان يبدو ضائعاً، إلا أنه بوصفه ضابطاً مجرباً، أدرك فوراً أن كرم ـ سدة ليست مجرد حركة لصرف الانتباه بل هي عملية ثقيلة هدفها بالتأكيد احتلال إهدن، وربما شخص طوني فرنجيه بالذات. لذلك، فإنّ كل الأشخاص الذين يعرفونه جيداً أجمعوا على ملاحظة واحدة: لم يعد أبو واكيم سوى ظل نفسه لأنه ربما بات يعلم أو كان لديه حدس بأن رئيسه وعائلته اغتيلوا، أو اغتيل بعضهم، بسبب هذا الخطأ في التقدير.

قبل أن يغادر أبو واكيم زغرتا على جناح السرعة، رأى من باب الحيطة أن يعرّج على بيت صديقه «أرز»، الذي هو مهندس إلكتروميكانيك وخبير بالأسلحة والمتفجرات، وكان اختصاصي المتفجرات لدى المردة، كما كان رئيس العمليات إبان حرب السنتين. كان مقرباً من طوني، ويعرف جيداً توترات شكا، وقد فهم سريعاً أن الكتائبيين خدعوهم باختيارهم إهدن. وبعد تشاور لفترة قصيرة، اتفق الرجلان على ضرورة الاسراع ما أمكن بنقل قطع مدفعية إلى مزيارة، لأنها تقع في مواجهة الدير، وهي تشكل أفضل موقع لقصف المراكز الكتائبية. أسرع أرز على الفور للتنسيق مع معاونه ـ «بونانزا» ـ حارس مستودعات الأسلحة والذخائر، وجمع الرجلان فرقة صغيرة كلفت نقل المدافع من عيار 57 التي يمكن أن توهم الكتائبيين بحصول هجوم مضاد واسع انطلاقاً من مزيارة. ونقل الهواوين من عيار 82 م م باتجاه كرم ـ سدة.

لقد شدّت هذه القرارات الاستراتيجية من عزيمة أبي واكيم

فاستعاد مؤهلاته للإمرة فوزّع رجاله المسلحين ثلاث مجموعات. اعتبر عن حق أن الدير يؤوي موقع الكتائبيين الرئيسي، فسار على رأس مجموعة أولى صعدت لاحتلال الميتم كي تهاجم دير مار يعقوب من جانبه الأيسر. وكُلفت مجموعة ثانية بمهاجمة الدير من الخلف مروراً بالدروب الجبلية، تحت الطريق، قبل أن تتمكن من الوصول إلى الحرج المتاخم لمباني الدير من الخلف. وأخيراً طلب أبو واكيم من مجموعة ثالثة أن تذهب سيراً على الأقدام إلى أسفل قرية مزيارة في الجهة المقابلة من الوادي كي تتصل برماة المدفعية اللذين أرسهم «أرز» ويمكن للمجموعة الثالثة، من هذا الموقع، أن تساند نشر مدافع الـ 57 لكي تقصف بمزيد من الفاعلية الدير والاحراج المحيطة به حيث تتمركز لوجستية الكتائب.

بعد إعطاء تعليماته الأخيرة، ولكن مع الاستهانة بقدرة النار المتمركزة في الميتم، انطلق أبو واكيم مكشوفاً على رأس مجموعته. فما كاد يجتاز نصف المسافة، وعند صنوبرة كبيرة كانت الشجرة الوحيدة في نتوء عار ليس فيه أية صخرة، سقط أبو واكيم (46 سنة) بنيران الرشاش إياه الذي يقطع الطريق منذ الخامسة صباحاً، فانهارت المجموعة عند وفاة رئيسها، وتوقفت عن التقدّم ثم راحت تتراجع، واحتمت خلف مجموعة من بيوت كفرفو، بينما كانت السيارات على الطريق لا تزال تتجمع.

من جهته تحرك فوزي العريجي على رأس المجموعة الثانية نحو الدروب الجبلية التي تصعد صوب الدير. فكان عليهم اجتياز الطريق. وعندما حاولوا ذلك انهمر رصاص عدة رشاشات كلاشنكوف لمنعهم من العبور، وتعرضوا للاستهداف برمانات هجومية لم ينجحوا في تفاديها إلا بفضل صخور مقلع صغير شكلت ملجأ آمناً لهم. وبعد انتظار دام بضع دقائق، عادوا إلى الهجوم:

– حين بلغنا الأمتار الأولى على الطريق، انهالت علينا النيران من ثلاثة رماة متمركزين داخل دبابات الجيش القديمة المهملة. رددنا عليهم ملتفين إلى يسارهم، لكنهم تمكنوا من الفرار بالقفز في سيارة جيب كانت تنقل جرحى صعوداً نحو الميتم. عاد الرصاص يطلق علينا مجدداً، من الدير هذه المرة. لم نتمكن من اجتياز تلك الطريق اللعينة حيث شاهدنا سيارة مدنية متجهة نزولاً، لكنها كانت سيارة معادية.

– رميت رمانة باتجاهها. أصيبت إصابة مباشرة في وسطها وانقلبت. تقدمت أكثر نحو الطريق وألقيت رمانات أخرى على سيارة ثانية كانت تتجه نزولاً هي أيضاً.

– قبل الساعة الثامنة بقليل، أخذت قذائف هاون تتساقط على الدير راسمةً باقات من نار وقاذفةً حجارة وكتلاً ترابية في كل اتجاه، واشتعلت النار في أشجار صنوبر. كان يبدو أن المجموعة الثالثة قد نجحت في الالتقاء مع رجال أرز. بينما كان هناك مدفعي يعمل على تصحيح الرمايات بواسطة هاتف متصل بمركز مزيارة، من بيت أبو الحن في كفرفو. هذه العملية كانت فعالة لأن كل طلقة جديدة كانت تحدث حالات فرار عند الكتائبيين صوب الجبل، على المنحدر المقابل باتجاه الكورة.

وفي الوقت ذاته، وصلت أخيراً مدافع هاون أخرى ورشاشات روسية من طراز دوشكا إلى كفرفو وجرى استخدامها بسرعة. كانت قذائف الهاون لا تزال مغلفة بطبقة دهنية. فبادرت النساء باستعمال فساتيهن لأجل تنظيفها، قبل إرسالها بواسطة سلسلة بشرية إلى رجال المدافع. إنَّ تضافر قصف هذه الهواوين مع قصف مدافع مزيارة قد أدى تدريجياً إلى جعل موقع الدير غير قادر على الصمود.

تشجع الأهالي بهذه التغطية المدفعية، فألفوا مجموعة أخرى انطلقت للهجوم على الدير في أثر فوزي العربجي الذي ما برح مسمّراً إلى جانب الطريق.

وتحت تأثير إعادة تمثيل الجريمة، أضاف هذا الأخير: «أشرت بيدي إلى وجوب الكف عن إرسال هؤلاء الشبان إلى المذبحة. صحيح أن الوضع بدأ يتغير، لكن رشاش الدير ما برح يُطلق نيرانه ليغطي انسحاب الكتائبيين. عند الثامنة والنصف فقط اكتشفت شعار الكتائب على أبواب سيارات الجيب وأدركت أنهم ليسوا فلسطينيين بل مسيحيون جاؤوا هكذا يذبحوننا في عقر دارنا، تحت جنح الظلام، كجبناء...».

أخذ الأب يوسف طحش يخشى أن تسقط قذيفة على الدير: «كنا نرى بوضوح من أين تطلق القذائف، من بساتين مزيارة». فجهز الكتائبيون حينذاك عدة مدافع ونشبت معركة صغيرة بالمدفعية الثقيلة مع القرية المقابلة. دامت المبارزة عشر دقائق تقريباً إلى أن أحس الكتائبيون بأنهم مهددون في ميسرتهم. وبالفعل، تمكنت مجموعة صغيرة تحمل دوشكا من التقدم نحو الميتم حتى أجبرت مطلقي الرشاشات على الانسحاب منه.

بعد أن تركت هذه المجموعة موقعها وواصلت تقدمها بنجاح باتجاه دير مار يعقوب، حاولت أن تركز رشاشها لأجل استهداف مركز القيادة الكتائبية الذي كان يتأهب للانسحاب. في أثناء هذه المحاولة سقط آخر ضحية في معركة كرم - سدة - سمير طنوس أبشي (24 سنة) - الذي أصيب إصابة قاتلة بشظايا قنبلة يدوية. لكن، وبالرغم من هذه الضربة القاسية الجديدة، وصلت المجموعة الصغيرة إلى فناء دير مار يعقوب، حينما كان الكتائبيون يرحلون لتوهم، تاركين وراءهم مركبات ومعدات.

ويختم فوزي العربجي روايته قائلاً: «واصل الكتائبيون انسحابهم سيراً على القدمين لأن كل الطرق باتت مقطوعة بعد ذلك. أطلقت آخر صلية من رشاشي على غسان توما، أحد ضباط الاستخبارات الكتائبية، الذي كان آخر المنسحبين مع وحدته. انتصر هجومنا المضاد، فيما كان المردة منشغلين بفتح الطريق للتلاقي مع الوحدات الأخرى التي كانت آتية حينذاك من كل القرى».

عند التاسعة والنصف توقف القتال. كانت طائرتا الاستطلاع لا تزالان تجوبان السماء التي غمرها نور الشمس.

كانت حصيلة معركة كرم - سدة ثقيلة: لقد سقط أحد عشر قتيلاً وثلاثون جريحاً بين الأهالي، وسبعة قتلى واثنان وعشرون جريحاً من بين الكتائبيين.

«حين توقفت انفجارات الهواوين، أسرعت لأفتح الدير أمام أهالي زغرتا الذين أخذوا يصلون إلى الفناء». هكذا ختم الأب طحش بدوره كلامه وكان غير مرتاح كثيراً. «العودة إلى الكلام عن تلك الليلة المأساوية يزعجه» كما يعترف. وهو لا يريد إعطاء مزيد من التفاصيل سوى التذكير بأن المهاجمين لم يستعملوا مباني الدير للدفاع عن موقعهم. «في أثناء فرارهم حاولوا أن يخلعوا الباب، لكن دون جدوى. هل كانوا ينوون اللجوء إلى داخل المبنى؟ على كل حال، إن محاولتهم فشلت فتوزعوا في الأحراج محاولين اللحاق برفاقهم في جبهة الشرق باتجاه بشري، ورحل آخرون عبر الدروب نحو الكورة. وأكد المطران أيضاً أن الكتائبيين لم يمكثوا في الميتم الذي تسكنه الراهبات والأولاد.

- لكن يا أبي، لماذا يُتهم المطران بأنه أوى المهاجمين؟

جاء الجواب لاذعاً: «هذا ليس سؤالاً يطرح يا بني وأعتقد أننا سنتوقف هنا!».

على كل حال، يوم المأتم تعرض المطران انطوان جبير والأب يوسف طحش لهجوم من جانب عائلات الضحايا. ونُعت رجلا الكنيسة حتى بالمجرمين. وإزاء اشتداد العنف الكلامي، اقتيد الرجلان بحزم إلى سيارتهما وطلب منهما مغادرة مراسم الجناز.

لقد طغت قصة أخرى على المأتم. هي قصة «أبو واكيم» الذي قيل إنه حين علم باغتيال طوني بك مشى عمداً إلى الموت برصاص رشاش الميتم. لكن اصدقاءه، وحتى «أرز»، لا يستطيعون تأكيد هذه القصة التي تشبه حكاية لهامنغواي.

هناك شيء أكيد، كما لا يفتأ يردد لي السلطان سليم: مع المأتم ستبدأ مجزرة إهدن تتخذ بعدها السياسي الحقيقي. إن مجزرة إهدن ــ أول اغتيال سياسي بين المسيحيين ــ سترسخ في قلب التاريخ السياسي للبنان وللعرب المسيحيين في الشرق كله. ويكرر السلطان القول: «هذا تاريخ لم يفصح بعد عن كل حيله...».

الفصل السابع

مأتم وطني

هلمّوا إلى مريم.
في مجيئكم إليها ستلاقون مواكب من الفرح؛
وحين تجدونها، سيكون لديكم جيش منيع كالجبال.
مريم هي الحصن، حامية كل من يلجأ إليها.
وصوت معجزاتها يتردد في أقصى العوالم...».
جرمانوس فرحات، في:
«مريم العذراء في لبنان»، جوزف غودار، 1908.

13 حزيران/يونيو 1978 الساعة هي السابعة ــ النقّاش بيت الرئيس سليمان فرنجية.

رنّ جرس الهاتف..

رفع السماعة مرافق الرئيس السابق، حليم أبو ضاهر.

ــ حدث شيء ما في إهدن. إنه الأب يمين الذي يريد مخاطبة الرئيس. وبعد أن وضع الرئيس سماعة الهاتف، دعا زوجته والسائق وخرجنا في الحال قاصدين زغرتا التي وصلنا إليها عند الساعة التاسعة تقريباً. مدى الطريق، لم ينبس بكلمة، قال فقط إن ثمة مشكلة مع الكتائب. لكننا كنا نقرأ في وجهه أمراً أسوأ بكثير.

– حين وصلنا إلى القصر في زغرتا، كان الناس كلهم هناك: السلطات المدنية والعسكرية، والأب يمين كان يؤاسي أمهات عائلات نائحات. قال الرئيس فقط: «أريد أن أصعد إلى إهدن، فوراً!».

حليم أبو ضاهر هو عم السلطان سليم، حارس الذاكرة. بقيَ في خدمة الرئيس منذ سنة 1958 حتى آخر سنة 1992. بالطبع كان هو مَن يأخذ بزمام الأمور مع الأب يمين، شارحاً للرئيس أنه يجب الانتظار قليلاً، حتى تصبح الطريق آمنة.

بيروت، الساعة الحادية عشرة – انعقد مجلس وزراء استثنائي في بعبدا برئاسة رئيس الدولة وحضور قيادة الجيش اللبناني وتقرر نشر نحو 1500 جندي بالإضافة إلى عشرين مدرعة من قوات الردع العربية[1] لفتح الطرق، وحراسة الجسور ومداخل القرى.

زغرتا، الساعة الحادية عشرة والنصف – الرئيس فرنجية ينطلق إلى إهدن. مرافقه الشخصي والأب يمين، وزوجته وحراس القصر، تحركوا خلفه في عدة سيارات. «التذكار الأكثر حضوراً في ذهني

---

(1) أنشئت قوة الردع العربية في 18 تشرين الأول/أكتوبر 1976 في أثناء قمة الرياض المصغرة، التي كانت معدة للمصالحة بين الرئيسين السادات والأسد؛ كانت سوريا تثابر على الدعوة لتبني خط متصلب تجاه إسرائيل فيما كانت مصر تعد العدة لعقد صلح منفرد في كامب دافيد مع إسرائيل. في تلك المناسبة، قدم الرئيس اللبناني الياس سركيس مضبطة اتهام حقيقية ضد فدائيي لبنان أمام الملوك والرؤساء العرب. ولأجل الفصل بين المنظمات الفلسطينية والحكومة اللبنانية، قررت القمة إنشاء قوة ردع عربية. وضعت هذه القوة تحت إمرة الرئيس اللبناني الياس سركيس، مع أن التشكيل الرئيسي فيها كان سوريا». وفي 25 تشرين 1976 صدقت القمة العربية في القاهرة قرار قمة الرياض. وباشر جنود قوة الردع العربية هذه مهمتهم في لبنان بتاريخ 7 تشرين الثاني/نوفمبر.

هو الصمت الكبير، الصمت الذي يلغي حتى صوت الريح»، يقول المرافق الشخصي.

كان في السيارة الفخمة الصاعدة ببطء نحو إهدن، وفي السيارات الأخرى، الأشخاص الثلاثة الذين يرافقون الرئيس – طبيبه الخاص اختصاصي القلب الدكتور يوسف الرهبان، والأب سمعان الدويهي، والنائب رينيه بك معوض[2] – وكلهم صامتون. منظر الطبيعة الأليف كان ينزلق على زجاج السيارة كما الأصوات الخارجية. ومع ذلك صادفوا سيارات مدنية أخرى مطلقة العنان لمنبهاتها. إنها سيارات إسعاف تنطلق نحو مستشفى زغرتا ناقلة جثث الليلة الوحشية مطلقةً العنان لصافراتها. لم يصل أي صوت إلى داخل سيارة الرئيس، كما لو أن كل واحد من ركابها كان منزوياً داخل ذاته، غائباً عن العالم المحيط به، غارقاً في صمت الآخر، على صورة هايدغر للانسان «الغريب في بيت الكائن». خرجت فجأة من الخلف إحدى سيارات الموكب وتجاوزت باقي السيارات كي تفتح الطريق وتنبىء بوصول الرئيس.

كان أنطوان يمين – رئيس جهاز استخبارات المردة – قد وصل إلى البلدة مشياً على الأقدام قادماً من زغرتا، وبلغ القصر في أعقاب انسحاب الكتائبيين: «كان وقع الفاجعة لا يخف». يتذكّر أن صفاً من الرجال تكوّن بصورة عفوية على طول جانبي الطريق الفرعية المؤدية إلى مقر الرئيس الصيفي، راسماً حدود المسير ومانعاً دخول قصر المجزرة. جرت السيارة كما على سكة حديدية

---

(2) انتخب رئيساً للجمهورية عام 1989، نتيجة اتفاق الطائف ثم اغتيل في 22 تشرين الثاني/نوفمبر في عملية تفجير لم تُتابع وبقي الفاعلون مجهولين.

في تلك القناة البشرية حتى باب المقر الصيفي حيث كانت الساعة تقارب الثانية عشرة والنصف.

ترجل الزعيم المسن من السيارة ورمق جميع الحاضرين بنظرة دائرية دون أن ينطق بكلمة، لكن مع التعرف شخصياً إلى كل واحد منهم. لكن سرعان ما توجه إلى قصر ابنه طوني الذي يبعد خمسين متراً، وإلى يمينه الأب الدويهي، وإلى يساره رينيه معوض، وخلفه طبيب القلب وفي يده حقيبة العلاج للحالات الطارئة. «أعرف كل شيء! دعوني أمرّ!». قال هذا وهو يبعد الأهالي المتجمهرين؛ جرى اجتياز المسافة بسرعة لكن بحركات مفككة كحركات شريط سينمائي يبث ببطء، كما لو كانت كل حركة تتطلب جهداً يفوق قدرة البشر.

يروي طبيب القلب أنه حينذاك «رفع الرئيس يده اليمنى صوب السماء وقال: «فدى لبنان!» وبعد بضع خطوات، رفع اليد ذاتها من جديد وردد «فدى لبنان!»، وكرر الحركة إياها للمرة الثالثة، لكن، هذه المرّة، توقف، وجمد في مكانه كتمثال من ملح. «كانت الجثامين هنا أمامنا...» كما يتذكر الدكتور رهبان.

سقطت الكلمات مسطحة على ذلك الصمت الذي يضيق بما فيه، كما لو أن شريط الصوت لم يعد متزامناً مع الصورة. الرجال، بعد أن ابتعدوا، لم يسمعوا النداء الأول. في المرة الثانية أدركوا أن الرئيس يتكلم عن لبنان فاقتربوا لكنهم لم يقرأوا الرسالة حقاً. وبعد، فأية رسالة يمكن صوغها في تلك اللحظة؟ غير أنهم في المحاولة الأخيرة غير المكتملة فهموا أن الرئيس يخاطب كرامة الرجال فيهم، مسؤولية المواطن فيهم، على الرغم من الحضور

العبثي للجثامين الممددة أمامهم، الذي يعيد الأمور بشكل عصي على الفهم إلى حقيقة الجريمة.

يتساءل الكاتب الزغرتاوي جورج فرشخ: «لو أنه ردد عبارته مرة رابعة أو خامسة أو سادسة «هل كانوا رددوها معه؟» معتبراً أنه في تلك اللحظة كان لبنان وإنقاذه يبدوان على قدر من البعد، وعدم المناسبة، والسخف، يمكن معه أن يبدو كأن هذا البلد لم يكن موجوداً قط، وأن كل نوع من التواريخ قد اضمحل فجأة، هنا، في الحفرة السوداء لمقر صيفي في بلدة إهدن»[3].

بالقرب من باب القصر، لم يسمع انطوان يمين نداء الرئيس لكنه يذكر فقط أنه رأى منكبَي الأب الدويهي العريضين ملتصقين بطيف أكثر هزالاً هو النائب معوض، حيث كان الاثنان يسدان المدخل في محاولة لمنع الرئيس من الدخول. استاء الزعيم من الحيلولة دون تقدمه، لكنه احتفظ بهدوئه، ونطق ببضعة تفسيرات كما لو أنه كان يبحث عن طريقه. استغرقت المفاوضات حوالى ثلاثين ثانية، دخل بعدها الرئيس يتبعه الأب الدويهي ورينيه بك وطبيب القلب. يقول أنطوان يمين إنهم مكثوا طويلاً في البيت.

«كانت الجثامين الثلاثة مكسوّة بقماش أبيض» يقول الدكتور رهبان. «اقترب الرئيس دون تردد من جثمان ابنه طوني وطلب من الرجال الحاضرين أن يزيحوا القماش. حرك رأسه وطلب كرسياً. لم يكن هناك ما يستدعي تدخل الطبيب، لكنه ظل في حالة ترقب، ملتقطاً كل ردة فعل، مسجلاً كل تفصيل من تفاصيل المشهد. انحنى أحدهم نحو الرئيس ليهمس شيئاً في أذنه. لكي

(3) جورج فرشخ، سليمان فرنجيه 1992 ـ 2002، منشورات بيسان، 2004.

يسمع الجميع بوضوح، أجاب الرئيس قائلاً بصوت عال وبذات القوة التي تكلم بها عن إنقاذ لبنان: «لا تخافوا! لا تخافوا! لا يتحركن أحد أو يقدمن على أي عمل. ستأخذ الأمور مجراها».

بعد ذلك، انحنى مجدداً على جثماني ابنه وكنته، ثم توقف طويلاً أمام جثمان الصغيرة جيهان وردد عدة مرات: «لماذا هي! أي ذنب اقترفت؟».

عند الظهيرة، نشر رئيس المجلس النيابي كامل الأسعد بلاغاً رسمياً جاء فيه: «إن رئيس المجلس وأعضاءه ينعون بمزيد من الأسف زميلهم العزيز المرحوم طوني سليمان فرنجية، الوزير السابق ونائب زغرتا، الذي توفي صباح يوم 13 حزيران/يونيو 1978. سيقام المأتم في بلدته زغرتا عند الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الأربعاء». وابتدأت مسيرة تقديم التعازي، ودامت حتى هبوط الليل دون انقطاع.

الأربعاء في 14 حزيران/يونيو 1978 ـ كان الرئيس الياس سركيس، مصحوباً بوفد رسمي ضم رئيس المكتب الثاني في الجيش جوني عبده، من بين أوائل الأشخاص الذين جاؤوا لتقديم التعازي إلى أسرة فرنجية عند الظهيرة، وقد حضر على متن مروحية للجيش اللبناني.

بعد استقباله، عرض له الزعيم الزغرتاوي كيف جرى الهجوم حسبما أمكن استقصاؤه واصفاً هذا الاغتيال بأنه «أكبر جريمة بحق لبنان». دام اللقاء نحو خمسين دقيقة، غادر بعدها الياس سركيس زغرتا والدموع تغشى عينيه.

وتوالت شخصيات أخرى على منزل الرئيس فرنجية: نائب رئيس الوزراء السوري جميل شيا؛ وزير خارجية سوريا عبد الحليم خدام؛ الفريق محمد الخولي ناقلاً رسالة من رئيس الوزراء

السوري؛ سليم الحص، رئيس الوزراء اللبناني؛ الجنرال فكتور خوري، قائد الجيش اللبناني؛ الرئيسان رشيد كرامي وأمين الحافظ؛ وعدد كبير من السياسيين والوزراء والنواب، وكبار رجال الدين وبينهم وفد من الأساقفة على رأسه البطريرك الماروني أنطونيوس خريش.

كان اللقاء يجري في قاعة الاستقبال. وكانت التقارير الحرفية قد سجلت لدى أمانة سر الرئيس فرنجية.

البطريرك: «ليكن الله في عونك يا فخامة الرئيس».

سليمان فرنجيه: «هذه المرة، جرحونا بمخالبهم. وهذا جرح عميق مسؤول عنه الضمير العالمي ليس الضمير اللبناني فقط. ودمعت عيناه، وتمالك نفسه وقال: «يجب أن يعرف الجميع ما فعلوا. قتلوا طفلة عمرها ثلاث سنوات وخمسة عشر يوماً. هذا شيء يدعو للرثاء، شيء فظيع!».

البطريرك: «نشاطرك المصاب... المهم الآن هو معرفة الدافع الرئيسي....».

سليمان فرنجيه: «وهل تصرف هؤلاء الناس بحسب دافع ما؟».

البطريرك: «أنت تعرف موقفي منذ لقائنا الأول. المؤسف أنهم لم يصغوا إلي. الآن يجب بذل كل شيء لإيقاف الكارثة. فأنا أتصور إلى أي حد يمكن أن تتدهور الأمور الآن...».

سليمان فرنجيه: «هل يمكن أن تكون أسوأ؟ لقد قتلوا العجائز، قتلوا قبلان ابشي عمره 110 سنوات وقتلوا الأطفال والنساء. أطلقوا قذائف RPG وأحرقوا سيارات. أيمكن أن يفعل المرء أكثر من هذا؟».

البطريرك: «هذه فعلة شنعاء، أوافقك على ذلك. عرفت بالأمر حوالى الساعة السادسة صباحاً. اتصلت فوراً برئيس الجمهورية. ثم

اتصلت هاتفياً بالشيخ بيار الجميل، وبكميل شمعون، لكنني لم أكن أظن أن الأحداث كانت قد بلغت هذه الدرجة العالية من العنف».

سليمان فرنجيه: «مئتا رجل مسلح هاجموا بيتاً واحداً في إهدن خالياً من السلاح والدفاع. كان طوني، خلافاً للعادة، قد شاء أن يمضي الشتاء في إهدن. لقد غدروا به، هو وعائلته».

البطريرك: «هذه قصة يصعب تصديقها. في لحظة أولى، قيل لي إنهم أخذوا أسرى فقط وبينهم طوني. قالوا لي الحقيقة فيما بعد».

سليمان فرنجية: «كنت آخر من عرف الحقيقة. صدقني!».

كان الرئيس سليم الحص قاعداً إلى يمين الرئيس، وتبادل حديثاً قصيراً مع نائب رئيس الوزراء السوري جميل شيا.

جميل شيا: «كيف يمكن أن تتدهور الأمور إلى هذا الحد بين أبناء البلد الواحد؟».

سليم الحص: «كنا بالضبط نسعى إلى الحؤول دون تدهور الوضع».

جميل شيا: «يجب توقع مثل هذه الأعمال الجنونية ما دام السلاح في أيدي المدنيين. كيف أمكن أن تتشكل من السكان المدنيين جيوش حقيقية مزودة إلى هذا الحد بأعتدة متطورة وحتى بمدفعية؟».

حاول الرئيس سليم الحص أن يعطي جواباً، لكن دون جدوى.

حوالى الساعة الثالثة من بعد الظهر تحرك موكب الجنازة. كان الدكتور رهبان يخشى من مضاعفات صحيّة، التي هي أمر ممكن دائماً عند رجل مسن، أضعفه الأسى وتعرض لأزمة قلبية مؤخراً، فنصح الرئيس بعدم السير على القدمين، وتحت حرارة شمس لا تزال شديدة، مسافة كيلومترين يفصلان الدار عن كنيسة السيدة. ونهاه البطريرك ورئيس الوزراء أيضاً عن ذلك عارضين عليه نقله

بسيارتهما، لكن بلا جدوى. بقي الرئيس فرنجيه متمسّك بالسير شخصياً في مقدمة الموكب الذي ينتظره، وقال: «أريد أن أرافق الرجال، وأن أبين لهم أننا دوماً واقفون على أقدامنا وأننا لا نخاف». أخيراً، أحاط به رئيس الوزراء سليم الحص وعدة وزراء في الحكومة، والوفد السوري، وممثلو عائلات زغرتا، النائبان معوض والدويهي والسادة سليم كرم وسيمون بولس. وسارت معه كل زغرتا ـ إهدن، ووفود من جبال الشمال، ومن جزء من لبنان، أي حوالى عشرة آلاف شخص تقريباً.

تروي راهبة ما جرى في ذلك اليوم قائلةً: «لقد تمّ تعليق رايات سوداء على الأشجار من قبل النساء، بعدها تحرك الموكب قبل أن ألاحظ صمتاً غريباً. كان صمتاً له من الهدير ما يضيق به الصدر. لا نأمة، لا زفرة. لا كلمة. لا طقساً دينياً. لا ترتيلة. لا صلاة. لا سيارة. لا موسيقى. لا نحيب. لا شيء من كل هذا! وإنما خطوات ثابتة باتجاه الكنيسة. فقط خطوات بشر، رقصة أقدام بطيئة في مدينة تجمدت. شوارع خاوية أمام هذا الحشد الذي كان يتدفّق كأمواج بحر أخرس، وصدور تغلي. كان يمكنك أن تسمع تفجراً لانفعالات وخفقات القلوب في هذا الصمت المخيم على الجميع، طيلة الوقت وطيلة الطريق التي لا آخر لها».

استغرقت المسيرة حوالى ساعة. عند الوصول إلى ساحة الكنيسة، أمسك الرئيس فرنجيه بيد الفتى سليمان الذي بجانبه، فيما كان طبيبه الخاص في جواره على الدوام. فجأة سرت همهمات ما لبثت أن تحولت إلى رعد مدو. فقد انحنى الرئيس على الصغير وضمه إلى صدره. الجمهور حولهما صار أشد كثافة، أشد ضغطاً. وبصورة تلقائية، فتح الطبيب ذراعيه وأمسك بأيد أخرى تشابكت حتى شكلت حول الجد وحفيده دائرة حماية مطبقة، حماية للأجساد

والأرواح من الأحداث الآتية. بضع دقائق وتلاشت الجلبة؛ «ذلك، أنه لو بدر في تلك اللحظة من أحد أي طلب لأصغر انتقام، لانقلب كل شيء رأساً على عقب» كما يتذكر القناص أبو جو.

عاد الرجال إلى أماكنهم لكن دون أن يبدو عليهم أنهم استعادوا حكمة فقدوها، أما النساء فقد دخلن الكنيسة، كنيسة سيدة زغرتا، التي لها مكانتها في ذاكرة كل الشماليين.

لقد بنيت هذه الكنيسة في القرن السادس عشر، وهي الكنيسة - القلعة التقليدية في القرى المارونية بأبوابها الجانبية المنخفضة كي تمنع دخول الخيل في حال الحصار. النوافذ الصغيرة والقناطر هي من الطراز الروماني، القناطر ذات رؤوس مشغولة بصورة جيدة جداً. هناك عقد مركزي يسند مجمل المبنى الذي ترك طابعه على أجيال من المسافرين: «كنيسة السيدة الشهيرة في زغرتا كانت تحكي فيما مضى تاريخاً كله صراعات: مستطيل ثقيل، ذو جدران قوية سميكة ويخترقها صعوداً خط مرامٍ ذات مشبكات حديدية. وهناك، بمثابة أبواب، مداخل سرية صغيرة تنفتح على نوع من النواتىء التي تحصن المبنى. ولو لم يكن هناك جرس صغير، لحسبت أني أمام بقية حصن قديم. كل هذا مصبوغ برائحة القتال، أو الدفاع على الأصح. وبالفعل، فإن قليلاً من الكنائس في لبنان كان موضوع بغضاء ومحبة كهذه الكنيسة... حولها تركزت الصراعات القديمة في زغرتا»[(4)].

كنيسة سيدة زغرتا، التي كرست لمريم العذراء، أضحت هيكل النساء وأمهات الضحايا اللواتي يندبن الموتى دون الاتّشاح بالسواد

---

(4) جوزف غودار .S.J، السيدة العذراء في لبنان، منشورات باريس - بون بريس، 1908.

لأن التقليد يمنع ارتداء ثياب الحداد حتى الأخذ بثأر الضحية. فجأة توقف الندب والنواح والعويل، حين دخل الأب يمين بصحبة البطريرك. لقد مر هذا الأخير أمام التوابيت التي تحوي الجثامين والتي وضعت على بنوك داخل الكنيسة، ثم توقف مطوّلاً أمام صندوق أبيض يحتوي جثمان الصغيرة جيهان الذي وضع في الكورس. وقبل أن يخرج، رسم إشارة الصليب وردد بصوت عال كي يسمع الجميع: «العنهم الله!».

وعاد العويل مجدداً، وعادت النساء إلى جلد أجسادهن وملابسهن ونتف شعرهن، متّحدات جميعاً في موسيقى راقصة يُراد بها كفارة وخلاص.

كتب غبريال داردو، المراسل الحربي في صحيفة فرانس - سوار، ما يلي: «واحد وثلاثون تابوتاً تملأ باحة الكنيسة. حول كل واحد منها نساء يبكين ويتفجعن. إنه مشهد أشبه بالهذيان. على ضوء الشموع، نلمح عائلات بكاملها متلاصقة حول والدة أو زوجة. الأنّات تتحول إلى صراخ عنيف لحظة انتزاع التوابيت بالقوة من عشرات الأيدي المتشبثة بها، لنقلها إلى المقبرة. هذا التدفق غير القابل للاحتمال يتناقض مع الصمت الثقيل المخيم على الحشد: ثمانية إلى عشرة آلاف شخص ربما، متكدسون في الساحة أمام المعبد. كهنة موارنة يرتلون صلوات الموتى أمام بطريركين من بطاركة الكنائس الشرقية، الماروني والأرثوذكسي. هناك أيضاً القاصد الرسولي، ممثلاً البابا، ومشاركاً في هذه المراسم المسكونية للألم. في الصف الأول، يقف رئيس جمهورية لبنان السابق سليمان فرنجيه، مقطب الوجه والشفتين».

أقام غبطة البطريرك الصلاة في ساحة الكنيسة حيث وضعت مقاعد للعائلة، التي شكلت قوس دائرة حول الرئيس والفتى

سليمان. بعد تلاوة الانجيل ألقى المطران نصرالله صفير نوعاً من عظة قال فيها: «لا شيء يمكن أن يعزي كائنات بشرية حلت بها مصيبة كهذه. مع صاحب الغبطة البطريرك مار أنطونيوس بطرس خريش، نشارك في هذا الحزن الذي لا يمكن أن تخفف منه أية كلمة. مع غبطته، ومع المونسنيور القاصد الرسولي، ومع أصحاب الفخامة، علينا جميعاً أن ننحني أمام هذه النعوش الواحدة والثلاثين، نعوش واحد وثلاثين شخصاً صاروا بعد الآن في السماء».

لم يخرج الأسقف نصرالله صفير، الذي صار البطريرك الجديد فيما بعد، عن شكلية وعن التقيّد بالأصول الليتورجية الصرف، وختم عظته بالنبرة المتجردة إياها: «نسأل الله بقلوبنا المفجوعة أن يحمينا من مصائب أخرى وويلات أخرى. نسأله أن يرأف بنا. وأن يسبغ على موتانا نعمته ورحمته ويسكنهم فسيح جنانه؛ وأن يحرر قلوبنا من الأفكار الشريرة بمحبته وبشفاعة سيدة زغرتا. آمين!».

أخذ الجمهور حينذاك يتحرك نحو دارة آل فرنجيه. من جهته ينوّه مراسل فرانس ـ سوار أيضاً بذلك الانطباع عن هدوء مختلف عن الضنى، محاولاً أن يستشف ما في داخل هذه الكتلة من الناس التي يخضع تحركها غير المنظم ظاهرياً لطقس غير مكتوب: «كان هناك خصوصاً ظاهرة جديدة في لبنان، الخارج لتوه من حرب المذاهب، آلاف المسلمين الذين جاؤوا يعربون عن تعاطفهم مع أولئك المسيحيين الذين كانوا حتى الأمس ألد أعدائهم. قبل الجناز، كانت سيارة مجهزة بمكبر صوت قد جالت في البلدة داعية باسم الرئيس فرنجية إلى عدم إطلاق الرصاص الذي يصحب مراسم الدفن تقليدياً. كان هناك تقيد تام بالتوصية، فلم يلاحظ وجود بندقية واحدة في الموكب».

عاد موكب الجنازة نحو القصر، لكن الرئيس رضخ هذه المرة للدعوة إلى العودة بالسيارة. لدى وصوله، وقبل البدء بتقبل التعازي، أومأ الرئيس إلى طبيبه الذي انتابه الرعب. فانحنى على الزعيم المسن الذي قال له: «اطمئن يا حكيم، ضغطي لا يزال 14». لم يصدق الدكتور رهبان أذنيه وعاد إلى مكانه محاطاً بنظرات متسائلة. سأله جاره طبعاً: «ماذا طلب الرئيس؟

ـ قال لي إن ضغطه 14»!

بعد بضع دقائق كانت زغرتا كلها تتحدث عن ضغط دم الرئيس، بينما كانت مسيرة تقديم التعازي في الصالون تتواصل. مرّ على هذه القاعة لتقديم التعازي نحو خمسين ألف شخص خلال أسبوع «كل قادة لبنان، من رجال دين وعسكريين ومدنيين مروا بهذه القاعة. هذا الاتحاد الذي كان يهرب من اللبنانيين في الحياة، أعيد اكتشافه لدى مراسم دفن»[5].

بعد ذلك، عاد الجمهور وتجمع حول القصر؛ كان يطالب بالثأر، على الرغم من كونه صامتاً. لكن الزعيم المسن جدد منعه لحمل السلاح وطلب من الجنرال تيودور مكاري[6]، رئيس الشرطة القضائية في جبل لبنان، أن يفعل اللازم لأجل ذلك. إنه أحد أبناء العائلات الخمس الكبرى في زغرتا، وضابط مقرب من الرئيس فرنجيه وابنه طوني. كان الجنرال مكاري قاطعاً: «استبعد الرئيس جذرياً كل شكل من أشكال الانتقام الفوري، معتبراً بحق أن أي

(5) Jonathan Randal, *Going All the Way: Christian Warlords, Israeli Adventures and the War in Lebanon*, The Viking Press, 1983.

(6) العميد المتقاعد تيودور المكاري كان قائداً للدرك اللبناني من سنة 1993 إلى سنة 1997.

عملية مضادة ضد بلدة بشري، أسوة بكل أنواع الانتقام، من شأنها أن تكمل المؤامرة التي دبرها الكتائبيون، دعاني إلى اجتماعاً أمنياً عند الساعة التاسعة مساء».

أمام زعماء العائلات الخمس الكبرى، فرنجيه، معوض، الدويهي، كرم، مكاري، ومسؤولي المردة العسكريين، افتتح الرئيس فرنجيه الاجتماع قائلاً: «أنا هنا أمامكم وسأقبل كل ما تقررونه!»، ودعا ابنه الثاني روبير إلى جانبه. هو الذي سيحل محل طوني في رئاسة المردة وعائلات الشمال. ثم تكلم زعماء العائلات على التوالي. بالرغم من تحذير الرئيس، دعا بعضهم إلى القيام بردّ في الحال، وظل آخرون منهم مترددين ومعتبرين أن ما يجب فعله أولاً هو إعادة تكوين الجهاز العسكري للمردة.

وضع روبير فرنجيه حداً لجدال لا يؤدي إلى أي شيء، ثم التفت إلى الجنرال مكاري الذي كان صامتاً بشكل مستغرب. «لقد فتحت الكتائب الآن حرباً تدوم مئة سنة...» قال الضابط بنبرة عالية وأضاف: «وكما شرح لنا الرئيس فرنجيه، ليس المطلوب أن نسهل لعبة العدو، هذه اللعبة التي تستهدف انفجار لبنان بالتواطؤ مع دول خارجية»؛ ثم حدد مهمتين تتسمان بالأولوية: القيام على الفور بإعادة تكوين مجلس سياسي لعائلات زغرتا، وإنشاء بنية عسكرية علانية تتولى تنشئة وتسليح مجموع قوى الشمال.

لقد تحدثت صحيفة «لوريان ـ لوجور» في عددها الصادر بتاريخ 16 حزيران/يونيو 1978، عن تأليف «جهاز قيادة سياسية» يراد له أن يصون الوئام بين إهدن وبشري بغية «إحباط المؤامرة الهادفة إلى انفجار أمتنا وشعبنا». واختتم النص بالكلام عن ضرورة «الحفاظ على علاقات لبنان العربية». الموقعون: الأب سمعان الدويهي، رينيه معوض، سليم كرم، وروبير فرنجيه. ونشرت الصحيفة في

العدد نفسه جواب بيار الجميل، رئيس حزب الكتائب الذي يقول فيه: «أنا متأكد من أن موقّعي البيان يعرفون في قرارة نفوسهم أن ما حدث في الشمال مؤخراً ينم عن ثورة أهالي المنطقة على الظلم وأعمال التنكيل التي تنزل بهم، وعلى جو القمع والارهاب السائد في هذه المنطقة».

ونشرت صحيفة «لوريان ـ لوجور» بياناً جديداً للرئيس فرنجيه يوم الأحد في 18 حزيران/يونيو 1978، استعاد فيه الكلمات التي قالها بالأمس أمام رؤساء بلديات 52 بلدة في شمال لبنان: «منذ أقدم العصور، لم تمس قط كرامة أهل زغرتا والمنطقة، وذلك حتى ظهور هذا الميكروب الذي حاول بذر الشقاق بين أبنائنا. إعلموا أننا تمنينا في اجتماعنا مع ممثلي زغرتا أن نراكم جميعاً ـ وعلى الأخص الكهنة في أثناء قداس يوم غد الأحد ـ تنقلون إلى الأهالي ما يلي: على كل شخص غُرر به أو خُدِعَ وانضم إلى حزب الكتائب أن يقوم بفحص ضميره ويقيّم أعمال هذا الحزب، الأمر الذي يضعه أمام خيارين؛ فإذا اعتقد هذا الشخص أن هذه الأعمال تخدم مصلحة لبنان، فليبقَ منتسباً إلى الكتائب ولكن خارج هذه المنطقة، التي لن يبقى فيها كتائبي واحد. وإذا كان غير مقتنع، فعليه حينئذ أن يسلم الأسلحة التي أعطاه إياها الحزب في مهلة لا تتعدى آخر شهر حزيران/يونيو، كما عليه أن يعلن خطياً انسحابه من هذا الحزب. وفي هذه الحالة الأخيرة سنضمن له أن لا يتعرض لسوء. هذا ما أردت أن أقوله لكم في هذا اللقاء وأرجو الكهنة أن يبلغوه إلى أبناء رعاياهم». وختم الرئيس فرنجيه بيانه قائلاً: «أعدكم بألا يُمَس أي كتائبي منذ هذه اللحظة وحتى آخر الشهر».

هكذا ابتدأت حرب المئة سنة...

الفصل الثامن

كوكب، عذراء الشهداء السوداء

عندما وصلت مرتا إلى حيث كان يسوع، ورأته، جثت على قدميه وقالت له: «ربي، لو كنت ها هنا، لما مات أخي».

إنجيل يوحنا، الفصل 11، الآية 32.

أتاح توسع تاج طرابلس الكبير قيام أبنية ذات خمس إلى ست طبقات إلى الجهة الشرقية من زغرتا التي تتحول شيئاً فشيئاً إلى ضاحية استراحة للمدينة الساحلية الكبيرة. فالمدافن هنا، وسط بستان زيتون، شديدة الخضرة، غرست فيها أشجار الصنوبر والسرو، وهي تنبسط في انحدار خفيف بدءاً من الباب الحديدي الكبير الذي يحميها من الكلاب الشاردة. لقد دفنت في هذا المكان ضحايا المجزرة ما عدا طوني فرنجيه وزوجته فيرا وابنتهما الصغيرة الذين يرقدون في كنيسة العائلة قرب قصر إهدن.

كانت كوكب اسكندر قد أُعلمت بمجيئنا، فانتظرتنا عند الباب الكبير. لقد بدت قصيرة القامة، غارقة في ثياب سوداء، يلف

رأسها منديل، بينما يداها تمسكان بشال. رحبت بقدومنا وسألت عما إذا كانت الطريق كثيرة المشقة.

فقدت كوكب اسكندر ولديها. الأول، سركيس (24 سنة) كان مستخدماً في كازينو لبنان، وقتل في أثناء الهجوم على القصر بينما كان يحاول مهاجمة الكتائبيين بالالتفاف حول ضريح آل كرم[1]. والثاني، بدوي (17 سنة) قتل مع ابن عمه شهيد رومانوس اسكندر (31 سنة) في إحدى السيارات التي كانت في الطليعة، على كمين كرم – سدة الدموي[2]. نقلت جثة الابن البكر إلى زغرتا في صندوق سيارة، قبل انسحاب الكتائبيين حيث كانت كوكب تنتظر إلى جانب الطريق، فتعرفت إلى قدمي ابنها. طلبت أن ينقل جثمانه إلى البيت، وهناك عملت على غسل جسده وألبسته بذلةً كانت تعتبرها هي الأجمل.

حوالى الظهر، حمل إليها المردة ابنها الثاني وابن عمه معتذرين عن هذه «الهدية» الأخرى؛ إنه تعبير محلي مرادف لألم كبير. استعادت الطقس إياه، وسهرت إلى جانب الشبان الثلاثة في البيت حتى يوم المأتم. ظلت بعد ذلك فترة طويلة غير قادرة على العودة إلى بيتها فكانت تنام في الكنائس، خصوصاً كنيسة مار أنطونيوس البادواني التي قصدتها لأجل الصلاة خلال الليلة الفاجعة، قبل أن يُحمل إليها ولداها، لأنها كانت «توجس خيفة».

وجهها الملتف بقماشة سوداء، الذي نحتته ثلاثون سنة من الحداد، احتفظ بشيء من الشباب وينبعث منه هدوء كبير. بضعة غضون حول العينين، حول الشفتين، ترتعش على وقع كلامها

(1) انظر الفصل الثاني: 13 حزيران/يونيو 1978، الهجوم على القصر.

(2) انظر الفصل السادس: معركة كرم – سدة.

العذب. تقول إن الشمس والهواء النقي هما أفضل مستحضرات التجميل عند النساء هنا. العينان المتوقدتان، الشديدتا السواد، تواكبان نبرات كلماتها الهادئة، لكأنها تحكي قصة صارت غريبة عنها، مع مرور السنين.

لم تصعد أبداً من جديد إلى إهدن. وهي تمضي معظم أوقاتها هنا، في المقبرة وفي كنائس زغرتا، حيث تعتني بصيانتها. إنها تسهر على كل القبور، «أولادي» كما تقول. لقد كرست حياتها بعد ذلك للموت، مادة يد العون إلى العائلات التي فقدت أحد أفرادها، بإعداد مراسم الجنازة. ويستعين بها الناس لتنظيم السهر على الموتى، كما لأجل زيارة الأشخاص الذين أدخلوا المستشفى ولا عائلة لهم.

في متاهة القبور، يلاحظ هنا وهناك وجود الكراسي وبعض الطاولات الصغيرة التي وضعت عليها أكواب فبدت وكأنها جزر مسكونة بالحياة. مررنا أمام ضريح «أبو واكيم»، القائد العسكري في المردة الذي قتل في كرم ـ سدة. صورتان مؤطرتان موضوعتان على الأرض: في الصورة الكبيرة، يظهر باللباس العسكري والقبعة ذات اللون الكاكي، وفي الأخرى التي يعلوها شعار المردة، يظهر في اللباس العادي، وله لحية كثّة جميلة.

قبر ابْنَي كوكب يشبه شقة صغيرة بلا سطح، تغطي جدرانها إحدى العرائش، ويخترقها مدخل ـ ممشى مرصوف ببلاط من الحجر ذي اللون الفاتح وتحف به أشجار ـ شجرة إجاص وأشجار سرو ـ وتزينه آنية غرست فيها ورود. الغرفة الرئيسية في العمق مغلقة، وفوق الباب الحديدي المطلي بالأبيض، ترتفع صورتان لسركيس وبدوي في إطارين معدنيين بيضويي الشكل مغروسين في

الجدار. في قمة الجدار أحواض زهور تحيط بمذبح صغير تؤوي مشكاته صورة للعائلة المقدسة. ويعلو الضريح الصليب الماروني.

رسمت كوكب له إشارة الصليب وتحققت من أن أية نبتة لا تحتاج إلى الماء، وذلك بحركات أليفة لكأنها كانت في بيتها، في مطبخها أو حديقتها. «من فرط ما بكيت لم يعد لي أن أكره أو أصفح»، تقول هذا وتضيف: «ماذا يمكن لك أن تقول لسفاحين؟ ماذا يمكن أن تقول لهم غير أن يسامحهم الله، لأن هذا في مقدوره، لا في مقدوري. لكن حتى لو كانت كلمة الصفح هذه لم تعد ذات معنى بالنسبة إلي، فهذا هو خياري، لأنه لا يجوز أن يتكرر هذا الجنون. يجب أن يتوقف هذا الصراع».

وتغني كوكب، شأنها كل يوم:

«واقفة عالشط بكاني السفر
مين متلي تعذب وقدي نطر
ويلاه، ويلاه
مع كل موجة يا ماما ناطرا منكن خبر
مع كل موجه ناطرا بدي سلام..
يا طير الطاير قلن
ولادي كتير شتقتلن
وقلن بيحبن قلبي
انكانن ضايعين عن دربي
دخلك عادربي دلن..
ويا عالم لا تلوموني
عافراق ولادي عميو عيوني
أنا صرت مجنوني

راحو ولادي يا ذلي
وين بدي إحكي أنا
يا ذلي...

بينما كانت كوكب تغني، انضمت إلينا انطوانيت فنيانوس: أخت الوحيد. إنها تحب هذه الأغنية الحزينة. كانت مكشوفة الرأس، ترتدي معطفاً أسود، وكانت تحمل في قلادة صورة أخيها الذي لقبته البلدة بالوحيد، لكونه الصبي الوحيد لعائلة تضم ست بنات. على غرار ابن كوكب البكر، قتل أنطوان يوسف فنيانوس (22 سنة) بينما كان يحاول إبعاد الكتائبيين المنتشرين حول ضريح آل كرم. وكدليل على دوام الأسى ظلت انطوانيت عازبة على الرغم من توبيخ كوكب التي تعاملها معاملة الأم.

مدفن الوحيد يقع على بعد حوالى خمسين متراً. إنه أقل أبهة من قبر ابني عائلة اسكندر لكنه يماثله من حيث الاتقان، وهو يذكر بالطراز المعماري المربوع للكنائس المارونية. الحجر الأبيض إياه، والباب الحديدي إياه. وقد وضعت صورة الوحيد، بالأسود والأبيض، على شاهدة من الرخام ركزت فوق القبر بين آنية فيها زهور اصطناعية بهت لونها: زنابق زرقاء، ورود حمراء، وأقحوانات. وهناك شاهدة أخرى مثبتة بالاسمنت على حجر القبر رسم عليها صليب ونقشت فوقها أربعة أسطر بالعربية الفصحى:

«ربي لو كنت ها هنا، لما مات أخي» مار يوحنا، الفصل 11، الآية 32، وهذا التأريخ: 1954 ـ 13 حزيران/يونيو 1978.

رحبت بنا أنطوانيت. إنها أقل بلاغة من كوكب. تتذكر الانفجار الذي أيقظ النائمين في البيت، وكيف امتشق شقيقها بندقيته ومضى ولم يعد. بعد ذلك أخبرها جيران أن لها «هدية». وجدت جثمان

أخيها مسجى في كنيسة مار يوسف في زغرتا. «لا أقدر أن أغفر! أتوجه إلى العلي القدير وأسأله شيئاً واحداً: أن يتسلم ذوو سمير جعجع هم أيضاً هدية كالتي أنعمت بها السماء علينا. وأن يغلقوا باب بيتهم ويلقوا المفاتيح من فوق السطح».

تشرح لنا ذلك قائلة: «بعد المأتم، ألقى والدي مفاتيح البيت من فوق السطح: لم يعد للبيت من نفع، يمكن أن يهدم لأنه لم يعد هناك ذرية من الذّكور». أخواتها اليوم متزوجات وتعيش كل منهن في بيتها الخاص، لكن بموت الوحيد «انبترت العائلة» تقول أنطوانيت. مضيفة أن سندها الوحيد كان الوزير سليمان فرنجيه، «الوريث». كان حينذاك في الثالثة عشرة من العمر. وكان تلميذاً داخلياً في مدرسة الأنتينه في الرابية (شمال شرق بيروت).

بعد ثلاثين سنة، ما زال الوريث يذكر تماماً آخر نهاية أسبوع أمضاها مع العائلة: «اغتنمت الطقس الجميل فأمضيت يوم الأحد بكامله في الجري مع أصحابي عبر البساتين دون أن أرى والدي كثيراً. كنت أخشى أن يوبخني، فدخلت مساء، بصورة شديدة التكتم، إلى غرفتي، ظاناً أنه لن يراني. لكن خداع والدي ليس بالأمر اليسير لأنه كان ينتظرني ليقول لي: أنت لا تأتي إلا في نهاية الأسبوع ولا أراك حتى! قبّلني ثم أطفأ النور في غرفتي. صباح يوم الاثنين، نهضت عند الخامسة كالعادة، كي أعود إلى المدرسة الداخلية. طلبت مني المربية فدوى أن لا أوقظ أمي التي كانت تعبة، وهي كانت تنهض دائماً لتودعني قبل أن أرحل. هكذا لم أر مجدداً لا أبي ولا أمي ولا أختي الصغيرة. آخر صورة لها عندي، في تلك اللحظة، هي التي تظهر فيها تقطف الكرز وهي على ذراعي أمي».

غداة المجزرة، في السيارة التي كانت تعيده إلى زغرتا، تذكر

سليمان فرنجيه أن عمته لمياء هي التي أخبرته أن الكتائب قتلوا أمه وأخته الصغيرة. «حالت شهقاتها دون مواصلتها الكلام ولم أشأ أن أسألها عن أبي آملاً أن يكون باقياً على قيد الحياة»، يضيف: «لكنني حين وصلت، رحت أبحث عنه بعينيّ بين الناس المحتشدين حول القصر، وفهمت من النظرات التي تلقى عليّ أنه رحل هو أيضاً. أخذتني عمتي إلى جدي الذي ضمني بذراعيه الحاميتين، تلك الحماية التي دامت طويلاً... عمي روبير كان في لجة الانهيار. أعطاني قميصاً أبيض يحمل صورة لأبي فارتديته فوراً ووقفت باعتزاز».

قام روبير، شقيق طوني بك، بتأمين انتقال زعامة الأسرة، وهو نوع من الوصاية على العرش دامت حتى سنة 1990 ـ إلى أن بلغ ابن الشهيد نضجه السياسي. بطريرك أسرة فرنجيه هو الذي كرسه زعيماً ليلة إقامة مأتم ضحايا إهدن بالذات، بحضور ممثلي العائلات الكبرى وقادة المردة العسكريين[3]. يقول كثيرون إن روبير لا يزال يحتفظ حتى اليوم بشيء من التأثير الذي يحمي ابن أخيه، هذا الذي بات مذ ذاك ينهض بزعامة الشمال السياسية.

في إهدن، يسكن روبير دار أبيه الصيفية التي تبعد مئة متر عن قصر الجريمة. تتصدر الصالون صورة كبيرة للرئيس سليمان، الذي يبدو أن سلطته ما زالت تسوس أصغر مجريات الدار التي تستقبل في ضحى كل يوم أحد، بحسب التقليد الموروث، أهل البلدة والأصدقاء والحلفاء من المناطق الأخرى، وحتى من الخارج. هذه اللحظة هي مناسبة للتحدث في شؤون الساعة، المحلية منها

(3) انظر الفصل السابع: مأتم وطني.

والدولية، والتقدم بمطالب ومباشرة وساطات في كل نوع من القضايا. روبير فرنجيه ذو ثقافة واسعة، ويتمتع لدى مواطنيه بإعجاب مشوب بشيء من الخوف: «لعله آخر الزعماء التقليديين» يقول عنه واحد من أقرب أصدقائه إليه. كلمة زعيم، بالمعنى الحرفي «هي لفظة تركية تعني فئة معينة من أصحاب المقامات العثمانيين. والزعيم هو صاحب الزعامة، هو الآمر العسكري الأعلى»[4].

الوجه التقليدي للزعيم، المنبثق من سلالات طويلة للسلطنة العثمانية، كان موضوع دراسات كثيرة، تاريخية وأنتروبولوجية. ولايزال تحليل البقايا المعاصرة للزعامة بعيداً عن الانتهاء. «الزعيم يجسد صورة شخص ذي نفوذ، يحوز قدرة تراتبية حصرية تتجلى في صلاحيات توجيهية. وبالمقابل، إذا صح أن الزعيم يتمتع بقدرات حصرية وغير اعتيادية، فإن شرعيته تجد قاعدتها في الطاعة الاختيارية أو غير الاختيارية من قبل المحيطين به. وهو، في الاطار الخاص بلبنان، قائد سياسي يتمتع بالدعم من جماعة محددة محلياً ويحافظ على هذا الدعم عن طريق الاعتناء أو التظاهر بالاعتناء بمصالح أكبر عدد ممكن من المحسوبين عليه. بتعبير آخر،

(4) يذكر جان دوني سبعة معان لكلمة زعيم: 1) الضامن؛ 2) الناطق باسم، 3) رئيس طائفة غير مسلمة (بطريرك... الخ)؛ 4) رئيس شرطة القاهرة؛ 5) لقب فخري، زعيم الجيوش؛ 6) رئيس حزب، الزعيم زغلول باشا؛ 7) صاحب إقطاعة تسمى زعامة. ورد هذا في كتاب بالانكليزية عنوانه الزعامة في المنظور التاريخي للمؤلف أرنولد هوتنغر، في بوليتكز إن ليبانون، منشورات ليونارد بيندر، نيويورك، لندن، سيدني، 1966.

الزعيم هو ذاك الحائز على قدرة سياسية، المدعوم من جانب فئة، والساعي إلى زيادة عدد الأشخاص السائرين في ركبه وإلى زيادة شرعيته الشعبية التي هي حجر الزاوية في مؤسسة الزعامة»[5].

وتوضح إليزابيت بيكار قائلة: «إن مآل اللقب، والوظيفة، في النظام السياسي اللبناني، يتوقف على طاقاته التجددية، عن طريق تشجيع تحول الزعيم من رئيس عسكري إلى مقاول سياسي، ما يفسح المجال أمام أفراد، وخصوصاً أمام سلالات عائلية، إلى الاحتفاظ بالهيمنة على التبادل السياسي بين الدولة وأبنائها، ساعة فقدان أولئك الأفراد والسلالات احتكار العنف المسلح لينتقل (نظرياً) إلى يد الجيش الوطني»[6].

لكن حتى لو شهدنا عودة الوظيفة العسكرية إلى البروز مجدداً في مراحل التأزم كحرب السنتين، فإن صورة الزعيم بحسب تعريفه الجديد، ظلت باقية بعد عودة الاستقرار الذي دشنته اتفاقات الطائف سنة 1989؛ فإنه بعد دورة حربية دامت خمس عشرة سنة، حدثت في لبنان «سيرورة شبيهة بتلك التي يصفها نوربير إلياس فيما خص نبلاء البلاط خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر في فرنسا: «تمدن» الزعماء من خلال استحواذ الحكم المركزي على احتكار العنف الجسدي الشرعي، و «الانعام عليهم» أي إعطاء كل واحد منهم وظيفة رسمية، إدارية، أو وزارية، أو تدبيرية، أو

(5) جميل معوض، الروابط العائلية والزعامة السياسية–الحالة الزغرتاوية، مذكرة لنيل شهادة الأستاذية في العلوم السياسية، جامعة القديس يوسف، بيروت، 2005.

(6) إليزابيت بيكار، سوسيولوجيا تاريخية للزعيم، في التاريخ، والمجتمعات، والحكم في الشرقين الأدنى والأوسط، منشورات غوتنر، 2001.

قضائية. وهكذا عوضتهم وظيفتهم الجديدة كوسطاء عن إضعاف قدرتهم العسكرية»[7].

إن روبير فرنجيه، الذي يدرك تماماً هذه التطورات التي يطيب له أن يسخر منها، يتكلم كرجل سياسة، وإن كان ثقل الثلاثين سنة من «الحداد إياه الذي ترزح تحته كوكب وأنطوانيت» كما يقول، «لايزال يمسكه عن القيام بتحليل صاف للأحداث وخصوصاً لأسباب المأساة؛ ذلك أنه في آخر الأمر، ستظل الأسباب إياها تحدث النتائج إياها ما دامت لم تظهر في وضح النهار».

يرى روبير فرنجيه أن النزاع مع الكتائب يرقى إلى صيف 1974، حين حاولت أسرة الجميل أن ترسخ قدميها في الشمال باسم محاربة الاقطاعية. «قام بيار الجميل بجولة في قرى الجبل، ساعياً إلى حمل الناس على الترحيب به والتهليل له»، كما يقول، «قبل أن يحضر إلى وليمة كبيرة أقامها والدي الذي كان رئيساً للجمهورية. كان هذا مخالفاً لأدب السلوك السياسي، أو ببساطة، لأدب السلوك.

لقد كان جو الوليمة سيئاً بالطبع، وعاد بيار الجميل إلى بيروت في حالة غيظ شديد إذ عاين أن ما كان يصفه بالاقطاعية يصمد أمام نزوعه إلى الهيمنة على المناطق الشمالية».

كانت نوازع الكتائبيين الشمالية تسعى منذ البداية إلى الاستناد إلى وسطاء محليين في العائلات القديمة ضد المردة حيث كان لدى بيار الجميل طموح مجنون مزمن إلى وضع اليد على الزعامة المسيحية بكاملها، بما فيها المناطق الشمالية الصامدة، التي كانت تمثل على الدوام مشكلة جيوسياسية لسلطة بيروت المركزية

(7) إليزابيت بيكار، المرجع المذكور آنفاً.

ولعلاقات لبنان الدولية ليس مع الجارة سوريا وحدها، بل مع بلدان الخليج أيضاً، بالنظر إلى وزن الطائفة السنية في طرابلس. في الواقع، إن محاولات الكتائب الرامية إلى السيطرة على الشمال لم تنجح قط.

العائق الرئيسي أمام هذا الطموح المجنون يعود أيضاً إلى كون سكان جبال لبنان الشمالي يقيمون، من منذ زمن طويل، علاقات وثيقة مع سكان جبال سوريا. فإن أسرتي الأسد وفرنجيه حليفتان منذ خمسينيات القرن المنصرم. «وبالتالي فإن للشمال حساسية إزاء كل نوع من أنواع الاتفاق أو التحالف مع إسرائيل» يقول روبير فرنجيه، «بينما أن هذا الخيار هاجس قديم يسكن أسرة الجميل، الواثقة من أن الدولة العبرية ستساعدها في إقامة «دولتها المسيحية» المتحالفة مع تل أبيب، وفقاً لاستراتيجيا بن غوريون وأتباعه القديمة القائمة على استخدام الأقليات كأدوات».

إن هذه الاستراتيجيا القديمة والمشاريع الاسرائيلية الرامية إلى تقسيم لبنان عادت إلى الظهور سنة 1954، حسبما جاء في يوميات موشي شاريت[8] وزير خارجية إسرائيل الأسبق الذي كان يعارض بشراسة ما يدعوه «مغامرة جنونية». يروي الرجل ما دار في اجتماع جرى يوم 27 شباط/فبراير مع بن غوريون ووزير الدفاع موشي دايان:

«هذه هي اللحظة بالنسبة إلى موارنة هذا البلد ليعلنوا قيام الدولة المسيحية». أجبته: «بأن هذا عمل جنوني، إذ إنه سيكون على لبنان المسيحي أن يتخلى عن صور وطرابلس والبقاع، وما من قوة في

(8) موشي شاريت، يوميات (8 أجزاء)، منشورات معاريف، تل أبيب، 1978.

العالم تستطيع أن تعيد لبنان إلى أبعاده السابقة للحرب العالمية الأولى، خصوصاً لأنه بذلك سيفقد علة وجوده الاقتصادية».

في اليوم ذاته، كتب بن غوريون في رسالة وجهها إلى شاريت أن «لبنان هو الحلقة الأضعف في الجامعة العربية»، وأن «المسيحيين يمثلون الكثرة بين سكان لبنان التاريخي، وهي كثرة ذات تقاليد وثقافة تختلف عن تقاليد وثقافة سائر أعضاء الجامعة العربية». وأضاف: «ضمن حدوده الموسعة (ارتكبت فرنسا أخطر خطأ بتوسيعها حدود لبنان) لا يتمتع المسلمون بحرية العمل كما يشاؤون، حتى ولو كانوا الكثرة، وذلك خوفاً من المسيحيين. فإنشاء دولة مسيحية يكون بالتالي عملاً طبيعياً؛ لهذه الدولة جذور تاريخية (...). في الظروف العادية، يكون هذا مستحيلاً عملياً (...)، أما في لحظات البلبلة، والثورة أو الحرب الأهلية، فالوضع يتغير وينادي حتى الأضعفون بأنفسهم أبطالاً. قد تكون هذه هي لحظة إقامة دولة مسيحية في جوارنا. هذا يعني، هذه المرة، أن كل الطاقة وكل الوسائل يجب أن توضع في خدمة هذا الهدف، وأنه من واجبنا أن نعمل في كل الاتجاهات لأجل إحداث تغيير جذري في لبنان. هدفنا لن يتحقق دون إعادة رسم حدود جديدة لهذا البلد. إلا أنه إذا استطعنا أن نجد رجالاً في لبنان، أو مغتربين لبنانيين، قادرين أن يحشدوا صفوفهم لأجل إنشاء دولة مارونية، فإن الحدود الموسعة ووجود عدد هام من السكان المسلمين لن تعود ذات نفع لهم»[9].

بتاريخ 16 أيار/مايو 1954، وعلى أثر اجتماع لمسؤولي الدفاع والشؤون الخارجية، كتب شاريت في يومياته، متحدثاً عن رئيس

(9) المرجع المذكور آنفاً.

الأركان موشي دايان: «من الضروري، في نظره، أن نعثر على ضابط، ولو برتبة رائد بسيط، نستطيع حمله على التعاطف معنا أو شراءه، وندفعه إلى إعلان نفسه منقذاً للموارنة. حينذاك يدخل الجيش الاسرائيلي لبنان، ويحتل ما يلزم من الأراضي، ويقيم نظاماً مسيحياً يتحالف مع إسرائيل. وتضم أراضي جنوب الليطاني إلى إسرائيل، ويكون كل شيء كما يرام». ويقول شاريت، في 28 أيار/مايو 1954 أيضاً: «أيد رئيس الأركان خطة ترمي إلى شراء ضابط (لبناني) يرضى بأن يكون دمية تتيح للجيش الاسرائيلي أن يتظاهر بأنه يلبي نداءً إلى تحرير لبنان من ظالميه المسلمين»[10].

وقد أكد صعود الناصرية سنة 1958 وما نجم عن ذلك من مجابهات في لبنان بين القوميين العرب وأنصار الخيار الأميركي للرئيس شمعون، اهتمام الأجهزة السرية الاسرائيلية ببلد الأرز. كذلك أدت مذبحة الجيش الأردني للفلسطينيين سنة 1970 ـ أيلول الأسود ـ إلى تكثيف وجود أنصار ياسر عرفات في لبنان. لكن بالرغم من اتفاقات القاهرة، الموقعة قبل سنة، والتي كان يراد لها أن تنظم العلاقات بين الحكومة اللبنانية ومنظمة التحرير الفلسطينية، فقد راحت هذه العلاقات تتدهور حتى وصلت إلى المجابهة المكشوفة بين المنظمات الفلسطينية والميليشيات المسيحية، الأمر الذي فاقم اهتمام تل أبيب بموئل المقاومة الفلسطينية الجديد.

يخلص روبير فرنجيه، القارىء النبيه لما كتب شاريت، إلى القول: «خلال السنوات الأربع التي تلت صيف 1974، اتضحت مكونات المؤامرة، ونضجت. كان المشاركون فيها ينتظرون اللحظة

(10) المرجع المذكور آنفاً.

المناسبة، الوضع المؤاتي والسواعد القادرة على وضعها موضع التنفيذ. لم يعد هناك سوى توسل اللعب على الخصومات المزمنة بين زغرتا وبشري، وإيجاد أو افتعال ذريعة تبرر لاحقاً شن عملية عسكرية بمثل هذه الضخامة على بلدة وعلى بيت بلا دفاع».

الصعود إلى أسباب مجزرة إهدن يمر بشخصية طوني فرنجية وتاريخه السياسي. فعند الخروج من حرب السنتين، كان النجم الصاعد الفتي في الطبقة السياسية اللبنانية يفرض وجوده كواحد من أبرز الوجوه للفوز برئاسة الجمهورية المقبلة، فكان بهذه الصفة عائقاً جدياً أمام طموحات آل الجميل السياسية، وأمام رغبتهم في الهيمنة على المعسكر المسيحي، وفي آخر الأمر، أمام حلمهم بالوصول إلى الحكم.

الفصل التاسع

طوني بك، الوريث المصعوق

«وأسوة به وبكل واحد من هؤلاء الرجال، وعت إسبانيا المنهكة ذاتها أخيراً - كما يفعل ذاك الذي فجأة يسائل نفسه ساعة يلقى الموت. فالمرء لا يكتشف الحرب إلا مرة، لكنه يكتشف الحياة مرات».

أندريه مالرو، الأمل، 1937.

كل اللبنانيين يذكرون شتاء 1940 - 1941 الذي كان قاسياً بنوع خاص، وكان سكان لبنان الشمالي يعانون تقنيناً قاسياً. ليلة عيد رأس السنة، ونظراً لنقص المواد الغذائية، تجمع أهالي زغرتا بصورة عفوية في الساحة الرئيسية، ومضى وفد منهم إلى طرابلس ليقدم عريضة شكوى إلى سليمان فرنجية. وحين عاد هذا الأخير إلى زغرتا، أمر بفتح مستودعات المؤن وتوزيع أغذية على المتظاهرين.

تؤكد الذاكرة المحلية أنه في طريق عودته إلى زغرتا عن طريق قهوة التل، قرب منزل أسرة روميه، قبالة سينما لاكونكورد، ارتمت

امرأة عجوز أمامه، وأخذت تلطم صدرها طالبة: «الله يرزقك صبياً!». وبالفعل، كانت إيريس فرنجيه حاملاً. وفي أول أيلول/ سبتمبر 1941 ولد طوني فرنجيه في إهدن، في دار العائلة.

الفتى طوني، كان بحسب قول أخواته محباً ولكن مشاغباً، ولم يكن تلميذاً مجتهداً على الدوام. لذلك كان والده، يطلب منه تسميع مثائله وتحضير واجباته مع شقيقه روبير وشقيقاته سونيا ولمياء ومايا. لقد ارتاد مدرسة القرية منذ عامه الرابع وكان يذهب إليها منفرداً على ظهر حمار يبقى مربوطاً إلى الشعرية طيلة فترة الدروس. لكنه، أي الحمار، كان يضل الطريق أحياناً، وهذا ما كان يسمح لطوني أن يتذوّق متعة الهروب من المدرسة. واصل دراسته في مدرسة إخوة المدارس المسيحية في طرابلس، وتخلّى عن عاداته كجبلي صغير، وتكيف بدرجة متفاوتة مع جو دراسة أكثر اجتهاداً، منتظراً عطلة نهاية الأسبوع ليعود إلى أجواء زغرتا وإهدن، حيث يمارس ولعه بركوب الخيل؛ كان يمتطي حصانه يومياً ويلتقي في طريقه فلاحين من مناطق الوطى، والمطل، وعين الوحش، وجوعيت، والحرج، والدواليب، أو بكوفا الذين اعتادوا على رحلاته.

في يوم من الأيام، تأخر كثيراً في العودة إلى البيت. فخرج ذووه وأصدقاؤهم يبحثون عنه في أماكن اعتاد أن يرتادها، لكن. . . دون جدوى. عثروا عليه أخيراً في بساتين حمينا حيث كان الليل قد هبط وهبطت معه عبارات اللوم: «ماذا تفعل هنا حتى هذه الساعة؟». فأجاب «أتعلّم فن الفروسية. قيل لي إن بطل لبنان بالفروسية يأتي كثيراً إلى هنا، بين أشجار التفاح والاجاص في حمينا، مع أصحابه»، احتفظ على الدوام بهذا الولع بركوب الخيل، وبالجياد والفضاءات الرحبة.

حصل على سلاحه الأول، بحسب التقليد المحلي، وهو صبي صغير، ومنذ أن كان في السادسة من العمر، كان والده سليمان يدربه الرماية وفنون الصيد.

في سنة 1958، غادر طوني فرنجيه مدرسة الفرير في طرابلس والتحق بمدرسة القلب الأقدس في بيروت. استعاد طيلة هاتين السنتين متعة الهروب من المدرسة. هنا، حل اهتمامه بالفتيات والتزامه بالسياسة محل ركوب الخيل ونزهات تلامذة الثانوية. أما زواجه فلم يخرج على تقاليد أهالي الشمال. لقد وقع وهو في الحادي والعشرين من العمر في غرام فتاة لبنانية تقيم في مصر كانت قد جاءت لتمضية الصيف في جوار إهدن، عند خالها الوزير السابق جبران نحاس، إنها فيرا قرداحي. لقد كان الوقت ضاغطاً لأن خطيبته مضطرة أن تعود إلى مصر، لكن بما أنها لم تبلغ سن الرشد بعد، كان عليها أن تحصل على موافقة والديها إذا فكرت في الزواج. لكن طوني، العاشق الولهان، قرر أن يتجاهل هذا العائق وأن يلجأ إلى التقليد القديم. تقليد «الخطيفة»، واضعاً بذلك الجميع أمام الأمر الواقع. انتقل موكب «الخطيفة»، ببركة الأب يوسف يمين، بين زغرتا، وطرابلس، والضنية، وعكار، وكسروان. وبعد تدخل البطريرك الماروني في أيلول/سبتمبر 1962، عقد قران طوني وفيرا في كنيسة مار الياس في أنطلياس، العامية.

هذا الوضع الجديد عزز ميله إلى دراسة تاريخ لبنان وإلى الاهتمام بالشأن العام، الذي ظهر عبر متابعته المتزايدة لنشاط أسرته. كان عمه حميد فرنجيه نائباً منذ سنة 1934، وقد اشترك فيما بعد في إقامة الدولة الوطنية والنظام النقدي اللبناني، وكاد

يصل إلى رئاسة الجمهورية بعد ولاية الرئيس بشارة الخوري الأولى الذي انتخب مرتين سنة 1943 وسنة 1950[1].

لقد قطع طوني دراسة إدارة الأعمال التي كان قد باشرها عند الآباء اليسوعيين بجامعة القديس يوسف في بيروت، لكي يتفرغ كلياً للسياسة. فكان هو الذي يستقبل الناس في مكتب والده في طرابلس، متمرناً بذلك على مزاولة العمل السياسي في لبنان وعلى إدارة التوازنات المعقدة بين المصالح الخاصة والمصلحة العامة.

في سنة 1969، سنة اتفاقات القاهرة[2]، اتخذ مبادرته البارزة الأولى إذ أقام أول معسكر للتدريب العسكري في بنشعي القائمة على مرتفعات تشرف على زغرتا، فكان بذلك أحد أوائل المسؤولين السياسيين اللبنانيين الذين استبقوا المجابهة المقبلة مع المنظمات الفلسطينية. وأكد منذ تلك الحقبة المبادىء الثلاثة غير القابلة للمسّ التي كانت في أساس حياته السياسية: 1) الدفاع عن

---

(1) لقد كان الشخصية السياسية بالنسبة إلى العائلة قبل أن يصاب بنزيف دماغي سنة 1957، فيما كان سليمان فرنجية بصفته «قبضاياً» يتولى زعامة القاعدة العشائرية والإقطاعية في زغرتا. وبصفته وزيراً للخارجية فقد تولى المفاوضات الفرنسية اللبنانية في شأن الاتفاقيات النقدية سنة 1948. كان مرشحاً لرئاسة الجمهورية غير أنه لم يفلح في تولي المنصب بسبب لعبة الإنكليز وما رافقها من دسائس ـ نكوث بعض النواب بوعودهم لانتخاب حميد فرنجية، فذهبت أصواتهم، بتأثير حجج الإنكليز المالية المقنعة، لصالح كميل شمعون رجل لندن.

(2) وقعت اتفاقيات القاهرة في 3 تشرين الثاني/نوڤمبر 1969 بين القائد الأعلى للجيش اللبناني، الجنرال إميل البستاني ورئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات. سمح هذا البروتوكول العسكري لمنظمة التحرير الفلسطينية باستخدام أجزاء من الأراضي اللبنانية (خصوصاً العرقوب في الجنوب) للقيام بأعمال مقاومة ضد إسرائيل، والتزمت هذه المنظمة في الوقت ذاته باحترام سيادة لبنان.

لبنان السيّد، الحرّ والمستقلّ؛ 2) رفض كل بديل طائفي؛ 3) الحفاظ على المصلحة الوطنية يتقدم على المصالح الخاصة.

وأفاد من شغور مقعد والده النيابي بعد انتخابه رئيساً للجمهورية، فأمسى نائباً عن زغرتا في 25 تشرين الأول/أكتوبر سنة 1970، وفتح مكتبه الخاص في طرابلس، ووجه إلى والده التحية العامة التالية:

«أتمنى أن تكون للبنانيين رب الأسرة الذي عرفته فيك. في تلك اللحظة فقط ستنفتح أبواب الأمل على مصاريعها أمام الجميع. الأمل بأن يتساوى كل اللبنانيين أمام القانون. الأمل بأن يسود النظام في ظل القانون. الأمل بأن يكون لبنان لجميع مواطنيه دون تمييز بين الأغنياء والفقراء، بين المالكين والمحرومين. الأمل بأن تتمتع الطبقات العاملة بأفضل ظروف العمل وبمساواة حقيقية في الفرص. الأمل بأن يتمكن الشعب من المشاركة في أعباء الحكم والادارة ضمن إطار الحرية والديموقراطية الحقيقية. الأمل بأن تتاح للشبان المؤهلين إمكانية وضع مؤهلاتهم في خدمة بلدهم الذي هو بحاجة اليهم. حينذاك، سيفاخر اللبنانيون، مثلي، بأن يكونوا أبناء أب معروف باستقامته، بكرهه للطمع بالربح، الصفتين الأوليين بين صفات ذاك الذي بات أول لبناني يحمل لقب «الفارس النبيل»[3].

ابتداء من تلك اللحظة، باتت حياته ممتزجة بالتوترات اللبنانية والشرق أوسطية، وألقى، عند ظهوره لأول مرة في البرلمان، خطاب النائب الأصغر سناً الذي بثته الاذاعة اللبنانية:

«أود في هذه المناسبة أن ألتزم بثلاثة أمور أمام هذا المجلس النيابي. إكراماً لفخامة الرئيس سليمان فرنجيه، كما للسيد حميد

(3) صحيفة النهار، 25 تشرين الثاني/نوفمبر 1970.

فرنجيه الذي أحمل التزامه ورؤيته، أتعهد بأن أدافع بعناد عن الحق في وجه الظلم، مع بقائي مخلصاً لمواطني في الشمال خصوصاً وللشعب اللبناني عموماً. تجاه الشباب، أتعهد بأن أبقى أميناً لرسالتهم مدافعاً عن عزمهم على بناء لبنان جديد. أخيراً، أتعهد أمام نفسي بأن أمثل وأخدم الشعب، وأن أرد له ما ائتمنني عليه وأن أعود إلى مكاني بينه، لأنني أفضل ألف مرة أن أكون معه لحماية ومساندة عمل الرئيس من أن أكون إحدى الدمى في مسرح ظلال يراد له أن يعكس صورة حكمه الخاص».

وأعاد في عدة مناسبات تأكيد مفهومه للعمل البرلماني ولدور النائب: «مواطن عادي كلفه ناخبوه بتأدية مهمة محددة، لكن دائماً لما فيه الخير العام». وكان مدافعاً شرساً عن النموذج الديموقراطي الذي قال عنه، مستشهداً بونستون تشرشل، إنه ليس الأفضل بل الأقل سوءاً بين الأنظمة التي نعرفها، وعمل جاهداً على تأليف كتلة برلمانية محورية، لا «وسطية» على الرغم من تسميتها من جانب الصحافة بـ «الكتلة الوسطية الجديدة»، وإنما قادرة من موقعها أن تؤدي دور الحكَم وأن تكون وازنة عند اتخاذ القرارات الكبيرة التي تقرر مستقبل البلاد. كانت «مجموعة طوني» تضم النواب فؤاد غصن، وحبيب كيروز، وباخوس حكيم، وبطرس حرب، وعبد المولى أمهز.

في سنة 1973 عين طوني فرنجيه وزيراً للبريد والبرق والهاتف. قالت صحيفة كل شيء إن طوني، بوصفه ابن رئيس الجمهورية، ليس «سوبر وزير» على الاطلاق، وليس هناك من شيء يشير، في أداء الخلية الرئاسية، إلى أنه يتمتع بمعاملة مميزة[4]. ونوهت

(4) كل شيء، 31 آب/أغسطس 1974.

صحيفة الحياة السعودية، بالتاريخ إياه بأنه «لو كان كل الوزراء اللبنانيين يديرون شؤون وزاراتهم أسوة بالوزير ابن رئيس الجمهورية، لكانت إدارات الدولة اللبنانية تتمتع بصحة أفضل كثيراً مما هي عليه اليوم، إذ إنها غارقة في حالة من الجمود والفساد الزاحف». لقد جاء هذا الوصف في ظل وضع غير سليم بنوع خاص حيث كان عدد من المناصب الوزارية يغذي انبعاث طائفية بدائية كان الرئيس فؤاد شهاب (1958 ـ 1964) قد وصفها بـ «نظام تقاسم الجبنة». إن انحلال أجهزة الدولة هذا لم يكن غريباً عن نشوب أحداث 1975 التي أغرقت لبنان في خمس عشرة سنة من الحروب بين الأشقاء.

مع الالتباسات التي رافقت عقد اتفاقات القاهرة في تشرين الثاني/نوفمبر 1969، ومن خلال انتهاكاتها الباكرة والمتعاقبة، أحس طوني باقتراب أيام السوء وقام بمبادرات كثيرة ومداخلات لأجل مواجهة «المؤامرة»، داعياً إلى «حوار وتفاهم وطني»: «علينا أن نصوب وحدة لبنان وسيادته وسلامة أراضيه؛ لأن هذا البلد يحمل رسالة عربية وإنسانية أتاحت له أن يصمد وأن يتقدم على الرغم من كل الأطماع الخارجية الأخيرة»، هذا ما نادى به في البرلمان قبل يوم «السبت الأسود» (بداية الحرب) ببضعة أيام. في ذلك اليوم، يوم 13 نيسان/أبريل 1975، كان الرئيس يخضع لعملية جراحية صغيرة. وفي جلسة مجلس الوزراء الذي انعقد مساء ذلك اليوم قال الرئيس إن «أيدي السوء قد صممت منذ زمان طويل على إغراق لبنان في الفوضى، فوضى داخلية وإقليمية».

إن تقاطع التوترات الاقليمية والدولية مع الوجوه الداخلية للأزمة قد شكل «مزيجاً متفجراً». وأدرك طوني فرنجيه منذ البداية أن هذا المزيج قد يفضي، لا إلى حرب أهلية داخلية، بل إلى نزاع إقليمي

أو دولي يستعمل المكونات اللبنانية أدوات له، ويكون في ذلك مأساة لن يستطيع اللاعبون المحليون التحكم بها: «لنعلم جيداً أنه ستُفرض علينا هذه الأزمة التي تأتينا بالدرجة الأولى من الخارج وأنه سيكون علينا أن نبذل كل ما في وسعنا لنتحاشى أن نكون مجرد دمى، إن لم أقل ضحايا راضية». واستشهد طوني فرنجيه مباشرة بالترتيبات المصرية الجارية لعقد صلح منفرد مع إسرائيل.

كان الشمال في كثير من الأحيان، أشبه بميزان الطقس في تاريخ لبنان والمنطقة المحيطة به. من ذلك مثلاً أن منطقة طرابلس ـ زغرتا شهدت تفاقماً سريعاً للأحداث منذ التوقيع على اتفاقية سيناء بين القاهرة وتل أبيب في أيلول/سبتمبر 1975. ففي أول أيلول/سبتمبر وقّعت مصر وإسرائيل على الاتفاقية الثانية لفك الاشتباك في سيناء، التي وضعت الدولة العبرية في مأمن من كل هجوم مصري، فيما سمحت لتل أبيب بإعادة نشر قواتها على الحدود الشمالية، في مواجهة لبنان وسوريا. على كل حال، إن المعارك الأولى الواسعة النطاق دارت في الشمال. لهذا، إبان حرب السنتين، «انكفأ طوني فرنجيه إلى معقله الشمالي، ليس بدافع من غريزة إقليمية موروثة، بل لأنه كان يعتبر أن المعركة ستحسم هناك بالضبط...» كما يقول الجنرال تيودور مكاري.

كان المقصود في مرحلة أولى صدّ تقدم المنظمات الفلسطينية الطرابلسية بالصمود في جبهة زغرتا. «في هذا الاطار، تبين أن الاستعدادات العسكرية لوزير المواصلات كانت في محلها تماماً». يضيف الجنرال: «كانت استراتيجيا طوني فرنجيه ترتكز على ثلاثة مبادىء: على المنطقة أن تصمد، معتمدة، على الرغم من كل ما قد يحصل، على قدراتها الدفاعية الخاصة المتجسدة في زعيم؛ هذه الضرورة لوحدة المنطقة يجب أن تفرض نفسها وتحل محل

الخلافات العائلية الماضية؛ أخيراً، يجب أن تتحرك المناطق الأخرى على هذا النحو بالذات لأجل الحفاظ على وحدة وطنية بين الطوائف».

واجه اللبنانيون السنة 1976 بقلق مشروع. فقد خسر كثير من العائلات المسيحية والمسلمة ابناً أو قريباً، وخسرت عائلات أخرى قسماً من أموالها، وباتت البلاد تعاني من إحدى آفات الحرب: الهجرة. وقنصليات فرنسا وكندا وأستراليا والولايات المتحدة تتعرض لهجوم حقيقي من جانب طالبي التأشيرات في حين أن الأزمة الأساسية كانت لا تزال بعيدة عن أي حلول ممكنة. إن تلك السنة المفصلية تستدعي التذكير ببضعة أحداث:

في 13 آذار/مارس، طالبت مجموعة من النواب بعزل الرئيس سليمان فرنجيه، وفي اليوم ذاته التحق العقيد انطوان بركات وجنوده بقصر بعبدا ليدافعوا عن الشرعية.

وفي 15 آذار/مارس، أمر الرئيس السوري حافظ الأسد الصاعقة وجيش التحرير الفلسطيني، الموالين لسوريا للتدخل مردداً: «الحل سيكون سياسياً!».

وفي 21 و22 آذار/مارس دفعت الزمر الفلسطينية - التقدمية - حسب تعبير تلك الحقبة - بوحداتها إلى حي الفنادق الكبرى والواجهة البحرية في بيروت. وابتدأت في الوقت ذاته معركة الجبل.

وفي منتصف نيسان/أبريل اجتازت الدبابات السورية الحدود اللبنانية في المصنع وتقدمت في سهل البقاع.

وفي 8 أيار/مايو، اجتمع 69 نائباً في فيلا منصور لانتخاب الياس سركيس رئيساً للجمهورية.

وفي 16 أيار/مايو استقبل الرئيس السوري كريم بقرادوني،

مرسلاً من قبل الرئيس سركيس، وعرض عليه خطة السلام اللبنانية.

وفي 21 أيار/مايو أعلن الرئيس جيسكار دستان أن فرنسا مستعدة لإرسال «قوة فصل» إلى لبنان.

وفي أول حزيران/يونيو، دخل 8000 جندي سوري مدعومين بمئتي دبابة إلى لبنان. وفي الأيام التي تلت، واصلت هذه القوة السورية تقدمها باتجاه بيروت.

وفي 22 حزيران/يونيو، طوقت الميليشيات المسيحية تل الزعتر. ودارت معركة حامية جداً أدت إلى سقوط المخيم في 10 آب/أغسطس.

وفي 23 أيلول/سبتمبر، أقسم الرئيس الياس سركيس اليمين الدستورية في فندق شتورا بارك أوتيل. بعد ذلك بخمسة أيام، شن الجيش السوري عملية واسعة على الميليشيات الفلسطينية - التقدمية.

وما بين 12 و15 تشرين الأول/أكتوبر، دفعت دمشق بقواتها إلى صيدا وحطمت المقاومة الفلسطينية.

وبعد مضي شهر، باشرت قوات الردع العربية، المؤلفة من وحدات سورية بصورة رئيسية، تنفيذ مهمتها في لبنان.

في آخر سنة 1976، سجل مآل حرب السنتين انعطافاً جوهرياً: بعد أن جسد طوني فرنجيه هذه المقاومة في وجه التطورات التفكيكية الداخلية والخارجية، فرض نفسه كواحد من رجال البلاد الأقوياء، بما في ذلك «خارج حدود لبنان الشمالي»، كما ينوه أيضاً الجنرال مكاري. في أواخر سنة 1976، أخذ اسم طوني فرنجيه يتردد في مختلف الأوساط السياسية والدبلوماسية بوصفه «مرشحاً ممكناً» لرئاسة الجمهورية اللبنانية. وذهب عدد من الصحافيين حتى إلى كتابة أن «طوني فرنجيه سيكون رجل الولاية

الرئاسية القادمة...». في حديث له مع مجلة الصياد، طرح عليه سؤال «أتعتقد أنك ستكون يوماً ما مرشحاً للانتخاب الرئاسي؟» فأجاب: «لكل شيء وقته. كل شيء يتوقف على الظروف. الأمر الأكيد هو أنني سأواصل العمل، مهما حصل، في سبيل مصالح بلادي. مثل هذا القرار لا يمكن اتخاذه إلا تبعاً لمعطيات ليست متوافرة الآن». وفي الحديث إياه أوضح وزير الاتصالات رؤيته لبلاده قائلاً: «لبنان القديم لن يستطيع العودة، نحن لا نريد أن تتكرر الأخطاء إياها. البلاد التي نريد أن نبنيها هي بلاد موحدة، متطورة، سيدة، تجمع معظم اللبنانيين. الذين صنعوا النظام السابق أنجزوا قسطهم من العمل. لكن الوضع الاقليمي والدولي يتطلب لبناناً جديداً يجب اختراعه».

وفي حديث إلى مجلة الجمهور بتاريخ آخر نيسان/أبريل 1978، أوجز طوني فرنجيه هذه المرحلة المفصلية كما يلي:

«حين نتكلم عن قوات الردع العربية، يجب أن نرجع إلى مصادرها، خصوصاً إلى أول حزيران/يونيو 1976 يوم دخلت القوات السورية لبنان كي تساند المسيحيين من جهة، ومن جهة أخرى، كما قال الرئيس الأسد، لأنه لن يرضى أبداً بخلق إسرائيل ثانية في الشرق الأدنى. لقد تدخل الجيش السوري في لحظة كانت فيها القوى المتواجهة تتطلب تدخل قوة ثالثة لوضع حد للقتال، بعدما غاب كل ما يجمع بين هذه القوى. ولا أبوح بسر إذا قلت إن الرئيس الأسد اتخذ هذا القرار خلافاً لرأي معظم السفراء المعتمدين لدى دمشق، وإنه بقراره هذا كان يعلم تماماً أن النتيجة لم تكن مضمونة سلفاً. وقد زاره سفير دولة غربية كبرى لينبهه إلى أن بلاده قد لا تستطيع أن تضمن حياد إسرائيل إذا تورطت سوريا في لبنان. وحذت حذوه دول أوروبية أخرى، ناهيك عن العواصم

العربية التي بعثت إليه برسائل تنحو هذا المنحى. اضطلع الرئيس بمسؤولياته، وأتاح تدخله عودة الاستقرار. بعد حصول هذه النتيجة، هرعت البلدان العربية إلى عقد مؤتمري الرياض والقاهرة لأجل تحويل القوات السورية إلى قوة ردع عربية، تحت إمرة الرئيس سركيس».

ابتدأت حينذاك مرحلة ثانية غايتها عزل سوريا والقوى المعادية لإسرائيل. كانت قوة الردع العربية، بحسب قرار إنشائها، محددة بثلاثين ألف رجل. وكان كل بلد يسعى جاهداً إلى المشاركة فيها، إلا أنه حين آن أوان تأمين الرجال والمعدات، وجدت سوريا نفسها مضطرة أن تؤمن 90% من الحاجات اللوجستية.

يضيف طوني فرنجيه: «ما زلنا نذكر جميعاً كيف استقبلت هذه القوات عند دخولها بلادنا؛ أي بارتياح أكيد إن لم نقل بكثير من الارتياح! ماذا جرى بعد ذلك؟ قبل الاجابة بشكل صحيح عن هذا السؤال، لا بد من توضيح أمرين: 1) شرع عدد من «الطوابير الخامسة» ـ والله يعلم كم أنَّ عددها كبير في لبنان ـ يعمل على الحط من قيمة هذه القوات بغية إضعافها، وربما شل عملها. ولا أبوح بأسرار جديدة إذا جزمت بأن الأجهزة السرية الاسرائيلية شكلت البنية الرئيسة لهذه الطوابير؛ 2) إن هذه الواقعة الثابتة، لكن الجوهرية، لا تعذر البتة التجاوزات المرتكبة من جانب الجيش السوري. فإنه في كل جيوش العالم، وحتى أشدها قوة، توجد لسوء الطالع عناصر فاسدة، ومن المؤسف أن الجيش السوري لا يشذ عن هذه القاعدة. على أنه ليس بالجائز أن تحجب الشجرة الغابة وأن تخفي التصرفات الضارة من قبل نحو مئة من العناصر الفاسدة مكاسب انتشار القوة المؤلفة من 30000 رجل».

أدركت الأجهزة الاسرائيلية تماماً خطر صعود نجم طوني

فرنجيه، فأطلقت حملة تضليلية سعت من ورائها إلى تصويره نصيراً «لتقسيم طائفي». ولقد كان بين مختلف المطبوعات المستخدمة لهذه الغاية مجلة «الحوادث» التي كانت مجلّية في مقال بقلم رئيس تحريرها سليم اللوزي، الذي أكد في افتتاحيتها[5] أن «طوني فرنجيه، ابن الرئيس، كان الوحيد بين الزعماء الموارنة المجتمعين في بكركي الذي طالب بالتقسيم». ومارس طوني فرنجيه حقه في الرد قائلاً إن «هذا الخبر باطل وافترائي» وطلب من رئيس تحرير المجلة أن يتحلى بالجرأة ويفصح عن أسماء الأشخاص الذين ينشرون «هذه الحماقة التي يراد منها التضليل». وذكّر بالنقطتين الجوهريتين الواردتين في بيان بكركي: «التشديد على رفض كل مس بالسيادة الوطنية في جميع المناطق اللبنانية ورفض كل مساومة على هذه السيادة من جانب أي كان؛ والايمان الراسخ بأن «الصيغة اللبنانية» تشكل تجربة حضارية فريدة ليس بالجائز إضعافها عن طريق الجهل أو روح المغامرة، أو التزمت».

وختم مقاله قائلاً «بتواضع وفخر، إن تاريخ آل فرنجيه، منذ دخولهم عالم السياسة والبرلمان - منذ سنة 1929 حتى اليوم - حافل بالأدلة التي تثبت التزامهم الوطني. أريد أن أذكّر لتبيان ذلك بالنقاط التالية: موقفهم إلى جانب الاستقلال سنة 1943، يوم كان كثير من السياسيين الذين لا يزالون في الساحة يقفون ضد ذاك الاستقلال بالذات ومع الانتداب الفرنسي الذي يؤدي إلى التقسيم؛ وموقفهم الذي عرض أمام الجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة بتاريخ 14 تشرين الثاني/نوفمبر 1974 حين دافع الرئيس فرنجيه عن قضية فلسطين باسم جميع البلدان العربية. لولا هذا الالتزام

(5) الحوادث، بتاريخ 19 كانون الأول/ديسمبر 1977.

الوطني، الصريح والتام، لصالح المقاومة الفلسطينية، لكان مآل الأحداث مختلفاً جداً، وأنت تعرف هذا جيداً! أخيراً، كنت لآمل أن تتصل بي قبل أن تنشر مثل هذه الأخبار التي هي افتراء محض، في لحظة دقيقة من تاريخنا يتبدى فيها التضليل خيانة وطنية».

في آخر سنة 1977، كان في وسع العديد من الراصدين أن يتنبأوا بأن المساعي المصرية لعقد صلح منفرد ستكون لها عواقب وخيمة على لبنان والمنطقة بالاجمال. كان بين هؤلاء طوني فرنجيه الذي لا يكف عن التحذير معتبراً أن «هذا الصلح المنفرد سيتحقق على حساب لبنان». وكان قبل التوقيع النهائي على اتفاقات كامب دافيد[6] بين مصر وإسرائيل، قد شجب بقوة مبادرة أنور السادات إلى زيارة القدس «التي ستشكل هجوماً مركزياً على الموقف العربي العام». وحيال الانشقاقات الاقليمية التي ستسببها هذه المبادرة، دعا طوني فرنجية العواصم العربية والشعوب العربية إلى مساندة الموقف السوري.

«هذا الموقف الرسمي - الشديد العداوة لاتفاقات كامب دافيد - بالاضافة إلى وضعه الجديد كمرشح ممكن للرئاسة، جعلا منه واحداً من الأعداء «الرقم واحد» للأجهزة السرية الاسرائيلية في لبنان» حسب اعتراف أحد مساعدي دافيد كمحي السابقين، الذي كان في حينه مسؤول الموساد في لبنان. وهو الذي كان «الضابط

(6) جرى التوقيع على اتفاقات كامب دافيد من جانب الرئيس المصري أنور السادات ورئيس الوزراء الاسرائيلي مناحيم بيغن، بوساطة الرئيس الأميركي جيمي كارتر، وهي كناية عن اتفاقات إطارية وقع عليها في البيت الأبيض بعد مفاوضات سرية استغرقت 13 يوماً في كامب دافيد، وأعقبها توقيع أول معاهدة صلح بين إسرائيل وبلد عربي: معاهدة الصلح الاسرائيلية - المصرية سنة 1979.

الملازم» لبشير الجميل ولولب «الشراكة الاستراتيجية» بين الأجهزة السرية الاسرائيلية وحزب بيار الجميل[7].

الصفحة الثالثة في سجل طوني فرنجيه السياسي تتعلق بالرهانات على السلطة في المناطق المسيحية، فيما كان حزب الكتائب والقوات اللبنانية تسعى إلى تأمين سيطرة لها بلا منازع. لقد كان أنصار التقسيم موجودين في هذا التيار على الأصح إن لم يكن التقسيم حتى المذهب الرسمي لجبهة لبنانية يُفترض بها أن تضم مجموع المنظمات المسيحية.

في أيلول/سبتمبر 1977، جمع طوني فرنجيه كل القوى الشمالية وأنشأ، بموافقة من والده، الجبهة الوطنية الشمالية التي أعلن ميثاقها في سبعة مبادىء:

1) وحدة الأرض والسياسة؛ 2) الديموقراطية وحقوق الانسان؛ 3) التعددية الدينية؛ 4) التقدم الاجتماعي؛ 5) المواطنية التي يضمنها الدستور؛ 6) المواطنية للبنانيين المغتربين؛ 7) «لبنان يبقى البلد الوحيد الذي يستحق أن نحيا ونموت من أجله». وتضمن الميثاق بنداً يوضح أن «الجبهة ستعمل على جعل اللبنانيين متساوين في الحقوق والواجبات وعلى أن تفيد جميع المناطق اللبنانية على قدم المساواة من موارد البلاد والحكم، دون تمييز بين الأديان والأفراد».

إنَّ الشرخ الذي حصل في شتاء 1978 كان مميتاً. ففي أثناء «اجتماع زغرتا» الذي عقدته الجبهة اللبنانية يوم 21 كانون الثاني/يناير 1978، برز أحد التناقضات الرئيسية بين مسيحيي لبنان. وكان ذاك الاجتماع آخر اجتماع يحضره الرئيس فرنجيه الذي انسحب

(7) أنظر الفصل 11، تلاعب الموساد.

رسمياً من الجبهة في 11 أيار/مايو. في أثناء النقاش مع عائلتي الجميل وشمعون، رفض طوني بصورة جذرية «كل نوع من التعاون مع دولة إسرائيل وكل ضريبة تفرض على المواطنين...». وتكرست القطيعة نهائياً منذ 7 شباط/فبراير حين شن الكتائبيون حرباً مبرمجة ومدعومة من إسرائيل على قوة الردع العربية. أدان طوني فرنجيه هذه الحرب بصرامة، معتبراً أنها «خطة ترمي إلى مصادرة السلام وتدمير البلد الذي نريد أن نبنيه...». قام في خلال تلك الحقبة بأكثر من زيارة إلى دمشق حيث أجرى عدة محادثات مع الرئيس الأسد وشقيقه رفعت الذي كان يضطلع آنذاك بوظيفة نائب الرئيس. كان طوني فرنجيه يريد، من خلال هذا التقارب العلني مع دمشق، أن يسبغ صفة رسمية على ارتباط مسيحيي لبنان بالعالم العربي وتحالفه مع البلدان التي لا تزال تقاوم إسرائيل.

تقول صحيفة السفير[8] إن ثمة حدثاً أخيراً عمق القطيعة وأثار غيظ أنصار التقسيم، هو المصالحة الشمالية بين الرئيسين فرنجيه وكرامي. هذه المصالحة كانت تعني خروجاً حقيقياً من حرب السنتين لأنها أعادت الأواصر بين مسلمي طرابلس ومنطقتها مع مسيحيي الشمال، مقدمة بذلك تكذيباً ملموساً للانقسام الطائفي الذي تشجعه إسرائيل وشركاؤها.

هذه «المصالحة بين القطبين الشماليين جاءت تلبية للارادة السياسية عند الطائفتين. وهي تسجل خاتمة نظرة واحدة عند المسؤولين السياسيين والعسكريين لدى انتهاء حرب السنتين، ضرورية للعمل على إعادة بناء مديدة...»، على حد قول مجلة الصياد الذي نقلته وكالة الصحافة الفرنسية وغيرها من وسائل

(8) السفير، في 19 أيار/مايو 1978.

الاعلام العالمية. وأكدت صحيفة النهار[9]، بعد إيراد أقوال طوني فرنجيه ـ «مصيرنا أن نبقى معاً ونعيش معاً في سلام وعلى كل مستويات عملنا» ـ أن «طوني فرنجيه أدى الدور الرئيسي في هذه المصالحة التي يتمنى لها أن تكون قدوة لمصالحة وطنية مقبلة».

في 2 حزيران/يونيو أعرب طوني فرنجيه عن قلقه مجدداً حيال المشاريع الاسرائيلية إذ شدد على «نية تل أبيب أن تسحب قواتها بصورة أحادية من الجنوب وتساءل عما يكمن وراء هذا الانسحاب الذي أعلن أنه سيجري في 13 حزيران/يونيو 1978».

ذلك أنه بعد مرور ثلاثة أيام على غارة فلسطينية يوم 11 آذار/مارس 1978 دخل الجيش الاسرائيلي فجأة جنوب لبنان، واحتل في مرحلة أولى شريطاً حدودياً عرضه عشرة كيلومترات كانت إسرائيل منذ زمن طويل تطالب به كي يكون «منطقة أمنية». ثم اندفعت قواتها حتى الليطاني، وكانت هذه العملية تحمل اسم النهر. وفي 19 و20 آذار/مارس اتخذ مجلس الأمن الدولي القرارين 425 و426 اللذين طلبا انسحاب إسرائيل وإنشاء «القوة الموقتة للأمم المتحدة في الجنوب» (FINUL). وفي 22 آذار/مارس انتشر جنود هذه القوة في الجنوب. وأعلنت إسرائيل عن انسحابات جزئية في 11 و14 نيسان/أبريل، دون أن تقبل، على كل حال، بمبدأ انسحاب كامل من الأراضي اللبنانية المحتلة، خشية أن يكون هذا سابقة يُستند إليها في المستقبل بالنسبة إلى سائر الأراضي التي احتلتها منذ حزيران/يونيو 1967[10]. وفي 12

(9) النهار، في 30 أيار/مايو 1978.

(10) أنظر: السلام الفاشل ـ ولاية الياس سركيس (1976 ـ 1982)، كريم بقرادوني، منشورات FMA، 1984.

حزيران/يونيو، عشية انسحاب آخر جندي إسرائيلي من الجنوب، أعلنت إسرائيل أنه لم يحدث قتال في الشريط الحدودي وأن هذا بالتالي هو خارج هيمنة FINUL.

كتبت صحيفة لوفيغارو يوم 14 حزيران/يونيو 1978: «بينما كانت القوات الاسرائيلية تنسحب من جنوب لبنان، كان دم ابن الرئيس فرنجيه وزوجته وابنته ذات الثلاث سنوات، وخدمه، و28 شخصاً من أبناء المدينة، يسيل في الشمال على أثر هجوم ضار قامت به القوات الكتائبية المسيحية».

وكتبت مجلة لوبوان يوم 19 حزيران/يونيو 1978: «يوم 13 حزيران/يونيو كان اليوم المنتظر لانسحاب إسرائيل كي يستعيد لبنان سيادته على كامل أراضيه. لقد كان مقرراً أن يكون هذا اليوم يوم التحرير الكامل للأراضي، فإذا به يتحول إلى يوم للرعب في الشمال ويوم للخديعة في الجنوب».

إنه مبدأ الأواني المتصلة: تظاهروا بالانسحاب من الجنوب كي يحسنوا العودة إلى الشمال، لكن بطريقة أخرى... بالفعل، يوم مجزرة إهدن بالذات انسحب الجيش الاسرائيلي من الجنوب وسلم مواقعه إلى رائده الرديف سعد حداد. وهكذا تظاهر الاسرائيليون بالخروج من باب الجنوب ليعودوا من نافذة الشمال، على خط حلفائهم الكتائبيين.

في حديث أخير نشرته بعد وفاته الوكالة الناطقة بلسان المردة، يقدم طوني فرنجيه شروحاً مشحونة بمعنى استباقي. فهو يعبر بوضوح، فيما يتعلق بالكتائب، عن «معارضته لتمدد هذا الحزب في الشمال. إن هذا الموقف الذي عبرت عنه أمام الملأ في عدة مناسبات قد أثار غضب أولئك الذين هم معنيون به مباشرة قبل أن أضيف شرح الأسباب العميقة لهذه المعارضة». حول التقسيم:

«قلت إنني ضد التقسيم، ضد السياسة الرامية إلى السيطرة على أراض بالقوة، ضد كل شكل من أشكال السلطة غير الشرعية. نحن نقف بحزم في معسكر الشرعية، ولأجلها قاتلنا (...). كل ما فعلناه في الشمال كان حقاً ضد تقسيم لبنان. ونحن مستعدون للتضحية بحياتنا لأجل منع كل نوع من أنواع تقسيم بلادنا.

في مساء مجزرة إهدن، أضاف الجنرال تيودور مكاري على الفور، مستحضراً كل هذه الأسباب: «إن هذا اغتيال لمستقبل لبنان!».

الفصل العاشر

الإعداد العسكري لـ «عملية الأرز»

«ما عدا القليل من الاستثناءات، فإن النصر مضمون للجيش الأكثر عدداً. قوام فن الحرب إذن هو أن تكون الأكثر عدداً في المكان الذي تريد أن تقاتل فيه».

نابوليون «كيف تخاض الحرب»
الرسالة 16، الرقم 13652.

«مجزرة إهدن ليست نتيجة حملة مرتجلة سيئة المآل، وإنما هي وليدة عملية عسكرية أعدت من زمان طويل».

هذه هي الخلاصة الرئيسية التي باح بها أحد قدامى رؤساء مخابرات حزب الكتائب، والذي تحول اليوم إلى حقل الأعمال، بعد أن كان في حينه شخصية من الدرجة الأولى، وهو يحرص بصورة قطعية على عدم ذكر اسمه. اقتضى نيل موافقته على التحدث إلينا بذل مساع استغرقت ستة أشهر؛ وهو أراد أن يكتفي بـ «حديث غير رسمي كي يساعد في توضيح نقطة أساسية في تاريخ مسيحيّ لبنان والشرق». استقبلنا في دارة أحد أصدقائه الباريسيين، «على

أرض محايدة، قال: «كي أؤكد أنني أتكلم اليوم كشاهد متحرّر من كل مسؤولية سياسية وعسكرية».

هو يرى أن «البُعد العسكري لعملية إهدن هو البعد الأكثر جوهرية» لأن وسواس الشيخ بيار وابنه بشير كان، كما قال هذا الأخير فيما بعد، هو «توحيد البندقية المسيحية». لذا كان المراد هو السيطرة، وحتى سحق القوات المسيحية المنشقة التي ترفض قيام قيادة كتائبية موحدة تحت إمرة بشير الجميل. فقد استخلص هذا الأخير عبر حصار مخيم تل الزعتر الفلسطيني[1]. الذي قتل فيه العديد من المقاتلين المسيحيين من جراء عدم التنسيق وبسبب غياب شبكة قيادة موحدة، فعمد غداة سقوط المخيم إلى إنشاء مثل هذا الجهاز الموحّد، وعمل جاهداً، في إبراز البُعد العسكري على سواه، بغية وضع رؤساء الميليشيات المسيحية أمام الأمر الواقع. ففي آخر آب/أغسطس 1976، أنشئت شبكة قيادة موحدة حملت اسم القوات اللبنانية، وكانت تضم ممثلين اثنين عن كل من حزب (الكتائب، وحزب الوطنيين الأحرار، والتنظيم، وحراس الأرز[2]). وفي 30 آب/أغسطس عين بشير الجميل رئيساً لهذه «القيادة الموحدة للقوات اللبنانية». هذا الاعلان الرسمي سمح لسمير جعجع بأن يعزز مواقعه العسكرية في قرى قنات وطورزا وبشري، وبعد ذلك على حاجز البربارة الساحلي بين عمشيت والبترون، راسماً بذلك «الحدود» بين الشمال وجبل لبنان. لقد أمسى هذا

(1) في 22 حزيران/يونيو 1976 طوّقت الميليشيات المسيحية مخيم تل الزعتر الحصين (شرق بيروت)، ودارت معركة شرسة حتى سقوط المخيم في 10 آب/أغسطس.

(2) هم عناصر الميليشيا.

الحاجز لاحقاً مصدراً هاماً للمداخيل إذ إنه كان على عابري الطريق أن يدفعوا رسم مرور.

في مطلع سنة 1978، قامت القوات اللبنانية بعدة «عمليات استطلاع» ضد القوات السورية المشاركة في قوة الردع العربية. «في أقل من ستة أشهر» كما يلاحظ آلان مينارغ، «اعتمر بشير الجميل قبعة مزدوجة: قبعة رئيس المجلس الحربي الكتائبي وقبعة رئيس التنسيق العملاني لجميع الميليشيات المسيحية الأخرى. في بادىء الأمر، وحرصاً منه على الفصل بين الوظيفتين، أقام المكتب الوليد للقوات اللبنانية في مبنى إلكترولوس في حي السيوفي، حيث كان يوجد مكتبه كمحام، فيما وضع المجلس الحربي الكتائبي في مستشفى سابق في حي الكرنتينا، في محيط مرفأ بيروت»[3].

إبان السنتين التاليتين، كرس بشير نشاطه خصوصاً لفرض نفسه في المجلس الحربي الكتائبي، مهملاً القوات اللبنانية، التي كانت تحتاج إلى طاقم ومعدات بحيث لم يكن في «هيئة الأركان التنسيقية»، سوى متفرغ واحد هو إيلي حبيقة، الذي كان يضطلع بمهام رئيس شعبة العمليات، أو ما يمكن توصيفه بالمكتب الثالث. لم يكن في وسع بشير الجميل أن يستقدم عناصر من ميليشيا الكتائب التي كان عديدها قد ذاب عند انتهاء القتال (حرب السنتين – ملاحظة من إدارة التحرير) نتيجة لامتصاص الجامعات والمدارس القسم الأكبر من الملتحقين بالميليشيات، فكان معظم الشباب قد استبدلوا الكلاشنكوف بالكتب.

رغم ذلك استمر بشير الجميل في توطيد «عسكرة» حزب

(3) آلان مينارغ، أسرار الحرب اللبنانية – من انقلاب بشير إلى مجازر المخيمات الفلسطينية، منشورات آلبان ميشال، 2004.

الكتائب، متخذاً كل المبادرات المفيدة لاستئصال كل قوة مسلحة مسيحية أخرى. وقد شهدت سنة 1977 وبداية سنة 1978 سلسلة من الانقلابات الصغيرة ضد كل من حزب الوطنيين الأحرار، والتنظيم. «برأي بشير كان يجب أن يعالج مردة الشمال معالجة خاصة» كما يقول محدّثنا. قبل عملية إهدن بأربعة أشهر، أرسل إلى المكان أول فريق استطلاعي لأجل تحديد أفضل السبل للوصول إلى قصر طوني فرنجيه. هكذا انطلقت «عملية الأرز». كلف بالعمليات المكتب الثالث في الكتائب (ب ـ 3) الذي يضم بشير الجميل بالذات ومعاونه أبو ناضر، ورئيس المكتب ب ـ 3 فادي فرام (اسمه الحربي: هورس)، وبقدر أقل، إيلي حبيقة رئيس حرس بشير الخاص الذي صار رئيس جهاز المخابرات فيما بعد أو المكتب الثاني (ب ـ 2)، وكانت هذه المجموعة تعمل لوحدها وبسرية تامة على هذه الترتيبات. كانت الاجتماعات تنعقد في بيروت، في أماكن مختلفة، وغالباً في منزل بشير. الوحدات التي ستنفذ عملية الأرز كان يجب أن تكون الأشد تمرساً عسكرياً والأوثق ولاءً سياسياً. هكذا تم اختيار القوات الخاصة لفرن الشباك (ضاحية بيروت الشرقية)، النواة الصلبة لجهاز الكتائب العسكري.

لم يدخل سمير جعجع وأهل الشمال إلى الحلقة إلا بعد ذلك بكثير، في آخر لحظة تقريباً. هناك وثيقة رسمية تثبت ذلك:

«إلى مفوضي منطقة الشمال، المفوضين المحليين لكل من زغرتا وبشري والبترون وطرابلس وعكار والكورة، كما إلى الرفيق سمير جعجع، نوجه تحية كتائبية. بالنظر إلى الوضع الحالي في محافظة الشمال، تقرر ما يلي: 1) تعيين الرفيق سمير جعجع مسؤولاً عسكرياً في محافظة الشمال، بصورة استثنائية؛ 2) منح الرفيق سمير جعجع كل الصلاحيات اللازمة على أن يعاونه مفوض محافظة

الشمال وجميع المفوضين المحليين، وكذلك مفوضو المكاتب الكتائبية؛ 3) يطبق هذا القرار اعتباراً من 7 حزيران/يونيو 1978. عاش لبنان. رئيس المجلس الحربي بشير الجميل».

قبل الحرب، كان سمير جعجع، أحد رؤساء وحدات لبنان الشمالي، في سنته الرابعة من دراسة الطب في الجامعة الأميركية الواقعة في الجزء الغربي من بيروت، الذي يهيمن عليه الفلسطينيون والمنظمات اليسارية اللبنانية. اضطر أن ينقل ملف دراسته إلى جامعة القديس يوسف الواقعة في الجزء الشرقي من العاصمة، لأسباب أمنية أكيدة. ونظراً إلى عدم وجود أية معادلة بين الجامعتين، اضطر أن يقدم مرة ثانية امتحانات السنوات الثلاث الأولى كي يتمكن من مواصلة دراسته عند اليسوعيين. وبعد أن صار معروفاً عند الجميع باسم «الحكيم»، كان سمير جعجع، كالآخرين، يعرج على الكرنتينا بين حين وآخر ويكرس إجازاته لـ «التدريب العسكري»[4].

أدرج هنا نسخة عن الحديث الذي جرى مع محدّثي سنة 2008.

ـ ما كان الهدف المعلن لـ «عملية الأرز» هذه؟

ـ في المطلق، كانت هذه تندرج في إطار العملية الأوسع، عملية «توحيد البندقية المسيحية» التي كان يراد منها إزالة ما تبقى من الجهاز العسكري للمردة ولسائر القوى المنشقة في الشمال.

هدف «عملية الأرز» كان احتلال المنطقة موقتاً، طيلة الوقت اللازم لإقامة الحكم الكتائبي السياسي ـ العسكري بشكل مديد في كل مناطق الشمال.

ـ ما سبب التركيز كأولوية على بلدة إهدن وقصر طوني فرنجيه؟

---

(4) آلان مينارغ، المرجع المذكور آنفاً.

ـ ضرب الرأس بقوة كان يشكل مسألة ضرورية عند بشير، أي توجيه الضربة رمزياً إلى رئيس المردة العملاني، حتى ولو كان شخص طوني، وبالأحرى عائلته، لا يمثلان الهدف المعلن، على الأقل إبان وضع الترتيبات العسكرية التي ذكرناها.

ـ ما هو عديد القوة التي عُبئت، وكيف جرى وضع خرائط عملية الأرز؟

ـ كان يجب أن يحشد لأجل العملية حوالى ألف رجل جرى توزيعهم على ثلاث دوائر: المنطقة، البلدة، القصر. كان يجب أن ينتشر نصف العديد في الدائرة الأولى، واربعماية رجل في الثانية، ونحو مئة رجل حول القصر. كانت الدائرة الأولى تشتمل على خمسة عشر موقعاً يراد لها أن تغلق منافذ لبنان الشمالي ساحلاً وجبلاً، بينما كانت ستة مواقع متقدمة تؤمن تطويق البلدة عبر مدخليها الجنوبي والشمالي ـ الشرقي. فيما خص المدخل الجنوبي، الذي هو طريق الدخول الرئيسية، حددت ثلاثة مواقع هي: ميتم كفرفو، والدير، وكرم ـ سدة ومنعطف إجبع (القلب الأقدس). وفيما خص المدخل الشمالي والمدخل الشمالي ـ الشرقي، كان يجب أن تتمركز ثلاث فصائل في أعالي البلدة بحيث تضمن إيجاد تغطية ثانية للمجموعات المكلفة بالسيطرة على ضريح آل كرم والمستديرة.

وقد طلب من ثلاثة فصائل تضم كل واحدة منها ثلاثين رجلاً تولّي الهجوم على القصر: كان على الأولى، المزودة بمدافع، أن تبدأ الهجوم من موقع مرتفع يشرف على الهدف (ضريح آل كرم)؛ وعلى الثانية أن تنتشر حول مدخل القصر الرئيسي (المستديرة)،

وعلى الثالثة أن تطوق القصر ابتداءً من جانبه الأيمن إذا تطلعنا إلى الوادي، آتية من وجهة فندق بلمون. وقد أُخضعت الدوائر الثلاثة لقيادة سمير جعجع.

«نفذت هذه العملية العسكرية بتعاون وثيق مع أجهزة المخابرات الاسرائيلية، بمن فيها دافيد كيمحي الذي كان آنذاك مسؤول جهاز الموساد في لبنان. كان جعجع يشرف شخصياً على الثالثة منهما ومعه وحدته البشرانية، ومعاونه الضابط إدمون صهيون الذي كان على رأس وحدة كان كل أفرادها من كفرعبيدا. أضيف أن العقيد جوني عبده، رئيس المكتب الثاني في الجيش اللبناني، كان يعرف تماماً إدمون صهيون ورجالاته، وبالتالي، فإنه كمحترف في المخابرات كان لا يمكن أن يجهل ما يجري تمهيداً لعملية على مثل هذا القدر من الضخامة».

قابلنا جوني عبده في شقته الباريسية بتاريخ 22 كانون الأول/ديسمبر 2008 وسألناه عن الأمر، فنفاه بصورة قاطعة مؤكداً أنه عزا آنذاك «هذه الاستعدادات العسكرية لتهيئة عملية ترمي إلى ضرب المراكز السورية على الساحل بغية إخراج جيش دمشق من كل المناطق المسيحية». الاشكالية السورية ـ سنعود إلى هذا الموضوع لاحقاً ـ تشكل موضوعاً قائماً بذاته، لا تزال تناقش حتى اليوم خصوصاً على الصعيدين العسكري والسياسي.

«أين كنت، يا سيد عبده لحظة شن الهجوم وكيف كانت ردة فعلك؟

ـ في 12 حزيران/يونيو، كنت في مكتب قيادة الجيش في اليرزة. كنت أنام في مقر عملي تحاشياً لأي احتمال أمني. عند الساعة الخامسة والنصف اتصل بي الرئيس سركيس مستعلماً عما

يجري في إهدن. أرسلت في الحال طائرتي الاستطلاع المتوافرتين وهما من طراز هوكر ـ هنتر قديم الصنع. ظن الكتائبيون أن الطائرتين تبحثان عنهم فاختبأوا. كانت المهمة مجرد مهمة استطلاع وجمع معلومات. أكد لي الطياران أن عملية عسكرية تجري هناك. فاتصلت هاتفياً ببيار الجميل الذي قال لي إن رجاله اختطفوا طوني فرنجيه ونقلوه حياً إلى عنده. «طوني بك عندي!» كرر لي هذه العبارة عدة مرات. بعد ذلك، حوالى الساعة السابعة والنصف، قدمت تقريراً إلى رئيس الجمهورية ووصلته ببيار الجميل. فأكد هذا رواية الاختطاف، تغطية لابنه بشير ما دامت العملية لم تبلغ نهايتها بعد. أخيراً، أمرت فرقة الجيش في طرابلس بالصعود إلى إهدن للتعرف على ما يجري على الأرض بالتفصيل».

كان جوني عبده ضابطاً في سلاح الهندسة، ثم أصبح رئيساً للمكتب العسكري، وترأس المكتب الثاني للجيش اللبناني في مطلع سنة 1977. قال/ «كنا نعلم أن أمراً ما يجري إعداده في أعقاب أحداث شكا[5]. كان الكتائبيون والقوات اللبنانية في حالة تعبئة، لكننا لم نكن نعرف الأسباب. كان الرئيس سركيس وأنا قد كلفنا نعيم فرح، الضابط السابق في المكتب الثاني، بأن يحذر الرئيس سليمان فرنجيه من أمر ما، لكن الرئيس فرنجيه لم يصغ إليه معتبراً أن الكتائبيين لا يحوزون الجسارة ولا الوسائل اللازمة لمهاجمة معقله الأهدني. كان الرئيس فرنجيه قد سمح لكل الأحزاب السياسية بأن تنغرس في الشمال، ما خلا حزب الكتائب، الأمر

---

(5) في بداية سنة 1978، جرت عدة اشتباكات مسلحة بين الكتائب والمردة في المنطقة الساحلية الشمالية بغية الهمينة على معامل الترابة في شكا، التي كانت من أكبر مصادر مداخيل الميليشيات المسيحية.

الذي لم يتحمله بشير الجميل الذي كان يريد «توحيد البندقية المسيحية». كان بشير وسمير جعجع على خط واحد. في ظل هذه الأوضاع جرت أحداث جديدة مرتبطة بشكا، وكان الوضع قد أصبح قابلاً للانفجار، غير أنه بحسب المعلومات التي كانت لدي آنذاك، لم تكن مسألة قتل طوني فرنجيه واردة».

لن نعرف أكثر من هذا حول «المعلومات» التي كان يحوزها المكتب الثاني، بالاضافة إلى تسليم جوني عبده مع ذلك بأن «الاعداد العسكري لعملية إهدن كان قد عهد به إلى فادي فرام وإيلي حبيقة، وفي آخر لحظة إلى سمير جعجع الذي كان بشير الجميل يثق به عسكرياً ولكن ليس بالضرورة سياسياً. ذلك أن جعجع كان يريد أن يفرض نفسه في وجه بشير على أنه الثائر الوحيد، القائد العسكري الوحيد المنبثق من الشعب، في مواجهة هيمنة آل الجميل السياسية، الذين لم يكن يوماً عزيزاً على قلبهم. لقد نشبت عدة نزاعات بين بشير وسمير جعجع، قبل عملية إهدن. وكان الجنرال بستاني، يتوصل دائماً إلى تهدئة الأمور بينهما. كان بشير يعرف تماماً مدى امتعاض جعجع لكنه كان لا يستطيع الاستغناء عن أهل الشمال».

ويضيف قائلاً: «في هذه الظروف، كان لا يمكن لعملية ضد القصر أن تدّعي أن هدفها يقتصر على اختطاف طوني. كان الجميع يعرف شخصيته ويعرفون جيداً أن زعيم المردة لن يرضى أبداً بالإمساك به حياً، على الأقل دون أن يدافع عن نفسه بالسلاح. هذه هي سنة الشرف الجبلية! من جهة أخرى، إذا كان من المؤكد أن عملية يشارك فيها ألف رجل كان لا يمكن أن تُعد دون ضوء أخضر من بيار الجميل، فإنه يصعب عليّ أن أتصور أن الشيخ بيار أعطى الأمر باغتيال طوني فرنجيه».

ويتابع جوني عبده: «يجب أن نضيف إلى هذه الصورة العسكرية الخاصة الحقد القديم بين بشري وزغرتا، أحد المفاتيح الرئيسية للسيطرة على الشمال، هذا الذي هو بدوره مفتاح الزعامة المسيحية. في هذه المعادلة، كان طوني فرنجيه قوي الصلة برفعت الأسد، شقيق الرئيس السوري، الذي يحبذ هو أيضاً تقسيم لبنان تحت هيمنة دمشق. بالمقابل، كان آل الجميل قد اختاروا إسرائيل، خصوصاً بشير الذي كان قد أقنع والده والاسرائيليين الذين كان لديهم تياران متعارضان: تيار الموساد الذي يحبذ تحالفاً مع الكتائب، ضد رأي جهاز الاستخبارات العسكرية الذي يرفض تدخلاً مباشراً في لبنان، ويحذّر من السقوط في رمال متحركة، وكان لا يثق إلا نسبياً بعائلة الجميل. إن الكميات الأولى من الأسلحة الاسرائيلية التي تسلمها الكتائبيون في مرفأ الأكوامارينا الحربي، في خليج جونيه، دُفع ثمنها نقداً. في تلك الحقبة ـ قبل عملية إهدن ـ كان الاسرائيليون يزعمون أنهم يديرون الوضع بالتنسيق مع رفعت الأسد!».

هنا وصلنا إلى الاشكالية السورية! يؤكد جوني عبده قائلاً: «لقد كفل السوريون عملية إهدن لكي يشقّوا المعسكر المسيحي. كيف يمكن أن يتحاشى ألف رجل الحواجز السورية الموجودة على الطريق الساحلية وفي الجبال؟». ويضيف قائلاً: «إن الجنرال حويجي، القائد السوري لمنطقة انطلياس، كان قد «حيده» الكتائبيون إذ وجدوا له «خطيبة محلية جميلة». إن فرضية هذا التورط السوري قد استعملت بشكل واسع في مختلف المحاولات الايديولوجية لرسم صورة مجريات المجزرة»[6].

(6) انظر الفصل الخامس عشر: الروايات المتخيّلة.

يرد الجنرال تيودور مكاري على ذلك قائلاً: «لكن في تلك الحقبة لم يعد يوجد حاجز سوري واحد على الطريق الساحلية ولا في جبالنا».

ويقول انطوان يمين، المسؤول السابق في جهاز مخابرات المردة: «إن فرضية الحواجز السورية لا قيمة لها، شأنها شأن فرضية الزعم بتحييد الجنرال عويجي. إن هذه الاختلاقات لا يراد منها سوى حجب المسؤوليات الحقيقية عن العملية. ذلك أن القوات السورية كانت قد فككت معظم مراكزها المعزولة، خشية أن تتعرض لاعتداء جديد من جانب الكتائبيين، ولكي تجمع قواتها في منطقة الكازينو. وبعد وقوع حوادث مع السكان، وبناء على طلب الرئيس فرنجيه، كان السوريون حتى أزالوا كل حواجزهم عن الطرق في الشمال. لذلك، فإن الكلام عن أي تواطؤ بين الكتائبيين والقوات السورية هو من وحي الخيال إن لم يكن مجرد كذب يراد منه خلق تضليل من أجل تغطية وحتى إيجاد عذر للمسؤولين عن المجزرة».

ويضيف: «لقد شكلت المجزرة، صدمة هزت البلاد في طولها وعرضها وحتى داخل الجهاز الكتائبي بالذات الذي خاف من تداعيات المجزرة فاضطر إلى خلق تفسيرات متعددة تبريراً لهذه العملية عبر توجيه الاتهام إلى القوات السورية من خلال دفع المفوضين السياسيين والناطقين بلسان الكتائب على الإدلاء بتصريحات اتهامية بناءً على طلب الشيخ بيار الجميل». هنا علق انطوان يمين «حينما نعود إلى المنطق العسكري، نرى جيداً أن المحاور الرئيسية التي سلكها الكتائبيون للوصول إلى هدفهم كانت قد درست بعناية كي تتحاشى حتى المواقع السورية السابقة. فالحذر لا يعرف الافراط!».

ويستعيد أنطوان يمين الخطوط الكبرى للخطة العسكرية المذكورة آنفاً، ويجزم «بأن محوري التغلغل الرئيسيين كانا يمران عبر الطرق الجبلية بين بشري وإهدن، التي لم تطأها قدم جندي سوري على الإطلاق، والطريق التي تنطلق من شاطىء البترون باتجاه قرى صورات وقنات وطورزا وسرعل ـ التي لم تشهد أي وجود عسكري سوري قط هي أيضاً ـ حتى مدخل إهدن. وقد سلك سمير جعجع ورجاله هذا المسار الأخير حيث عقد اجتماعين في كل من قنات وطورزا لإعطاء آخر التعليمات. في قنات استعرض مع ثمانية رؤساء وحدات، مجمل عملية تطويق البلدة وباح لهم بالغاية من المهمة التي كان معظمهم يجهلها! وفي طورزا عقد آخر اجتماع مع المجموعتين المكلفتين بالهجوم على القصر، شارحاً بوضوح أن طوني سيحاول بالتأكيد أن يقاوم وأن الأوامر تقضي بشلّه بكل الوسائل، دون أن يستبعد الحل الجذري، أي قتله. وحدهم أولئك الرجال الأربعون المتفانون جسداً وروحاً في سبيل الريّس سمير كانوا يعرفون سر «العملية ضمن العملية»، أي احتمال قتل طوني بك. في تلك الظروف وجد سمير جعجع نفسه في موقع الإمرة عند الساعة الرابعة فجراً، في المستديرة المشرفة على القصر»[7].

يخلص أنطوان يمين إلى القول بشيء من الاعجاب: «على صعيد الاعداد العسكري البحت، كانت تلك العملية، بدوائرها الثلاث ومختلف مرتكزاتها اللوجستية، طرفة حقيقية»، ويضيف على الفور: «لكن على الورق فقط، لأنها لم تدخل في حسابها أموراً جدية يصعب تقديرها، كمقاومة أهل البلدة وشلّ القيادة لحظة شن العملية. إن إصابة سمير جعجع بجراح ونقله على عجل من ساحة

---

(7) أنظر الفصل الثاني: 13 حزيران/يونيو 1978، الهجوم على القصر.

المعركة منذ بدء القتال قد حوّلا هذه الطرفة العسكرية الاستراتيجية إلى إخفاق تام».

يقول أحد القادة العسكريين السابقين في ميليشيا حزب الوطنيين الأحرار: «الذي يتمسك هو أيضاً بعدم ذكر اسمه، لكي نفهم جيداً البعد العسكري البحت لـ تلك العملية التي انتهت بالفشل يجب أن لا ننسى أن نوعية التجنيد في الميليشيات، ليس عند الكتائب وحدها، كانت في أغلب الأحيان رديئة كي لا نقول يرثى لها. كانت الميليشيات تجند خصوصاً من بين أفراد البروليتاريا الحضرية الهامشية وأبناء الأرياف الذين ساءت ظروف عيشهم بعد حرب السنتين، أي «بعد سنتين من البطالة» كانتا قاتلتين أحياناً بالتأكيد، كيف يمكن أن يطلب من مقاتلين أن يعودوا إلى العمل بالسندان أو المحراث أو في الفرن... بعد دخول صفوف الميليشيات، كان أولئك الناس يطمئنون إلى تناول وجبتين من الطعام يومياً ويؤمن لهم المسكن والمغسل، ويمارسون دور سادة الأحياء! إنهم، ومن خلال انخراطهم في منطق الارتزاق المحلي هذا، كانوا على استعداد لفعل أي شيء ـ النهب، الاغتصاب، الاختطاف، الاغتيال ـ لأجل زعيم أو قائد يضمن لهم الحد الأدنى اللازم للعيش في المستقبل القريب».

ويتحدث سليم نصر عن «منظومة الحرب» اللبنانية بوصفها «نقيض مجتمع» يهمه أن يهدم وينهب ممتلكات بورجوازية ما قبل الحرب. الهدم يتناول الممتلكات، والبنى التحتية للانتاج، لكن أيضاً الودائع المصرفية، والاحتياطات المالية للمؤسسات والأفراد. ويروي سليم نصر أنه «خلال فترة 1975 ـ 1976، أي المرحلة الأولى للحرب، تعرض وسط بيروت، بما فيه آلاف المتاجر، والمصارف، والمستودعات، ومرفأ بيروت الشرقية، لأعمال نهب منهجية وغالباً

من خلال نظام اقتسام بالتراضي في الوقت ذاته تمّ نهب قطاع الحمراء ـ ورأس بيروت، الذي كان المركز التجاري الثاني في بيروت الكبرى (. . .). كما أخذت المؤسسات الزراعية والتجارية في كل من زحلة وصيدا تتعرض للنهب منذ 1976»[8].

إن محدّثنا، الذي كان صديقاً حميماً لإيلي حبيقة، تأثر كثيراً بتلك «الانحرافات الاتجارية التي عرفتها الحرب الأولى والتي تفسر جزئياً جنون القتل الأعمى»، يتذكر «أنه بعد مرور بضعة أشهر على عملية إهدن، حين كنا نحن الاثنين في سيارتي المتوقفة بسبب زحمة السير في جونيه رأينا إلى جانبنا سيارة فخمة تنقل ابنة بشير، الصغيرة مايا التي كانت في السنة الثانية من العمر، ومعها مربيتها[9]. كان إيلي ينظر إليها طيلة فترة توقفنا. وعندما أقلعت السيارة التفت إيلي نحوي وكانت عيناه تدمعان قائلاً: «لكأنها الطفلة جيهان فرنجيه. أتدرك كيف قتلوا طفلة كهذه!» إيلي حبيقة لم يكن في إهدن، كما زعم بعضهم، لكنه كان أحد المسؤولين العسكريين عن العملية. لقد أكد لي ذلك، كما أكد لي أن الغاية من الهجوم على القصر كانت فعلاً إلقاء القبض على طوني بك حياً أو ميتاً!».

أعطاني الشاهد إياه توضيحاً أخيراً يتعلق بالإعداد العسكري:

(8) سليم نصر، تشريح منظومة حرب داخلية: حرب لبنان، ثقافات ونزاعات، شتاء 1990 ـ 1991.

(9) بعد بضعة أيام، في 23 شباط/فبراير 1980، انفجرت سيارة في حي سرسق عند مرور سيارة بشير الجميل وأدى الانفجار إلى مقتل ابنته مايا التي كان عمرها 20 شهراً وسبعة أشخاص آخرين بينهم سائق قائد القوات اللبنانية وعناصر حرسه الخاص: لم يصحب بشير ابنته تلك المرة بسبب كثرة انشغالاته.

كان مقرراً في البداية أن ينفذ الهجوم ليلة السبت ـ الأحد في 10 ـ 11 حزيران/يونيو 1978. وفي سلسلة من الأحاديث أدلى بها إلى الصحافي غسان شربل لحساب جريدة الشرق الأوسط السعودية التي تصدر في لندن، يؤكد سمير جعجع هذا الأمر الهام، كما يؤكد من جهة ثانية أن «طوني لم يكن الهدف».

وفي أحد الأحاديث التي تحمل عنوان «أعرف من أطلق كل رصاصة!»[10] يؤكد جعجع: «في الاجتماع الأخير مع الشيخ بشير، عرضت عدة مقترحات. اقترحت أن تنفذ العملية ليلة السبت ـ الأحد. في الواقع، كنت أريد أن أعود إلى الجامعة في أول الأسبوع. لكن الأشخاص الحاضرين رفضوا اقتراحي، قائلين إن هذا قد يتزامن مع حضور الرئيس فرنجيه وابنه طوني، ونحن لا نريد ذلك. فكرنا حينذاك بليلة الأحد ـ الاثنين، لكننا استبعدنا الفكرة للسبب ذاته. اتفقنا أخيراً على أن يكون التنفيذ ليلة الاثنين ـ الثلاثاء كي نتجنب حضور أي مسؤول من عائلة فرنجيه في إهدن. كان الصيف لم يبدأ بعد وآل فرنجيه لم ينتقلوا يومها إلى مقرهم الصيفي في البلدة (. . .). كنا لا نريد أن نغرق في وحول حرب تدوم مئة سنة مع عائلة فرنجيه».

بعد مضي اثنتي عشر سنة، يستعير سمير جعجع حرفياً هذه العبارة التي قالها الجنرال تيودور مكاري، وهذا أمر مستغرب جداً نفهم منه أنه يعطيه معنى ماكيافيلياً إضافياً يقوم على «استعمال كلام العدو بمعنى مختلف، بقصد زيادة الالتباس في واقع معقد من قبل، بغية تعمية العقول والقلوب».

(10) الشرق الأوسط، في 6 كانون الأول/ديسمبر 1990.

لكن الأهم هو أن ذاك الجدل المزعوم حول تحديد تاريخ الهجوم لا يتفق مع الواقع المعاش والذي يؤكده عدة كتائبيين. فقد أكد لنا طوني يوسف أحد المشاركين في الهجوم على القصر، في مكتب محاميه بتاريخ 4 أيار/مايو 2008، أنه استدعي إلى مكتب الكتائب في قنات عند الساعة العاشرة ليلة السبت ومعه عتاده القتالي. «كان هناك هرج ومرج!» كما قال، «خيِّل إلينا أننا في الساعة الصفر لإنزال النورمندي. كان هناك عدة مئات من الرجال المتنكبين عتادهم القتالي ينزلون من شاحنات وسيارات لاند روفر تابعة للحزب. انتظرنا حتى الساعة العاشرة والنصف في الساحة الرئيسية، ونحن نتحدث وندخن مع الرفاق. وصلت سيارة جيب مسرعة، وترجل منها سمير جعجع وأخذ يتكلم على الفور شارحاً لنا أننا تجمعنا لأجل القيام بعمل هام سيسجل في تاريخ لبنان والمسيحيين، إلا أنه بسبب الأحوال الجوية اضطررنا أن نرجىء كل شيء إلى مساء الاثنين، في الساعة ذاتها والمكان ذاته. عاشت الكتائب! عاش لبنان!».

إن هذا التغيير في التوقيت يتصل، حسب الجنرال مكاري، بأساليب الاعداد العسكري، الذي وضع من منظور بلدة شبه خالية. «إبان فترة انتهاء الربيع هذه، يصعد كثيرون من الزغرتاويين لتمضية نهاية الأسبوع، أو لفتح بيوتهم وإجراء بعض الاصلاحات قبل بدء فصل الصيف. في بحر الأسبوع، وكذلك في بدايته، يكون الناس في البلدة أقل عدداً وتكون المقاومة فيها أضعف. هذا هو السبب! أما بشأن خرافة عدم وجود طوني فرنجيه وأسرته في اهدن... فإن أجهزة مخابرات الكتائب، التي كان يقال إنها تضاهي من حيث الفاعلية مخابرات أصدقائها الاسرائيليين، كانت تعرف تماماً عادات الرئيس وابنه طوني وتوزيع أوقاتهما».

لقد أشرف الموساد الاسرائيلي على كامل الاعداد العسكري لمجزرة إهدن، حسبما تؤكد عدة مصادر في المعسكرين. ويجزم أحد أصدقاء توتو بريدي، وهو أحد المسؤولين العسكريين الذي أمّن التنسيق مع ضابط الارتباط الاسرائيلي، بأنه في أيار/مايو 1978، اجتمع كل مسؤولي الوحدات المشاركة في العملية مع ضباط من الجيش الاسرائيلي في مقر القيادة في الكرنتينا. وقد رفض بعضهم أداء التحية للضباط الاسرائيليين الحاضرين، ما أدّى إلى حدوث تشاجر مع الشيخ بشير على حدّ زعم أحد الشهود الذين أكّدوا: «إن عملية إهدن كانت موشومة بوشم الموساد، منذ البدء بإعدادها العسكري حتى تنفيذها، من أولها إلى آخرها».

الفصل الحادي عشر

تلاعب الموساد

«لا تزال فلسطين وطننا التاريخي الذي لا ينسى. إن مجرد اسمها سيشكل بالنسبة إلى شعبنا صرخة احتشاد ذات قدرة خارقة. إذا وافق جلالة السلطان على إعطائنا فلسطين، سيكون في وسعنا أن نتعهد بترتيب مالية تركيا. أما بالنسبة إلى أوروبا، فإننا سنشكل هناك عنصراً في الجدار ضد آسيا ومركزاً أمامياً للمدنية ضد البربرية».

تيودور هرتزل (1860 ـ 1904)

«دولة اليهود».

في مطلع التسعينيات، كنت أشتغل على بحث يتعلّق بتمويل المنظمات الاسلاموية والعصابات المسلحة، مثل المجموعات الاسلاموية المسلحة في الجزائر (GIA) والجماعة الاسلامية في مصر. ولقد كان لي صديق جزائري عرفته من زمن الطفولة لقي حتفه مؤخراً بين أوائل ضحايا المجابهة المفتوحة بين المنظمات الاسلاموية والحكم الجزائري[1]. في أحد الأيام وبينما كنت أجول

(1) بعد إيقاف الانتخابات التشريعية في كانون الأول/ديسمبر 1991، شهدت

في قصر الأمم المتحدة في جنيف، سمعت في دهاليز لجنة حقوق الانسان ناطقاً بلسان إحدى المنظمات غير الحكومية يتباهى باغتيال ذاك الصديق، فشعرت بصدمة. اكتشفت أن منظمة هذا الشخص هي ستار تختبىء خلفه عدة جمعيات مرتبطة مباشرة بـ GIA، في سويسرا وفي أوروبا. خلال التحقيق حول هذا السديم، اكتشفت تدريجياً منظومة تمويلها التي تشمل عدة مصارف وشركات توظيف أموال غربية وعربية[2]. وحتى ذلك التاريخ، كنت أجهل أن ذلك التحقيق سيستغرق خمس عشرة سنة من عمري.

لقد سبب لي هذا العمل مشاكل مع مصارف ورجال أعمال سعوديين، في الوقت الذي لفت فيه انتباه الأجهزة الاسرائيلية. دعيت في أحد أيام سنة 1992 للذهاب إلى البعثة الدائمة الاسرائيلية لدى منظمة الأمم المتحدة في جنيف. ما عدا التفتيش الاعتيادي من قبل الشرطة في مطار تل أبيب، أحد أبواب الدخول والخروج من فلسطين، كانت هذه أول مرة يجري لي فيها اتصال رسمي مع الدولة العبرية في حياتي. قبلت الدعوة بدافع من الفضول. استقبلتني السيدة سيمون فرانكل، السكرتيرة الأولى في السفارة بحرارة وقالت لي إن أبحاثي حول «التمويلات الاسلاموية»

= الجزائر عشر سنوات دموية تواجهت فيها مختلف المنظمات الاسلاموية والجيش والشرطة الجزائريان، وسقط فيها حوالى 300000 قتيل، وفقد عشرات الألوف من الأفراد، بالاستناد إلى التقديرات الدولية الأكثر صدقية، ومنها تقديرات الباحث لويس مارتينيز، الحرب الأهلية في الجزائر ـ 1990 ـ 1998، منشورات كارتالا، 1998.

(2) ريشار لابيفيير، دولارات الارهاب ـ الولايات المتحدة والاسلاميون، منشورات غراسيه، 1999.

لفتت نظر سلطاتها، وإنَّ هذه «ترغب في المزيد من التعرف إلي»! أعجبني الاطراء وكنت حذراً، إذ إن تعاطفي مع الفلسطينيين والريبورتاجات الكثيرة التي كتبتها عن الأراضي المحتلة كان لا يمكن أن تخفى على مضيفيّ ورؤسائهم التسلسليين. كنت أستمع بتهذيب محاولاً أن أفهم الغاية من هذا اللقاء ومتشوقاً إلى معرفة النتيجة؛ وتبين أن هذه من الأكثر تشويقاً.

تلقيت بعد قليل دعوة جديدة إلى عشاء كبير على شرف «الصحافي» الاسرائيلي أوري دان الذي قيل لي إنه يرغب «مطلقاً» في التعرف إلي. الجهة الداعية كانت شخصية تثير الفضول؛ إنه رجل يدعى آفي شيسنر، وهو رسمياً طبيب أسنان. استقبلنا السيد شيسنر في دارته الفخمة في كولونيي، على مرتفعات جنيف حيث توجد المنازل الريفية لكبار الصيارفة والعائلات العريقة. كان المكان محاطاً بتصوينة عالية ثُبّتت فوق كل زواياها كاميرات مراقبة. كيف يستطيع طبيب أسنان بسيط أن يمول مثل هذه البنية التحتية، وخصوصاً، لماذا ينبغي لاختصاصي في جراحة الأسنان أن يحتمي كما يحتمي \الاحتياطي الفيدرالي الأميركي؟

التقيت سيدة السفارة التي سردت سيرتي المهنية لمضيفنا قبل أن تقدمني إلى ذاك الذي وصف بأنه «أهم الصحافيين الاسرائيليين». كان يبدو جلياً أننا بوصفنا «زميلين» لا يمكن إلا أن نتفاهم. كان هناك شخصان آخران على العشاء يثيران فضولي: الأول كان له قياس وشكل ملاكم ويحمل لقب «كسّاس» (Kassas)، والآخر واحد من زبائن صحف «المشاهير» وهو الأمير فكتور - إيمانويل دو سافوا، وارث التاج الايطالي، وشخصية من شخصيات المحافل الاجتماعية، يسحقه محتده وغروره المفرط، محاولاً أن يلفت انتباه الجميع في كل لحظة. على أنني حصلت، من خلال هذا

«الاتصال» الأول الأقرب إلى أن يكون مضجراً، على معلومة مهمة جداً: الأمير شريك مع آفي شيسنر في صفقة مد أنابيب لجر المياه في منطقة بحيرة طبريا. وعرفت بعد ذلك أن طبيب الأسنان كان متعهداً بتجهيز وإدارة شبكتين مائيتين كبيرتين في نجد الجولان وبحيرة طبريا، وهذان ملفان استراتيجيان جداً بالنسبة إلى إسرائيل. هكذا كنا بعيدين، بعيدين جداً عن تركيب الأسنان المصنوعة من البورسلين.

إبان السهرة، لم يهتم أوري دان بأبحاثي حول «دولارات الارهاب» قدر اهتمام الملقب «كسّاس» الذي كان يريد «مطلقاً»، هو أيضاً، أن يراني مجدداً في جو أكثر هدوءاً حول فنجان قهوة في مدينة كالفان الطيبة، الكثيرة الهدوء والتكتم. فاتفقنا على أن نلتقي مجدداً بعد ثلاثة أيام في مقهى فندق بيرغ، المفضل عند تجار المدافع وأصحاب مصارف جنيف والمرافقات الروسيات. تجمد الدم في عروقي حين زعم كسّاس أنه يعرفني، جازماً بأننا تصادفنا قبل عشر سنوات بمناسبة مؤتمري لوزان وجنيف حول لبنان! لقد صادفت في حياتي المهنية عملاء للموساد[3] أكثر لباقة، بما في ذلك في هندوراس إبان الثورة الساندنيية، حيث كانوا يدعمون جماعة \الكونترا\ السيئة الذكر. كان كسّاس يثير الحيرة إلى حد ما. لكن بما أنه كان فيما مضى ملاكماً فقد احتفظ، أيضاً، بجسد الملاكم وذهنيّته.

إنه، بوصفه «من قدماء لبنان»، يهتم الآن بالمنظمات الاسلامية الجزائرية والمصرية، أي الموضوع الذي كنت أتابعه آنذاك. كنت

(3) كلمة موساد هي اختصار لـ: ها - موساد لي - موديعين - أول - تافكيديم ميوهاديم (معهد الاستعلام والمهمات الخاصة).

وعلى أحر من الجمر أسعى إلى خلط الأوراق، فحاولت أن أقلب الأدوار مركزاً الحديث على الطريقة التي بها موّل الشين بيت[4] وساعد في انغراس الأخوان المسلمين الفلسطينيين، أجداد حماس، في الأراضي المحتلة، في بداية السبعينيات، ولماذا فعل ذلك وكيف. هذا السؤال كان لا يزال من المحرمات سنة 1992، لكنني كنت متسلحاً بحديث أخذته حول هذا الموضوع من ضابط إسرائيلي متقاعد هو الجنرال سيغيف، الحاكم السابق لغزة، الذي أكد لي: «كنا نقدم قليلاً من المساعدة المالية لبعض المجموعات الاسلامية. كنا ندعم مساجد ومدارس بغية تنمية قوة ترد على القوى اليسارية التي كانت تساند منظمة التحرير الفلسطينية»[5]. على غرار الجنرال، تبنى كسّاس هذا «التلاعب» لأجل «إدخال الثعلب الاسلاموي إلى خم ياسر عرفات القومي». وتباهى أيضاً بأنه كان أحد الفاعلين الرئيسيين الذين سعوا إلى تكرار هذا التلاعب، بعد ست سنوات، مع المسيحيين الموارنة في لبنان، الذين هم «لسوء الطالع أقل جدية من الاخوان المسلمين».

وظل كسّاس يتحدث عن «مرحلته اللبنانية» التي يمكن له أن يتكلم عنها لأنها صارت «طي الماضي»، فشرح لي أنه كان أحد المعاونين الرئيسيين لدافيد كيمحي، هذا الذي كنت أعرف دوره التاريخي لدى الكتائب ولدى بشير الجميل إبان اجتياح لبنان سنة

(4) الادارة العامة للأمن جزء من دوائر المخابرات الاسرائيلية. يقوم دورها الأساسي على منع كل عمل موجه ضد الدولة ورعاياها. وهي معروفة باسمها المختزل بالعبرية شين بيت كلاتي (SBK أو شاباك) الذي كان سابقاً شين بيت. وهي مرتبطة برئيس الحكومة مباشرة.

(5) ريشار لابيڤير، المرجع المذكور آنفاً.

1982. توقف الحديث عند هذه الاعتبارات «التاريخية». لقد دامت اللعبة ما يكفي من الوقت وكنت أعلم أنني سأضطر عاجلاً أو آجلاً إلى التطرق نوعاً ما لعملي، وكنت بالتأكيد غير راغب في ذلك بأي ثمن. لم أعد أستجيب لدعوات سيمونا الملحة، ولا لدعوات كسّاس الذي صادفته مجدداً بعد مضي سنة في مقاديشو بالصومال، حيث صار صحافياً في وحدة من قوات الصدام الأميركية التابعة للجنرال مونتغومري، ولقد هنأته على هذه الترقية.

كان السفير الأميركي في نيروبي روبرت أوكلي قد أطلق عبارته الشهيرة: «إذا أحببت بيروت فأنت ستعبد مقاديشو!». كان كسّاس، في فندق الصحافي الذي تتجمع فيه كل الصحافة الدولية، يشعر بالضجر ويكثر من الشراب. تحدثنا عن أوكلي الذي كان كلانا يعرفه من «أيام لبنان الجميلة» وعن التلاعب بالمسيحيين الذين يؤكد كسّاس أنه «رسم لهم صوراً نفسانية» أعدها لرئيسه دافيد كيمحي. تساءلت: على أي أساس يمكن لملاكم لم يكن يبدو خير صديق لسيغموند فرويد أن يقيّم على هذا النحو وبصورة جدية لاوعي قريبه.

لم أعد أرى كسّاس إلا سنة 1995 في جنيف، حيث كان يرافق أوري دان لأجل إصدار كتابه «الموساد ـ خمسون سنة من الحرب السرية». هذا الكتاب، الذي يمجد أجهزة المخابرات الاسرائيلية، كان يراد له أن يرد على كتاب مدمر للموساد الاسرائيلي عنوانه «الموساد عميل في الأجهزة السرية الإسرائيلي يتحدث» ألفه فكتور أوستروفسكي، الصحافي الكندي والعضو السابق في الموساد. كانت هذه هي أول مرة في تاريخ الموساد يقوم فيها رجل خرج من صفوفه بكشف خفايا أساليب عمله وخصوصاً تقنياته في الاغتيال.

كتب فكتور أوستروفسكي، حول الوضع الذي سبق الغزو

الاسرائيلي لجنوب لبنان حتى نهر الليطاني في 14 آذار/مارس 1978، ما يلي: «كان الموساد يحاول دوماً أن يخدع الأميركيين، وأمر إسحق هوفي، رئيس الجهاز، دائرة LAP (لوهامات بسيكلوجيت: دائرة الحرب النفسية في الموساد) بأن تعد سيناريو كي يقنعهم بأن منظمة التحرير الفلسطينية تستعد للحرب، لا للسلام. كان المقصود تبرير دخول القوات الاسرائيلية جنوب لبنان، لدى الولايات المتحدة»[6]. ويشرح أيضاً كيف عقد بشير الجميل علاقات وثيقة مع عدموني، الذي كان آنذاك رئيس الارتباط في الموساد، بفضل وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) وبفضل «صلات أوروبية». لقد أقنع بشير الجميل «الموساد بأن لبنان يحتاج إلى إسرائيل. وأقنع الموساد من جهته الحكومة الاسرائيلية بصدق بشير الجميل (...). كانت هذه الدعاية قد نُظمت منذ سنوات، بفضل التقارير الموجهة التي كان الموساد يقدّمها تباعاً للحكومة». ويشدد العميل التائب، دون تعليق، على أن «وصول بشير الجميل إلى الحكم كان دونه خصم هو طوني فرنجيه. فجرت تصفيته».

ويوضح أوستروفسكي قائلاً: «في حزيران/يونيو 1978، خلال هجوم على مقره الصيفي في إهدن، اغتال الكتائبيون طوني وزوجته وابنته ذات الثلاث سنوات، وعدة أشخاص من حرسه الخاص. وُجه الاتهام إلى الجميل، فنفاه، وعزا مسؤولية المكيدة إلى ثورة اجتماعية على الاقطاعية». ويقول بعد ذلك: «سنة 1978، في غمرة الصراع بينه وبين أسرة فرنجيه، طلب بشير الجميل، ذو الوجه

---

(6) فكتور أوستروفسكي وكلير هوى، الموساد، عميل في الأجهزة السرية الاسرائيلية يتحدث، منشورات بريس دو لا سيتيه، 1990.

الملائكي، أسلحة من الموساد، فلبى هذا طلبه». ويختم قائلاً: «لم يكن طوني فرنجيه على علاقات جيدة مع الموساد».

أكد لي كسّاس نفسه في جنيف هذه العناصر المتنوعة، فيما كان صديقه القديم أوري دان يبذل جهده للتقليل من قيمة أقوال أوستروفسكي بالقول: «هذا العميل المزعوم لم يعمل يوماً في الموساد: لم يتجاوز قط مرحلة التدرب»[7]، كما يقول في كتابه، الذي طُلب منه إعداده لأجل تجميل وجه الجهاز[8]. وفيما عدا هذه الكذبة يشرح أوري دان بجدية أكثر كيف تورط الموساد في الحرب على منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان، بعد تعيين الجنرال اسحق هوفي على رأسه سنة 1974 ـ هذا العسكري القليل الخبرة بالعمل المخابراتي.

جاء في كتابه ما يلي: «في هذه الظروف، نزل بشير الجميل، في إحدى الليالي، في إسرائيل، طالباً مساعدة الاسرائيليين ضد العدو المشترك: منظمة التحرير الفلسطينية. أحال إسحق رابين ووزير دفاعه شمعون بيريز المسألة إلى الموساد الذي يعنى بهذا النوع من العلاقات السرية. وهكذا يمكن القول إن الموساد كان يتحول شيئاً فشيئاً، تحت إدارة هوفي[9]، إلى وزارة مستترة للشؤون الخارجية».

---

(7) حول الموضوع نفسه، صدر كتاب رديء يستبعد الفرضية إياها، وينعت فكتور أوستروفسكي بـ «الميزان»: غور دون طوماس، تاريخ الموساد السري من 1951 حتى يومنا هذا، منشورات العالم الجديد، 2006.

(8) أوري دان، الموساد ـ خمسون سنة من الحرب السرية، منشورات بريس دو لا سيتيه، 1995.

(9) عين الجنرال اسحق هوفي سنة 1974 وظل ثماني سنوات على رأس الموساد، حتى سنة 1982.

وإنه لفي خلال سنة 1976 نظم الموساد أول اتصال سري بين الحكومة الاسرائيلية ورئيس لبنان الأسبق كميل شمعون. جرى اللقاء على متن مركب حربي إسرائيلي في البحر قبالة جونيه وحضره رئيس الوزراء إسحق رابين شخصياً دون وزير دفاعه شمعون بيريز الذي كان لا يثق به. وعد رابين شمعون بالأسلحة وبتدريب كوادر الميليشيات المسيحية.

على الصعيد العسكري الصرف، كان العقيد بنيامين بن أليعازر، الملقب بـ «الجنرال فؤاد»، يدير خلية تضم أربعة ضباط من أمان[10]. كان هذا يهودياً عراقي الأصل، فكان يتحرك بسهولة في شوارع بيروت حيث راح ينظم تعاوناً منتظماً مع الميليشيات المسيحية منذ آب/أغسطس 1976 إبان حصار مخيم تل الزعتر الفلسطيني. فهذا الضابط، الذي لعب دوراً كبيراً إلى جانب آرييل شارون إبان الغزو الاسرائيلي للبنان سنة 1982، صار فيما بعد وزيراً للدفاع، ورئيساً لحزب العمل (سنة 2002) ووزيراً للبنى التحتية الوطنية (سنة 2006). وعلى الرغم من كونه عضواً في الدوائر العليا العسكرية، لم يعترض قط على عمل الموساد في الملف اللبناني.

أوري دان يؤكد هذا الولاء: «وهكذا، في جو من السرية القصوى التي كان يسهر عليها الموساد، أخذت زوارق حربية إسرائيلية تسلم أسلحة إلى قائدي الميليشيات المسيحية الشابين داني شمعون وبشير الجميل، حيث كان هذا الأخير أكثر ميلاً وبوضوح إلى السيطرة، فاستولى على القيادة في آخر الأمر». وخلافاً لرأي

(10) أمان: اختصار لعبارة آغاه ها ـ مودعين (فرع المعلومات): جهاز المخابرات العسكرية الاسرائيلية.

جهاز المخابرات التابع للجيش الاسرائيلي، الذي كان يرتاب بعائلة الجميل، تولى الموساد توجيه كفاح الموارنة اللبنانيين وراح يسهر بدقة على علاقاته بعائلتي الجميل وشمعون. فكان ضباط إسرائيليون يأتون بانتظام إلى بيروت، لكن الموساد هو الذي ينظم حركة «مهمات التعاون هذه». وكان عملاؤه يؤمنون الاتصال بين حيفا وجونيه، وبيروت وبكفيا، معقل آل الجميل. كان الموساد يأمل، من خلال لعب ورقة بشير الجميل، أن يصنع كامب دافيد ثانياً، أي عقد صلح منفرد بين اسرائيل ولبنان مسيحي يسيطر عليه حزب الكتائب؛ لذلك لم يرفض أي طلب تقدم به بشير من أجل مساعدته في الوصول إلى الحكم، بما في ذلك إعداد الاغتيالات لأشخاص محدّيك من المنافسين الذين قد يقفون حجر عثرة في طريقه. كان طوني فرنجيه واحداً من هؤلاء، ولا سيما أن الموساد، كما يلاحظ فكتور أوستروفسكي، كان لا يحب عائلة فرنجيه وأقل من ذلك وارثها.

إنّ مخترع مذهب كامب دافيد الثاني هنا والعلاقة مع حزب الكتائب هو دافيد كيمحي الذي كلفه الموساد بلقاء مع بشير لأول مرة خلال صيف 1976. كان المحامي الشاب قد تسلم لتوه القيادة العسكرية للكتائب وللقوات اللبنانية التي كان يفترض أن تسيطر على كل الميليشيات المسيحية في لبنان حيث فعلت كيمياء سحرية متبادلة فعلها: «في هذا البلد حيث كلمة سياسي معناها أن يباع ويشترى، كما تعني الفساد والنظام الاقطاعي البالي، كان بشير بسيطاً، مباشراً، ومستقيماً»، هذا ما كتبه دافيد كيمحي[11].

وهذه هي صورته كما رسمها أوري دان: «كيمحي هو من قدامى

(11) دافيد كيمحي، الخيار الآخر، ماكميلان، 1991.

موساد إيسير هاريل. اشترك في عمليات كثيرة دون أن يكون مع ذلك رجل تنفيذ على الأرض. إنه أميل إلى الدبلوماسي، وقد برع في فن الاتصالات السرية. قصة بذلاته ولهجته الشبيهة بالبابليك سكول، تسبغان عليه هيئة ممثل أصيل لوزارة الخارجية البريطانية. إنه رجل لبق، مثقف، يتميز بفكر تحليلي لامع، وخصوصاً متكتم. وهو متكتم إلى حد أنه يتمكن من أخفاء طموحه الشديد. إنه في الواقع وزير خارجية الموساد. لقد ضاعف كيمحي اتصالاته ببشير الجميل، وكان له أيضاً لقاءات مع أبيه بيار، مؤسس الكتائب اللبنانية. يُذكر أن تقاريره المقدمة عن مهمته تلك كانت ترفع، على كل حال، إلى كل من رئيس الوزراء ووزير الدفاع»[12].

لقد كنت على موعد معه بشأن التحقيق في موضوع هذا الكتاب، فأطلعته كما يجب على الموضوع بإيجاز، فوافق على أن يستقبلني في منزله، في تل أبيب، وحددنا الموعد، لكنه أصيب بمرض خطير اقتضى نقله إلى المستشفى حيث بقي مدة طويلة. بعد التثبت بحسب العادة من حقيقة نقله إلى المستشفى، لم يبق لي سوى أن أتمنى له الشفاء العاجل. لكنه كي يسجل له منة عليّ، وجهني إلى أحد معاونيه السابقين الملقب بيوسف. كان هذا أقل لياقة من رئيسه السابق فرفض مقابلتي، وخصوصاً تأكيد معلومات كسّاس التفجيرية، الذي كان أحد وسطائي مع دافيد كيمحي.

يجزم كسّاس أنه بالاضافة إلى العون الاسرائيلي في حقل اللوجستية والاعداد لعملية الأرز في إهدن، كان الموساد، أو بصورة أدق، LAD، أي الخلية النفسانية، قد وضعت تصميم «العملية السرية ضمن العملية التي كان يجب أن تؤدي لا محالة إلى

(12) أوري دان، المرجع المذكور آنفاً.

اغتيال طوني فرنجيه». وبعد أن رسمت LAD الصور النفسانية لمعظم القادة الكتائبيين، انتقت سمير جعجع، طالب الطب الشاب البالغ من العمر 24 سنة. لكن فلنواصل الاستماع إلى كسّاس: «كانت العملية العسكرية الواسعة ترمي إلى الانغراس بصورة مديدة في لبنان الشمالي، بينما الهدف السرّي ضمن هذه العملية كان يرمي إلى اغتيال طوني فرنجيه فيتمّ بذلك التخلّص من المنافس الأكثر جدية لبشير الجميل على رئاسة الجمهورية القادمة. كان يجب أن يعهد بهذه العملية السرية إلى رجل مصمم يجعل منها قضيته الشخصية. لكن قبل عرض الأمر على بشير، كان قد وقع الاختيار على سمير جعجع لأسباب ثلاثة: لكونه ابن بشري، فهو قد شب على الضغينة والريبة تجاه أهل زغرتا؛ كونه ابن عائلة متواضعة ـ كان والده عضواً في جوقة الجيش الموسيقية ووالدته عاملة في إدارة حصر التبغ والتنباك ـ كان جعجع الفتى مدمناً على قراءة أعمال آباء الكنيسة، والمتصوفين، ونيتشيه، وتيار دو شاردان، ويفهم «مارونيته» كوسيلة لإطاحة سلطان العائلات الكبيرة بمن فيها عائلة الجميل، هذه التي كانت ترتاب به على كل حال؛ أخيراً، كان، بالنظر إلى سعيه للبروز عسكرياً، يشكل غطاء مثالياً لحماية بشير، هذا الذي كان لا يستطيع الظهور علناً في هذه القضية التي يمكن أن تعرض للخطر مستقبله السياسي الذي لا بد أن يكون توافقياً متى آن الأوان».

«كان هذا التلاعب واحدة من أجمل ضربات الموساد في لبنان» يقول كسّاس في الختام. لقد أثار هذا حماس دافيد كيمحي، الذي كان مؤسس الروابط مع الكتائبيين، والذي كان وسواسه لا يزال إنجاز كامب دافيد لبناني. «كان من الأكيد أن أورشليم تتمنى أن تقوم في لبنان، بعد طرد الارهابيين من بيروت، حكومة صديقة

وراغبة في توقيع معاهدة صلح مع إسرائيل. كان هذا الحلم قد داعب فكر بن غوريون ومن بعده دايان»، كما يؤكد أوري دان. هذه الغاية كانت تبرر الواسطة، وحتى «الاغتيال الهادف». لم يكن إقناع بشير بالأمر العسير، وهو الذي كان مبهوراً بكل ما يتصل بتاريخ أصدقائه الجدد الذين كان معجباً بقوة إرادتهم وصلابتهم، كما أنَّ الطريقة التي اعتمدوها لاقامة دولتهم الفتية كانت في نظره مثالاً يحتذى.

لقد كان أحد مصادري يستطيع أن يؤكد وجود «العملية السرية»: فالرئيس السابق لجهاز مخابرات القوات اللبنانية الذي تحول اليوم إلى العمل في الاستيراد والتصدير، كان يستمع إلى روايتي[13] مقطب الوجه، في المكتب البعيد عن الأنظار في دارته الباريسية، فنصحني بالتوقف عن البحث حول تواطؤ بين الموساد والكتائب، «الذي كان بالاجمال مجرد تحالف ظرفي دفع إليه وضع دولي نوعي جداً». على أنه وافق على العودة إلى الخيط الأحمر لمجزرة إهدن التي كانت في نظره «عملية مرتبطة بالصراع الرهيب على الزعامة المسيحية، إذ إنَّ هاجس آل الجميل كان على الدوام «توحيد البندقية المسيحية» والوصول إلى رئاسة الجمهورية». كان هذا وسواساً مزدوجاً يتبدى من خلال تناذر مزدوج: ليلة السكاكين الطويلة اللبنانية وليلة ألتالينا[14].

من هذه الزاوية عدنا إلى تلاعب الموساد، أو على الأقل إلى «الوضع الخيلائي السري الذي كان فيه كبار رجال الحزب يتناقشون مع الاسرائيليين لأجل إنشاء جيش مسيحي حقيقي. فقد تغلب

---

(13) من حديث مع المؤلف بتاريخ 18 كانون الأول/ديسمبر 2008.

(14) أنظر الفصل الثالث عشر: انقلاب مبرمج، وعسكرة مستمرة.

الموساد على أمان في الصراع القائم بينهما، وفرض بشير نفسه كمحاور وحيد. كان الاسرائيليون قد أوحوا منذ البداية بهذا التطور الذي يقضي بسحق الوطنيين الأحرار وحراس الأرز، وبالتأكيد ميليشيات الشمال. في هذا الاطار، كان الجميع يقابلون الاسرائيليين، بمن فيهم كريم بقرادوني الذي قام بخمس رحلات».

ـ أنت واثق من هذا؟

صمت طويل.

ـ هناك أمر أكيد، وهو أن الروابط بين الموساد والكتائبيين تعود إلى الخمسينيات، الأمر الذي يؤكده موشي شاريت في مذكراته. ففي سنة 1951، كان الحزب بحاجة إلى المال من أجل خوض الانتخابات النيابية. ومع أن الموساد اعتبر آنذاك أن الحزب ليس له أي أمل، تبرع لهم شاريت ببضعة آلاف من الدولارات. لكن الالتحام حصل خصوصاً سنة 1958! كان وادي أبو جميل، الحي اليهودي في بيروت، مطوقاً من قبل القوميين الناصريين. وبما أن الحزب كان يضم أعضاء من اليهود، قام بيار الجميل بما يجب لأجل أمن الحي. كانت الطائفة اليهودية في بيروت قد استقبلت، بدعم من الحزب، عدداً من اليهود الآتين من سوريا، ولما كان الجيش اللبناني بحاجة إلى مترجمين لشرح عمليات التنصت بالعبرية، كان الحزب يزوده باليهود الذين لديه، وهكذا كان الجميع يتلاقون! على أي حال، ابتداء من حصار تل الزعتر، الذي ازداد معه التدخل العسكري الاسرائيلي، أنشأ الموساد ما يشبه هيئات متخصصة في ثلاثة حقول: العتاد، المعلومات، التدريب. لم يبدأ التدريب إلا بعد إهدن، على أثر انطلاق عملية «توحيد البندقية المسيحية».

لقد حانت لحظة إعادة طرح سؤالي الابتدائي حول «العملية

ضمن العملية»: كيف تدخل الموساد، ضمن إطار هذه الهيئات المتخصصة، في إعداد عملية إهدن، ولماذا نصح بشير الجميل بأن يكلف سمير جعجع بالهجوم على القصر؟

ـ كان المكتب الثالث وحده، أي أبو ناضر وفادي فرام وإيلي حبيقه وبشير، هو الذي يعد العملية مع الموساد. أما أهل الشمال فلم يدخلوا الحلقة إلا بعد ذلك بكثير، في آخر لحظة، واغتيل طوني فرنجيه. بعد مرور اثنتي عشرة سنة، وللأسباب إياها وبالطريقة إياها، اغتيل داني شمعون أيضاً هو وزوجته إنغريد وابناه جوليان (خمس سنوات) وطارق (سبع سنوات). وقد اتهم سمير جعجع بهذا الاغتيال من جملة اغتيالات أخرى وأوقف سنة 1994 بسبب اعتداء جرى على كنيسة سيدة المعونات أودى بحياة عشرة أشخاص: هذا الاعتداء الأخير رفعه عنه العفو العام الذي منع ملاحقته بجرم اغتيال الزعيم السني الطرابلسي رشيد كرامي في أول حزيران/يونيو 1987[15].

ـ حين تقول إن «أهل الشمال لم يدخلوا الحلقة إلا في آخر لحظة»، ماذا تقصد بذلك بالضبط؟

ـ أريد أن أقول إنهم أُدخلوا في الترتيب العسكري في شهر أيار/مايو قبل تنفيذ العملية بخمسة عشر يوماً. لم يشركهم بشير في الترتيب العسكري إلا في تلك اللحظة. كان الحزب يصعد الضغط على معامل الترابة في شكا التي كان سليمان فرنجيه لا يريد مقاسمته على ريعها. لم يعد هناك بد من تشغيل عنصر الاشتعال: «كان اغتيال جود البايع، رئيس بلدية قرية كفردلاقوس ومسؤول

(15) أنظر الفصل الرابع عشر: سمير جعجع، الملاك المبيد.

الحزب في الشمال استفزازاً حقيقياً، لكن كان مدبراً. فالقاتل تم التلاعب به وأستطيع أن أجزم بأن جماعة المكتب الثاني في الجيش اللبناني كانوا على علم تام بتلك الدسيسة. لم يكن في وسع الحزب إلا أن يرد، فكانت مجزرة إهدن».

نعم، قبل إهدن كان هناك شكا.

الفصل الثاني عشر

غطاء معامل التراية في شكا والاقتصاد الجناحي

«المال هو دم الآخرين».

سيسيل جون رودز (1853 ـ 1902).

لكي يكون مصنع الجريمة كاملاً، كانت خلية الموساد التقنية قد حللت الوضع السياسي والاقتصادي والعسكري اللبناني. «كنت قد عانيت، منذ الاتصالات الأولى مع الأجهزة الاسرائيلية» يقول جوزف أبو خليل؛ «إنهم جمعوا عن لبنان معلومات ذات دقة لا تصدق. إسرائيل تعرف لبنان، والعائلات اللبنانية، خاصة في الجنوب، أفضل بكثير من معظم اللبنانيين الأكثر معرفة؛ إنها تعرف الجنوب اللبناني، بيتاً بيتاً، وشخصاً شخصاً، تقريباً»[1].

ابتداءً من انسحابها الزائف من الجنوب، ركزت هيئة الاركان

(1) جوزف أبو خليل، الموارنة في جبل لبنان، منشورات إديفرا، باريس ـ بيروت، 1992.

الاسرائيلية اهتمامها على الشمال. فمنذ بداية السبعينيات، نُفذ العمل الدقيق، الذي جرى في الجنوب، في مختلف المناطق الشمالية التي «صُنفت ذات أولوية» ومنها منطقة زغرتا وإهدن، حيث كان الموساد يعرف هذه المناطق أيضاً «بيتاً بيتاً، وشخصاً شخصاً» بغية تأمين انغراسه في الشمال بواسطة حزب الكتائب. كان لا يزال عليه أن يدرس إشكالية «دافع يتعذر تجنبه» كما يقول كسّاس، عميل الموساد السابق[2] بعد أن استعرض «المعدون» الاسرائيليون عدة فرضيات يتورط فيها بشير بصورة شخصية مفرطة، لذلك اختاروا الحقل الاقتصادي والمالي. فهل يوجد أفضل من المال كدافع إلى الجريمة؟ كان يجب أن يكون هذا الدافع أكيداً وبسيطاً ومؤاتياً لردة فعل عسكرية فظة وعفوية لا يصعب عليها أن تظهر بمظهر دفاع عن النفس. كان المطلوب تحديد الهدف الاقتصادي ـ المالي الأهم لمنطقة زغرتا ذات الأولوية. وبعد استبعاد كازينو لبنان باعتباره «حقل صيد محفوظ للجيش السوري»، وقع اختيار المعدين على مجمع معامل الترابة في شكا.

يقع هذا المجمع على مسافة 65 كيلومتراً شمال بيروت، و10 كيلومترات من طرابلس، في بلدة شكا، على أرض تبلغ مساحتها نصف مليون متر مربع على شاطىء البحر، وقد أسسته عائلتا ضومط وعسيلي سنة 1953. مؤسسة الترابة الوطنية ش .م .ل هي شركة مغفلة يبلغ رأسمالها المعلن 156 مليار ليرة لبنانية. المركز الرسمي للشركة يقع بين اليرزة وبعبدا على مسافة بضعة كيلومترات من بيروت، ولا يبعد عن مقر إدارتها التجارية في أنطلياس. ابتدأ إنتاج الشركة سنة 1954 بفرن واحد وتضاعفت طاقتها في آخر

(2) أنظر الفصل الحادي عشر: تلاعب الموساد.

الخمسينيات، إذ باتت تنتج حتى 400000 طن من الترابة سنوياً وتستخدم نحو 500 شخص. بعد نشوب حرب 1975، لم يعد يصرح بعدد مستخدميها، الذي راح يتغير تبعاً للأحداث وخصوصاً لولاءات منظومات الحماية. وعند انتهاء حرب السنتين، كانت معامل الترابة تتمتع بحماية مزدوجة من جانب الجيش السوري وميليشيا المردة، لكن بعد أن ضعفت إدارة الشركة من جراء تنامي المنافسة بين المردة والكتائب، قيل إنها سعت إلى تنويع رأسمالها «الأمني»، الأمر الذي شحذ شهية هؤلاء وأولئك.

ظل المردة شديدي التكتم، في مختلف منشوراتهم السابقة والتالية لعملية إهدن، حول موضوع الرهان الاقتصادي الذي تمثله معامل الترابة في شكا. بعد حرب السنتين، كانت مبالغ السمسرة المقتطعة من أصول المعامل الكبيرة تكفي بقدر واسع لتمويل حاجات ميليشيات الشمال، وإن كان لا يمكن القيام بتقديرات رقمية واقعية لها. إن الخلاف الاقتصادي الذي نشب فيما بعد بين الكتائب وعائلة فرنجيه مذكور بصورة عرضية في تحليل أزمة شتاء 1978: «في أثناء اجتماع الجبهة اللبنانية في زغرتا يوم 21 كانون الثاني/يناير، ظهر «اختلاف» في التوجه على عدة مستويات (...). وقد أشار طوني فرنجيه إلى هذه النقاط في عدة أحاديث صحافية: «رفضنا كل تعاون مع إسرائيل وكل ضريبة تفرض على المواطنين...»، قال مؤكداً، مشيراً بذلك إلى إحدى نقاط الخلاف. وابتدأت الصورة تتوضح بعد 7 شباط/فبراير 1978. فقد شنت الكتائب حرباً مبرمجة ومدعومة من إسرائيل على قوات الردع العربية. أدان طوني فرنجيه هذه الحرب واعتبرها بمثابة «خطة ترمي إلى مصادرة السلام في لبنان» و «بداية خطة جديدة لتدمير البلاد». قام طوني فرنجيه إبان تلك المرحلة بعدة زيارات إلى دمشق تحادث

فيها مع الرئيس حافظ الأسد ونائبه رفعت الأسد. وكان لهذه الصداقة الوطيدة أثر إيجابي في استقرار المنطقة، الأمر الذي لم يعجب أصحاب مشروع التقسيم»[3].

هذا الحجب لموضوع الأغراض الاقتصادية في الشمال هو أيضاً الطابع المميز للوحة التي رسمها سمير جعجع نفسه في سلسلة الأحاديث التي أدلى بها إلى جريدة الشرق الأوسط في كانون الأول/ديسمبر 1990 حيث قال: «جرت في كانون الثاني/يناير 1978 سلسلة حوادث في الشمال. كلما عرف رجال فرنجيه أن الكتائب تنظم اجتماعاً أو احتفالاً، كانوا يفتعلون حادثة ويطلقون النار على المشاركين فيها. وقد هوجمت مكاتب الكتائب وفجرت عبوات ناسفة بسيارات مسؤوليها. لم تعد المسألة مسألة حوادث متفرقة بل صارت خطة متكاملة ترمي إلى إزالة الكتائبيين من الشمال كله وربما من مناطق أخرى تعرضت للتهديد أيضاً. وفي شهر أيار/مايو حضر كتائبيو الشمال إلى مركز الحزب في الصيفي حيث عقدوا عدة اجتماعات. عرفت قيادة الحزب أن الوضع في الشمال بات لا يمكن تحمله. وطلب كتائبيو الشمال من القيادة أن تجد حلاً سياسياً كي يوقف سليمان فرنجيه حملته، وإلا فإنهم سيضطرون إلى هجر بيوتهم حتى يأتي الحل»[4].

من جهته كتب الكاتب والصحافي سمير قصير، لكن دون أن يعطي مزيداً من التفاصيل، ما يلي: «استشرى الخلاف، خصوصاً حول معمل الترابة في شكا، على الساحل الشمالي، الذي كانت

---

(3) مكتب إعلام وتوثيق المردة، طوني فرنجيه، حياته ومواقفه، بنشعي، 13 حزيران/يونيو 1990.

(4) الشرق الأوسط، كانون الأول/ديسمبر 1990.

الميليشيا الزغرتاوية، المردة، وحزب الكتائب يتنازعان على جباية الخوة منه. هذا الخصام المادي كان يفاقم التنافس السياسي، الذي كان قائماً بين الطرفين في مجمل الشمال المسيحي. وعلى عكس المناطق المسيحية الأخرى، التي كان يهيمن عليها حزب الكتائب بشكل وثيق إلى هذا الحد أو ذاك، كانت زغرتا تحت هيمنة ميليشيا محلية، أنشأها فرنجيه يوم كان رئيساً للجمهورية، وبالاستناد إلى علاقات من النوع الزبائني والأسروي معاً. كان حزبا الكتائب والوطنيين الأحرار قليلي الحضور هناك حتى إبان حرب 1975 ـ 1976. على أن حزب الكتائب كان ذا انغراس على جانب من الأهمية في القرى المجاورة التي تشغل موقعاً تابعاً بالنظر إلى نظام الهيمنة في المنطقة والعلاقات الطبقية. وحين حاول توسيع حضوره، أثار هواجس آل فرنجيه الذين كانوا يرفضون حضور الأحزاب حتى لو كانت حليفة لهم. يضاف إلى ذلك أن توسيع انغراس الكتائب في بشري، البلدة المارونية الكبيرة الشمالية الأخرى، وهي الخصم التاريخي لزغرتا، بتحفيز من نواة من الناشطين المرتبطين ببشير الجميل كانت تجند أفراداً من بين الفئات المعادية لآل فرنجيه، فكان هذا يبدو كأنه تكذيب لادعاء الرئيس السابق بأنه سلطان الشمال المسيحي بكامله»[5].

في هذا الجو حصلت حادثة مسلحة جديدة بين الكتائبيين والمردة في محيط معامل الترابة، يوم 27 أيار/مايو 1978، قتل فيها أحد رجال المردة جمال فرنجيه واثنان من الكتائب. على أثر هذا الاشتباك، أمر طوني بك الضابط الذي قاد العملية بأن ينسحب من

(5) سمير قصير، الحرب اللبنانية ـ من الانشقاق الوطني إلى النزاع الاقليمي، منشورات كارتالا ـ سيرموك، 2000.

إهدن ويأخذ قسطاً من الراحة[6]. هذه السلسلة من الصدامات بين المسيحيين ركّزت الانتباه على معامل الترابة في شكا. ولقد عبأت إشكالية الهيمنة السياسية ـ المالية ليس الأجهزة العسكرية لدى الكتائب والمردة فحسب، بل الوحدة الخاصة بلبنان في الأجهزة السرية الاسرائيلية أيضاً. «لقد تابعت الأجهزة هذا التطور بأكبر قدر من الانتباه، حيث كانت المسألة تتعلّق بمعرفة كيفية تحويل مجابهة تقليدية بين عشيرتين مافياويتين لما فيه مصلحة «عشيرتنا». كان المقصود بالتأكيد مساعدة هذه العشيرة لبسط سيطرتها على معامل الترابة، ومن وراء ذلك، النظر في الطريقة التي تسمح لنا، بكيفية شل طوني فرنجيه، وبمعنى آخر، النظر في كيفية استغلال جو الأزمة التي فتحتها شكا من أجل انجاز أول اغتيال منتقى يقوم به جهاز عملنا في لبنان»، هذا ما شرحه لنا كسّاس في النهاية[7].

بعد انقضاء اثنتي عشرة سنة، كان هذا التلاعب موضوع مذكرة توليفية وضعها جهاز سري أوروبي بعنوان: «نظام حربي واقتصاد جناحي في لبنان».

«إنَّ غياب الدولة كان إلى حد بعيد وراء نشوب النزاع اللبناني. يضاف إلى ذلك أن غياب الدولة المزمن، بما في ذلك في الحقل الاقتصادي والاجتماعي والأمني، الذي جعل المواطنين يعتادون على عدم الاتكال إلا على ذواتهم، وعلى تنظيم أنفسهم في شبكات موازية، قد أسهم بقدر واسع في ديمومة النزاع. كما إن

(6) بعد ذلك، وجد نفسه أحد الضباط الوحيدين الذي كان في طليعة محاولة صد الهجوم على قصر طوني بك. انظر الفصل الثاني: 13 حزيران/يونيو، الهجوم على القصر.

(7) انظر الفصل الحادي عشر: تلاعب الموساد.

تكاثر البنى السياسية، والعسكرية، والاقتصادية، والاجتماعية، المتراكمة فوق بنى الدولة، قد أدى، من خلال حرب أهلية دامت خمس عشرة سنة، إلى قيام نظام - مضاد متناسق وعملي يستمد شرعيته من النزاع ولأجل النزاع. إن متانة النظام الاقتصادي الحربي هي التي تسبب هشاشة محاولات الحل وإعادة بناء الحياة العامة في البلاد، أكثر مما تفعل المجابهة العسكرية والسياسية».

فعلى مدى خمس عشرة سنة من النزاع، قضت الهجرة، والاغتيال، والتحول إلى نظام الميليشيات، على النخب التقليدية التي كانت قد جعلت من لبنان نموذجاً، مركنتيلياً وتفاوتياً بالتأكيد، لكن شديد الحيوية، طريفاً ومنفتحاً. فقد حلت شيئاً فشيئاً محل هذه النخب التي تتحرك في لعبة معقدة من التبريرات القانونية العصرية والولاءات الاقطاعية، قوى أخرى، محلية وأجنبية، منذ أن وجدت الدولة نفسها أمام استحالة الاضطلاع بوظائفها السيادية.

وهكذا، في أواخر الثمانينيات - توضح المذكرة - «أحصي في لبنان حوالى 120000 مقاتل مسلح يزاولون وظائفهم متفرغين، أي 12 إلى 15% من السكان العاملين، كان نصفهم تقريباً من الأجانب، ويمكن أن يوزعوا على النحو التالي:

- 45000 جندي نظامي سوري.
- 10000 إلى 12000 مقاتل فلسطيني من كل المنظمات.
- 2000 إلى 3000 من حراس الثورة الايرانيين في البقاع وجنوب لبنان.
- 1500 إلى 2000 جندي نظامي إسرائيلي في «المنطقة الأمنية».
- حوالى 65000 أجنبي، ذوي إقامة قانونية أو غير قانونية، يعيشون إلى حد ما على ما تبقى من الاقتصاد اللبناني.

- 8000 جندي نظامي لبناني.
- 8000 عضو ميليشيا متفرغ في القوات اللبنانية.
- 25000 جندي في جيش لبنان الجنوبي التابع لإسرائيل.
- 2000 عنصر تابع لإيلي حبيقة تحت الهيمنة السورية.
- 5000 إلى 6000 عنصر في ميليشيا أمل الشيعية.
- 3000 إلى 4000 جندي لحزب الله.
- 4000 إلى 5000 عنصر في الميليشيا الدرزية التابعة للحزب التقدمي الاشتراكي بزعامة وليد جنبلاط.
- 2000 عنصر ميليشيا في مختلف فروع الحزب السوري القومي الاجتماعي المتنوعة الانتماء.

هذه ليست لائحة كاملة، إذ إنّ هناك حوالى مئتي مجموعة متنوعة التوجهات وموزعة بين الأحياء أو القرى ويتراوح عديد كل منها بين بضع عشرات وبضع مئات من المسلحين المتفرغين. أما التوزع الطائفي في مجمل هذه الميليشيات بالنسبة المئوية فهو كما يلي: «مسيحيون 45%؛ شيعة 35%؛ دروز 20%، علويون 2%. وقد ارتقت هذه المجموعة شيئاً فشيئاً إلى مستوى مجتمع - مضاد، حكم - مضاد، له نظامه، وتراتبيته، وقواعد أدائه الخاصة به».

لم يكن تطور السوسيولوجيا الميليشاوية متماثلاً بين حرب السنتين ورئاسة بشير الجميل في آب/أغسطس 1982، ثم عند التسريح الذي جرى في مطلع التسعينيات. فالنموذج «الاحصائي» لعنصر الميليشيا في بداية الحرب كان يتطابق مع شخص يتراوح عمره بين 25 و30 سنة، آتٍ إما من النخب التقليدية - زعماء الأحياء أو القرى - وإما من أوساط الطبقات الوسطى والمثقفة، ذات التربية الايديولوجية الفعلية. ابتداء من الثمانينيات أخذ النموذج يتغير من جراء هجرة النخب والتنقلات الجغرافية والاجتماعية

الاجبارية بهذا القدر أو ذاك، فتدنى متوسط العمر إلى ما بين 15 إلى 20 سنة، وكان عنصر الميليشيا الفتي لا يعرف نشاطاً آخر غير خدمته تحت السلاح. كان معظم هؤلاء من أبناء عائلات نازحة وأميين، وكان كثيرون منهم يجهلون ما هو النسيج الاجتماعي في زمن السلم، زمن ما قبل 1975، فيتأرجحون بين وظائفهم العسكرية والجنح الصغيرة أو المتوسطة، مدمنين على المخدرات وسرقة السيارات وأعمال الاختطاف المدفوعة الأجر. كانوا في الغالب من أبناء الأرياف، والمناطق الفقيرة المنكمشة على ذاتها (عكار وبشري فيما خص الموارنة، الشوف الأعلى فيما خص الدروز، والنبطية ومناطق أخرى في الجنوب والبقاع فيما خص الشيعة).

وتوضح مذكرة الجهاز السري الأوروبي قائلة: «استفاد المجتمع ـ المضاد الميليشياوي من خمس عشرة سنة كي يرسخ قدميه، ويحدد قواعد أدائه ويتنضد. كان على رأسه فريق محدود ممن اصطلح على تسميتهم «أمراء الحرب» يستمد شرعيته إما من المجتمع التقليدي (جنبلاط، الجميل، فرنجيه)، وإما من براعته في المناورة مضافة إلى شجاعة في القتال معترف بها (حبيقة، جعجع، عون)، وإما من دعم خارجي (الموسوي، لحد، سعد). واستطاع «أمراء الحرب» هؤلاء، الشركاء بهذا القدر أو ذاك، مع مهربين ومستغلين واعين للحرب، أن يحركوا، بواسطة أرباح جناحية جنوها في البداية، آليات ولاءات جديدة مبنية على الجاذبية الشخصية وعلى إعادة توزيع أرباح تولّد موجبات. وكانت تعمل تحت إمرتهم المباشرة طبقة من مديرين وكوادر نظموا نشاط «إدارة ميليشياوية» حلت محل الدولة العاجزة في حقول الأمن، والعون الاجتماعي، والاعلام، والادارة المحلية، وطبعاً جباية الرسوم المفترض أنها

تجبى لأجل مساندة هذه الخدمات العامة الأساسية والمجهود الحربي الذي لا غنى عنه».

وسرعان ما التحقت بهؤلاء «المديرين» طبقة كاملة من الوسطاء، ومتعهدي النقل بالعبور، وناقلي الأشخاص، وناقلي البضائع، الذين لا غنى عنهم لمواجهة متطلبات مجتمع منقسم جغرافياً واجتماعياً. كان مجمل هذه النشاطات يقع طبعاً على عاتق كتلة المقاتلين والمرتبطين بهم، من يد عاملة تنفيذية وإكراهية وفي الوقت ذاته مستفيدة هامشية من النظام، تحصل على فتات السلطان وفتات مداخيل أمراء الحرب. وإذا أضفنا إلى أسياد الحرب هؤلاء أنسباءهم ومحاسبيهم، لأمكن أن نعتبر أن ما يقارب نصف سكان لبنان ـ أي 750000 شخص ـ كان مصيرهم يرتبط مباشرة بأداء هذا النظام الذي يشكل مجتمعاً ـ مضاداً متناسقاً.

ما كان لمثل هذا المجتمع ـ المضاد أن يستقر ما لم ينتج مؤسساته الخاصة به، وكذلك اقتصاده الخاص. فكان هناك مرافىء خاصة، ونقل عام، ومستوصفات، ومدارس، ومحطات إذاعة، ومحطات تلفزيون، وعون اجتماعي، وتجارة كبيرة وصغيرة، الخ شكلت النسيج الاقتصادي الذي «يبرئ» وظيفة أمير الحرب إزاء دولة مفلسة. وعلى غرار كل نوع من المشاريع، واجهت الميليشيات، منذ بدء الحرب، ضرورة تراكم بدائي للرأسمال، من أجل تأمين أعمال التجنيد الأولى وتمويل مشتريات السلاح والعتاد. وقد جرى هذا التراكم بين سنتي 1975 و1976 إبان حرب السنتين، عن طريق نهب ثروات وسط بيروت[8]، مما سمح بإقامة

(8) سليم نصر، المرجع المذكور آنفاً. أنظر الفصل العاشر: الاعداد العسكري لـ «عملية الأرز».

وتشغيل بنية تحتية ميليشياوية وطيدة تحوز قدرة إكراهية. هكذا بات يمكن «ترشيد» مصادر دخل الميليشيات ارتباطاً بإدارة رقعة جغرافية محددة.

وبالنظر إلى تهجير حوالى 40% من السكان خلال 15 سنة، يمكن للمرء أن يدرك مدى ضخامة الانتقالات الجبرية للأملاك العقارية وما نتج عنها من أرباح. بالاضافة إلى جباية الرسوم الاعتيادية بصورة مباشرة، أنشأت الميليشيات نظاماً ضريبياً يتناول تقريباً كل الأموال والنشاطات والنقل التي يمكن تصورها. فكان مفروضاً على الأفراد والمؤسسات أن يساهموا ـ بأشكال ومبالغ متنوعة واعتباطية أغلب الأحيان ـ في تمويل «الحماية» التي تؤمنها لهم الميليشيا المحلية. أما فيما خص نشاط المرفأ، فقد تدنت حصة الدولة في الرسوم الجمركية الشرعية من 90% سنة 1980 إلى 10% سنة 1986، وكانت الميليشيات تستولي على الفرق. أما العائدات الجمركية سنة 1976 فلم تكن تشكل أكثر من 50% من مداخيل الدولة اللبنانية.

أخيراً، كان دخل الميليشيات الرئيسي يأتي من التهريب. فقد بلغت قيمة إنتاج المخدرات (الأفيون والحشيشة) في لبنان حوالى مليار ونصف المليار من الدولارات سنة 1989. وكان يقتطع من قيمة هذا الانتاج، المخصص بصورة أساسية للتصدير، حوالى 30% لأجل النظام الحربي وحده. أما سوق تهريب السلاح، فتقديره أكثر صعوبة، لكن لبنان كان في السبعينيات والثمانينيات إحدى الساحات الأكثر ازدهاراً لهذا النشاط. كما أن تهريب الأشياء المسروقة في العالم كله، خصوصاً السيارات الفخمة والتحف الفنية، المعدة للتصدير إلى الداخل العربي، ظل يتوسع حتى نشوب حرب الخليج الأولى.

وتضيف المذكرة: «استناداً إلى تقديرات يصعب التثبت منها ولكنها معقولة، فإن الاقتصاد الأسود لنظام الحرب اللبنانية قد شمل أكثر من 50% من نشاط البلاد الاقتصادي. على أنه يمكن رفع هذه النسبة إلى أعلى إذ إنَّ عدداً لا بأس به من النشاطات المشروعة كان تابعاً بقدر كبير لنظام النشاطات الجناحية السائد. وقد حرصت الميليشيات، بعد نضوجها، على تنويع وتدويل نشاطاتها، فشرعت تؤلف شركات قابضة، وشركات مالية أو خدماتية، معدة لـ «تبييض» مداخيلها (وكالات إعلان وإعلام، واستشارات، ومعلوماتية، واستيراد وتصدير، وسياحة، ووكالات عقارية، وتوظيفات دولية متنوعة)».

إن تفعيل هذا الاقتصاد الجناحي قد أحدث تحولات عميقة لا رجعة عنها في النسيج الاجتماعي ـ السياسي اللبناني. فإذا كان أداء مثل هذا النظام يستطيع التوافق مع القواعد المركنتيلية وحرية المبادرة، فقد كان غير قابل للتصور في ظل القواعد الدولتية والقوانين الاجتماعية ـ الطائفية السابقة لسنة 1976. لقد بني هذا الاقتصاد الجناحي وفق قواعد محددة يحترمها الجميع.

لقد أعطيت الأولوية، داخل كل طائفة، لنيل الميليشيا كامل السلطة في منطقة عملها كي تلغي سائر الميليشيات وكل شكل من أشكال التعددية السياسية. فحزب الكتائب، ثم القوات اللبنانية، هدمت أو همشت سائر القوى المسيحية، ولقد كان هذا أحد أغراض مجزرة إهدن. وحزب وليد جنبلاط التقدمي الاشتراكي استأصل الميليشيات اليزبكية. وإنه بسبب التدخل الايراني لم تتمكن أمل من الحصول على الاحتكار الشيعي، واضطرت أن تقبل، على حساب السنة، على كل حال، باقتسام الأرض مع حزب الله. وهكذا، لا تستطيع أية ميليشيا أن تحافظ على أداء نظامها الحربي

حيث تهيمن قوات أجنبية لحسابها الخاص، سورية كانت أم فلسطينية.

فعلى مدى سني الحرب الخمس عشرة، لم تقاتل أية واحدة من الميليشيات فعلياً من أجل احتكار سلطة الدولة، لذلك فإنَّ خطوط التماس لم تتغير عملياً، في بيروت على الأقل. كان القتال بوجه عام، وبعد بضعة تصحيحات جغرافية حصلت في البداية، ينحصر في قصف كثيف وأعمى، وفي اعتداءات بواسطة سيارات ملغومة ومذابح مدنيين. كانت الوظيفة الوحيدة للقتال بين الطوائف إسباغ الصفة الشرعية على أمراء الحرب في طائفتهم ومنطقتهم، دون أي إرادة للتغيير. لذلك، حافظت الميليشيات على التوازن فيما بينها باعتمادها لعبة التحالفات الجغرافية، إذ إن عدو الأمس اللدود قد يصبح حليف الغد الوثيق، شرط أن تبقى سيطرة كل واحد من هؤلاء مضمونة على منطقته وطائفته، عملاً بميثاق غير مكتوب لكن محترم دائماً. إنَّ لهذه الممارسة نتيجة جانبية قوامها قابلية مختلف القوى أو الميليشيات لاحتضان المنبوذين من المعسكر المعادي، بصرف النظر عن ماضيهم أو عن طبيعة النزاعات المتراكمة.

لقد حاول أمراء الحرب، عدة مرات، أن «يشرعنوا» نظامهم فاتفقوا على إقامة نظام سياسي للدولة يصون لهم مكاسبهم وأوضاعهم، لذلك فإنَّ الدفاع المشترك عن النظام الحربي يفرض بالتأكيد على مسؤولي الميليشيات رفض أو تحاشي أو ترتيب أية صيغة لإعادة البناء تفترض قيام دولة قوية تتمتع بكامل سلطاتها السيادية. وهذا الرفض كان يتبدّى، أغلب الأحيان، باللجوء إلى النمط العملاني الارهابي ضد المجتمع المدني والمتنوّع الطوائف بالاجمال: النقابات، الأحزاب، رجال السياسة، الصحافة، الجمعيات، إدارات الدولة، المؤسسات العامة والخاصة، الخ. كما

يتبدى في الضغوط السياسية والعسكرية والدبلوماسية التي ترمي إلى منع أو حرف إقامة أجهزة للدولة قادرة على التصدي لأسس الاقتصاد الجناحي.

في أعقاب حرب السنتين، كما إبان الثلاث عشرة سنة التالية، اتفق مسؤولو الميليشيات بصورة ضمنية أو صريحة على احترام المبادىء الأساسية للاقتصاد الجناحي، أي احترام الرقعة الجغرافية التي يسيطر عليها كل منهم. كما كانت الميليشيات المتنافسة تراعي بكل دقة قواعد اقتسام غير مكتوبة للثروات ولتوزيع الأموال الوحيدة المصدر (البنزين، الكهرباء، التبغ) التي كانت دائماً موضوع تسويات بين زعماء الميليشيات المتنافسة. وكانت مجابهات معامل الترابة في شكا استثناءً من القاعدة أو دليلاً على هشاشتها على الأقل. ولما كانت هذه المجابهات ذريعة لمجزرة إهدن، فهي قد شكلت خطراً على الاحترام الضمني للمواقع الاقتصادية التي اكتسبتها الميليشيات المسيحية المختلفة.

«لهذه الأسباب المرتبطة بمراعاة توازن مافياوي هزيل جداً يرتكز في آن واحد على المصالح الاقتصادية الجيدة التقدير لكل واحدة من الميليشيات وعلى سنّة الدم الخاصة بسكان الجبال» - يضيف كسّاس - «بقي علينا أن نجد أو أن نفتعل الحادث المفجّر الذي يبرر حصول رد عسكري يطيح بهذا التوازن». هذا الحادث كان اغتيال جود البايع، ممثل حزب الكتائب في الشمال.

يقول سمير جعجع: «كانت الحوادث تتكاثر وفرنجيه يجمد كل الوساطات. ثم جاء اغتيال جود البايع الذي كان صدمة للحزب، في الشمال كما في بيروت. ومما زاد في شدة وقع هذا الاغتيال أن جود البايع، الذي أعدم بصورة وحشية على سلّم مكتبه، كان شخصاً مسالماً وهادئاً. وكان قد قام في شتاء 1978 بوساطة ناشطة

جداً بين الحزب وسليمان فرنجيه. فالرجلان كانا صديقين. وكان جود البايع صديقاً لبيار الجميل أيضاً. أثار هذا الاغتيال نقمة عارمة في صفوف الحزب، وأقام مناخاً تخطى القيادة ومراكز القرار، ضاغطاً على كل المستويات، من رئيس الحزب إلى آخر عضو فيه. بعد هذا الاغتيال أحس كل كتائبي أنه معني ومهدد. وحمل هذا المناخ الفاسد الحزب على اتخاذ قرار المجابهة (...). لقد قرر الحزب بالاجماع أن يجابه سليمان فرنجيه ورجاله كي يجبرهم على التوقف عن حملتهم التصفوية. ولم يبتدىء دوري إلا بعد اتخاذ قرار المجابهة»[9].

من جهته يؤكد سليمان فرنجيه: «كان جود البايع صديقاً لوالدي على الرغم من كونه كتائبياً. وكان موته صدمة قاسية، لعائلتنا أيضاً. حين قتل جمال فرنجيه في شكا، كان بديهياً أن هذه المسألة ستحرك الأخذ بالثأر. كان أحد أعمامه البالغ حوالى ستين سنة من العمر يريد أن يثأر له. وتدخل في الأمر أشخاص آخرون. هؤلاء الأشخاص بالذات، الذين كانوا وراء الاضطرابات بين طرابلس وزغرتا سنة 1975، ثم وراء تفجير السيارة الملغومة في زغرتا في أيار/مايو 1978، كانوا يسعون دائماً إلى صب الزيت على النار. فالمصرف الذي كان يديره جود البايع كان مغلقاً. جاءه أولئك الأشخاص أنفسهم وطلبوا منه أن يفتح المصرف متذرعين بإجراء صفقة مستعجلة... وقد قتل فيما كان يفتح المصرف. يبدو أن شخصاً مشبوهاً جداً كان لولب هذه القضية، وكان معروفاً بأنه عمل مع سمير جعجع، وقد اختفى تماماً بعد اغتيال جود البايع، الذي

(9) سمير جعجع: حديث إلى الشرق الأوسط، المرجع المذكور آنفاً.

اعتقدنا دائماً أنه عملية استفزازية يقصد منها إضرام النار في البارود»[10].

فعلاً، لم يعثر أحد أبداً على أثر لذلك العميل الاستفزازي. لا أحد يريد ذكره ولا حتى تذكر وجوده. حتى كسّاس، عميل الموساد السابق، يزعم أنه لم يسمع قط أحداً يتكلم عن ذلك الرجل. وعندما نسأله عما كان، في النهاية، ذاك الحادث القابس لماكنة «عملية الأرز»، تخونه ذاكرته. إذا كنت استطيع أن أصدق فقدان الذاكرة الاستنسابي عند دافيد كيمحي - واجب التحفظ لدى رئيس جهاز استخبارات سابق - فقد كان من الصعب عليّ أن أتصور لماذا يمكن أن يتوقف كسّاس، بعدما أكد المحطات الرئيسية لمجزرة إهدن، بعد اقترابه إلى الحد من التوضيح النهائي.

إنَّ بومة مينيرفا لن تطير ساعة الغسق. وسيكون من الصعب أن نعرف كيف صُممت الحلقة الأخيرة من تلاعب الموساد. إنَّ فرضية اغتيال جود البايع كعمل استفزازي مدبر، كشرارة لمجزرة إهدن، لا تزال فرضية. على أي حال، إن هدف جهاز الاستخبارات الاسرائيلي لم يكن فرضياً: إنه كان يريد ايصال بشير الجميل والكتائب إلى الحكم. ومن أجل بلوغ هذا الهدف، فإن الغاية تبرر الوسيلة، بما فيها «الاغتيال الهادف» لطوني فرنجيه.

هكذا كانت تل أبيب ترى مستقبل دولة لبنانية ترضى بعقد صلح منفرد، على نحو ما فعل الرئيس المصري أنور السادات في أيلول/سبتمبر 1978، حين وقع مع رئيس الوزراء مناحيم بيغن اتفاقات كامب دافيد. لقد أفضت هذه الاتفاقات، بعد مرور سنة، إلى أول صلح تعقده إسرائيل مع دولة عربية.

(10) حديث مع المؤلف، يوم السبت في 2 شباط/فبراير 2009.



جثامين طوني فرنجية وزوجته فيرا وابنتهما جيهان ذات الثلاث سنوات

أرشيف جريدة النهار

«قصر» طوني فرنجية في إهدن

محفوظات خاصة

قرية إهدن

محفوظات خاصة



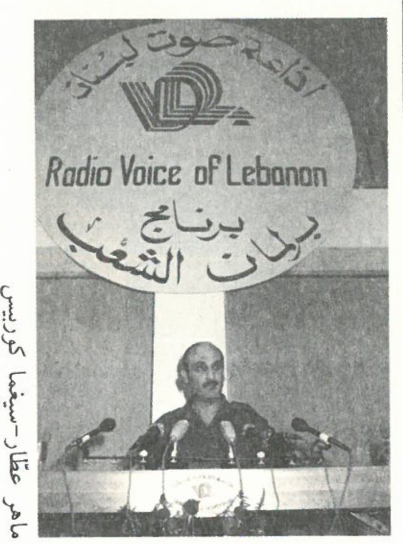
طوني فرنجية زعيم تيار المردة خلال «حرب السنتين» (1975-1976)

محفوظات عائلة فرنجية



بشير الجميل، القائد العسكري للكتائب والقوات اللبنانية

آلان دلجان-سيغما كوربيس



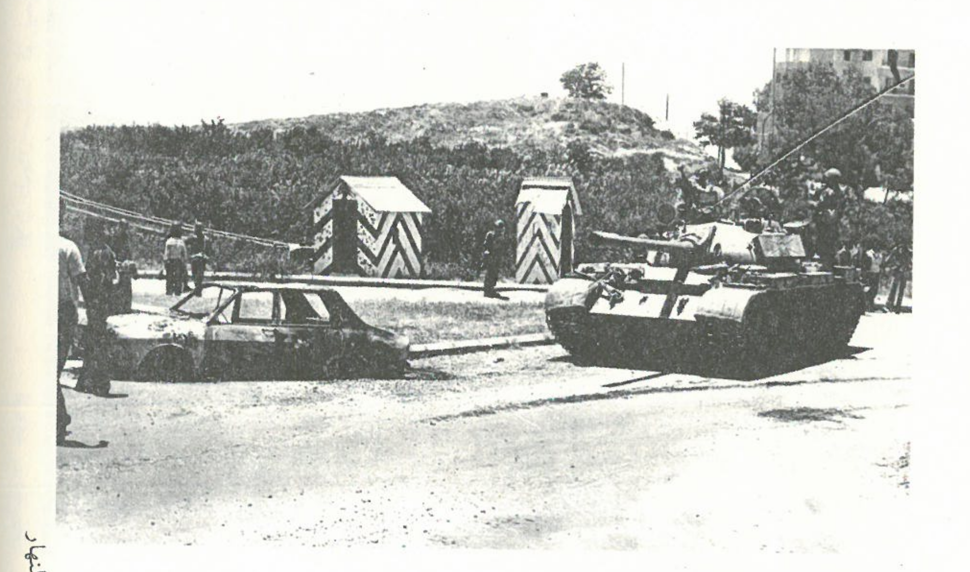
سمير جعجع، القائد العسكري لكتائبيّي الشمال

ماهر عطار-سيغما كوربيس



أرشيف جريدة النهار

قصر إهدن، 13 حزيران 1978 حوالي الساعة 12.
قوات الردع العربية بدأت انتشارها في لبنان الشمالي.



أرشيف جريدة النهار

إهدن: دبابة تابعة لقوات الردع العربية على مستديرة القصر.

الرئيس سليمان فرنجية وحفيده
سليمان (13 عاماً).

تصوير جوزيف فنيانوس

المأتم في باحة كنيسة سيدة زغرتا في 14 حزيران 1978.



محفوظات عائلة فرنجية

الرئيس مع حفيده سليمان في قصر بعبدا، حزيران 1974.



محفوظات خاصة

ملصقات عن مجزرة إهدن.



محفوظات خاصة



المركز العربي للتوثيق

المأتم في 14 حزيران داخل كنيسة سيدة زغرتا.
نحيب النساء حول نعوش طوني، فيرا وجيهان فرنجية.



المركز العربي للتوثيق

المأتم في 14 حزيران 1978: نساء زغرتا في انتظار موكب التشييع.



محفوظات عائلة فرنجية

الرئيس فرنجية وابنه طوني سنة 1956.

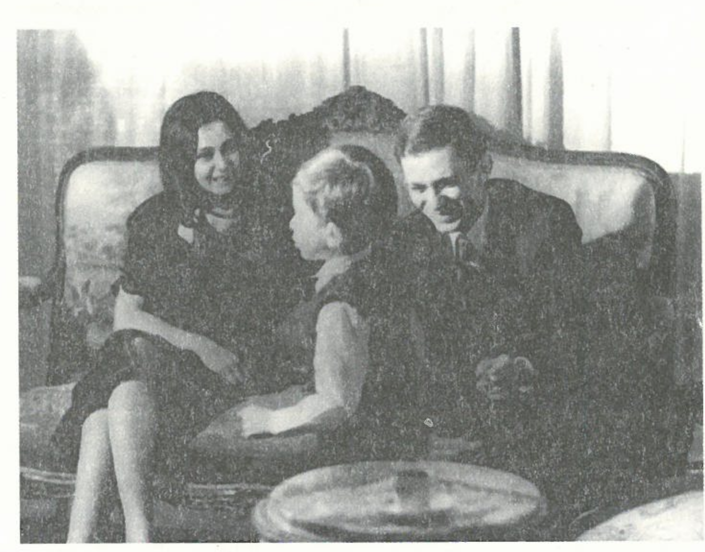


محفوظات عائلة فرنجية

طوني فرنجية، وزير للاتصالات
سنة 1973.

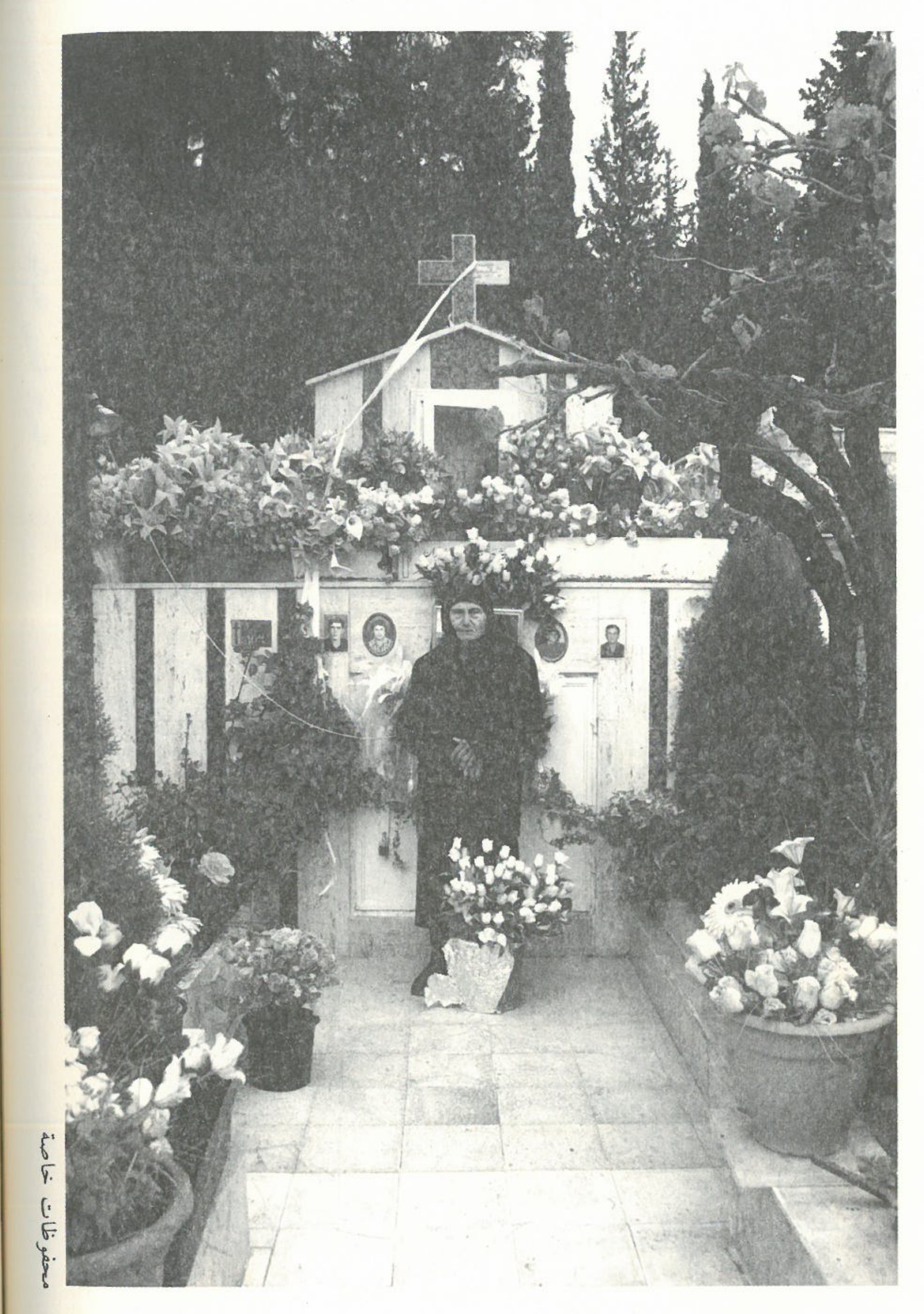
تصوير خليل معوض

طوني، سليمان، فيرا وجيهان فرنجية في إهدن في 11 حزيران 1978
آخر صورة للعائلة، يومين قبل المجزرة بيومين.



محفوظات عائلة فرنجية

سليمان فرنجية مع والديه سنة 1970


محفوظات خاصة

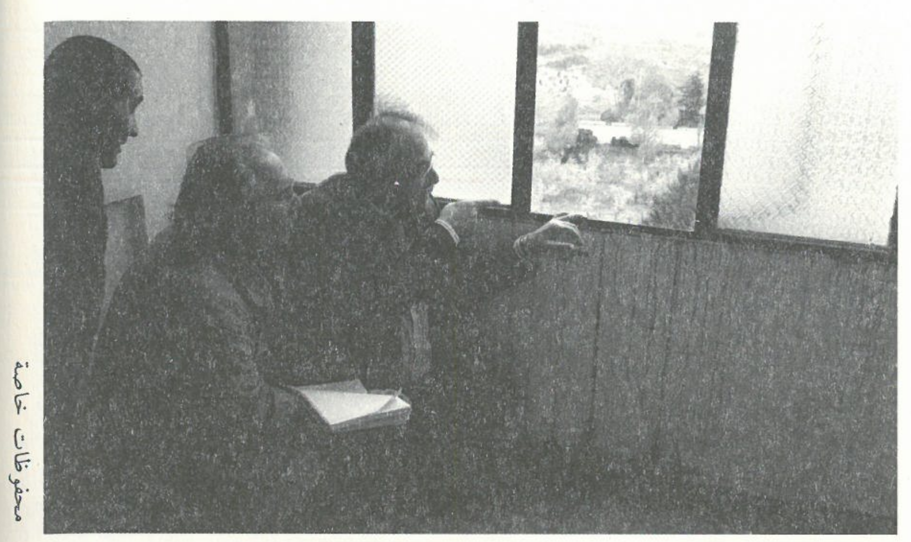
كوكب اسكندر، عذراء الشهداء السوداء أمام ضريح أولادها

محفوظات خاصة

انطوانيت، شقيقة «الوحيد»، الصبي الأوحد في عائلة تضم ست بنات.


محفوظات خاصة

بدوي دحدح يروي مقاومة أبيه محسن وشقيقه منير في بيت بلعيس.



محفوظات خاصة

السلطان سليم والكاتب ويوسف الشب فرنجية الملقب بأبو جو ـ القناص ـ خلال استعادة مقاومته للمهاجمين. من هذا الموقع تمكن من إصابة سمير جعجع



تصوير الكسي فرنجية

مأتم أبو جو، الشهيد الثاني والثلاثون لمجزرة إهدن، في 18 أيلول 2008

تصوير الكسي فرنجية



تصوير الكسي فرنجية

سليمان فرنجية خلال مهرجان للمردة في زغرتا، 15 أيار 2005.



تصوير الكسي فرنجية

العماد ميشال عون إلى جانب الوزير سليمان فرنجية خلال مؤتمر صحافي عقدوه في إهدن في 13 حزيران 2005.

الفصل الثالث عشر

انقلاب مبرمج، وعسكرة مستمرة

«لم تكشف الخطة الاستراتيجية التي رسمها سيلا ويوليوس قيصر للاستيلاء على روما، عن عبقريتهما السياسية، بل عن عبقريتهما العسكرية. فالصعوبات التي كان يجب أن يذللاها للاستيلاء على روما هي صعوبات من النوع العسكري حصراً. لقد كان عليهما أن يقاتلا جيوشاً لا جمعيات. ومن الخطأ أن نعتبر الإنزال في براند وعبور روبيكون عملين تمهيديين للقيام بانقلاب: إنهما عملان لهما طابع استراتيجي، وليس طابعاً سياسياً قطعاً».

كورزيو مالابارت، «تقنية الانقلاب» (1931).

بعد أن أعدنا رسم صورة الوقائع، بين شهادات واستدلال، انطلاقاً من الهجوم على القصر وصعوداً إلى فبركة غطاء شكا واغتيال جود البايع، علينا الآن أن نقوم برسم صورة أكثر توليفية تسمح بإعادة وضع مجزرة إهدن على الخطوط الرئيسية التي تجعل منها حدثاً كبيراً حتى اليوم. فاذا كان هذا الاغتيال ما زال يحتفظ بقدرة سحرية غريبة، فذلك لأنه يحمل تناقضات لم تُحل، تبرز بين

الفينة والفينة، وتنذر بصعوبات مستقبل سياسي لا يزال يجب بناؤه. تبدأ محاولة التوليف هذه في بكركي، وتجد لها حلاً موقتاً بعد اتفاقات الطائف، هذه التي تبشر بالخروج من حرب دامت خمس عشرة سنة، لكنها تفضي أيضاً إلى مجابهات جديدة بين المسيحيين.

بعد حوادث شكا واشتباك جديد بين الكتائبيين والمردة في البترون، رأى البطريرك الماروني من الضروري أن يتدخل، لذا نظم في بكركي مقر البطريركية لقاء بين مسؤولين كتائبيين وزعماء شماليين بينهم عائلة الجميل وطوني فرنجيه. لويس معراوي، مستشار طوني فرنجية في حينها والذي رافقه إلى ذلك الاجتماع، يتذكر «الجهود التي بذلها المردة لأجل تلافي المجابهة».

بعد اللقاء تلا المونسنيور إميل شاهين البيان التالي: «عند الساعة الخامسة عشرة من عصر يوم السبت الواقع في 6 حزيران/يونيو 1978 اجتمع في بكركي برئاسة غبطة البطريرك مار أنطونيوس بطرس خريش كل من الرئيس كميل شمعون، والسيد بيار الجميل، والأب سمعان الدويهي، والسادة رينيه معوض، وطوني فرنجيه، وروبير بولس، وسليم كرم، وإتيان صقر، وقبلان عيسى الخوري، وشاكر أبو سليمان. بحث المجتمعون في الحوادث التي جرت، خاصة تلك التي حصلت في الشمال مؤخراً والتي استنكرها الجميع. تعهد المشاركون في الاجتماع بوضع حد نهائي لها احتراماً لدم الشهداء، من أجل توطيد روح الوفاق، وتوحيد القلوب، وحماية وحدة لبنان الذي يمر اليوم بأخطر مرحلة في تاريخه»[1].

من خلال هذه اللغة المصنوعة من خشب الأرز، يستشف المرء

(1) لوريان ـ لوجور، 9 حزيران/يونيو 1978.

نسبية نجاح الاجتماع. ولقد دعي إلى لقاء جديد يعقد في اليوم التالي «لأجل التفاهم، مبدئياً، على الاجراءات العملية الواجب اتخاذها لتطويق حادثتي البترون وشكا وتلافي تكرارهما في أماكن أخرى. كان بين مشاريع القرارات واحد يقضي بتأليف لجنة مهمتها تأمين تطبيق التدابير الرامية إلى تدارك... الخ»[2]. ينتهي التقرير الذي نشرته جريدة لوريان – لوجور بهذه المعاينة: «يُعتقد أن السيد طوني فرنجيه يعارض فكرة قيام مثل هذه اللجان، إلا إذا اقتصر دورها على مساعدة الدوائر الرسمية ذات الصلاحية، وخاصة في أعمالها الاستقصائية».

إنه الفشل. وبالرغم من اللجان التي تمناها البطريرك، عاد كل واحد إلى منطقته متيقناً من انتظار الأسوأ والاستعداد له. سليمان فرنجيه يؤكد اليوم: «أراد والدي بهذه المناسبة التشبث بما بقي من الشرعية السيادية مطالباً بأن تعمل تلك اللجان الشهيرة على تطبيق القانون، بما في ذلك في الحقل القضائي. غير أنه بموازاة تلك المظاهر الأخيرة للشرعية الجمهورية، كان هناك أمراً يجري طبخه»[3].

يؤكد رئيس جهاز مخابرات القوات اللبنانية السابق[4] الذي التقيناه في باريس ما يلي: «اجتماع بكركي يبقى حاسماً لحسن فهم عملية إهدن، لأن فشل هذا الاجتماع يكشف بوضوح أن ضربة كان يجري إعدادها على الرغم من كل محاولات التوسط السياسي أو الديني، حتى لو صدر عن إرادة البطريرك». وفي أي حال، لم يكن

(2) المرجع المذكور آنفاً.
(3) حديث مع المؤلف بتاريخ أول شباط/فبراير 2009.
(4) أنظر الفصل الحادي عشر: تلاعب الموساد.

لفشل بكركي إلا أن يزيد في تجذر المواقف، ويقوي تنامي عسكرة مختلف القوى المسيحية.

«الذئاب الفتية» السبعة التي تحيط ببشير الجميل منذ 1975 – فادي فرام، رئيس الأركان؛ فؤاد أبو ناضر، رئيس المكتب الثالث (العمليات)؛ أسعد سعيد وإيلي الزايك من مكتب العمليات أيضاً؛ إيلي حبيقة الذي صار رئيس المكتب الثاني فيما بعد؛ سمير جعجع، المسؤول عن مناطق الشمال[5] كانوا يدرسون منذ وقت بعيد مختلف الاستراتيجيات التي تؤمن لزعيمهم الوصول إلى الحكم. فالانقلاب العسكري كان غير ممكن في ظل وضع القوى الراهنة، وقد يؤدي إلى تقسيم ليس في صالح المسيحيين، لأنّ لبنان، في نظر بشير الجميل، لا يمكن أن يكون إلا ذا غلبة مسيحية، وإن كان لا يستبعد قيام كانتون مسيحي داخل فدرالية أو كونفدرالية. لقد عمل بشير الجميل برأي الحكماء القدامى أمثال جوزف أبو خليل، الذي هو موضع ثقة البطريرك ورئيس تحرير جريدة العمل، وجان نادر مسؤول الكتائب في الأشرفية، لذلك قرّر أن يعمل في الحقلين دافعاً ببيادقه إلى رئاسة الجمهورية – أي أن يراهن على الدستور – وأن يزيد في الوقت ذاته قدرة الحزب العسكرية، أي أن يواصل العمل على «توحيد البندقية المسيحية».

ينقل آلان مينارغ أقوال الزعيم الكتائبي التي توجز هذه الاستراتيجيا: «هل يجب تحرير البلد من الاحتلالين السوري والفلسطيني قبل استلام الحكم، أو يجب استلام الحكم أولاً ثم تحرير البلد؟»[6] كان المطلوب في مرحلة أولى إشراك كوادر

(5) آلان مينارغ، أسرار الحرب اللبنانية، منشورات ألبان ميشال، 2004.
(6) المرجع المذكور آنفاً.

الدولة، خصوصاً المكتب الثاني للجيش اللبناني الذي كان على رأسه جوني عبده، و «إقناعها» بعدم معارضة صعود قوة الحزب. وكان لا يستبعد اعتماد القوة، عند الاقتضاء، لإسكات المعارضين والمنافسين لأنّ المهم، في كل الاحتمالات، تهيئة الأرض وجعلها مؤاتية لاستلام الحكم الذي قد يفرض نفسه بنفسه.

أما المردة، الذين بات نفوذهم محصوراً في معقلهم الجبلي، فإنهم، على الرغم من انتصارهم العسكري في إهدن وتحالفهم مع القوات السورية، لم يعودوا يمثلون عائقاً عسكرياً أمام توحيد البندقية المسيحية ولا عائقاً سياسياً أمام مشروع بشير الجميل. غير أنه كان لا يزال هناك منافسة مسيحية يجب استئصالها: الأحرار، أي الميليشيا التي يقودها داني شمعون، ابن الرئيس الأسبق كميل شمعون.

حصلت الحوادث الأولى حول تقاسم الأسلحة التي سلمها الاسرائيليون. كان بشير الجميل أول من أخذ حصته منها واتهم جماعة شمعون ببيع صناديق أسلحة إلى المنظمات الفلسطينية. لم يحصل الأحرار على أي سلاح مدفعية، فعمدوا إلى شرائه مباشرة أو عن طريق نسف مواقع للكتائب بالديناميت بعض الأحيان. كان بشير الجميل، أول المستفيدين من حرب المئة يوم ومن معركة الأشرفية ضد السوريين التي دفعتهم لإخلاء المناطق المسيحية، لم يعد يتحمل تصرفات الأحرار. في هذه الظروف، وقف الموساد، ودافيد كيمحي على الأخص، إلى جانب بشير، وقد دعي الزعيمان الشابان عدة مرات إلى اسرائيل حيث كان الضباط المتعاملون معهما يأمرونهما بالتوحد كي يكون بالإمكان التعامل مع زعيم واحد. وهكذا استند بشير الجميل إلى كونه القائد العسكري للقوات اللبنانية

فادعى أنه الواسطة الوحيدة التي يجب أن تعبر من خلالها كل المعلومات التي تنقل إلى الاسرائيليين.

تدهورت العلاقات بشكل خطير بين الكتائب والأحرار في آخر حزيران/يونيو سنة 1980، وراحوا يتبادلون إطلاق النار يومياً. وبعد أن طلب بشير رأي مستشاريه السبعة، قرر أن يضرب من جديد. وانطلقت عملية ألتالينا، بالاستناد إلى سيناريو عملية إهدن.

اغتنم بشير استمرار محاولة المصالحة من جانب البطاركة بين كميل شمعون ووالده يوم 6 حزيران/يونيو في دير سيدة البير، فدفع بقواته في الليلة التالية إلى ثكنات ومكاتب حزب الوطنيين الأحرار معطياً الأمر بتحطيم أدنى محاولة للمقاومة. «إلا أنه ـ كما يقول آلان مينارغ ـ طلب التقيد المطلق بتوجيه صارم: الحفاظ على حياة كميل شمعون وابنه داني وعائلته. كان شبح طوني فرنجيه لا يزال يراوده».

أسفرت العملية، بالاستناد إلى أقوال الناطقين بلسان بشير، عن سقوط سبعين قتيلاً وحوالى مئة جريح. أما داني شمعون فيجزم من جهته بأن رجال بشير قتلوا حوالى خمسمائة شخص، كان معظمهم من المدنيين الأبرياء. كان هناك كثيرون من عمال الموانىء وبينهم باكستانيون يعملون في مرافىء حزب الوطنيين الأحرار فقتلوا ببرودة أعصاب. وقدر أحد معاوني شمعون فيما بعد أن الخسائر كانت تداني المئة والخمسين شخصاً بينهم حوالى ثلاثين كانوا من المارة، وخمسة وأربعون باكستانياً، وتوزع الباقون بين الميليشيات التابعة لكل منهما.

في سيرة تجميلية خالية من أي تحفظ[7]، يبرر البروفسور سليم

(7) سليم عبو، بشير الجميل أو روح شعب، منشورات أنتروبوس، 1984.

عبو آخر عملية قام بها بطله ضد جنود داني شمعون بالقول: «لا شكّ في أن الميليشيا الأكثر شبهة كانت ميليشيا حزب الوطنيين الأحرار، الأهم بعد الكتائب. فهي كانت تستقبل في صفوفها عناصر جديدة بتساهل زائد ولافت من دون أن تهتم بأصولهم وأخلاقهم ونواياهم». إن هذه الحجة، التي تنطبق على أية واحدة من الميليشيات المسيحية، بما فيها الكتائب والقوات اللبنانية، كانت الحجة الفضلى عند بشير، الذي كان باعتماده على هذه الأخيرة يدعي أنه يؤلف جيشاً وطنياً ثانياً يجسد الشرعية الوحيدة الممكنة.

فالوحدات الكتائبية التي استولت على الجيب المسيحي، كانت منتشرة في الشوارع كما لو أن انقلاباً حصل للتو، وكانت تسيطر على مجمل النقاط الاستراتيجية. بعدها استدعى بشير الجميل قادة ميليشياته إلى كنيسة مار انطونيوس، قبالة مقر حزب الوطنيين الأحرار، وعرض على كميل شمعون أن يترأس الجلسة. استجاب هذا بأكبر قدر من التضحية ووافق على «توحيد البندقية المسيحية». في اليوم التالي، وقبل أن يسلك طريق المنفى، قام داني شمعون بزيارة الرئيس فرنجيه في الشمال، متهماً بشير بـ «الفاشي الحالم بإقامة دكتاتورية». هكذا نجح الانقلاب المسيحي الداخلي، وغسلت عملية إلتالينا فشل عملية الأرز.

«في سنة 1981، وفي أثناء لقاء مع مناحيم بيغن في إسرائيل، قص عليه بشير تفاصيل عملية 7 تموز/يوليو 1980، وكشف له، بابتسامة عريضة، اسم تلك العملية قائلاً: «أنت أيضاً كانت لك التالينا!». لم يكن الزعيم المسيحي الشاب يعلم أن مخاطبه هُزم سنة 1948. وبدا بيغن مشدوهاً»[8].

---

(8) آلان مينارغ، المرجع المذكور آنفاً.

كان بيغن فعلاً، يوم 22 حزيران/يونيو 1948، على متن سفينة تدعى ألتالينا. وفي ظل توحيد الجيش الوطني الاسرائيلي، حيث كان يجب أن تندمج الهاغانا والإرغون ومجموعة شترن ـ ليهي في جيش واحد، وصلت السفينة إلى مياه تل أبيب وعلى متنها 800 مهاجر وأسلحة لكتائب الإرغون. لكن على أثر جدال صاخب مع ضباط الجيش المؤيد للشرعية، رفض بيغن أن يسلمهم شحنته، فأمر بن غوريون، المتمسك بمعارضته الشرسة لوجود عدة تشكيلات مسلحة، بقصف ألتالينا بينما كان أفراد الإرغون يقومون بإنزال الأسلحة. فغرقت السفينة، وأسفر القصف عن سقوط 18 قتيلاً: 16 من الارغون، و2 من الجيش المؤيد للشرعية. وكان يقود هذا الهجوم ضابط شاب، يدعى إسحق رابين. هذه الحرب التي دامت أقل من 24 سنة كانت الحرب الأهلية الاسرائيلية الوحيدة، التي لايزال يتساءل حولها من شاركوا فيها، والعسكريون، والمسؤولون السياسيون، والمؤرخون. وكان لمبدئها الموجه تأثير كبير في نفس بشير الجميل، الذي كان دائماً يؤكد أنه استلهمها: كل الوسائل صالحة من أجل صون وحدة الطائفة، بما فيها الأكثر تطرفاً!

لقد أمسى بشير الجميل، بعد عملية 7 تموز/يوليو 1980، سيّد جيبٍ مساحته ألف كيلومتر مربع. فقام رسمياً بدمج ميليشيا الكتائب في القوات اللبنانية. أما هدفاه التاليان فكانا واضحين وهما: نيل اعتراف الولايات المتحدة، التي كانت مقتنعة عن طريق الريبورتاجات المتلفزة حول الاستيلاء على مخيمات الفلسطينيين وحول مجزرة إهدن، بأنه ليس سوى شخص أرعن لا ضمير له؛ ثم تبنيه من جانب الرئيس اللبناني كخليفة شرعي له.

غداة عملية ألتالينا، وتحت ضغط عرابيه الاسرائيليين، صنعت وسائل الاعلام الغربية من بشير نموذجاً أعلى لقيم «العالم الحر».

ووصفه برنامج 20/ 20 في محطة التلفزة الأميركية (ABC) بأنه صليبي حديث، في الخط الأول ضد منظمة التحرير الفلسطينية التي هي قناع للاتحاد السوفياتي. من جهتها اعتمدت نيويورك تايمس النغمة ذاتها، كما جعلت منه مجلة لونوفيل أوبسرفاتور المخلّص الذي أرسلته العناية لإنقاذ لبنان السائر على غير هدى. وهكذا تمكن اسحق شامير والموساد في آخر الأمر من إقناع واشنطن بأن بشير عامل استقرار للبنان وللشرق الأدنى، خاصة أنهما كانا يجدان أذناً صاغية لدى ألكسندر هيغ الجنرال السابق الذي عين لاحقاً وزيراً للخارجية، والذي قد أكد لتوه «أهمية إسرائيل الاستراتيجية على الجناح الجنوبي لحلف الأطلسي في مواجهة الاتحاد السوفياتي». ومع وجود رونالد ريغان في البيت الأبيض والدعم المتجدد من جانب تل أبيب، بات بشير الجميل واثقاً من التصدي للاستحقاقات الداخلية في أفضل الظروف.

في 14 أيلول/سبتمبر 1981، فاتح بشير الياس سركيس لأول مرة بمسألة الانتخاب الرئاسي القادم. شرح للرئيس، مستعيناً بموقفه المعزز بكونه رئيساً عسكرياً للقوات اللبنانية، أن خليفته يجب أن يكون «رجلاً قوياً وحازماً». وتحت تأثير عسكري آخر - جوني عبده، رئيس جهاز مخابرات الجيش اللبناني - رضخ الياس سركيس في آخر الأمر لمطالب واشنطن وتل أبيب. قال سركيس فيما بعد: «سبب لي بشير الجميل متاعب وتحملت منه ما لم أتحمله من أحد غيره (...) لكنه كان المرشح الرئاسي الوحيد القادر على إعادة وحدة لبنان!»[9]. وقال في 20 حزيران/يونيو 1982: «قبل أن

(9) كريم بقرادوني، السلام الذي لم يتحقق - ولاية الياس سركيس (1976 - 1982)، منشورات (FMA) 1984.

أسلم المهام، كنت أحرص على نجاح عمليتين دقيقتين: إنقاذ بيروت وتأمين انتخاب بشير». وفي مساء 23 آب/أغسطس، كان له ما أراد: «إنها لمعجزة كل الآلام التي عانيتها على مدى ست سنوات والتي وجدت لها معنى. من كان ليصدق هذا؟ بشير الجميل رئيساً للجمهورية اللبنانية وياسر عرفات يرحل عن بيروت! الله أكبر! ولبنان أُنقذ!»[10].

لقد اغتيل الرئيس الجديد قبل تنصيبه. وفي 14 أيلول/سبتمبر 1982، صرح الياس سركيس بما يلي: «وفاته محنة رهيبة، أكبر محنة يجب أن يتغلب لبنان عليها (...). مع بشير، كنا نحس بأننا أقوياء. كان يخيف ويطمئن في الوقت ذاته. بفضله لاح لي أن كل شيء سيتحسن ويتجدد. والآن، في لحظة واحدة، انتهى كل شيء»[11].

ظلت صورة بشير، الرجل القوي الذي أرسلته العناية الالهية، تؤثر في مستقبل لبنان السياسي من خلال ولاية أخيه أمين التي جاءت نتيجة تسوية. بعد ذلك لاحت ملامح ظهور خليفة عسكري له: دخل سمير جعجع إلى الحلبة بعد أن توصل إلى احتلال منصب قيادة القوات اللبنانية. فرجل الهجوم على قصر طوني فرنجيه هذا كان يطمح دائماً إلى إزاحة أبناء العائلات ليتسلم زمام السلطة، وكان غداة اتفاقات الطائف في موقع يتيح له أن يحقق حلمه. لقد كان في مواجهته، أي مواجهة سمير جعجع الجنرال المسيحي ميشال عون، الذي كلف منذ سنة بتأليف حكومة انتقالية، والذي كان عازماً على قطع سلسلة انقلابات القوات اللبنانية. ومن أجل

(10) المرجع المذكور آنفاً.

(11) المرجع المذكور آنفاً.

تقوية صفوف المعارضين المسيحيين لاتفاقات الطائف، المؤاتية جداً للسنّة والتي كرست خسارة المسيحيين لنفوذهم، ومن أجل إعطاء الطائفة المسيحية من جديد شرعية في أجهزة الدولة، حاول ميشال عون أن يحل الميليشيات، وبالدرجة الأولى القوات اللبنانية.

وهكذا نشب في 31 كانون الثاني/يناير 1990 نزاع جديد بين المسيحيين، تواجه فيه جنود سمير جعجع مع ألوية الجيش اللبناني الموالية للجنرال عون. خلال ذلك دعا البطريرك والسفير البابوي إلى وقف القتال لكن من دون جدوى. أما على الصعيد الدولي، فقد انضمت سوريا إلى الائتلاف المناهض للعراق الذي كان قد غزا الكويت. مقابل ذلك، غضت الولايات المتحدة النظر عن التدخل الذي أعدته دمشق لإزاحة الجنرال عون. وفي 9 تشرين الأول/أكتوبر وافقت الحكومة اللبنانية سراً على ردة فعل دمشق، وكان هذا تسوية غير محتملة لاتفاقات الطائف. وفي 13 تشرين الأول/أكتوبر قصف الطيران السوري قصر بعبدا الرئاسي حيث كان يوجد الجنرال عون الذي قرر حرصاً على الأرواح البشرية، أن يوقف القتال قبل أن تنقله المخابرات الفرنسية إلى السفارة الفرنسية ومن هناك دعا قواته للانضمام إلى الجيش اللبناني بقيادة الجنرال إميل لحود.

كان هذا الحدث خاتمة الدورة التي فتحتها مجزرة إهدن: دورة تعاقب الحروب بين المسيحيين، والانقلابات الداخلية، وعسكرة متمادية لتمثلاتها السياسية.

في ربيع 1991، اعتبرت القوات اللبنانية أنها وصلت إلى الحد الأخير في التنازلات التي كان في وسعها أن تقدمها للحكم الشرعي الذي كانت ترى أنه خاضع كلياً للمشيئة السورية. وتلاشت حرية حركتها في أعقاب المطالب التي صاغها نائب الرئيس السوري عبد

الحليم خدام بتاريخ 27 آذار/مارس وتبنتها الحكومة اللبنانية في اليوم التالي: حل الميليشيات، تعيين نواب، وعلاقات مميزة مع سوريا. كما أن موافقات القوات اللبنانية المتتالية على المشاركة في الحكومة، والانسحاب من بيروت الكبرى، وتسليم مرفأ بيروت إلى السلطات الشرعية، والتوقف عن جباية معظم الرسوم المحلية، حرمتها من القدرات ومن الوسائل معاً.

وفي ليلة 28 ـ 29 آذار/مارس 1991، أخذ مجلس قيادة القوات اللبنانية علماً بالوضع وخلص إلى القول إنه لم يبق سوى الاختيار بين الخضوع للمطالب السورية والمقاومة المسلحة للمطالب الحكومية. كان يجب تقييم مدى الخضوع، إذ إنَّ قيادة القوات كانت قد اتخذت كل التدابير لعدم تسليم 80% من أسلحتها الثقيلة إلى السلطة، وفكرت بأن تبيع نصف المعدات التي تحتفظ بها لكي تنشىء كنزاً حربياً يمكنها من تمويل نشاطها السياسي اللاحق. وفي هذا السياق شرح لنا رئيس مركز مخابراتي أوروبي في بيروت آنذاك ما يلي: «كان خطاب القوات اللبنانية اليائس في محله إذ إنه كان من الواضح أن أحكام حل الميليشيات لا تطبق إلا عليها. وكان يتبين من رصد الوضع أن أنصار إيلي حبيقه والحزب السوري القومي الاجتماعي، المرتبطين بسوريا يحملون سلاحهم جهاراً في الأشرفية. وكان بحث مشكلات نزع سلاح حزب الله والمنظمات الفلسطينية قد جرى تلافيه بعناية في مجلس الوزراء الذي قرر إلغاء الميليشيات».

إن اللقاء الذي جرى بين سمير جعجع والسفير الأميركي في بيروت بتاريخ 4 نيسان/أبريل لم يترك أي أمل بعطف ما من جانب واشنطن على القوات اللبنانية حيث أبدى ريان كروكر كثيراً من الحزم لجهة ضرورة التطبيق السريع لاتفاقات الطائف، أياً تكن

العواقب على القوات اللبنانية. وشرح لي مخبري أنه «يبدو من قليل الاحتمال أن يزج سمير جعجع بنفسه في مغامرة عسكرية غير مأمونة العاقبة، ما لم يضطره إليها نفاذ موارده بالكامل أو تحثه عليها جهات خارجية. إنَّ كل شيء يحمل على الظن أن القوات ستقوم بحرب استنزاف سياسية، تتخللها بلا ريب فصول إرهابية، إلى جانب المساومة شبراً شبراً على أقل تنازل جغرافي أو سيادي، ومع تحاشي أية مجابهة عسكرية قدر الامكان، والسعي إلى كسب الوقت الذي زاد من ثمنه مدى استعجال الحكومة اللبنانية والادارة الأميركية».

في ربيع 1991، أسس سمير جعجع مستقبله السياسي على تكوين احتياطي مالي عن طريق تكييف الوسائل العسكرية التي تملكها القوات اللبنانية، التي كان لديها آنذاك ترسانة هامة:

حوالى مئة دبابة، بينها:

- 12 دبابة قتالية م ـ 48 باتن
- 30 دبابة ت ـ 54/ 55
- 20 دبابة م ـ 50 سوبر شرمان
- 20 دبابة ت ـ 34
- 12 دبابة م ـ 13
- 6 دبابات. A.M.X.

75 مصفحة بانهار AML

ناقلات جند م ـ 113 وم ـ 3

74 قطعة مدفعية ميدان:

- 13 م ـ 114 وم ـ 50 من عيار 155 ملم
- 16 د. 46 من عيار 130 ملم
- 20 د ـ 30 وم ـ 102 من عيار 122 ملم

- 25 م ـ 101 وم ـ 102 من عيار 105 ملم

30 قاذفة صواريخ، بينها:

- 8 قاذفات صواريخ ب ـ م ـ 24 من عيار 240 ملم
- 6 قاذفات صواريخ ب ـ م ـ 21 من عيار 122 ملم
- 12 قاذفة صواريخ ب ـ م ـ 11 من عيار 107 ملم

عدد غير محدد من قطع مدفعية أ ـ أ من عيار 20 و24 و30 و57 ملم.

عدد غير محدد من المدافع غير الارتدادية ب ـ 7 وب ـ 10

170 من الهواوين الثقيلة والمتوسطة، بينها:

- 8 هواوين من عيار 240 ملم
- 12 هاوناً من عيار 160 ملم
- 50 هاوناً من عيار 120 ملم
- 38 هاوناً من عيار 80 ملم
- 62 هاوناً من عيار 81 ملم

عدد غير محدد من صواريخ ميلان وطو.

وحدات بحرية، بينها 12 زورقاً خفيفاً للدورية ومراقبة الشاطىء.

لقد تركت هذه العسكرة المتمادية للقوات اللبنانية أثراً مديداً في الجيل الجديد من الكوادر. إلى ذلك، بقي جزء من هذه الترسانة مخبأً في أماكن سرية، بينما بقي سمير جعجع يواصل حلم بشير الجميل: إقامة حكم مسيحي قوي.

الفصل الرابع عشر

سمير جعجع، الملاك المبيد

«الحرب تتحكم بتطور الفرد فيما وراء الفرد ـ الشيء في فردية المحارب المجيدة. الفرد المجيد يُدخل النظام الالهي، بواسطة نكران أول للفردية، في مقولة الفرد (الذي يعبر بصورة أساسية عن نظام الأشياء). وهو يحوز الارادة التناقضية لإدامة نكران مديد للأجل. هكذا تكون قوته جزئياً قوة للكذب. الحرب تمثل تقدماً جريئاً، لكنه الأكثر فظاظة: لا يحتاج المرء من السذاجة ـ أو الحمق ـ إلى أقل من حاجته إلى القوة كي يبقى غير مبال بما يبالغ في اعتباره وكي يتباهى باعتبار نفسه لا شيء».

جورج باتاي «نظرية الدين»
1948.

في العشرين من شهر آذار/مارس 2009، وقبل الوصول إلى جونيه، نغادر الأوتوستراد الساحلي لجهة اليمين ونتسلق الجبل، سالكين طريق سيدة لبنان (حريصا). وعلى ارتفاع 400 متر عن سطح البحر، نتابع سيرنا بجانب بكركي، مقر البطريركية المارونية.

الضباب في شهر آذار/مارس لا يكف عن تشويش رؤية خليج جونيه. بعد حريصا، تضيق الطريق وتتوالى المنعطفات الحادة حتى بلوغ مجموعة من المساكن العالقة على أكمة صخرية؛ فالانحدار باتجاه كازينو لبنان يولِّد لدينا انطباعاً بأننا على ارتفاع شاهق فيما نحن على ارتفاع 400 متر فقط. تطالعنا صورة للجنرال عون معلقة فوق سطح أحد البيوت، وعلى مسافة أبعد قليلاً، نرى صورة أخرى تشير إلى مدخل قرية معراب: قرية سمير جعجع.

يستوقفنا حاجز معدني ويطلب منا عسكريان من قوى الأمن الداخلي اللبناني إبراز أوراقنا ويفتشان السيارة. وعلى بعد مئتي متر إلى الأمام، تتكرر العملية لكن هذه المرة من جانب رجال يرتدون بزات سوداء، يحملون السلاح. إنهم عناصر الوحدة الخاصة في القوات اللبنانية، المكلفين بالسهر على سلامة «الحكيم» الشخصية كما يسميه الجميع هنا. نتابع الصعود باتجاه بوابة حديدية كبيرة سميكة شبيهة بمدخل «فورت كناكس» "Fort Knox". ترجلنا من السيارة كي نخضع مجدداً لتفتيش أمني عند باب جانبي. استقبلتنا الملحقة الصحفية مايا سكر واعتذرت عن المقتضيات الأمنية. الضباب يتصاعد دائماً في موجات متعاقبة تكشف عن البحر المتوسط تارة وتحجبه تارة أخرى، كما يظهر في البعيد أحد المراكب الصغيرة وهو يرسو فوق المياه. دخلنا عش النسر: هندسة معمارية عصرية من الاسمنت المسلح والزجاج والمعدن.

بعد حديث قصير مع إيلي براغيد ـ المستشار السياسي ـ الذي كان لي معه عدة مناقشات لشرح غرض وإطار المقابلة، كان هناك تفتيش جديد قبل النزول إلى المكتب. استقبلنا «الحكيم» عند الباب حيث كان ينتظرنا ومعه مسؤول الصحافة لديه نادي غصن. الشارب ذاته، الوجه النحيل ذاته، وقفة الراهب ـ الجندي ذاتها؛ لم تتغير

هيئة سمير جعجع منذ الندوات الصحفية التي عقدها بعد إطلاق سراحه في حزيران/يونيو 2005. تبادلنا أطراف الحديث حول أمور عامة من بينها تعلقي الشخصي بلبنان.

كان المسؤول الصحفي حاضراً في اللقاء. وكانت مايا سكر تسجل وتدوّن بعض الملاحظات. حرص جعجع، قبل مباشرة الحديث، على الإدلاء بمقدمة فقال: «سنة 1994، أرادت الدولة اللبنانية أن تقضي على القوات اللبنانية. كان المقصود هدم الحزب الذي كان قوة مقاومة حقيقية للحكم القائم. فزج بنا في السجن. وبدأت الاستجوابات، خصوصاً فيما يتعلق بقضية إهدن. وكلف أحد القضاة بإجراء تحقيق خاص بهذه القضية. فباشر عمله واستجوب أيضاً حنا شليطا[1] وموقوفين آخرين. ثم توقف كل شيء بعد سنتين. لماذا؟ لأن وقائع الملف، الوقائع الحقيقية كانت لا تناسبهم. فعائلة فرنجيه كانت لا تريد الحقيقة حول قضية إهدن».

– ما كان وضعك ووظائفك السياسية والعسكرية في مطلع 1978؟

– كنت لا شيء. سنة 1978 كنت في السنة السادسة من دراسة الطب. كان ذلك أثناء فترة التحضير للامتحانات. كنت منذ 1976 بعيداً كل البعد عن الوقائع السياسية – العسكرية، وإن كان الأصحاب يمرون بين حين وآخر للحفاظ على الاتصال فيما بيننا، بالإضافة إلى تزويدي ببعض الأخبار والمعلومات. كنت بعيداً لكن لم أكن في المكسيك! اتصل بي بطرس خوند، المعاون العسكري لبشير الجميل، الذي اختطفه السوريون سنة 1992.

(1) حنا شليطا هو المشتبه بكونه أطلق النار على فيرا فرنجيه وطفلتها جيهان. أنظر الفصل السابع عشر: التحقيق القضائي المستحيل.

قصدت المجلس الحربي الكتائبي: شرح لنا الشيخ بشير أن هناك مشكلة كبيرة مع الشمال. المردة يريدون طردنا من هناك. عرض علينا ثلاثة حلول: مغادرة الكتائب أو مغادرة الشمال أو مغادرة الحياة! كان جود البايع قد اغتيل للتو. عرض الشيخ بشير بديلاً: «إن لم نقاوم سنطرد!». يجب أن نفعل شيئاً ما، لكن ماذا؟ كان بشير لا يعرف، ولا أنا، كنت رئيساً محلياً صغيراً لقطاع من جهة الشمال، قطاع منطقة بشري.

– لكن لدي ورقة تشير إلى أن بشير الجميل قد اختارك مسؤولاً عسكرياً لمناطق الشمال بتاريخ 7 حزيران/يونيو 1978؟

– أجل، طلبت هذه الورقة كي يكون لمهمتي صفة رسمية. لقد كلفت بمهمة استكشافية في الشمال حوالى 5 أو 6 حزيران/يونيو. فقمت بجولة على المسؤولين المحليين استغرقت 48 ساعة وكونت لنفسي فكرة عن الوضع. لقد كان مناصرو فرنجيه والسوريون منتشرين في المنطقة، وكانوا منذ العام 1976 غير راضين عن تقدم الكتائب في المنطقة. نظريتهم تقول إن الشمال هو منبت الموارنة الذي تسود فيه العائلات لكن الأحزاب كانت منافسة لهم ولا مكان لها هناك. كانت عائلة فرنجية أشد عدوانية من سائر العائلات. وفي سنة 1976، عقدت الجبهة اللبنانية اجتماعاً في الشمال حيث استقبل بيار الجميل بتصفيق قوي قبل أن يدخل القصر. فقال له الرئيس سليمان فرنجيه بلهجة جافة إن هذا غير مقبول! هذا ينبئك عن الوضع. كانت أسرة فرنجيه موالية بحزم للسوريين، وهي قد فجرت الجبهة اللبنانية في شهر أيار/مايو. وفي مطلع 1978 أخذت تغتال كتائبيين بلا سبب، كان من بينهم فتى في السابعة عشرة من زغرتا. ومضت في سلسلة من الاغتيالات الأخرى. في هذا الجو قمت بمهمتي.

ـ ما كانت خلاصة تقريرك؟ ما كانت توصيتك الرئيسية؟

ـ الصمود أو الرحيل. كان علينا أن نصمد لآل فرنجيه أو أن نرحل عن الشمال! عقدنا مجلساً عسكرياً للكتائب، وبعد مناقشات، استعرضنا عدة إمكانيات من جملتها استهداف المسؤولين عن الاغتيالات، أولئك الذين كانوا يقتلون شبابنا. أهم أولئك القتلة كانوا في إهدن التي أمست قاعدة لهم. كانت إهدن حتى منتصف حزيران/يونيو خالية من السكان عملياً. كنا نعلم أن ثلاثة أو أربعة من الأشخاص الذين نبحث عنهم كانوا هناك ومن بينهم سليم الحراق. لكن هذا النوع من العمليات المنتقاة يصحبه كثير من المخاطر، فقررنا أن نتمركز في إهدن، أن نحتل البلدة إلى حين مباشرة تفاوض مع آل فرنجيه.

ـ تشير عدة شهادات إلى أنك دخلت ترتيبات العملية في آخر لحظة؟

ـ هذا غير صحيح!

ـ كنت القائد العسكري في الشمال منذ 7 حزيران/يونيو؟

ـ كان يلزمني أمر مهمة كي ارتبط بسلطة رسمية. يوم الخميس في 9 حزيران/يونيو عقدنا اجتماعاً في سمار جبيل قرب البترون حيث كان يوجد مكتب للكتائب. كان هذا آخر اجتماع تخطيطي. حضر الاجتماع الشيخ بشير وهيئة أركان الأشرفية وهيئة أركان الشمال. قدمت اقتراحي: احتلال إهدن لأمد محدد، ريثما تفتتح المفاوضة مع آل فرنجيه، لأن محاولة الامساك بالقتلة فرداً فرداً... ما كان لنا أي أمل بذلك.

ـ لماذا أرجئت العملية؟

ـ كانت العملية في البدء مبرمجة لليلة السبت ـ الأحد. كنت متمسكاً بهذا الحل كي أعود إلى الكلية يوم الاثنين. كنت في الأرز

مع هيئة أركاني. عقدنا بعد الظهر اجتماعاً في قنات. ألغيت العملية لأنه كان يمكن أن يكون طوني فرنجيه وعائلته باقين في إهدن. هذا من سخرية التاريخ! لكنني أؤكد أنه لم يكن استهداف طوني فرنجيه وعائلته وارداً في أية لحظة!. أرجأنا العملية إذن إلى ليلة الاثنين ـ الثلاثاء كي نكون واثقين من مغادرة الجميع إهدن مع نهاية الأسبوع.

ـ هل كان المقصود اختطاف طوني فرنجيه كما يؤكد جوزف أبو خليل في كتابه «حروب الموارنة»؟[2].

ـ هذا باطل تماماً. أؤكد هذا بصورة قاطعة! كان الشيخ بشير قائد العملية. وقد أصيب بصدمة بعدها من جراء قتل طوني فرنجيه وعائلته. الحقيقة هي أنه حصل تشتت وبلبلة!

ـ كيف نُظم الهجوم من الناحية العملانية؟

ـ كان هناك مجموعات قوى ثلاث: جاءت الأولى من قنات نحو طورزا إلى مدخل إهدن الغربي؛ وجاءت الثانية من بشري إلى مدخل إهدن الشرقي؛ وجاءت الثالثة من قنات كي تغطي العملية ابتداء من كرم ـ سدة وقطع الاتصال بين زغرتا وإهدن.

ـ كنت أنت تقود الأولى؟

ـ أجل، كنت في جوار القصر، قرب فندق بلمون، حوالى الساعة الرابعة. كنا نسعى للاستيلاء على إهدن في صمت وبصورة مفاجئة.

ـ توجهت بالكلام إلى طوني فرنجيه وطلبت منه أن يخرج من القصر؟

ـ كلا، لم أقل شيئاً. هذا غير صحيح! كنا ننتشر لكي نطوق

(2) أنظر الفصل الخامس عشر: الروايات المتخيّلة.

القصر ونحتله. لماذا أُصبت؟ لأننا كنا نتقدم معتقدين أنه لا يوجد فيه أحد. ثم حصل إطلاق نار. وجرح عدة رجال، حاولت أن أسعفهم. كنا مكشوفين. وأُصبت. وظل الرصاص يطلق عليّ، ما اقتضى القيام بعملية عسكرية صغيرة لإخراجي من المكان. كان إطلاق الرصاص يأتي من مبنى يقع فوق القصر، وكانت هذه رمايات جانبية. لا أعرف شيئاً مما حدث بعد تلك اللحظة. نُقلت من هناك، وفي الطريق تعرضت أيضاً لإطلاق نار وجرحت مجدداً.

– وبعدها تسلم القيادة الضابط الذي يعاونك؟

– أجل تسلم القيادة إدمون صهيون. دخلوا القصر. كان هذا هجوماً عسكرياً. كانت النار تطلق من الداخل، من جانب طوني فرنجيه وأفراد حرسه الشخصي. قام رجال إدمون صهيون بالرد كما في كل مجابهة عسكرية. حنا شليطا يعرف كل ما جرى. وقد أدلى بإفادة في السجن. وقال أيضاً إن إيلي حبيقه كان ضمن الفريق الذي دخل القصر. قال كل شيء.

– ما المقصود بكل شيء؟

– لا أدري لأنني لم أطلع على الملف... بعد ذلك استهدف المردة إدمون صهيون، الذي نجا من تفجير سيارة ملغومة. قبل محاولة اغتياله، اتصل المردة هاتفياً بوالده وطلبوا منه أن يحضر ليتسلم جثة ابنه.

– التقيت حنا شليطا، لكنه لم يقل شيئاً عما حدث داخل القصر...

– لأنه لا يستطيع أن يدلي بأي شيء محدد في حديث غير رسمي.

– كيف كانت حال علاقاتك مع بشير الجميل قبل العملية وبعدها؟

– كنا على خط واحد بالضبط.

– هل تعرف مدى تورط المخابرات الاسرائيلية في إعداد عملية إهدن؟

– كلا، هذه قضية محلية شمالية تعني الكتائب وأسرة فرنجيه. ولم تتورط المخابرات الاسرائيلية فيها، حسب علمي. كنت قائداً محلياً، وكان الشيخ بشير هو المعني بالعلاقات مع الاسرائيليين. كانت لي خبرة عسكرية كمسؤول في الشمال. كنت أسمع أن بعضاً من شبابنا يتدربون في إسرائيل، لكن لم يكن لدي معلومات أكثر عن علاقاتنا مع الاسرائيليين وأشك كثيراً بأن يكون بشير قد تعاون مع الاسرائيليين في قضية إهدن.

– لكن لماذا اختارك بشير الجميل كي تقود الوحدة المكلفة باحتلال القصر؟

– لماذا اختارني بشير الجميل؟ لأن مقاتلي بشري كانوا يشكلون قوة من النخبة صعبة المراس، وكان الشيخ بشير يعلم أنني قادر على ضبطها... ولأنني كنت ذا خبرة عسكرية في الجبهة الشمالية. لهذه الأسباب اختارني.

– هل كنت على علم بحالة العلاقات بين دافيد كيمحي، مسؤول الموساد في لبنان. وبين بشير الجميل؟

– لا، لأنني كنت أظن أن دافيد كيمحي دبلوماسي.

– بعد مرور ثلاثين سنة، ما هو تقييمك لقضية إهدن؟

– كل هذا هو عبارة عن قضية تعيسة. كانت آخر حلقة في سلسلة أحداث تعيسة ابتدأت قبل أشهر. قضية إهدن لم تكن قضية اغتيال، بل مرحلة في سيرورة تدهور سياسي، جعل منها آل فرنجيه موضوع تجارة سياسية، فيما أنها كانت حلقة بائسة في سلسلة من الأحداث.

ـ حين غادرت إلى فرنسا، أراد سليمان فرنجيه أن يخاطبك بواسطة الهاتف؛ لماذا رفضت المخابرة؟

ـ قبل تلك المخابرة بأسبوعين، كان المردة قد قتلوا أيضاً واحداً من شبابنا. كنت قد خرجت لتوي من عزلة دامت إحدى عشرة سنة وأستعيد الاتصال بالواقع... فقيل لي إن سليمان فرنجيه يريد أن يخاطبني... سمعت من حولي أصواتاً تقول: «لا تردّ عليه، لا ترد عليه، لقد قتلوا لتوهم واحداً من شبابنا!». كان قد مضى على خروجي حوالى الساعة. كنت في حيرة من أمري. تتخلل الحياة أحياناً لحظات دقيقة، فكانت تلك واحدة من هذه اللحظات. مدّ لي بيار ضاهر سماعة الهاتف. وظل عدة أشخاص يرددون لي: «لا تكلمه، لا تكلمه!» فقلت لبيار ضاهر «فيما بعد!». فاستاء سليمان فرنجيه. لدى عودتي من باريس، حاولت أن أبعث برسائل عبر أصدقاء مشتركين لأطلب من سليمان فرنجيه أن يصبر قليلاً.

ـ أي أصدقاء؟

ـ ما عدت أذكر.

ـ ما تعليقك على حوادث بصرما؟

ـ يعيش آل فرنجيه كما لو كان شمال لبنان ملكاً لهم. فهم لا يتحملون حتى الآن أن يقوم أحد بلصق مناشير على الجدران هناك. كان يمكن أن تكون تلك الحادثة مناسبة للمصالحة على نار حامية.

ـ كان أحد الضحايا قد أدلى بشهادة في فيلم أو ـ تي-في المخصص لقضية إهدن. هل هناك علاقة؟

ـ لا علاقة. لا وجود لأية علاقة بقضية إهدن. هناك تحقيق يجري الآن. وستتخذ المحكمة العسكرية قرارها.

ـ أقمت ندوة صحفية في أعقاب بصرما؛ فما هي رسالتك الرئيسية؟

ـ أردت أن أقول إنه حادث بائس وأنه يجب إجراء مصالحة لأجل خفض التوتر.

ـ هل كانت اللحظة مناسبة؟

ـ نعم، بعد حادث بصرما كانت اللحظة مناسبة. يمكن تسوية الأمور بسهولة أكبر متى كانت النار حامية. كان يجب أن نجتمع مع آل فرنجيه. مبدأنا الكبير لأجل هذه المصالحة هو التخلي عن العنف. أصبح للمردة الآن مكاتب في كسروان، والمتن، والجنوب. لا مشكلة في هذا. نحن لا نهاجم مكاتبهم. إعلاننا السياسي عن النوايا واضح جداً: التخلي عن العنف. كل الأحزاب السياسية تتمتع بحرية العمل في كل مكان من لبنان. خطنا السياسي لا يتغير. لدينا اختلافات سياسية مع عائلة فرنجيه، والتاريخ بات وراءنا. يمكن أن تحصل تحالفات يوماً ما. لكننا حتى الآن متجمدون في التاريخ.

ـ ما هو شرط قيام مصالحة، غير إجراء حوار بين المسيحيين؟

ـ الحوار دائماً أفضل، حتى دون توقع نتيجة حسية. لكن الوضع اليوم مجمد من قبل عون وتصرفاته. إنه يهاجم دائماً. وهو ضد الحوار. يهاجم الجميع. ليس يمكن التحاور مع عون. الحوار مع فرنجيه ممكن، لكنه مجمد بسبب تحالفه مع دمشق.

ـ يوم كنت محاصراً مع رجالك في الشوف، قلت إن عملية إهدن كانت عملاً جيداً. لدي تسجيل لأقوالك التي جاء فيها أن عملية إهدن كانت عملاً ناجحاً...

ـ نعم، لكن كما تعلم، كنا نخوض الحرب. كنا محاصرين ونظن أننا نشرف على الموت...

ـ هذه، بالضبط، إحدى اللحظات التي يدنو فيها الانسان من الحقيقة...

ـ في زمن الحرب لا يبشر الانسان بالحب بل يحارب. الحرب قبيحة جداً، لكنها الحرب... ما خلا حادثة بصرما الأخيرة، لم تحصل أية مشكلة. اليوم ليس عندنا مشكلة، ما عدا الشمال، دائماً الشمال.

ـ لماذا اخترت فالران دو سان ـ جوست محامياً لك، وهو رجل من أقصى اليمين؟

ـ هو من اختارني. كان الوحيد الذي قبل أن يدافع عني. هو الذي عرض علينا خدماته ونحن وافقنا.

هذه أول مرة يسلِّم فيها بأن «عملية الأرز» كان هدفها احتلال إهدن، في إطار المجابهة القائمة بين الكتائبيين وأهل الشمال. حتى الآن كان هذا البعد العملاني موضع نكران واضح. هكذا أيضاً كان إعدادها وغرضها السياسي. كانت الروايات المتخيلة عنها[3] تجعل منها تسوية حساب محلية، أو مغامرة مرتجلة، وحتى مجرد خطأ في تنفيذ عملية. وهي في الحقيقة كانت العملية المحورية التي انبثقت منها سلسلة حروب أخرى بين المسيحيين. قبل ذلك بقليل، كان اغتيال غيث خوري، رئيس كتائب جبيل، وزوجته، المقربين من بيار الجميل، قد نسب إلى سمير جعجع ورجاله.

وبعد إهدن، صارت لائحة الأعمال المسلحة للقوات اللبنانية، التي تورط فيها سمير جعجع، طويلة:

ـ تموز/يوليو 1980: مذبحة الصفرا (قرب جونيه) ضد نمور الأحرار، ميليشيا كميل شمعون، في إطار عملية ألتالينا[4].

(3) انظر الفصل الخامس عشر: الروايات المتخيلة.

(4) انظر الفصل الحادي عشر: تلاعب الموساد.

ـ 1982: اختفاء أربعة دبلوماسيين إيرانيين على حاجز البربارة العائد لرجال سمير جعجع.

ـ 1985: محاولة تفجير سيارة رئيس الوزراء اللبناني السابق سليم الحص.

ـ 1985 ـ 1986: سلسلة مجابهات ضد أنصار إيلي حبيقه. اختفاء عشرات من مناضلي القوات اللبنانية الذين عُدوا مناصرين لإيلي حبيقه. ولفظ البحر جثثهم فيما بعد[5].

ـ 1986: الاعتداء على كاتدرائية زحله إبان اجتماع مع المطران. محاولة اغتيال إيلي حبيقة، رئيس القوات اللبنانية السابق.

ـ 1987: اغتيال رشيد كرامي الذي كان رئيساً للوزراء آنذاك. كانت القنبلة مدسوسة في ظهر مقعد المروحية التي كانت تقله إلى بيروت، وانفجرت أثناء التحليق وأودت بحياة رئيس الحكومة. هبطت المروحية بشكل طارىء في مطار حالات (بين جونيه وجبيل) الذي أرادت القوات اللبنانية تحويله إلى مطار خاص بالمنطقة المسيحية. وبقي جثمان رئيس الحكومة ممدداً على الأرض أكثر من ساعة.

ـ 18 كانون الثاني/يناير 1988: نفذ الاعدام بسمير زينون، الذي اتهم بالتعاون مع إيلي حبيقه، مع أحد مرافقيه، في الساحة العامة في الضبية شمال بيروت، في احتفال رسمي بحضور سمير جعجع.

ـ 23 نيسان/أبريل 1988: اختطاف المونسنيور ألبير خريش، الأمين العام للبطريركية المارونية، أستاذ القانون الدولي، والقاضي في المحكمة الروحية المارونية، من منزله في بكركي. والعثور في

(5) ريجينا صنيفر، ألقيت السلاح، منشورات لاتوليه، 2006.

14 أيار/مايو على جثته المقطعة في حرج بين غزير وجونيه. كان هذا الأسقف يدير الحركة الطالبية «العمل الرعوي الجامعي»، ويبشر بالسلام وبضرورة الحوار بين اللبنانيين وخصوصاً بين الأحزاب المسيحية.

ـ 1988: محاولة اغتيال النائب نجاح واكيم الفاشلة في بيروت الغربية.

ـ 1989: اغتيال العميد في الجيش اللبناني خليل كنعان، الذي كان أحد أسباب نشوب القتال بين الجنرال عون والقوات اللبنانية.

ـ 19 كانون الثاني/يناير 1990: اغتيال إيلي الزايك، بأمر من سمير جعجع، وكان الأول رفيقاً لبشير الجميل ولفؤاد أبي ناضر، وقائداً أعلى للقوات المسلحة الكتائبية.

ـ 1990: في أثناء المجابهات بين القوات اللبنانية والجيش اللبناني، أعدمت القوات اللبنانية عدة ضباط من هذا الجيش في عمشيت.

ـ في 21 تشرين الأول/أكتوبر 1990، قتل داني شمعون، وزوجته إنغريد، وابناهما طارق (7 سنوات) وجوليان (5 سنوات) خلال غارة قريبة الشبه بمجزرة إهدن.

ـ 1991: محاولة اغتيال وزير الدفاع حينها. سيارة مفخخة انفجرت في انطلياس لدى مرور موكبه.

أخيراً، في نيسان/أبريل 1994، اتهم سمير جعجع بوضع قنبلة في كنيسة سيدة النجاة، وكان هذا سبباً لتوقيفه، أفضت هذه القضية إلى إيداعه السجن.

حتى اليوم، لا توجد لائحة كاملة بالوقائع المنسوبة إلى سمير جعجع ورجاله. وفي غياب استقصاء قضائي جدي، يبقى معظمها موضوع تعليقات من وحي الخيال، وتكتيكات متحيزة، وروايات متخيلة.

الفصل الخامس عشر

الروايات المتخيّلة

«العالم يدخل في الكلام كعلاقة جدلية ناشطة، لأفعال بشرية: إنه يخرج من الخرافة كلوحة متناسقة من الماهيات. لقد حصلت شعوذة قلبت الواقع، أفرغته من التاريخ وملأته من الطبيعة، وسحبت من الأشياء مدلولها الانساني على نحو جعلها فارغة من أي معنى إنساني. وظيفة الخرافة هي الانسحاب من الواقع».

رولان بارت «ميثولوجيات» 1957.

كانت النتيجة المباشرة لمجزرة إهدن انتشار قوات الردع العربية في الشمال حيث أخلت القوات السورية قضاء زغرتا معقل آل فرنجيه حلفاء دمشق، وانتشرت في أقضية بشري والكورة والبترون، التي تؤوي التجمعات الكتائبية ومطار حامات الذي أنشأه الحزب. لقد جرى هذا التحرك وفقاً لخطة أمنية أقرتها الحكومة اللبنانية بتاريخ 28 حزيران/يونيو 1978 وكانت تلحظ أيضاً إحلال الجيش اللبناني محل قوات الردع العربية في جبل لبنان، الذي كان يقع

حتى تاريخه تحت سيطرة الميليشيات المسيحية التابعة للجبهة اللبنانية التي انسحب منها آل فرنجيه في شهر أيار/مايو.

ثم كان قتل 32 شخصاً من أنصار الجبهة اللبنانية يوم 28 حزيران/يونيو أيضاً، في القرى البقاعية ـ القاع، رأس بعلبك، الجديدة، الفاكهة ـ الذي أعقبه في أول تموز/يوليو إضراب دعت إليه الجبهة اللبنانية، التي اتهمت سوريا. رفضت دمشق الاتهام وأكدت أن المجزرة استفزاز جديد يمثل جزءاً من خطة أعدتها إسرائيل وترمي إلى تقسيم لبنان. وظهرت بمناسبة الاضراب عناصر ميليشياوية مسلحة في القطاعات المسيحية التي تسيطر عليها الجبهة. استتبع هذا قصف عنيف لبيروت الشرقية وضاحيتها من جانب المدفعية السورية استمر حتى آخر الصيف. ولقد عمل الرئيس الياس سركيس دون طائل على إيقاف انفلات العنف هذا وهدد بالاستقالة. توقفت المدافع لفترة استراحة قصيرة ثم استأنفت القصف، الذي استمر نحو مئة يوم ـ من هنا كانت تسمية «حرب المئة يوم».

وفي 6 تموز/يوليو خرقت ست طائرات مقاتلة إسرائيلية جدار الصوت في سماء بيروت. وبعد أن قررت القوات السورية إخلاء المناطق المحتلة، قامت بتشديد الضغط في مطلع تشرين الأول/أكتوبر، تاريخ محاصرتها لبيروت الشرقية، فيما كانت بكفيا، معقل آل الجميل، تتعرض لقصف مدفعي كثيف. دعي مجلس الأمن في الأمم المتحدة إلى عقد جلسة طارئة واتخذ قراراً يدعو إلى وقف إطلاق النار فوراً. انسحبت القوات السورية من المنطقة الشرقية وخصوصاً الأشرفية، شاطرةً لبنان على هذا النحو إلى قطاعين محددين، بقي أحدهما في يد القوات الفلسطينية، والآخر تحت سيطرة القوات اللبنانية التي أخذت تهيمن تدريجياً على حزب

الكتائب، والتي كان على رأسها «قيادة موحدة» يرأسها بشير الجميل.

أعلن الشيخ بشير نفسه منتصراً في حرب المئة يوم. وعند انتهاء هذه الحرب، تقول دنيز عمون، «برز أسمان هما كميل شمعون وبشير الجميل. كانا مدينين بشهرتهما ليس فقط لكونهما طلبا رحيل الجيش السوري، بل أيضاً بسبب شعور بالاعجاب والفخر. لقد قبل رئيس الجبهة اللبنانية، البالغ 78 سنة من العمر، كل المخاطر السياسية والجسدية وكان دائماً يدفع من رصيده الشخصي. وأثبت قائد القوات اللبنانية، البالغ من العمر 30 سنة، جرأة لافتة، وشعوراً عميقاً بالمسؤولية، وصفات قائد لا ريب فيها»[1] بعد مجزرة إهدن وحرب المئة يوم، أمسى بشير الجميل الرجل القوي في المعسكر المسيحي.

بعد انقضاء أربع سنوات، في 23 آب/أغسطس 1982، انتخب بشير الجميل رئيساً للجمهورية في دورة الاقتراع العاشرة. وفي 14 أيلول/سبتمبر، ذهب الرئيس المنتخب ضحية اغتيال. فقد انفجر بيت الكتائب الذي كان في داخله وسقط على من كان فيه. وفي 15 أيلول/سبتمبر دعم حزب الكتائب ترشح أخيه أمين لرئاسة الجمهورية. وفي 16 و17 و18 أيلول/سبتمبر سقط سكان مخيمي صبرا وشاتيلا الفلسطينيين ومعظمهم مدنيون ضحايا فظاعات بربرية ارتكبتها الميليشيات المسيحية انتقاماً لموت زعيمها. لقد حصلت المجازر بمباركة القوات الاسرائيلية التي كانت تحرس جوار المخيمين.

وبعد ست سنوات على ذلك، بعد محاولة أمين الجميل مصالحة

---

(1) دنيز عمون، تاريخ لبنان المعاصر، منشورات فايار، 2004.

سوريا، تعرض هذا لانتقاد شديد من جانب سمير جعجع والجنرال ميشال عون اللذين كانا يسعيان إلى عدم تجديد ولايته. وفي 22 أيلول/سبتمبر 1988 اضطر أمين الجميل أن يعهد بالحكم إلى الجنرال عون، الذي ألف حكومة من ضباط مسلمين ومسيحيين. في اليوم التالي انسحب الضباط المسلمون الثلاثة: بات الجنرال عون يترأس حكومة من لون طائفي واحد. وكان سليم الحص رئيساً للحكومة بالوكالة في أعقاب اغتيال كرامي، فأعلن أنه مثابر على تمثيل الشرعية. وهكذا أمسى للبنان رئيسا حكومة، الحص وعون، لكن بلا رئيس جمهورية، وواجه أزمة مؤسساتية جديدة.

فتحت هذه البلبلة ورشة شرعية سياسيّة جديدة. وفي ظل تلك الظروف أدرك اليمين اللبناني ضرورة توضيح، إن لم يكن تبرير، تاريخه الخاص، فبدأ بغسل نفسه من الخطيئة الأصلية، خطيئة المذابح بين المسيحيين التي دبرها هو والتي ما زال يخيم عليها شبح إهدن. فمنذ مجزرة إهدن في 13 حزيران/يونيو 1978، ظل تسلسل ردود الفعل السياسية المباشرة سارياً بدفق متوتر ولم يفسح في المجال لاستراحة يمكن أن تشجع أصغر رجوع إلى الصورة، أصغر محاولة سرد. لكن بعد مرور نحو عشر سنوات، وفيما كان ينفتح سباق جديد إلى الرئاسة، ربما كان قد آن الأوان ـ كانت أسرة الجميل وحزب الكتائب على الأقل مكرهين على الرجوع إلى التاريخ الماضي، في ظل وضع يشهد صعود سلطان مسيحي بديل من شأنه أن يشكل خطراً على هيمنتها بعد حين.

فابتدأ زمن تسبح فيه الروايات المتخيلة: السياسية، والصحفية والانتروبولوجية. عهد بالأولى إلى جوزف أبو خليل، العضو السابق في المكتب السياسي لحزب الكتائب ورئيس تحرير جريدته العمل على مدى نحو عشرين سنة. لقد حمل كتابه الذي أنجز في تشرين

الأول/أكتوبر 1988 عنوان «الموازنة في حرب لبنان»[2]، وكان بمثابة برنامج.

يبتدىء الكتاب بمجزرة إهدن، عارضاً ما يسميه المؤلف نفسه بـ «الأدلة السبعة».

ـ الدليل الأول: تقع على عاتق الرئيس سليمان فرنجيه وحده مسؤولية انفجار الجبهة اللبنانية في كانون الثاني/يناير 1978.

ـ الدليل الثاني: معارضته بجميع الوسائل لانغراس الكتائب في الشمال.

ـ الدليل الثالث: اغتيال جود البايع[3] أثار رداً عسكرياً لا مفر منه.

ـ الدليل الرابع: إنها فرضية الاختطاف. «الهدف كان هذا: الدخول إلى دار طوني فرنجيه، ابن الرئيس السابق، في إهدن، واختطافه ونقله إلى بيروت، وإحالته إلى مجلس عسكري حيث يبقى رهن الاعتقال حتى انتهاء ملاحقة الكتائب في الشمال. أستطيع من جهتي أن أجزم بأن قتل النائب فرنجيه لم يرد ذكره لأنه لا فائدة منه» ينوّه المؤلف.

ـ الدليل الخامس: فرضية الخطأ في التنفيذ. «يبدو أن محاولة خطف طوني فرنجيه لم تتم حسب الخطة المرسومة؛ فالذين قاموا بها اصطدموا بمقاومة شديدة واستدرجوا إلى قتال شرس اضطر معه المقاتلون ـ المهاجمون والمدافعون ـ أن يَقتلوا أو يُقتلوا. هكذا ذهب طوني فرنجيه وزوجته وابنته، و39 شخصاً من أنصاره،

---

(2) جوزف أبو خليل، الموازنة في حرب لبنان، EDIFRA، باريس، بيروت، 1992.

(3) انظر الفصل الثاني عشر: غطاء معامل الترابة في شكا والاقتصاد الجناحي.

ضحايا تلك المعركة التي كانت بلا رحمة. حدث هذا يوم 13 حزيران/يونيو 1978، الذي كان يوماً مشؤوماً على الجميع».

ـ الدليل السادس: فرضية الانتقام السوري. «هكذا، فإن العملية التي كان يجب، حسب إرادة الشيخ بشير، أن تضع حداً لحالة الفوضى السائدة، باتت هي بالذات سبب فوضى أكبر وأتاحت لدمشق فرصة الانتقام، إلى جانب الانتقام لحليفها الرئيس فرنجيه».

ـ الدليل السابع: هو تبرئة المخابرات الاسرائيلية[4] «لم تتعهّد إسرائيل في تلك الحقبة بأي تدخل، وكانت حتى قد أوحت بالعكس: بأنه لن يكون هناك في أية لحظة تدخل عسكري من جانبها، مؤكدة موقفاً صريحاً وحازماً قوامه تقديم «عون لوجستي» غير مباشر، دون أن تخوض أية مجابهة عسكرية، لا مع السوريين ولا مع الفلسطينيين».

تعتمد هذه البرهنة طريقة القياس، وفقاً لعلم دراسة الخرافة، ومع استثناء طائفة من الانكارات المشهودة المتصلة بقرار الاغتيال («الذي لا فائدة منه»)، كما بعدم تورط الاسرائيليين. إنَّ المعنى الخرافي ليس اعتباطياً تماماً ومن الواجب أن يعود بصورة محددة إلى التاريخ، بصورة محددة فقط، كي يحتفظ بشيء من المعقولية. لقد كان الهدف تبرير توقيع صلح منفرد بين مصر وإسرائيل[5]، وكان حزب الكتائب قد عقد العزم على دفع لبنان أيضاً إلى توقيع صلح منفرد مع الدولة العبرية.

ـ وانسجاماً مع سرده الخرافي، يخلص جوزف أبو خليل إلى

---

(4) أنظر الفصل الحادي عشر: تلاعب الموساد.

(5) في 17 أيلول/سبتمبر 1978 وقع أنور السادات ومناحيم بيغن اتفاقات كامب دافيد في البيت الأبيض.

القول: «نحن لم نعتبر قط خطوة السادات خيانة. بل على العكس، رأينا فيها بطولة... كنا نجهل أن هذه الخطوة ستكون عملياً وبالاً علينا وعلى بلادنا. وعندما توجه مناحيم بيغن، رئيس الوزراء الاسرائيلي، إلى الرئيس الياس سركيس، بتاريخ 7 أيار/مايو 1979، «لزيارة القدس»، كان لكلماته علينا وقع مختلف عن ذلك الذي كان على سليم الحص، رئيس الوزراء اللبناني. كان موقفنا في هذا الموضوع مماثلاً لموقف «لجنة بحث» الكسليك التي قالت حوله: «الارادة اللبنانية هي الجواب بالإيجاب على دعوة مناحيم بيغن (...). التزام لبنان بـ «التضامن العربي» يتناقض مع هذه الارادة (...). وخصوصاً بعد قيام حرب لبنان، حيث فقد التضامن العربي كل صدقية».

إن النوايا الكامنة وراء هذه «الإدلة السبعة» ـ حتى لو كان نشرها وتوزيعها المادي جاءا بعدها ـ قد ألهمت قسماً كبيراً من الرواية المتخيلة الصحفية التي حاول جان لارتيغي بالاستناد إليها أن يشن أول هجوم واسع في كتاب صدر سنة 1980[6]. لقد ولد جان لارتيغي سنة 1920 وهو مؤلف نحو مئة كتاب، واسمه الحقيقي جان ـ بيار لوسيان أوستي، كما أنه ابن شقيق إميل أوستي، الكاهن الذي اشتهر بتمضية جزء كبير من حياته في ترجمة التوراة. كان هذا الأخير موالياً للغرب، كما كان يقال في زمن الحرب الباردة، وعدواً لدوداً للشيوعية، وكان يعبر في مؤلفاته، المكرس قسم كبير منها لزوال الاستعمار، عن مرارة المقاتلين الذين تطوعوا لخدمة فرنسا والذين يظنون أن سياسيي الجمهورية الرابعة قد

---

(6) جان لارتيغي، الله والذهب والدم، منشورات باري ماتش ـ بريس دو لا سيتي، 1980.

خانوها. هذا ما أدى به إلى تفهم عميق لنشاطات منظمة الجيش السري (OAS)، مثلاً. وقد دأب على إبداء التساهل إياه تجاه الجنود الكتائبيين. إنه يستند إلى سبع نقاط هو أيضاً.

يبدأ، بصورة منطقية، روايته المتخيلة لمجزرة إهدن، بتوجيه أسئلة إلى كميل شمعون، الركيزة الموالية للغرب في الجبهة اللبنانية. «القصة بسيطة ـ يشرح له الرئيس اللبناني الأسبق ـ جود البايع، الذي كان مسؤولاً عن مصرف في زغرتا، اغتاله أنصار فرنجيه الذين اتهموه بأنه يريد التعدي على منطقتهم بإنشاء فروع للكتائب فيها. قرر أصدقاء البايع تجريد حملة تأديبية على قتلة صديقهم الذين كانوا يعرفون أنهم موجودون في إهدن، في الجبل. كانوا مئتي رجل مسلح، واجتازوا ثلاثة حواجز سورية بلا صعوبة. وأكد لي أشخاص، وكل شيء يدفعني إلى التصديق، أن سيارات جيب سورية واكبتهم حتى إلى مكان حصول المأساة في إهدن، حيث كان طوني فرنجيه وزوجته وابنته موجودين للأسف بالمصادفة على أثر تعطل سيارتهم»[7].

الحديث الثاني كان مع بيار الجميل: «أكد لي أنه يجهل كل شيء عن اغتيال طوني فرنجيه».

الحديث الثالث كان مع بشير الجميل الذي قال: «عائلة فرنجيه عائلة من عصر آخر. إنهم إقطاعيون يدافعون بقوة عن إقطاعتهم التي يتصرفون فيها تصرف أسياد العصر الوسيط، وحيث لهم كل الحقوق. وبما أنهم متشبثون بامتيازاتهم المبالغ فيها، فإنهم لا يقبلون بوجود أي حزب في منطقتهم الحصرية، خصوصاً بوجود منظمة عصرية، ناشطة، اجتماعية، مثل الكتائب. حين بدأنا نجد

(7) جان لارتيغي: المرجع المذكور آنفاً.

أنصاراً أصابهم الجنون. دمروا مستوصفاً أنشأناه من قبل؛ واغتالوا أنصارنا الذين بينهم مسؤولنا المحلي جود البايع، الذي كان مدير مصرف وله أصدقاء كثيرون. كان لدى أنصارنا أسلحة، تلك التي بها قاتلوا الفلسطينيين، وليس تلك التي كنا قد أرسلناها إليهم. كانت تلك ردة فعلهم. طوني فرنجيه لم يكن مستهدفاً بصورة خاصة، إذ إنه كان يفترض عدم وجوده في إهدن ذلك اليوم. وقد قتلت زوجته وابنته وخدمه؟ هذا فظيع! هذا رهيب! لكنني، بوصفي مسؤول القوات اللبنانية العسكري، غير قادر على عدم التضامن مع رجالي، حتى متى ارتكبوا فظائع تحت تأثير الغضب، وإرادة الانتقام. الدم، للأسف، ينادي الدم ويبعث الجنون. أنتم شهدتم هذا في فرنسا أيام المقاومة. ونحن مقاومة في لبنان».

الحديث الرابع، مع الرئيس سليمان فرنجيه. هنا تتغير النبرة، ويؤكد لارتيغي: «تصرف سليمان فرنجيه، مدى كامل ولايته، ليس كرجل سياسي مسؤول، بل تصرف «رئيس مافيا» يأخذ حصته أولاً ثم يعطي الآخرين (...). قابلت هذا العجوز المصعوق، المعجون بالحقد، الذي لا يحلم إلا بالثأر، في مقره الواقع في أنطلياس الذي يحميه جيش صغير». ثم يستشهد بأقوال تييري ديجاردان، وهو صحافي موال للغرب آخر: «مدى ولايته كلها، لم يبرهن فرنجيه عن روح متحيزة مقيتة فقط، بل برهن أيضاً عن رداءة لا تصدق، ولعله بهذا كان الأكثر إجراماً. لهذا، ومنذ أن هزت الأزمة البلاد، أمسى بسرعة، مع ابنه الذي يتعذر وصفه، مجرد رئيس عصابة، كما كان في كنيسة مزيارة»[8] سنعود إلى هذه الحادثة ومغزاها السياسي لاحقاً.

(8) كان تيري دي جاردان، يندد في «الوفيغارو» بالمقاومين المدافعين عن حكومة

التعليق الخامس الذي يتناول سليمان فرنجيه: «الأماكن المجاورة لزغرتا تحرسها القوات الخاصة التابعة لرفعت الأسد، صديق آل فرنجيه الكبير، وعناصر متضاربة ومحلية من جيش تحرير زغرتا. وهي ترفع فوق كل حاجز صورة لطوني وزوجته وابنته الذين قتلوا قبل سنة وباتوا شهداء كباراً للقضية».

التعليق السادس جاء بشكل عبرة مستخلصة من الحادثة بحسب جان لارتيغي: «حتى أصدقاء أسرة فرنجيه مضطرون إلى الاعتراف بأن وجوهاً كثيرة لهذه المأساة لا تزال غامضة ولا تفسير لها. ألا يمكن أن يكون عملاء للمخابرات السورية قد اندسوا بين الكتائب؟ وحولوا قتل طوني فرنجيه، «الخطأ في التنفيذ»، إلى هذه الجريمة التي لا تغتفر والتي ستدفع المسيحيين الأكثر تصميماً، والأشد قتالاً، إلى التصادم فيما بينهم، على مدى أجيال، وذلك كخدمة كبرى لسوريا».

التعليق السابع والأخير جاء على شكل خلاصة إيديولوجية تنبىء عن الرواية المتخيلة الأنتروبولوجية، التي تجد تفسير مجزرة إهدن في طبيعة أولئك الجبليين بالذات، الأشرار، المتوحشين، المشاغبين، والمافياويين. يحتمي الكاتب الصحفي هنا وراء ستار الباحث: «العنف، كما يقول ميخائيل جيلسنان، هو الركيزة الجوهرية للعلاقات السياسية في لبنان... ينبغي لكل وجيه أن يحوز جهازه الخاص للإكراه والهيمنة. يتخذ هذا الجهاز، بالدرجة الأولى وخصوصاً، شكل مجموعات من المأجورين تأتمر بأوامر

= الوحدة الشعبية، حكومة سلفادور أليندي، في أعقاب الانقلاب العسكري في شيلي سنة 1973، وهو يقدم بهذا «التحليل» في أحد مؤلفاته لبنان الشهيد، منشورات بلون، 1976.

بضع شخصيات قريبة جداً من الزعيم الفرد. هذا هو الدور المنسوب جوهرياً إلى سليمان فرنجيه من جانب أخيه حميد قبل أن يقعده المرض... السمة المشتركة لكل هذه البنى هي العنف وكون ماهيتها مبنية على تعارضها مع سائر الوحدات المماثلة وعلى صيانة السلطان بالقوة. إنها جوهرية بالنسبة إلى إعادة إنتاج مبدأ مركزي من الناحية العملية والايديولوجية في السياسة اللبنانية: شخصنة الحياة السياسية».

إن كان هذا التحليل غير تخيلي بالتمام، فالخلاصات المستنتجة منه تدخل الخانة الخرافية: الجوهرانية، غياب التفسير التاريخي، السياسي، النقدي، تراتبية للعالم غير قابلة للمس. «ليست الخرافات سوى ذلك الالتماس الذي لا يتوقف، لا يكل، ذلك الطلب الماكر والذي لا يلين، الذي يبغي لكل الناس أن يروا أنفسهم في هذه الصورة الخالدة، مع أنها مؤرخة، التي رسمت لهم يوماً كما لو أنها موجودة منذ الأزل»[9]. ليس للخرافات أي معنى صريح، لا في عقدتها ولا في رمزيتها. وإنما تأثيرها على الطبيعة وفيها (الخرافات التي تتوالد) هو الذي يسمح لها بأن تكون ذات معنى. نصل هنا إلى نقطة تقاطع الروايات المتخيلة، وفي هذا التقاطع تكمن الرواية المتخيلة الانتروبولوجية.

ليس بالمدهش، في هذا الاطار، أن يلجأ المرء إلى العتاد الأقرب تناولاً في التاريخ المباشر، كمذكرات سياسيين، خصوصاً منهم من مارس الحكم، والذين يعتبرون أنهم الأقدر على قول حقيقة التاريخ. إن يوميات كميل شمعون، الذي كان رئيساً

(9) رولان بارت، المرجع المذكور آنفاً.

للجمهورية اللبنانية خلال فترة 1952-1958، هي نموذج في هذا الموضوع[10].

يخص كميل شمعون زغرتا بثلاث صفحات في آخر الكتاب، كما لو كان هذا كافياً لتوضيح أعمق أعماق طبيعة لبنان المعقد في أبعاده التاريخية القصوى. يقول كميل شمعون منبهاً: «كان مقدراً[11] لعائلات بلدة كبيرة جبلية تقع في منطقة الشمال أن تنحرف هي أيضاً عن التقاليد اللبنانية وأن تؤدي الدور الذي أدته دير العشائر والمختارة في الشوف». «كان لزغرتا شتاءً وإهدن صيفاً سجلها المجيد في خدمة لبنان، حسبما يقول التقليد على الأقل». التتمة تنير لنا الانحرافات التي أطاحت احترام التقليد: «أنجبت زغرتا للطائفة اللبنانية، فضلاً عن ذلك، أحد أشهر بطاركتها، المونسنيور دويهي، الذي تعد مؤلفاته المحفوظة في روما مرجعاً لكل ما يتصل بتاريخ لبنان السياسي والديني. لكنها كانت لا تضم لا عائلة فرنجيه ولا عائلة معوض بين عناوينها المعترف بها عند الأجيال اللاحقة. هذه المدينة الصغيرة التي تضم 15000 نفس، المعروفة بكرم ضيافتها وعنف عاداتها معاً، كانت تتقاسمها خمس عائلات كبيرة، وكانت هذه عشائر قوية متأهبة لحمل السلاح في وجه الغريب كما للتذابح فيما بينها. يروي الزائرون الذين أقاموا فترة فيها أنه ما من زواج فيها يجري بصورة طبيعية عن طريق مفاوضات بين الوالدين، أو خطبة بحسب الطقوس الاعتيادية. الزواج فيها كان يجري عن طريق الاختطاف، دون استثناء (...). بين عائلات زغرتا، كانت عائلة فرنجيه تعتبر الأكثر مبادرة، وعائلة

(10) كميل شمعون، أزمة الشرق الأدنى، منشورات غاليمار، 1963.

(11) التشديد من عندي.

معوض الأكثر عدداً، وعائلة مكاري الأقل شغباً. أما عائلة كرم، فكانت تمثل، من بعد يوسف كرم الشهير، أرستقراطية في طريق الأفول».

مع ظهور هذه العائلات حديثاً، الذي يعود إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، دخل التاريخ إلى الجبال، معكراً طبيعة تقليد ريفي جامد تستطيع تحركاته النادرة أن تنجب، كما بصورة طارئة، رجلاً وطنياً كبيراً أو بطريركاً. هكذا جاءت طبيعة جديدة وحلت محل التقليد: العنف، ليس عنفاً تاريخياً، بل إنه عنف نابع من طبيعة العائلات بالذات، التي ذكرنا بالتعداد طبيعتها غير اللائقة. «أول شجار ما زلت أذكره حصل في انتخابات 1929» - يضيف كميل شمعون كدليل على اكتشافه - «وأسفر عن سقوط ثلاثة قتلى وعدة جرحى. كان الجزء الأكبر من المسؤولية يقع على عاتق آل فرنجيه. لم تعنفهم السلطات إلا بالكاد، وشجعهم الافلات نسبياً من العقاب، دون أن يقلل من حماسة أخصامهم القتالية. ونشأ بين العائلات ما يشبه حساباً جارياً كانت أصوله وخصومه من أعمال القتل تتغير وفقاً للظروف. فجرى اغتيال أخصام سياسيين بكل برودة، وكذلك رجال درك (مع ضباطهم) كان ذنبهم الوحيد عدم إطاعة أوامر آل فرنجيه أو آل معوض».

وتصل الرواية المتخيلة الانتروبولوجية إلى ذروتها مع سرد عملية الثأر التي شهدتها مزيارة: «سنة 1956، تفاقم التوتر بشكل خطير بين آل فرنجيه وآل دويهي. وبلغت سلسلة أعمال القتل ذروتها في حزيران/يونيو 1957، عندما دخل أفراد من آل دويهي وعلى رأسهم الأب سمعان دويهي كنيسة القرية المجاورة، مزيارة، حيث كان يقام جناز. لحقت بهم مجموعة من عائلتي فرنجية ومعوض شاهرة سلاحها. فوجىء آل دويهي في الكنيسة ولم يسعهم سوى أن يبدوا

مقاومة نسبية. سقط سبعة عشر قتيلاً بينهم عشرة من آل دويهي، فيما سقط في باحة الكنيسة سبعة قتلى من آل فرنجيه ومعوض برصاص رجال من آل دويهي جاؤوا للنجدة».

نلمس هنا، بالاستناد إلى كميل شمعون، ماهية المجتمع الزغرتاوي بالذات تحت هيمنة آل فرنجية. فالمقصود، هنا أيضاً، إثبات طبيعة هذا السلطان، الطبيعة الاجرامية التي تعطي الأحداث المستقبلية كل معناها السياسي. «كان لا بد أن تقرر هذه الحادثة موقف شمال لبنان في الأشهر التالية. لقد باتت أجهزة مخابرات الجيش السوري تعتمد على مشاركة قسم من أهالي زغرتا. وهي بتزويدها هذا القسم بالأسلحة التي كان بحاجة إليها، جعلته أكثر خطراً من جديد على أخصامه. ما جرى بعد ذلك تجاوز كثيراً حدود خصام بين عشائر. فإنه عشية معركة لبنان، كانت الجمهورية العربية المتحدة بحاجة إلى خونة، فوجدت كثيراً منهم بين عائلتي فرنجيه ومعوض وأنصارهما. أمسى هؤلاء بعد ذلك من بين العملاء الناصريين الأشد نشاطاً وساعدوا كثيراً في تموين عصاة طرابلس وجبال الضنية بجميع أنواع المعدات».

وتقدم الرواية المتخيلة الأنتروبولوجية استدلالاً مكتملاً:

- أهل الشمال إقطاعيون.
- إقطاعيو الشمال هم حلفاء السوريين.
- إذن أهل الشمال وحلفاؤهم السوريون إقطاعيون.

هكذا كانت طبيعة أهل الشمال الاقطاعية تدفع بهم حتماً ومنطقياً إلى أحضان السوريين الذين كانوا يعملون على تقطيع أوصال لبنان. وهكذا كانت أحداث 1958 تُعتبر اعتيادياً وأكثرياً بمثابة تمرين على أحداث 1975 وأحداث حرب الخمس عشرة سنة التي تلت. هنا تتوقف كل محاولة لفهم التاريخ.

إن هذه الرواية المتخيلة الأنتروبولوجية بالذات هي التي كانت الأساس الايديولوجي الذي استند إليه مسؤولو القوات اللبنانية، بعد مرور ثلاثين سنة، في ردهم على البرنامج الذي خصصته قناة أو-تي-في لمجزرة إهدن الذي جرى بثه ليلة 13 حزيران/يونيو 2008.

إن فهم تصرفات أهل الشمال السياسية لا يمكنه أن يكتفي بالحديث التعويذي، الوحيد الجانب، والعقيدي، عن طبيعة إقطاعية عنيفة وتكرارية. إن دحض الروايات المتخيلة يتطلب استعانة بالتاريخ.

الفصل السادس عشر

التباس مزيارة

«ليس الواقع الدقيق للنزاع المسلح، للقتال، هو الجوهري، وإنما دوام إمكانيته، حالة الحرب الدائمة من حيث إبقاؤها كل الجماعات ضمن الفروق الخاصة بكل منها. الدائم - البنيوي - هو حالة الحرب مع الغرباء، التي تبلغ أوجها أحياناً، على فترات متفاوتة الانتظام، متفاوتة التواتر بحسب المجتمعات، في المعركة الفعلية، في المجابهة المباشرة: الغريب آنذاك هو العدو، هذا الذي يولّد بدوره صورة الحليف».

بيار كلاستر، «علم آثار العنف» (1977).

المسعى الانتروبولوجي هو الأشد تخريباً بين جميع الروايات المتخيلة الوهمية، لأنه يضع العنف ويبرره في طبيعة مزعومة مرتبطة بالنزعة الغريزية للمجتمعات الجبلية في لبنان. وفي سياق الأفكار هذا، تشكل قضية مزيارة العائدة إلى حزيران/يونيو 1957، والتي شهدت مجابهة بين عدة عائلات زغرتاوية، حدثاً تاريخياً سيبرر فيما بعد ضرورة الهجوم على إهدن، الذي صُور على هذا النحو كعملية

أمنية بسيطة، وحتى كمسعى تمديني يراد له أن يعلّم أهل الشمال حداً أدنى من أدب الحياة السياسية.

الرواية المتخيلة الانتروبولوجية تعتمد طريقة ليست في محلها، إذ إنها تنتقد أو تشجب حالة معاصرة من خلال حدثٍ ماض أعيد تركيبه لأجل المناسبة ولأغراض إيديولوجية. فالرواية المتخيلة الانتروبولوجية، التي حُصرت في إطار خلافات بين عائلات وبين قرى، ومرّت بغربال الأحكام المسبقة، يمكن لها على هذا النحو أن تنزل تاريخ الشمال إلى مستوى صورة المتوحش السيء، في مواجهة المتوحش الطيب عند مونتيني ومدوني أخبار القرن الثامن عشر. هذا التصوير الذي لا تكف الطبقة السياسية اللبنانية عن الاستعانة به، يستوجب أغلب الأحيان اللجوء إلى ذاكرة انتقائية يستغنى باسمها عن ضرورة العودة إلى التاريخ.

قال نائب بشري المنتمي إلى القوات اللبنانية إيلي كيروز، خلال مؤتمر صحفي، رداً على البرنامج الذي بثته قناة أو-تي-في بمناسبة ذكرى مرور ثلاثين سنة على مجزرة إهدن[1]: «إذا دخلنا في لعبة إحياء الماضي لكان من واجبنا أن نعود إلى 16 حزيران/يونيو 1957، يوم مجزرة مزيارة، التي قتل فيها 31 شخصاً[2] داخل كنيسة القرية. يومها اضطر الرئيس سليمان فرنجيه أن يلجأ إلى

(1) لقد أجابت ميراي هاشم المديرة الإدارية في تلفزيون الـO-TV عن سؤال بالغ الدلالة على صحافية كيبكية من أصل لبناني قد أخذت عليها «نكء الجراح» بخصوص مجزرة إهدن فقالت: «برأيك لماذا كُتب على لوحة أرقام السيارات في كيبك عبارة «أتذكر»؟».

(2) في مجزرة إهدن سقط 31 ضحية. أما مجزرة مزيارة فقد سقط فيها 22 ضحية.

دمشق حيث كان قد عزز علاقات معروفة وضعت فيما بعد في خدمة نظام حافظ الأسد»[3].

في سياق هذا المنطق، تحولت قضية مزيارة، تحت قلم الرئيس شمعون[4]، إلى سرد خرافي لطبيعة الشمال الاجتماعية، ما شكل حلقة رمزية يلغى فيها كل التاريخ المحلي ولا يعود سوى مسار غير منقطع لأعمال عنف غامضة «تضرب جذورها في عمق التاريخ» كما يقول.

فلنرجع إلى التاريخ، ونحاول أن نفهم! إن هذا النوع من العنف، كما يشرح أنطوان دويهي، هو على العكس ظاهرة حديثة العهد. «لأول مرة في زغرتا» يقول «كان الانشقاق الداخلي يسير نحو ما يتعذر علاجه حيث أفضى التوتر المتصاعد بين أسرتي فرنجيه ومعوض من جهة وأسرة دويهي من جهة أخرى إلى مجزرة مزيارة التي ذهب ضحيتها نحو عشرين شخصاً (...). كانت هذه بالفعل أول مرة يستخدم فيها آل معوض العنف ضد آل دويهي، بعد أن كانت مساندتهم لآل فرنجيه لا تتعدى الحقل الانتخابي. وكان بين نتائج ذلك تجمع عائلتي فرنجيه ومعوض في حي واحد»[5]. إن نظام التحالف هذا قد تحقق لأول مرة على أسس سياسية وليس تبعاً لطراز إثني.

يرتكز الطراز الاثني للمتوحش السيء على ثلاث قواعد للمجتمع الاقطاعي، بدءاً بمؤسسة الزعماء: «كان الزعماء يمثلون عائلاتهم لدى السلطات ويمثلون السلطات لدى عائلاتهم. كانوا المنتخبين

---

(3) جريدة لوريان ـ لوجور، في 17 حزيران/يونيو 2008.

(4) انظر الفصل الخامس عشر: الروايات المتخيلة الوهمية.

(5) انطوان دويهي. المرجع المذكور آنفاً.

بالاقتراع العام لدخول مجلس النواب وفي الوقت ذاته الناخبين الكبار، المتجمعين والمتراتبين في نظام زبائني يمتد من القرية إلى المنطقة»[6].

المرتكز الثاني: علاقات السلطة الاقطاعية والتبعية، التي يمكن أن تفضي إلى تعارضات مديدة داخل الأسرة الواحدة، أو بين العائلات وبين القرى، كما هي حال زغرتا وبشري مثلاً.

المرتكز الثالث: يقوم الزعيم بوظيفة الهيمنة على المجموعة العائلية والدفاع عن تماسكها، داخل هذه المجموعة بالذات كما في العلاقات بينها وبين العائلات الأخرى والقرى المجاورة. هذا التماسك يرتكز على سنّة الدم وعلى نظام للثأر مطابق لسنة الانتقام المعمول بها: الأخذ بالثأر، أو «الفانديتا».

كلمة «فانديتا» الكورسيكية تدل بحسب التعبير الدارج على ممارسة يواصلها أفراد عائلتين عدوتين حتى ارتكاب جريمة في إطار سيرورة أعمال ثأر متبادلة. «تجتمع العائلة بكاملها، متوحدة أكثر مما سبق لها أن تتوحد في الماضي، وتختار طريق الحرب: على رجالها أن يصونوا كرامتهم، ويثبتوا رجولتهم. كل القرية ترصد أسخف أفعالهم وحركاتهم؛ فبعدما كانوا بالأمس منسيين متواضعين ومغمورين، كسائر أفراد أهل القرية، باتوا الآن يحتلون مقدمة المسرح، ويعهد إليهم بالدور الرئيسي في التجربة الكبيرة. عليهم إذن أن يظهروا كل ما هم قادرون عليه. إن لم نكن رجالاً فلنمت؛ هذا هو شعارهم. فما نفع الحياة في ظل العار، حين لا يعود يحق

---

(6) مسعود يونس، هؤلاء الموتى الذين يقتلوننا ـ ثأر الدم في المجتمع اللبناني المعاصر، منشورات المسار، 1999.

للرجل الساقط أن يتزوج لأنه لا يجد امرأة ترضى بالزواج منه»[7].

كان المجتمع اللبناني، قبل بضعة أجيال فقط، مجتمعاً ريفياً. وكانت الكثرة العظمى من سكان هذا البلد متجمعة في وحدات مجتمعية أو أماكن للعيش مشتركة هي القرى. لقد كان القرويون ينتجون ما يؤمن لهم العيش عن طريق زراعة الأرض وتربية الماشية. وهذا النظام المجتمعي المغلق نسبياً هو غير قادر على البقاء إلا مع دوام صدّ محاولات اختراقه أو التدخل فيه أو الاعتداء الخارجي عليه. أما في داخله، فإن تبادل عملية الأخذ بالثأر بحسب الهويات والطقوس كان يسمح بوجود تماسك اجتماعي مستقر. على أنه «عند حصول عمل الأخذ بالثأر؟ كان هذا يكشف بصورة فظة أساس النظام العائلي من خلال الهزة التي يحدثها. وهكذا كان يجري إبعاد الفاعل، ولذلك كان التصلب بمثابة ضرورة لهذا النظام»[8].

عندما تتكاثر أفعال الأخذ بالثأر في مجتمع ما، ينبغي أن يعاد وضع الظاهرة في إطار أوسع هو إطار اختلال العلاقات الاجتماعية ـ السياسية، والديموغرافية ـ والسياسية، الذي يلقي بثقله على هذا المجتمع: «ليست العدالة العائلية هي المسؤولة عن هذا الاختلال في البنية المجتمعية، وإنما المسؤول هو اختلال البنية المجتمعية الذي يضعف فاعلية العدالة العائلية ويقود إلى الانزلاق نحو العنف»، كما يستخلص مسعود يونس.

فالقول بأن تمدد نظام العدالة العائلية إلى الحقل السياسي قد حصل تحت ضغط تغيرات تاريخية حديثة العهد هو قول يتناقض مع

---

(7) مسعود يونس، المرجع المذكور آنفاً.

(8) المرجع المذكور آنفاً.

أفكار متناقلة حول لبنان الشمالي وأهله الذين لا يزالون يُعتبرون حتى اليوم أناساً على حدة. فمنذ قضية مزيارة، دخل هذا العنف في الانشطارات السياسية التي تتعدى حدود المجتمع المحلي بقدر كبير.

في إعادة وضع الأمر في منظور تاريخي، يلقي أنطوان دويهي على قضية مزيارة ضوءاً وطنياً ودولياً أيضاً فيقول: «الشرخ بين معسكر فرنجيه ـ معوض والنظام الشمعوني كان حاسماً. لقد أصدرت الدولة مذكرات اعتقال بحق أكبر أعضاء العائلتين نفوذاً، وخصوصاً بحق معظم قادتهما السياسيين. فرد هؤلاء على هذا الاجراء باللجوء إلى سوريا (....). هكذا توافرت كل عناصر «حرب ضروس» بين عائلتي فرنجيه ـ معوض وحكم شمعون».

بيد أنه «على الرغم من خطورة هذا النزاع، استطاع آل فرنجيه وآل معوض أن يجتازوا الوضع الشديد الاضطراب أواخر الخمسينيات دون حصول أي تململ داخل جماعتهم. وبدا أن دور العائلة، بوصفه بنية غالبة، يعلو على المستويات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ويطال حتى الحقل الطائفي بالذات».

إن قضية مزيارة، التي كانت مؤشراً إلى امتحان 1958 اللبناني، ومنذراً بامتحان 1975، تبيِّن أن «التنظيم الاجتماعي ـ السياسي الذي هو العائلة كان قد اكتسب من التماسك والتضامن ما يكفيه لمواجهة الوحدة الدينية بالذات». غير أنه، إذا كانت العائلة لا تزال مرجع التجمع الأساسي، فإنها لم تعد تُعرّف بيناها النَسَبية فقط، بل من خلال تبني خيارات سياسية مشتركة، منتقلة من روابط الدم وحدها إلى روابط منبثقة من رؤية واحدة للمنطقة، إن لم يكن للأمة. هكذا حلت العائلة السياسية تدريجياً محل العائلة القائمة على صلة الدم، كما محل الانتماء الطائفي.

هذا هو الدرس الكبير المستخلص من مزيارة: الاضطرابات التي تعزى إلى بقايا الاقطاعية الجبلية تسمو على المنطق العائلي التقليدي، لكن الطائفي أيضاً. فالهوية الجبلية لمناطق الشمال، في أبعادها السياسية الحديثة، لم تعد قابلة للحصر في انتمائها إلى الطائفة المسيحية اللبنانية، على الرغم من كونها مهد هذه الطائفة. وإذا هي أعلنت في حالات نادرة انتماءها إلى هذه الهوية الجبلية بحد ذاتها، فإن ممارسات أهل الشمال الاجتماعية تملأ هذا الصمت الظاهري الذي يغذي استحالة اختزال غير قابلة للاستيعاب. تتضمن «صخرة طانيوس»[9] لأمين معلوف، وصفاً ذكياً وحساساً، تحت شكل قصصي، هذا الشكل من العقد الاجتماعي النوعي الذي يخلط ويتجاوز الحدود الدقيقة للطائفية التقليدية.

هذه الهوية الجبلية تجد تفسيرها في الآليات الاجتماعية - السياسية لمجتمع نشأ على ثلاث مراحل:

قوام المرحلة الأولى كان الانتقال من المجتمع الجبلي الإهدني السابق، ذي الاطار الاقطاعي - العثماني، إلى المجتمع العصري والعائلي الزغرتاوي. وقد وضع هذا التحول التاريخي حداً، خلال جيل واحد، للامارة الجبلية ذات الماضي البعيد. «مع الانحطاط التدرجي للسلطنة العثمانية وتنامي تأثير أوروبا الصناعية، وكذلك من خلال التمزقات الطائفية والاجتماعية التي تجرعت مرارتها على امتداد القرن التاسع عشر، انتقلت مجموعات السكان القديمة المنزوية في الجبل منذ قرون طويلة إلى الأزمنة الحديثة»[10].

المرحلة الثانية صنعت استقرار نظام المتصرفية، الذي كان لبنان

(9) أمين معلوف، صخرة طانيوس، منشورات غراسيه، 1993.

(10) انطوان دويهي، المرجع المذكور آنفاً.

الكبير الذي أقامه الانتداب الفرنسي امتداداً له. «إن إقامة لبنان الكبير سنة 1920 من قبل فرنسا هي التي حققت لأول مرة في تاريخ البلاد ربط المدن الساحلية بالجبل. فتغير وجه لبنان: أخذت الجماعات الجبلية تتصل أخيراً بالجماعات المدينية اتصالاً عضوياً صار بدوره فيما بعد مصدر توترات ونزاعات. ومحل مجتمع جبل لبنان، الكيان الاقطاعي الذي اكتسب عبر القرون نوعية غنية مرتكزة على تفاعل طوائف دينية ثلاث، حل مجتمع لبنان الكبير، الذي هو مجموعة اجتماعية أشد تعقداً بكثير من جراء انضمام سكان المدن السنّة والروم الارثوذكس إلى موارنة ودروز وشيعة الجبل»[11].

ونتيجة لهذه التحولات السوسيولوجية العميقة، جاءت المرحلة الثالثة، مرحلة لبنان المستقل التي ترسخت، ليس بدون صعوبات، عند انتهاء الانتداب، وثبتت الانفتاح على الغرب وديناميااته التسووية. لذلك كان لا بد للموارنة، المرتبطين بالكنيسة الرومانية وذوي العلاقات المميزة مع فرنسا، إلا أن يزدادوا قوة نتيجة هذا التطور الأخير، على حساب الدروز المتطلعين تقليدياً نحو المحيط الاجتماعي - الثقافي الشرقي.

لم يتطور المجتمع الأسروي المعاصر في لبنان الشمالي إذن إلا ابتداءً من النصف الثاني من القرن العشرين. ولقد عرف هذا التنظيم المجتمعي المتقدم، الذي بات يسوده بعد ذلك قطاع الخدمات، حركة انتقال وإعادة تجمع للسكان على أساس العائلات المجتمعية - السياسية الخمس التي أعادت حينذاك تنظيم استقرارها الجغرافي. وهكذا ظلت العائلة تحت قيادة زعيمها، وترسخت بوصفها ماهية ذات غائية سياسية، بالرغم من وجوه اقتصادية لا تزال ذات شأن.

(11) جورج قرم، لبنان المعاصر، منشورات لا ديكو فرت، 2003.

ويخلص أنطوان دويهي إلى القول: «إن العنف هو الذي يشكل، مع ذلك، الوجه الأبرز والأكثر تحديداً لطراز التطور الذي أدى، انطلاقاً من الخمسينيات، إلى توطيد بنى زغرتا الاجتماعية. فالنزاعات السياسية اللبنانية لم تبلغ قط، قبل نشوب حرب 1975، درجة العنف التي بلغتها في زغرتا. فبين سنة 1950 وسنة 1970، بينما كان وسط لبنان، المستقطب أكثر فأكثر حول بيروت، يشهد مرحلة ازدهاره الكبرى، كانت زغرتا ساحة حرب أهلية تنامت على هامش استقرار المجتمع الاجمالي، تاركة خلفها عشرات القتلى والجرحى. وبينما كان لبنان ينعم بالسلام والتقدم الاقتصادي، كانت زغرتا تعيش في الحرب. ومن المفارقة أن لبنان انقلب إلى الحرب عند دخول زغرتا إلى الازدهار والاستقرار».

وعلى عكس تطور الصورة العامة للأخذ بالثأر في المجتمعات المتوسطية، تلك الصورة التي تحولت من رهانات جماعية إلى سنّة العين بالعين والسن بالسن الخارقة الفردنة قبل أن تذوب في توطيد الدولة المركزية، فإن العدالة الأسروية، التي كانت استثناءً في لبنان الشمالي، راحت تنتشر في مجمل المجموعة المجتمعية، المتراصة حول مرجعيات المسؤولية الجماعية إياها إزاء دولة تبقى بعيدة، إن لم تكن غريبة عن هذا الوضع. إن قيام الدولة الممركزة لم يسفر عن تهميش الأخذ بالثأر، بل إنه على العكس عمم ممارسته في مجمل الجماعة. ومن خلال توسع الأخذ بالثأر هذا راح المجتمع الشمالي يتحدى الدولة كما فعل يوسف كرم سابقاً قبل أن يضطر إلى سلوك طريق المنفى. واستمرت هذه الدينامية حتى الاستيلاء على الحكم الوطني.

بعد مرور إحدى وعشرين سنة على مجزرة مزيارة، تتبدى مجزرة إهدن شذوذاً عن القاعدة لأن نمطها العملاني يخالف كل قواعد

الأخذ بالثأر التقليدية التي تقضي بأن لا تشمل العملية النساء والأولاد أبداً، وبعدم المسّ بحرمة بيت الفرد أو العائلة، وبأن يتجنب دائماً الزعامات وكوادرها.

إن مجزرة إهدن، بانتهاكها هذا المبادىء الثلاثة الناظمة لعنف واسع الانتشار، لكن المضبوط، هي دليل على تسلل طراز جديد من العنف، وافد من الخارج، وبالتالي يضاهي اعتداءً شبه دولي، إن لم يكن مدبراً من جانب الدولة المركزية. ولا بد من أن تعزز هذه الصدمة القصوى آليات الأخذ بالثأر الموسع، بالتوازي مع منظومة تحالفات إقليمية ودولية.

الفصل السابع عشر

التحقيق القضائي المستحيل

«ما الفائدة من الأخذ في الاعتبار لكل دقائق شخصية الجانح ونفسيته، متى كان هذا يدافع، بفعله، عن حق أرساه نظام حقوقي آخر؟

في هذه الظروف، كان لا بد للقاضي الجزائي، كي يحمي فاعلية القانون، أن يرجع بطريق الاجتهاد عن إصلاحاته الطليعية، دون أن يبلغ الغاية المنشودة مع ذلك.

هل الذنب ذنب القاضي؟ هل يمكن تغيير مجرى النهر بيدين عاريتين، أم يجب قبول الانجراف في أمواجه؟

ما العمل إذن كي يعود قانون الدولة الجزائي من جديد؟».

مسعود يونس، «هؤلاء الموتى الذين يقتلوننا» (1999).

غداة مجزرة إهدن، رأى بشير الجميل أنه من الأفضل أن يتبرأ من مقتل خصمه الرئيسي. وبعد يومين، اعترف بأن بعضاً من عناصر ميليشياه متورطون فيها، موضحاً أنهم «تصرفوا من تلقاء أنفسهم، بالتعاون مع عناصر أخرى غير منضبطة». لكنه جزم بأن

قيادة الحزب العسكرية لا علم لها بالأمر، مؤكداً للصحافيين «فتح تحقيق داخلي» وأن «الفاعلين سينالون عقاباً قاسياً».

هذه التصريحات المرتبكة لم تخدع أحداً، لا سيما وأن المحاكم اللبنانية كانت قد كفت منذ مدة طويلة عن النظر في القضايا الجنائية. وأجهزة الدولة، التي لم تعد سوى ظلها، كانت مجبرة على القيام بتمثيليات مخادعة تستدعي السخرية سرعان ما كانت تنشرها الصحافة التي كانت هي أيضاً تشارك في مسرح الظلال هذا. فقد كتبت جريدة لوريان ـ لوجور مثلاً: «على الصعيد القضائي، عقد في مكتب النائب العام التمييزي السيد كميل جعجع اجتماع ضم بالاضافة إليه كلاً من النائب العام العسكري السيد أسعد جرمانوس، ومفوض الحكومة لدى المحكمة العسكرية السيد فوزي داغر، وقاضي التحقيق العسكري السيد أسعد ذياب. تناولت المداولات سير التحقيق في قضية الهجوم على إهدن، بعد معاينة النيابة العامة لدارة فرنجيه ولسائر الأماكن التي سقط فيها ضحايا»[1]. لم يسفر هذا الاجتماع عن أية نتيجة، وظلت أوراق التحقيق بعيدة عن متناول اليد (تقارير الشرطة والطبيب الشرعي) على الرغم من فتح هذا التحقيق رسمياً.

اشتهر النائب العام العسكري أسعد جرمانوس، الذي كلف بملف إهدن، بقدرته على تسلم القضايا لأجل دفنها في الحال. وقد كلف، بعد مرور أربع سنوات، بالتحقيق في ظروف مجازر صبرا وشاتيلا التي ارتكبتها القوات اللبنانية. يقول جوناثان راندل: «بالاستناد إلى أقوال قائد القوات اللبنانية، فإنه كان قد أجرى تحقيقه الخاص، وكان يعرف تماماً ما جرى، ساعة فساعة، وأحال

---

(1) لوريان ـ لوجور، 18 حزيران/يونيو 1978.

كل المعلومات إلى أسعد جرمانوس، النائب العام العسكري المكلف رسمياً بالتحقيق في المجزرة لحساب الحكومة اللبنانية. كانت القوات اللبنانية تعلم جيداً أنها لا تتعرض لأية مخاطر من هذه الناحية: كان أسعد جرمانوس قد ضرب ما يشبه رقماً قياسياً في عدم الكفاءة إذ أظهر عجزه عن إحالة المرتكبين إلى القضاء المختصّ باستثناء حفنة من أولئك الذين تورطوا في عشرات آلاف الجرائم العنيفة المرتكبة منذ 1975 في لبنان»[2].

بعد مرور ثلاثين سنة، وعلى الرغم من المساعي الكثيرة لدى السلطات القضائية، ظل الوصول إلى أوراق الملف مستحيلاً. لقد كانت أسرة فرنجيه قد اصطدمت بقاعدة الصمت المافياوية إياها، وبالأجوبة والذرائع الكافكية إياها: ليس لمجزرة إهدن وجود قانوني حقيقي!

بالإضافة إلى اهتمامي بالتحقيق على الأرض، الرامي إلى إعادة رسم مجرى الوقائع، كنت أواجه مصادر مكشوفة، بدءاً من إفادة سمير جعجع بالذات، في أثناء دعوى شمعون، التي قد تسمح لي بالوصول إلى ثلاثة تائبين.

«نزلنا من السيارات قرب فندق بلمون وباشرنا الهجوم من عدة نقاط ـ يقول سمير جعجع. حين دخلنا الحي، أصبت بجرح على مسافة مئة أو مئتي متر من قصر فرنجيه. فأخذ إيلي حبيقه وادمون صهيون مكاني. ثم نقلت إلى مستشفى أوتيل ديو في بيروت. وبما أنني جرحت مرة ثانية خلال نقلي، أغمي عليّ قبل أن أصل. لم استرجع وعيي إلا في اليوم التالي. زارني الشيخ بيار الجميل فيما

(2) Jonathan Randal, *Christian Warlords, Israeli Adventures and the War in Lebanon,* The Viking Press, 1983.

بعد. سمعت همساً، من الرفاق الذين كانوا في إهدن أن الذين دخلوا بيت طوني فرنجيه هم إيلي حبيقه وإدمون صهيون وحنا شليطا»[3].

في الصفحة 166 من المجلة ذاتها، الاتهام يوجه إلى سمير جعجع، ولو بطريقة طرح الأسئلة:

ـ هل قتلت طوني فرنجيه في إهدن سنة 1978؟

ـ هذا غير صحيح. كما قلت سابقاً، جرحت بطلقات نارية فيما كنت على بعد مئة متر من القصر، ونقلت إلى أوتيل ديو. في ذلك اليوم كنت اضطلع بالقيادة المحلية، أي كنت مسؤولاً عن وحدة مسلحة في بلدة بشري[4]. وكان إيلي حبيقة بجانبي. بشير الجميل هو الذي أمر بالعملية التأديبية رداً على الهجمات التي تعرض لها الكتائبيون وكان آخرها اغتيال جود البايع، عقب أحداث شكا».

تنسب أمور كثيرة إلى إيلي حبيقه، خصوصاً بعد مقتله في اعتداء بواسطة سيارة ملغومة في الحازمية سنة 2002، على مسافة بضعة أمتار من منزله. لقد كان رحيله مناسباً لكثير من الناس، بدءاً بالقوات اللبنانية والمخابرات الاسرائيلية. إنه قبل اغتياله بقليل كان قد قرر أن يشهد ضد أرييل شارون في الدعوى التي أقيمت عليه في بلجيكا لارتكابه جريمة ضد الانسانية. كان يتأهب لاتهام وحدات كومندوس في الجيش الاسرائيلي، ساييرات ماتكال، يقول

(3) سمير جعجع ـ داني شمعون: القضية ـ وقائع دعوى القرن، مجلة المحور (عدد خاص)، 1993.

(4) لم يكن سمير جعجع يضطلع بقيادة محلية، بل كان قد عين من قبل بشير الجميل مسؤولاً عسكرياً لمجموع كتائب لبنان الشمالي في 7 حزيران/يونيو 1978. أنظر الفصل العاشر: التخطيط العسكري لـ «عملية الأرز».

آلان مينارغ إنها شاركت بثياب مدنية في المجزرة. وبالاستناد إلى جريدة لومانيتيه، كان حبيقه يحوز وثائق تتهم جيش لبنان الجنوبي وقائده الأخير أنطوان لحد.

لا يزال اسم حبيقه مرتبطاً بمجازر صبرا وشاتيلا التي يقال إنه كان أحد قادتها الرئيسيين. كان إيلي الذي وصفه كريم بقرادوني بأنه «رجل على حدة»[5] و «براغماتي»، لا يتفق إلا نادراً مع سمير «ذي العقيدة الجامدة». وهذا الأخير كان عسكرياً ومتحفظاً تجاه الأول الذي هو رجل استخبارات. كان سوء الفهم بين الاثنين يتفاقم مع مرور السنين إلى أن جاءت حقبة الانتفاضات. «ساعدته سوريا كثيراً إذ صورته على أنه موحد المسيحيين. رتبت له مقابلة في إهدن مع سليمان فرنجيه. كان هذا أول لقاء بين رئيس الدولة السابق ومسؤول في القوات اللبنانية، منذ مقتل ابنه طوني سنة 1978، في هذه البلدة إياها. وذهب حبيقة أيضاً، بفضل الوساطة السورية، إلى زحله التي لم يطأ أرضها أي قائد للقوات اللبنانية منذ حصار 1981. ولكي تعزز دمشق موقف حبيقه في الشرق وخصوصاً داخل تشكيله، أطلقت سراح عدد من أعضاء القوات اللبنانية كانت تحتجزهم منذ عدة سنوات». كذلك وقّع مع سوريا في آخر المطاف اتفاقاً سرياً قبل أن ينقلب عليه رفاقه السابقون في السلاح. ففي 13 كانون الثاني/يناير 1986، حصلت انتفاضة داخلية قادها سمير جعجع وطرده من القوات اللبنانية، فالتجأ إلى دمشق. وبعد جولة جديدة من العنف، استولى سمير جعجع على الميليشيا المسيحية.

إيلي حبيقه «صوفته حمراء» وهذا أمر مفهوم، وأمسى اليوم كبش

(5) كريم بقرادوني، الفخ ـ من اللعنة اللبنانية إلى حرب الخليج، منشورات FMA/ غراسيه، 1991.

المحرقة المثالي. فهو في نظر عدة مسؤولين سابقين في الكتائب وفي القوات اللبنانية وفي حزب الوطنيين الأحرار الشمعوني المذنب غير المأمول والوجه المكفر عن مجزرة إهدن. هذا فيما لا يتوصل أحد منهم إلى وصف دوره بالضبط وبدقة، ولا درجة مسؤوليته في إعداد المجزرة وتنفيذها.

انطلاقاً من أقوال سمير جعجع، كنت بحاجة إلى سماع رواية إدمون صهيون، قائد مجموعة كفرعبيدا الذي قام بالهجوم الأخير على القصر حيث كان قتلة طوني وفيرا والصغيرة جيهان وخدمهم في عداد رجاله. غادر إدمون صهيون لبنان سنة 1992 إلى أستراليا، لكنني تمكنت من الاتصال به بواسطة محاميه. فإذا كانت شهادته هو أيضاً ترهق إيلي حبيقه ولا تلقي سوى قليل من الضوء على مسرح الجريمة، فإنها تكشف مع ذلك وجوهاً جديدة لافتة في ما يتعلق بإعداد العملية وسير تنفيذها. فقد عيّن بشير الجميل إدمون صهيون ضابطاً رديفاً للوحدة المكلفة بالهجوم على القصر، وكلفه خصوصاً بمراقبة سمير جعجع الذي كان لا يثق به.

هاكم شهادته حول إعداد العملية: «كان قد حصل تجمع عسكري ضم نحو 400 مقاتل (150 من بيروت و250 من الشمال) في بلدة قنات (قضاء بشري) ليلة 10 ـ 11 حزيران/يونيو، وتجمع آخر ضم عدة مئات من الرجال، في بشري وجوارها. لكن صدر قرار بإرجاء العملية إلى تاريخ لاحق. فعاد المقاتلون أدراجهم ورجعوا إلى بيوتهم، ثم جرى استدعاؤهم مجدداً عشية 12 حزيران/يونيو. اتصل بي بشير الجميل وطلب مني أن أعد وحدتي وأتوجه إلى قنات. فأعددت سيارتي جيب واصطحبت 12 إلى 14 مقاتلاً من كفرعبيدا كان كل واحد منهم يحمل عتاده القتالي. أتذكر بالكامل أولئك الرجال، الذين كنت أعرفهم فرداً فرداً. كان بينهم رومانوس

نقولا الملقب بالحاج، وأنطوان شاهين، وأنطوان يوسف الملقب بالأسود، وجون يوسف الملقب بالأسمر، وطوني بطرس، وسمير شليطا الذي قتل قرب القصر فيما كان يعمل لإسعاف سمير جعجع، وحنا شليطا».

يضيف: «وصلت مجموعتان قبل منتصف الليل بقليل إلى ساحة كنيسة قنات، حيث كان انتشر كثيرون من المقاتلين. قدمت اللائحة الخطية بأسماء الجنود التي تتألف منهم وحدتي. دخلت بعد ذلك إلى الطبقة الأرضية في مبنى من طبقتين، إلى يمين الكنيسة، لأحضر اجتماعاً ضم سمير جعجع، ونادر سكر، وإيلي حبيقه، وثلاثة أشخاص من وحدة بيروت كنت لا أعرف منهم سوى عباس، الذي هو من عكار. كانوا متحلقين فوق خريطة. عاتبت سمير جعجع على تأخره في استدعائي وعلى عدم دعوته لي إلى اجتماع سابق عقد في الأشرفية وتناهى إلى علمي بواسطة أحدهم. واحتدم الجدال بسرعة كبيرة وقررت أن أنسحب. فصوب أحد حرس حبيقه بندقيته نحوي قائلاً إنه لم يعد لي الحق بالانسحاب الآن بعد أن عرفت بأسرار العملية! أبعدت البندقية وغادرت الغرفة، فلحق بي نادر سكر محاولاً إقناعي بالعودة».

قبل إدمون صهيون في النهاية بأن يعود وينضم إلى الفريق الذي كان لا يزال يدرس الخريطة: «ثلاثة عشر محور اختراق لمنطقة الشمال يشار إليها بأسهم حمراء. لقد تمّ تعيين رئيس مقابل كل سهم من الأسهم التي وضع لكل منها رقم واسم رمزي. المحاور الخمسة الرئيسية كانت: المحور الأول يقوده سمير جعجع الذي كانت مهمته الهجوم على قصر طوني فرنجيه؛ المحور الثاني كان بقيادتي كمساند للمحور الأول؛ اعترضت قائلاً إنني أنا من يقود رجالي، لا أي شخص آخر، لكنني انتهيت بالانضمام إلى رأي

الجميع؛ المحور الثالث يقوده إيلي حبيقه ويعنى بمنطقة طورزا إلى جانب مهمة رئيسية هي جمع المعلومات وحماية المحورين السابقين؛ المحور الرابع كان مركزه المستديرة المشرفة على القصر؛ أخيراً المحور الخامس المؤدي إلى جبل أيطو الذي يشرف على البلدة».

المهمة، حسب قول صهيون، كانت التالية: «كان لدينا أمر بتوقيف طوني فرنجيه، واحتلال إهدن، وإقامة مركز قيادة في القصر بالذات، وثكنة عسكرية في جبل أيطو نستطيع أن نهيمن على المنطقة انطلاقاً منها. كان المطلوب إنجاز هذا الترتيب قبل وصول بشير الجميل المفترض إلى إهدن على متن مروحية لعقد ندوة صحفية».

هاكم الآن كيف يصف صهيون مجرى الوقائع: «بمقتضى الخطة، كان يجب أن تتوجه الوحدات المختلفة إلى إهدن وتتخذ المواقع المخصصة لها. كان لكل مجموعة دليلها. عند وصولي إلى إهدن، أرشدني دليلي ـ أظن أنه زغرتاوي ـ إلى الموقع الذي يجب أن تتخذه مجموعتي، وكان خلف المستديرة، قرب بيت من ثلاث طبقات، مبني بالحجر، ذي نوافذ خضراء اللون، تحيط به تصوينة عالية تصلح للاحتماء بها. أعطت طلقة المدفع إشارة الهجوم، وتبعتها سلسلة من إطلاق الرصاص. بعد مضي بضع دقائق، عاد الدليل صوبي ليقول لي إن إيلي حبيقه لا يتمكن من الاتصال بي لأن جهاز الراديو خاصتي مغلق. فتحت جهازي اللاقط وحاولت الاتصال بالمحور الأول فلم يجب. فاتصلت بالثالث كي أخاطب حبيقه الذي راح يلومني طالباً مني أن ألتحق بالمحور الأول بالسرعة القصوى، أي بالقصر. اجتزت سيراً على القدمين مسافة الخمسماية متر التي تفصلني عن الموقع. فوجئت كثيراً حين وقعت

على حبيقه ومعه عشرة مقاتلين. طلب مني أن أمنع أياً كان من دخول القصر لأنه ينوي أن يخرج منه الملفات الهامة الموجودة فيه. لكنني دخلت، على الرغم من هذا الطلب. وجدت جثتين ممددتين: جثة طوني فرنجيه وجثة رجل آخر لم أتمكن من معرفته. فيما كنت أخرج من القصر رأيت أربع جثث في مكان غير بعيد عن القصر كان بينها سمير جعجع الذي ظننته ميتاً. في تلك اللحظة أصبت بدوار، بعد أن تنشقت غازات استخدمت بلا ريب أثناء الهجوم. تقيأت عدة مرات. جلب لي حنا شليطا ماء. بعد أن استعدت روعي، رأيت رجال حبيقه وعلى رؤوسهم أقنعة ضد الغاز يتوجهون نحو القصر. أخذوا يروحون ويجيئون، ناقلين من القصر عشرة صناديق من الوثائق. أمرت سمير شليطا بأن يمضي ويخرج سمير جعجع المصاب من ساحة المعركة. قُتل شليطا. نشرت رجالي لأجل التغطية ومضيت لمساعدة جعجع بنفسي. بعد ذلك حصل شجار عنيف بيني وبين حبيقه الذي أراد أن يتمركز في القصر. إنه كان يتمسك بالخطة الأولى التي تلحظ إقامة ثكنة في مرتفعات إهدن، فيما كنت أشرح له أن هذا بات مستحيلاً بالنظر إلى اتخاذ الأمور منحى مأساوياً وإلى مقاومة أهل البلدة. احتدم الجدال إلى حد حمل أحد رجال حبيقه على إطلاق رشقة من رشاشه على قدمي حيث مزق بعض الشظايا لباسي الميداني مما دفع برجال وحدتي لتصويب أسلحتهم باتجاه رجال حبيقه حيث كان التوتر في ذروته. هدأت الجميع وانسحبت مع رجالي إلى موقعنا الأول، حيث كانت سيارتا الجيب تنتظرنا. وضعنا جثة سمير شليطا في سيارة وهرعنا على عجل إلى كفرعبيدا حيث عقدنا اجتماعاً مرتجلاً، وأعطينا تعليمات بعدم ذكر ما جرى للتو ونسيان هذه العملية المأساوية».

يختم إدمون صهيون شهادته قائلاً: «بعد انقضاء شهر على ذلك، عرض سمير جعجع روايته للوقائع خلال برنامج إذاعي لمحطة إذاعة الحزب «صوت لبنان». ما زلت حتى اليوم على يقين من أن المكتب الثاني للجيش اللبناني، الذي يحوز الوسائل اللازمة للتنصت على مكالماتنا اللاسلكية، كان يتابع سير عملية إهدن من أولها إلى آخرها وساعة فساعة. بعد ذلك ببضعة أسابيع نجوت بأعجوبة من تفجير سيارة ملغومة. أعتقد أن سمير جعجع حاول اغتيالي كي يمنعني من الكلام. فأنا أعلم أن هذا الأخير قال لرجاله، إبان مجزرة عائلة داني شمعون، بالحرف الواحد: «لا أريد أن ينجو أحد! لا أريد إهدن جديدة!». حاولت القوات اللبنانية عدة مرات أن تغتالني. هذا ما حملني على الهجرة إلى استراليا. لا يزال سليمان فرنجيه يؤمن بأني قتلت والديه. هذا باطل!».

في مطلع السنة 2000[6]، أراد رئيس الأمن العام اللبناني جميل السيد أن يحرك التحقيق القضائي. وفي تلك الظروف بالذات تم توقيف طوني يوسف ثم أخلي سبيله بناء على طلب سليمان فرنجيه. تحدث الرجل إلى صحافيي أو-تي-في في إطار البرنامج الذي بثته القناة ليلة الذكرى الثلاثين للمجزرة. لقد التقيته عند محاميه في عمشيت حيث كان بادي الارتياب فسألني عن سبب اهتمامي بـ «قضية إهدن». وبعدما أطمأن إلى جوابي من أنني أهتم بالتاريخ العام وبمصالحة مسيحيي لبنان ومستقبل العرب المسيحيين، ابتدأ بالاقرار بأن «إهدن كانت غلطة كبيرة!».

دخل الرجل حزب الكتائب في الثامنة عشرة من العمر، وصار

(6) جميل السيد هو أحد الجنرالات الأربعة الذين اعتقلوا وسجنوا في إطار التحقيق الدولي في اغتيال رئيس الوزراء السابق رفيق الحريري.

جندياً. وفي ليلة 12 حزيران/يونيو، لبى دعوة رؤسائه بالذهاب إلى قنات حيث كان يتجمع حوالى ألف رجل. «كانت هناك تحركات دائمة لوحدات كتائبية بين البترون وطورزا. لقد كان هناك حاجز سوري، وقد أزيل قبل فترة وجيزة، بناء على طلب طوني فرنجيه، على أثر احتكاكات مع السكان. انطلقنا في الليل من طورزا إلى إهدن دون أن نعرف ما هي مهمتنا. كان سمير جعجع قد عين قائداً أعلى، ربما لأنه من أبناء الشمال وبشري التي لم يكن أهلها يكنون الود قط لأهل إهدن. عند الساعة الرابعة، تموضعنا حول القصر. عندما دخلناه، كان كل شيء قد انتهى!».

لن نعرف عن الأمر أكثر من ذلك: قبل ساعة من الوقت المقرر للقائنا، وصل حنا شليطا إلى مكتب المحامي. انزوى طوني يوسف وتركه يتكلم. كانت عينا شليطا السوداوان تحدقان في نقطة وهمية وتتحاشيان الالتقاء مع عينيّ: «أنا غاضب جداً لأن سليمان فرنجيه اتهمني بقتل ذويه. لقد نُسب إلي مقتل عائلة فرنجيه، هكذا. أنا أحترم الموتى، لذلك لا يسعني أن أقول الكثير، احتراماً للموتى. كنا صغار السن وكنا نتباهى... كنت مع سمير جعجع في جوار القصر. هذا كل شيء! أتينا من جهة فندق بلمون. أذنت طلقة الـ ب ـ 10 ببدء الهجوم. إصابة الشيف سمير بجرح بعثت الجنون عند الجميع. بعد ذلك تسلم القيادة إدمون صهيون. كان الوضع معقداً، لأنه كان لا يتفق مع إيلي حبيقه الذي كان بالذات عدواً لبشير الجميل ولسمير جعجع. كان في إهدن حوالى 400 جندي، لذلك ستحصل على 400 رواية مختلفة. إلا أن أحداً لن يبوح بشيء حول ما جرى فعلياً».

هذه الشهادات الثلاث، التي كان يمكن أن تشكل مستندات لإجراء تحقيق عادي، في ظل دولة تحترم القانون، تتناقض في

نقاط كثيرة مع ذكريات المقاومين الاهدنيين. غير أنها تثير ثلاث ملاحظات جديرة بالاهتمام. أول هذه الملاحظات هي أن السلطات اللبنانية، بإحجامها عن فتح التحقيق، تبدو مكتفية حتى الآن بمجموعة من القرائن التي تضع تبعة المجزرة بصورة مناسبة على عاتق رجلين رحلا: إيلي حبيقه وبشير الجميل. الملاحظة الثانية هي أن الاغتيال الذي حصل داخل القصر كان من صنع رجال ينتمون إلى وحدات كفرعبيدا وبشري. الملاحظة الثالثة هي أن سمير جعجع كان بالفعل قائد هذه الوحدات المكلفة بالهجوم على القصر والامساك بطوني فرنجيه «حياً أو ميتاً».

«حياً أو ميتاً»؛ ما برحت هذه الأوامر ترن في أذني ريجينا صنيفر[7]، المقاتلة في القوات اللبنانية منذ أن كانت في السابعة عشرة من العمر. إنها تحكي، في كتاب ـ حدث[8]، كيف ألقت السلاح على أثر طرد إيلي حبيقه من جانب سمير جعجع. «بدأت أطرح على نفسي أسئلة تفطر القلب. هل نحن نعمل من أجل قضية؟ ما هي هذه القضية؟ سمير جعجع استولى على الميليشيا المسيحية بواسطة العنف. ها هو الآن يمسك لوحده بالسياسة المسيحية. ابتدأ يقيم بنى تحتية لدولة في المناطق الشرقية. وباشر أيضاً إعادة النظر في تنظيم القوات اللبنانية، التي يقوم بعملية «تطهير» كبيرة في داخلها، مبعداً كل العناصر المشبوهة».

لم يكن هناك صراع بين القادة فقط. فقد أسفرت عملية التطهير التي قادها سيد القوات اللبنانية الجديد عن تفاقم الاعتقالات وزج

---

(7) من حديث مع المؤلف خلال ربيع 2008.

(8) ريجينا صنيفر، ألقيت السلاح ـ امرأة في حرب لبنان، منشورات أتولييه، 2006.

أشخاص في السجن واختفاء آخرين. كذلك سجلت حلقات جديدة دموية في سلسلة الحروب المتعاقبة بين المسيحيين، التي دشنتها مجزرة إهدن. ففي شباط/فبراير 1988، حكم بالاعدام على أربعة شبان كان يشتبه ببقائهم موالين لحبيقة، ونفذ حكم الاعدام علانية في جوار الضبيه بحضور الخوري يعقوب وكريم بقرادوني. هذه حالة من حالات كثيرة أخرى.

وجاء القانون رقم 84/ 91 الصادر بتاريخ 26 آب/أغسطس 1991 الذي تضمن عفواً عاماً عن الجرائم، باستثناء الجرائم المرتكبة ضد المسؤولين السياسيين أو الدينيين (المادة 3). يبدو أن المشترع يعطي، من وراء هذا التفريق، قيمة أعلى للرؤساء وينسى الضحايا العاديين، والمذابح الجماعية، والجرائم بحق الانسانية.

لا تزال المحامية مي الخنساء تواصل كفاحها ضد هذا التفريق، من أجل الحقيقة والعدالة، محاولة كشف الحقيقة عن الأولاد المفقودين من عائلة زينون، من جملة أولاد آخرين وعائلات أخرى، تواصل حتى الآن الكفاح إياه، مطالبة بمعرفة الحقيقة عن الفتيان الذين ماتوا غرقاً في الحوض الخامس في مرفأ بيروت.

لقد فتحت هذه الملفات أخيراً جدالاً يشترك فيه الجنرال ميشال عون بصورة صاخبة، فيقول: «يمثل كتاب ريجينا صنيفر ركيزة مفيدة تمكن الجيل الذي عانى من الحرب من أن يتكلم أخيراً. لن يكون هناك خروج ممكن من الأزمة مع التعمية على الماضي. إنَّ الاستماع إلى هؤلاء الرجال والنساء الذين كانوا يلوذون بالصمت حتى الآن هو السبيل الأضمن إلى بناء السلام ومستقبل لبنان. لقد عرف الجميع الاختطاف، والمجازر، والمدافن الجماعية، وقتل بعضهم غرقاً إبان الحرب، ودُمر الحوض الخامس مع الذين اختفوا فيه وضاعت جثثهم نهائياً في البحر. الذين اشتركوا في هذه

العمليات لا يزالون هنا اليوم... ألا فليتحلّوا بالشجاعة وينقّوا ضميرهم أمام ذوي الذين أنزلوا بهم تلك الفظائع، وليبوحوا بأسماء الأماكن التي دفنوهم فيها».

ويختم الجنرال كلامه قائلاً: «وإذا كان كتاب ريجينا صنيفر، الذي تقدّم فيه معلومات عن تلك التصفيات الجسدية، إذا كان الكتاب يشير إلى حزب ما، فهذا لا يعني عدم وجود مقابر جماعية في مناطق لبنانية أخرى»[9].

من مجزرة إهدن إلى الذين هلكوا في الحوض الخامس بميناء بيروت، لا يسعنا إلا الإشارة، مرة أخرى، إلى ممارسات «المعيارين والمكياليين» من جانب الأسرة الدولية، مقارنة لهذه الحالات من غياب العقاب مع الضجة المحيطة باغتيال بعض القادة السياسيين. إن اغتيال رئيس الوزراء السابق رفيق الحريري مثال رمزي على ذلك إذ إنه كان موضوع قرار لمجلس الأمن الدولي قضى بإنشاء لجنة تحقيق دولية، فيما أن كثيراً من العائلات اللبنانية أقامت دعاوى لا تتحرك. فكيف يمكن والحالة هذه تقييم نشاطية العدالة الدولية في حالة ما وعدم تحركها في حالة أخرى، بينما هي تقوم بواجبها حول أفعال مماثلة مرتكبة في أماكن أخرى، كيوغسلافيا السابقة، أو رواندا، أو سيراليون؟

لقد أعطى المحامي نزار صاغيه جواباً عن هذا السؤال: «هذه المحكمة تنظر في اغتيال زعيم سياسي وعدة شخصيات أخرى، لكنها لا تندرج في مشروع قضائي أوسع. أخشى أن تعزز طابع الحكم اللبناني المبالغ من قبل في ارتدائه جاذبية الزعيم، بدلاً من ترسيخ دولة القانون والمساواة بين المواطنين أمام القانون. إن

(9) من أحاديث مع المؤلف خلال تشرين الثاني/نوفمبر 2008.

زعماء الطوائف اللبنانية ـ المسيحية، والسنية، والدرزية، أو الشيعية ـ يستمدون شرعيتهم من ذواتهم لا من القوانين التي يعملون على سنّها، حائلين بذلك دون أية محاسبة ممكنة. أخشى أن تعزز الأسرة الدولية إحساساً بعدالة انتقائية. لقد ضغطت الأمم المتحدة لأجل فتح تحقيق حول اغتيال رفيق الحريري. لكن لماذا لا تضغط على الحكومة اللبنانية كي تستجيب للمطالب المتكررة من جانب عائلات «الذين فقدوا» في الحرب الأهلية؟ لماذا ليس لدينا خبراء دوليون من منظمة الأمم المتحدة يحققون في جرائم الحرب التي ارتكبتها إسرائيل في حرب صيف 2006؟ وما القول في قمة باريس الثالثة[10]، التي التأمت في كانون الثاني/يناير لكي تضع برنامجاً للاصلاحات ولإعادة بناء لبنان؟ ليس هناك سطر واحد يتعلق بورشة العدالة».

في هذا المناخ من انعدام القصاص وعدالة دولية ذات سرعتين، برزت قضيتنا مجدداً وبصورة فظة ليلة 17 ـ 18 أيلول/سبتمبر 2008. إن يوسف فرنجيه، الملقب: «أبو جو»، أحد الشهود الرئيسيين في مجزرة إهدن، قد اغتيل في قرية بصرما.

(10) إلتآم مؤتمر باريس الثالث في 25 كانون الثاني/يناير 2007.

الفصل الثامن عشر

اغتيال «أبو جو»، القناص

«ذاك النوع من استقلال القانون الطبيعي الذي ينشده، مع خشيته أن يرى المجتمع المدني تبتلعه الدولة، وتوقه إلى مباشرة تشكيل علاقات جديدة تجهل تملك الأشياء ـ لا يُستخلص من البيئة التاريخية أي شيء من كل هذا: وجد بابوف في راهنيته الخاصة حقل عمله (الذي أصبح العنف لاحقاً والذي دفعه إلى الميتة الجريئة التي نعرفها) وغايته الأصيلة».

جان دوفنيو، «اللامعيارية ـ هرطقة وتخريب». (1973).

إنّ غياب التحقيق القضائي في مجزرة إهدن هو شذوذ عن المعايير. وبما أن هذا الغياب هو مؤشّر على رجوع إلى الحالة البدائية وإلى سنّة الأقوى، فإنه يفسح في المجال أمام كل الأعمال البربرية. هكذا، في ليلة 17 ـ 18 أيلول/سبتمبر 2008، اغتيل يوسف الشاب فرنجيه الملقب: بـ«أبو جو» البالغ من العمر 59

سنة، على يد عناصر ينتمون إلى القوات اللبنانية في قرية بصرما الواقعة في منطقة الكورة.

يوسف فرنجيه متزوج وأب لابنتين وصبيين. ابنه البكر يدعى جو، ومن هنا جاءت كنيته «بأبو جو». كان هذا الأخير أحد كبار وجوه المقاومة لدى حصول مجزرة إهدن، وكان شاهداً ثميناً بالنسبة إليّ. وقد جعلت منه دقة ذكرياته، بالاضافة إلى اتصال مباشر ومرح، واحداً من الشخصيات المهمة في إنجاز هذا التحقيق. لقد جعلني أعيش بدوري تلك المقاومة، في الأماكن بالذات، ومع إعادة تركيب تفاصيلها، دونما تزويق ولا تجميل. كان أبو جو قناصاً كامناً في الطبقة الثالثة من مبنى يشرف على قصر طوني بك، وكان هو، بحسب الاحتمال الأكبر، من أصاب سمير جعجع بجرح خطير إبان هجوم الكتائبيين على القصر. قبل اغتياله بشهر واحد، كان قد أدلى بشهادته في البرنامج المتلفز[1] الذي خصص للذكرى الثلاثين للمجزرة، حيث ذكّر بظروف الهجوم وبظروف تصديه له.

كان أبو جو وأخواه حنا وسايد قد شاركوا في الخط الأول من معارك حرب السنتين (1975 ـ 1976) ضمن قوات المردة. قتل أخوه الأصغر حنا سنة 1976 حين أصابته قذيفة مدفع على جبهة طرابلس. بعد الحرب استأنف أبو جو عمله في كازينو لبنان. وغداة مجزرة إهدن وضع نفسه في تصرف المردة وبات مسؤولاً عن مكتب قرية بصرما حيث اغتيل فيما بعد. عاد مجدداً إلى الحياة المدنية في أعقاب اتفاقات الطائف وانتهاء الحرب وتسريح الميليشيات. بعد الانتخابات النيابية في حزيران/يونيو 2005

(1) قناة أو تي في، المجزرة والغفران، 13 حزيران/يونيو 2008 أنظر الفصل الأول: 13 حزيران/يونيو: قداس ـ اجتماع حاشد.

والعاصفة الجديدة التي هبت على لبنان، عاد إلى مركزه على رأس مكتب المردة في بصرما، الذي عمل على تنظيمه من جديد حول فريقه الحربي السابق الذي أعاد تشكيله: نحو خمسين من الرفاق من منطقة الكورة.

كان أبو جو في بنشعي، على مرتفعات زغرتا، إذ إنّ مجموعته كانت تطوعت ذلك اليوم لتأمين حراسة بيت سليمان فرنجيه. كان هذا من مخلفات مجزرة إهدن ومن قبيل الاحتياط في بيئة سياسية سريعة التقلب، لأنه لا بد من وجود حراسة ليلية للبيت وللطرق المؤدية إليه. أعلم أبو جو في ذلك اليوم بحصول حادثة بسيطة لكن تشتم منها رائحة استفزاز: وضع أنصار للقوات اللبنانية منشوراً انتخابياً قبالة مكتب المردة. جرى اتصال بجهاز أمن المردة لأجل تحاشي تطور الأمور. كما أعلمت بالأمر قوى الأمن الداخلي والجيش وجهاز المعلومات العامة.

وعلى الرغم من هذه التدابير الاحتياطية، كانت الحالة تتردى، إذ كانت مركبات القوات اللبنانية تعبر بسرعة كبيرة أمام مكتب المردة، مطلقة العنان لمنبهاتها، بالاضافة إلى توجيه شتائم وإشارات غير لائقة كانت تسهم في تصاعد التوتر الذي كان حاداً من قبل بسبب وضع المنشور الانتخابي. طلب أبو جو من معاونه الذي كان معه في بنشعي أن يذهب إلى بصرما ويحاول أن يهدىء الخواطر. لكن هذا لم ينفع، فذهب شخصياً إلى بصرما وهو على يقين من إقناع الجميع بالتعقل. غادر بيت سليمان فرنجيه بسيارته المرسيدس ومعه اثنان من رجاله. كان في مكتب بصرما خمسة أشخاص يؤمنون الدوام. أمر أبو جو لحظة وصوله بأن يبقى الجميع داخل المكتب وبأن لا يردوا على الاستفزازات: «أوامر سليمان بك صارمة. لا مبادرة طائشة. لنحتفظ برباطة جأشنا!».

قبل منتصف الليل بقليل، طلب أبو جو من سائقه من مرافقيه الاثنين أن يعودوا إلى بنشعي، وراح يمشي خطوات قليلة في الشارع الرئيسي إلى مسافة نحو خمسين متراً بعيداً عن مكتب المردة، لكي يبلغ أهل الحي بأن الهدوء قد عاد. في تلك اللحظة وصلت سيارتان تسيران في اتجاهه: سيارة جيب نيسان/أبريل على متنها أربعة رجال مسلحين كانوا في الواقع من الحرس الخاص لنائب الكورة المنتمي إلى القوات اللبنانية فريد حبيب، وسيارة أخرى لمحازبين قواتيين مسلحين هم أيضاً برشاشات كلاشنكوف وبنادق هجومية. انحرفت السيارة الأولى وتوقفت في عرض الطريق لتمنع أبا جو من التقدم. وتوقفت الثانية على مسافة قصيرة خلفها كما لو كانت تريد تأمين حماية للأولى. ترجل حراس النائب بسرعة من السيارة وكان بينهم ضابط في قوى الأمن الداخلي كلفته الحكومة اللبنانية بتأمين حمايته، شاهرين أسلحتهم. أحاطوا بأبي جو وراحوا يشتمونه. كان على بعد بضعة أمتار عدة عناصر من قوى الأمن الداخلي كانوا قد أرسلوا بهدف السهر على أمن الحي في أثر حادثة اللافتة التي حرّكت المشاعر. كان هؤلاء يعلمون بفضل خبرتهم المهنية أن الوضع مكهرب وقد يتدهور في كل لحظة، فلم يتحركوا. فجأة أطلق حراس النائب طلقتين، ولم يتدخل رجال الأمن الداخلي. كان أبو جو وحيداً أمام الرجال الأربعة، فشهر مسدسه من طراز «سميث ويسن» ليدافع عن نفسه، وأردى أحد المهاجمين قتيلاً وجرح اثنين آخرين. لم يتدخل رجال الأمن. كان على الأرض جثتان: واحدة «لأبو جو» وأخرى لشخص يدعى بيار إسحق. ترك رجال الدرك الجريحين من القوات اللبنانية يفران وهما إيلي حبيب من الكورة ومنصور طوق من بشري، والسيارة الثانية التي كانت تؤمن تغطية الأولى. «كان يجب

أن يكون أبو جو، الذي كان يسير في الشارع وحيداً وبلا نية قتالية، محمياً بقوة ميثاق الشرف»، يقول شقيقه. بالفعل إن هذا الميثاق غير المكتوب يقتضي أن لا يهاجم أبداً عدة أشخاص شخصاً وحيداً، تحت طائلة اعتبارهم أجبن الجبناء.

صباح 22 أيلول/سبتمبر، ألقي القبض على حارسي النائب وعلى شخص من المردة كان قد خرج من المكتب عندما سمع إطلاق النار لكي يساعد رئيسه. وفي اليوم التالي عقد سليمان فرنجيه ندوة صحفية اتهم فيها النائب فريد حبيب بتدبير اغتيال أبو جو. يبدو أن مسألة المنشور وغيرها من استفزازات القوات اللبنانية كانت مدبرة لأجل غاية واحدة هي حمل أبو جو على العودة إلى بصرما. بعد أن عرف سليمان فرنجيه بعدم تدخل قوى الأمن، إن لم يكن بضلوعها في المكيدة، طالب السلطات علانية: «نطلب أن يكون التحقيق الذي باشره الجيش والسلطات القضائية شريفاً وعادلاً وشفافاً. إذا توافرت هذه الشروط، نتعهد باحترام قراراتها أياً تكن (...). نطلب من الدولة، من أجهزة الدولة اللبنانية أن تسرع وتجيب عن أسئلتنا، ومن هذه: كيف يمكن لموظف في الدولة، كان موجوداً بين أفراد حرس خاص، ومكلفاً بحماية نائب لبناني، أن يتورط في اغتيال صديقنا يوسف؟ نطلب جواباً عن هذا السؤال وأن تتبع الجواب الاجراءات المقتضاة! نطالب بتدابير، لا ببلاغات! نطالب بكل الاجراءات التي يحق لنا أن ننتظرها من دولة القانون!».

بديهي أن قضية المنشور لم تكن بنت ساعتها ولا تشبه مجرد لصق منشور تسبب بمشكلة. لقد سأل الوزير السابق في ندوته الصحفية: «كيف يمكن، في الظروف الراهنة، أن تدع قيادة القوات

اللبنانية الحالة تتردى إلى هذا الحد؟ وما عساه يكون ردها لو أن المردة حاولوا فقط أن يلصقوا منشوراً صغيراً قبالة أحد مكاتبها؟ لكن خصوصاً، كيف كان يمكن لأبو جو، لرجل بمفرده، أن ينصب كميناً، حسبما قال أحد ممثلي القوات اللبنانية؟ لا ينصب أحد كميناً وهو غير مسلح إلا بمسدس، بل يفعل ذلك بالتعاون مع فريق وبحمل بنادق. أخيراً، وحول هذه النقطة أكثر من غيرها، ننتظر ما سيستخلصه التحقيق لكي نعرف مدى تورط الجيش وقوى الأمن اللبنانية. فهناك منذ الآن عدة عناصر محيِّرة تحمل على الظن بإمكان وجود ضلوع يخفي وراءه نية ما: يراد من تكرار الحوادث دفعنا إلى القتل، إلى إثبات وحشية دموية يُزعم أنها تعبر عن طبيعة إقطاعيين لا يكفون عن لصقها بنا كما بجميع أبناء الشمال!».

إنَّ بث برنامج أو-تي-في المخصص لمجزرة إهدن قد أحدث دوياً كبيراً في لبنان حيث كانت القناة التي أنشئت في تموز/يوليو 2007، قد حظيت بأكبر نسبة مشاهدة. ولقد ألقى هذا البرنامج الضوء على الشهود الذين اشتركوا في البرنامج وكان بينهم أبو جو الذي «روى ما حدث دون زيادة ولا نقصان» كما أكد أصدقاؤه. وسأل الوزير السابق أيضاً: «في حزيران/يونيو المنصرم، قال يوسف الشاب فرنجيه في تلفزيون أو-تي-في إنه ربما كان هو الذي جرح سمير جعجع يوم الهجوم على إهدن. يا لها من مصادفة أن يسقط هذا الشخص ضحية اغتيال بعد ذلك بشهرين! هل هي حقاً مصادفة؟ هل هي فعل متعمد أم مكيدة جديدة يراد منها بلبلة المشهد السياسي؟ حوادث بصرما دامت نحو ثلاث ساعات. لماذا كان أبو جو الشخص الوحيد الذي استهدف بأسلحة حربية؟ إن

النائب فريد حبيب يتحمل اليوم مع أفراد حرسه الشخصي كامل المسؤولية عما حدث. وليس من المقبول أن تتحول الحصانة النيابية، ولا الصلاحيات الخاصة ومنها صلاحية حفظ الأمن، وأن تستخدم لأجل تسوية حسابات شخصية».

هناك تفصيل ذو أهمية رئيسية. أظهرت المعاينات الأولية غير الرسمية التي أجراها المحققون أن الرصاصات التي قتلت «أبو جو» وعنصر القوات اللبنانية أطلقت من سلاح واحد: بندقية AK-47، أي كلاشنكوف. والحال أنه في تلك الليلة كان أعضاء القوات اللبنانية وحدهم يحملون هذا السلاح. كذلك وجدت رصاصات من النوع ذاته أيضاً على واجهة مكتب المردة، وعُثر في الجوار على أغماد رصاصات أطلقت من بندقية هجومية من طراز بنادق قوى الأمن الداخلي. الخلاصة الموقتة: إن ضابط قوى الأمن الداخلي المنتمي إلى مجموعة حرس النائب فريد حبيب قد استعمل سلاحه هو أيضاً.

يصف فاسيليس فاسيليكوس في فيلمه (Z) عدم فهم الصحافي الذي كان يبحث عن الحقيقة: «كان التحقيق آنذاك يشق طريقه على غرار كاسحة جليد، وسط اللامبالاة العامة. ذلك أنه، فيما خلا أولئك الذين وقفوا إلى جانب النائب الذي اغتيل، كان الآخرون لا يقفون موقف لامبالاة فقط، بل كانوا أيضاً يبدون عداءً واضحاً (...). كان يرى، مع قدوم الليل، أناساً في مثل سنّه على سطيحة دو ـ ريه أو مقاهٍ أخرى ـ أطباء، محامين، تجاراً، صيارفه، ممثلي شركات، في مقتبل العمر ـ يقطبون وجوههم حال التطرق إلى القضية (...)، فقد كان Z (اغتياله: نقولها بوضوح أكثر) هو الجرح، هو اللطخة على السماط الأبيض. الحل لم يكن

تنظيف اللطخة بل حجبها بوضع صحن أو كوب، أو شوكة فوقها؛ فالمهم كان عدم ظهورها وعدم رؤية سيدة الدار لها بابتسامة تنم عن اتهام صامت. هكذا بمثل هذه البساطة»[2].

لقد برزت من جديد الأسئلة إياها، والصمت إياه، والضيق إياه، التي أحاطت بقضية إهدن.

كيف يمكن، في هذا الجو العكر، تقييم دعوات سمير جعجع المتكررة إلى المصالحة غداة اغتيال أبو جو؟ بعد ذلك ذهب وفد من الرابطة المارونية إلى بنشعي في محاولة توسط بين المردة والقوات اللبنانية. لكن هذا المسعى لم يصل إلى نتيجة. «لقد دعوا إلى مصالحة أرادوا من ورائها أن ينسجوا مكيدة انتخابية ضد الجنرال عون. نحن ما زلنا نحبذ إجراء مصالحة، لكن بعد التحقيق القضائي ونشر نتائجه»، قال سليمان فرنجيه. «فلتقم السلطات القضائية بدورها كاملاً، وحينها نقوم نحن أيضاً بدورنا. لو أن بكركي أدت دورها قبل خمس سنوات، لو أن غبطة البطريرك قام بما يلزم، لما وصلنا إلى ما نحن عليه اليوم!»[3].

أقيم مأتم أبو جو في إهدن، يوم 18 أيلول/سبتمبر 2008. كانت الوجوه إياها، والجو إياه، لكأن التاريخ كان يكرر نفسه؛ نقل الجثمان عند الساعة الثامنة بالضبط من مركز الشمال الاستشفائي، وبعد توقف الموكب عدة مرات في القرى المجاورة، وصل حوالى الساعة العاشرة إلى باحة كنيسة مار جرجس في إهدن. كانت هناك صورة عملاقة للشهيد تغطي أحد المباني، وكان الأهالي يرشون الأرز وورق الورد على النعش الملفوف براية المردة

(2) فاسيليس فاسيليكوس، Z، منشورات غاليمار 1967.

(3) أنظر الفصل العشرين: المصالحة العسيرة.

والمرفوع فوق سواعد حشد متراص. لقد علت زلاغيط النساء والهتافات، وكان في العيون تحد لحرس قوى الأمن الداخلي المنتشرين على طول المسافة.

بعد إدخال الجثمان إلى الكنيسة، تحلقت حوله النساء الباكيات وكان في الصف الأول كوكب، العذراء السوداء لشهداء إهدن[4]. كانت أنطوانيت أيضاً هناك. النسوة رحْنَ يلمسن النعش، ويقبّلنه، وينحنين عليه نائحات، كما فعلن قبل ثلاثين سنة على نعوش طوني وفيرا وجيهان، وعلى النعوش الثلاثين للمجزرة. في الخارج كان رجال مسلحون يطلقون رشقات من الرصاص في الهواء. السلطان سليم، حارس الذاكرة، كان يقوم بدور رئيس التشريفات. وكان الأبوان يمين واسطفان يقومان بصلاة الجناز؛ وشارك جميع شهود تحقيقنا، من أمهات وزوجات ومقاومين، في مأتم أبو جو، الضحية الثانية والثلاثين لمجزرة إهدن.

تقاطرت إلى زغرتا وإهدن وفود سائر قرى الشمال ومناطق البلاد الأخرى، لتقديم التعازي، كما جرى قبل ثلاثين سنة؛ ففي مناسبة الحداد تجمّع أهل الشمال حول معتقداتهم وحول زعيمهم مرّة أخرى. تذكّر كثير منهم الفتى سليمان ابن الثالثة عشرة الذي كان جده، رئيس لبنان السابق، يمسك بيده. واليوم أمسى سليمان بك «الناجي بأعجوبة»، الذي يتقدم الموكب بدوره، هو الوارث الجديد.

(4) أنظر الفصل الثامن: كوكب، عذراء الشهداء السوداء.

الفصل التاسع عشر

سليمان بك، الوارث الجديد

«يكون الغفران آنذاك على التقاطع بين هاتين العلاقتين، علاقة الإسراف في الانفاق وعلاقة التعادل في التبادل. لكن لا يغربن عن بالنا أن الغفران ليس أولاً ما نعطيه بل أولاً ما نطلبه، وما نطلبه من الضحية. وفي مثل هذا الطلب يوجد بند سري، هو أننا قادرون أن نقول لا. كما أن قبول الاجابة السلبية على طلب الغفران هو أيضاً جزء من الحلم. سأحسن الانتظار. لكن، صدقوني، إن الغفران لا يلغي العدالة».

بول ريكور، «حول الغفران» (4 تموز/يوليو 2003).

ودّع الفتى سليمان فرنجيه (13 سنة) والديه وأخته الصغيرة جيهان فجر يوم الاثنين 12 حزيران/يونيو 1978، عائداً إلى بيروت في سيارة عهد إليها القصر بنقله إلى المدرسة الداخلية قبل استئناف الدروس صباح الاثنين. ولو أنه بقي في إهدن لكان لقي حتفه مع عائلته. إنه لا يزال حتى اليوم يعطي انطباعاً بأنه نجا بمعجزة، لكن

دون أن يتبنى هذا الانطباع، على نحو قوي وهادىء. لكنه يبقى مع ذلك تجسيد المأساة بالذات.

استقبلني زعيم المردة في داره في بنشعي، في أعالي زغرتا. بعد أن نخرج من الطريق الرئيسية التي تصعد إلى إهدن، ندور إلى اليسار ثم ننحدر إلى واد صغير تكسوه الخضرة. لقد غرس الزعيم هنا آلاف الأشجار، وقام بأقلمة خنازير برية، ويحامير، أي أيائل، وظباء، انتشرت في هذا الجزء من جبال قاديشا. بعد اجتياز حاجزين يحرسهما رجال مسلحون، نصل إلى بوابة كبيرة تنفتح على دارة ريفية كبيرة مبنية بالحجر والخشب إذ يخال المرء أنه فوق شامونيكس أو سيير، أو كورمايور في سويسرا. استقبلني سيد الدار شخصياً، ببساطة بعيدة عن ضغط البروتوكول العزيز على السياسيين اللبنانيين: كان يرتدي سروال جينز، وكنزة، وحذاءً خفيفاً.

«بالرغم من سقوط عدد كبير إبان الحروب من الشهداء الذين تقاتلوا على لبنان، تبقى قصة إهدن، بعد مرور ثلاثين سنة عليها، جرحاً غير مندمل. لم تحصل مصالحة حقيقية حتى اليوم»، قال لي سليمان فرنجيه[1].

أضاف: «اعتُبرت تلك المأساة مجرد حادثة عادية، عثرة طريق في الحقبة الممتدة من حرب السنتين إلى مجازر صبرا وشاتيلا. بعد دخول سمير جعجع السجن، اعتبر الرأي العام اللبناني أن القضية سويت ودفنت، أسوة بقضايا أخرى.

إنَّ خروجه من السجن لم يغير شيئاً من هذه التسوية الضبابية والملتبسة. فإذا كانت المسؤولية الجماعية، تلاشت مع مرور الزمن، فالمسؤولية الفردية للفاعل الرئيسي تبقى موجودة بالكامل.

(1) من حديث مع المؤلف في أول شباط/فبراير 2009.

إنه لم يشعر قط... لا أقول بأنه مذنب، بل بأنه مسؤول. إن سمير جعجع، في الخطاب الذي ألقاه في عيد القوات اللبنانية هذه السنة، قد برر المجزرة حتى، كما برر كل ما جرى، باسم المصلحة الوطنية. هذا التبرير للذات بالذات أمر يصعب تحمله، وهو يحول دون القيام بقراءة حقيقية قد تسمح بفهم القضية، بفهم ملابساتها على الأقل، ومن ثم بتجاوز الكراهية والأحقاد المتراكمة منذ سنين طويلة. كما يبرىء القتلة ومنطقهم، اليوم أيضاً، لأنهم لم يقوموا بأية مراجعة نقدية لما فعلوا، بأية إعادة نظر. وعليه، فإن الخشية المشروعة التي قد نشعر بها هي من أن يتكرر كل هذا يوماً ما. ولأجل تدارك ذلك، سيكون من الواجب إجراء مصالحة سياسية حقيقية.

ـ ما هي الشروط الواجب توافرها لمباشرة هذه المصالحة السياسية؟

ـ على صعيد شخصي، كان للحداد فعله مع الزمن. نحن اليوم ضميرياً مرتاحون مع ذاتنا. على الصعيد السياسي، هذا أمر آخر. نحن لم نغفر، لأن المصالحة عرضت علينا على أسس مصطنعة، مع غياب أي إقرار بالمسؤولية، ولضرورات واقعية سياسية وأجندة انتخابية. يجب أن يتوحد المسيحيون، أجل! هذا مشروع جميل، لكن على أي أساس، ولأي سبب؟ إذا كانت الغاية مجرد جمع صفوف الطائفة لأجل خدمة طموح شخصي، كمقدمة لاستيلاء دموي جديد على الحكم، فهذا عبث إطلاقاً. الرؤية المسيحية ليست هنا، ومثل هذا المنظور لا يتفق مع أية قيمة من القيم التي نتشاطرها، قيم الحرية واحترام الغير. المصالحة السياسية يجب أن تتوافق مع برنامج سياسي جدي يأخذ في الحسبان مشاكل اللبنانيين الحقيقية والحسية، لا مشاكل المسيحيين وحدهم، وبتعبير آخر،

يعيد النظر في علاقات هؤلاء المسيحيين أنفسهم مع سائر اللبنانيين.

ـ حين وقَّع الجنرال ميشال عون اتفاق التفاهم مع حزب الله[2]، كسر شيئاً محرماً. وحين زار دمشق[3]. كسر شيئاً محرماً آخر. وحين تكلم باسم العرب المسيحيين في كل المنطقة، ذهب إلى أبعد من ذلك أيضاً، فخرج من الاطار اللبناني الصرف ليبعث بثلاث رسائل: العرب المسيحيون ليسوا الضحايا الصامتة لـ «صدام الحضارات» الذي يبدو اليوم بوضوح على أنه مشروع يرمي إلى وضعهم في موضع مجابهة مع المسلمين؛ فإذا ما أكرهوا على الرحيل عن أرضهم الأصلية فيكون ذلك، بالدرجة الأولى، من جراء السياسة التي تسلكها الدول الكبرى وفي طليعتها الولايات المتحدة وإسرائيل؛ إن العرب المسيحيين متمسكون بالبقاء في ديارهم وبعدم التلاعب بهم كمسيحيين!

ـ الأمر، بالنسبة إلى العرب المسيحيين، ليس فقط رفض الحروب الداخلية والخارجية التي تفرض عليهم بوصفهم أعضاء في معسكر واحد، محدد مسبقاً بواقع كونهم مسيحيين. وإنما عليهم أن يتصرفوا وهم متفقون على الجوهر، على الأسس العميقة لمصالحة حقيقية ومديدة، تقدم المواطنية اللبنانية على الانتماء الطائفي. كان ينبغي للبطريرك ولرئيس الجمهورية أن يكونا مهندسي هذه المصالحة، تاركين جانباً وضعهما الشخصي ومشاريعهما.

ـ كيف يمكن تصور انتماء إلى طائفة مسيحية وإلى مواطنية لبنانية في آن؟

---

(2) بيروت في 6 شباط/فبراير 2006.

(3) كانون الأول/ديسمبر 2008.

ـ أولاً، بنبذ تقسيم الطائفة وتقسيم لبنان إلى أخيار وأشرار. فيما مضى، وهذا هو السبب العميق لمجزرة إهدن، كان كل الذين لا يتفقون مع بشير الجميل، مع عائلة الجميل، مع حزب الكتائب، وفيما بعد مع القوات اللنبانية، يعتبرون خونة للطائفة المسيحية. كان يمكن أن يرموا عليهم بالحرم! واليوم لم تضمحل هذه الذهنية تماماً، وإن كانت قد تهمشت أو هي في طريقها إلى التهميش. فالايديولوجيا السائدة ما زالت تعيد إنتاج الوهم القائل بالتعارض، من حيث الطبيعة، بين مسيحيي الشمال والجنوب ومسيحيي جبل لبنان. يعتبروننا موالين للسوريين دون أي شيء غير ذلك. في مواجهة معسكر موال للأميركيين دون أي شيء آخر أيضاً. هذه اللعنة على العرب المسيحيين، هذه الماكنة الجهنمية، طحنت خلال الأربعين سنة الأخيرة من الناس الأبرياء ما يكفي للكف عن تشحيم تروسها. الوصول إلى المواطنية يبتدىء بتناسي الذات، والأصول، وبالتيقن من مشاطرة الآخرين انتماءً واحداً: هذا هو أساس عقد اجتماعي مع اللبنانيين الآخرين. بعدها نكون أحراراً إذا شئنا الرجوع إلى ما نحن، بطريقة هادئة، خالية من ارتكاسات وجوب أن نكون كذا أو كذا... إعادة الوحدة الوطنية اللبنانية تمر عبر مصالحة لا تكون غايتها تذليل كل الصعوبات السياسية، لحسن الطالع. فأن تكون مسيحياً لا ينحصر في انضمامك إلى هذه الايديولوجيا السياسية أو تلك. أن تكون مسيحياً لا يعني حتماً أن تكون حليفاً لإسرائيل. وقولنا إننا لا نتفق مع الأميركيين، أو الاسرائيليين أو السعوديين لا يجعل منا مسيحيين أشراراً ينبغي حرمهم!

لم يعدل بعض المسؤولين اللبنانيين اليوم عن استخدام الموارنة كأدوات وفقاً لأجندات مقررة في مكان آخر لا في لبنان ويجري

تفعيلها بواسطة أناس غير لبنانيين. وعلى عكس ذلك، فالمطلوب هو إعلان انتمائنا إلى محيطنا الوطني، الذي يدخل هو نفسه بالكامل في محيط العالم العربي. نحن عرب مسيحيون.

غير أن اللعنة القديمة لم تمت: إذا نظرت إلى حملة الملصقات الأخيرة للقوات اللبنانية، فإنك سترى فيها صورة رئيس الحزب وإلى جانبه صورة يسوع الملك ومريم العذراء. أما الشعار فإنه مذهل: «هذا خطنا الأحمر». كيف يمكن تملك المسيح ـ الملك والقديسة العذراء لأغراض انتخابية؟ أما خطنا الأحمر نحن، فهو لبنان. هذا ما نقوله للبنانيين، كل اللبنانيين. وأنا واثق من أنك متى كنت صريحاً مع الناس، فإنهم يشعرون بالثقة ويقفون إلى جانبك».

يتحدث سليمان فرنجيه دون كثير من الهوى لكن بتصميم. عند الاستماع إليه، والعودة بالفكر إلى مجزرة إهدن التي جمعت بشأنها الكثير من الشهادات والتي ما برحت تراود مخيلة لبنان، خطرت ببالي صورة أوريست الذي وضع حداً لأنهر الدماء التي تسفكها الآلهة والبشر مدى الـ «أوريستي»، إذ اخترع القانون الانساني والغفران. أثينا، إلهة العقل الفتية، مقابل أبولون، إله هوربيس العتيق.

ولد أوريستي اللبناني هذا في 18 تشرين الأول/أكتوبر 1965 في زغرتا. وتزوج ريما قرقفي سنة 2003 وهي مذيعة سابقة في قناة الـ-بي-سي التلفزيونية اللبنانية، أنجبت له ابنة تحمل اسم فيرا وهي الآن في الثانية من العمر. وله من زواج سابق صبيان يحملان اسم باسل (17 سنة) وطوني (21 سنة). باشر عمله في السياسة باكراً إذ إنه أصبح زعيم المردة في السابعة عشرة من العمر. بعد

اتفاقات الطائف سنة 1989 وحل الميليشيات، تحولت ميليشا المردة إلى حزب سياسي. وكان، أسوة بوالده، أصغر النواب سناً في البرلمان اللبناني سنة 1991. أعيد انتخابه سنة 1992، و1996، و2000. كان بين سنتي 1990 و1992 وزير دولة في حكومة عمر كرامي. وظل حتى سنة 2005 يواصل مسيرته الوزارية هذه من خلال سبعة مناصب وزارية متعاقبة تنقل فيها بين وزارة الصحة العامة، ووزارة الزراعة، انتهاء بوزارة الداخلية والبلديات (2004 ـ 2005). إن تجذره الجبلي الذي يتمسك به كي يحسن تأكيد طموحاته الوطنية، هو الخيط الأحمر في الخطاب التأسيسي الذي ألقاه يوم 11 حزيران/يونيو 2006 بمناسبة الاعلان الرسمي لسياسة تيار المردة.

عشية حرب إسرائيلية جديدة أودت بحياة نحو 1300 ضحية من المدنيين اللبنانيين ودمرت البنى التحتية للبلاد بغية «إعادتها إلى العصر الحجري بحسب قول رئيس الوزراء إيهود باراك، استعار سليمان فرنجيه نبرة دانتون إذ قال: «ساعة تُتهم وجوهنا الكبيرة بتجسيد التفرقة فيما يبقى مدّعو الوطنية مؤيدين للطائفية، وساعة تغدو العروبة جريمة وادعاء الوطنية تعاوناً مع البلدان التي تبغي هلاكنا، فإننا نتمسك بقناعاتنا القلبية والعقلية. إننا، إلى تجذرنا في أرضنا، وشغفنا الدائم بالحرية، ندعو إلى انفتاح على الآخرين وعلى العالم كي نحدد ونصون مستقبلنا الوطني على نحو أفضل».

بالعودة إلى مجزرة إهدن وسائر جراح الماضي، أعاد الوزير تأكيد مفهومه السياسي لـ «المسيحيين المتوحدين والمتمسكين بثوابتهم التاريخية، لكن في وطنهم، لأن الدم الذي أهرق يجب بعد الآن أن يجمع لا أن يثابر على التفريق».

ثم أكد مجدداً تمسكه وتمسك حزبه السياسي بـ «لبنان غني بتنوعه الطائفي، الذي لا يمكن أن يكون إلا بمجموع هذه الطوائف بالذات، دون استبعاد أي منها!».

استناداً إلى هاتين الركيزتين، التاريخ والتعدد الطائفي، يدافع سليمان فرنجيه عن مبدأ قيام بلد مبني على مفهوم وطني يرتكز على «الديموقراطية التوافقية، والمواطنية، والعلمنة، ودولة القانون». الديموقراطية التوافقية بالاستناد إلى الطريقة اللبنانية تعني التأكيد صراحة، كما يوضح سليمان فرنجية «على إرادة اللبنانيين المتمسكين بعيش مشترك يمنع كل نوع من أنواع سيطرة طائفة على أخرى، وهذا شرط لا بد منه للاستقرار المطلوب من أجل قيام دولة وطنية حقيقية لا يزال يؤجل».

في معرض دعوته إلى وضع قانون انتخابي عادل ودائم، يعرض سليمان فرنجيه مجموعة من الأهداف ذات صفة برنامجية، بدءاً من التعليم ومكافحة الأمية. تستند هذه الأولوية إلى «المدارس الرسمية، وتعزيز الجامعة اللبنانية وتوفير التعليم للجميع». الأولوية الثانية ـ ابن الشمال يتحدث هنا ـ تتعلق بالقطاعين الزراعي والصناعي، مع «بذل جهد خاص لأجل المناطق الريفية اللبنانية وصناعات المواد الغذائية الزراعية، خصوصاً من خلال التعاونيات». الأولوية الثالثة ـ عند ابن الجبل أيضاً ـ هي احترام البيئة وحمايتها، وحماية ثروات لبنان الطبيعية: الماء، عالم الحيوان، عالم النبات. تأتي بعد ذلك ملفات الصحة العامة، وضمان الشيخوخة، والمساواة بين الرجال والنساء، والروابط مع اللبنانيين المغتربين.

هذا الخطاب يفاجيء السامع، لأنه يتطرق إلى مواضيع نادراً ما تتحدث عنها الطبقة السياسية اللبنانية بهذه الطريقة، وهي التي «تميل

في الغالب إلى التجريد وإلى استراتيجياتها الخاصة بها فقط»، كما يعترف الخبير كريم بقرادوني[4].

في باريس، قال لي رئيس جهاز استخبارات القوات اللبنانية السابق: «سليمان فرنجيه هو الوارث الجديد، بأشكال ثلاثة: لأنه يواصل العمل بتقليده العائلي؛ لأن زعماء الشمال ينتجون رؤساء للبنان بانتظام؛ لأنه يسير في خط الجنرال عون، الذي يجسد بعزيمة ثابتة جيلاً مسيحياً وطنياً صاعداً. يجب أن تدخل في حسابك أيضاً الوجه الجيلي الذي يجعل أمراء الحرب السابقين، ينفذون من كوة تاريخ يجب أن لا يتكرر. لن يمر هذا دون صعوبات بالتأكيد، لكن هذا التيار المسيحي الجديد سيكون الغالب في النهاية، وسترى أن الزعماء المسيحيين سيلتحقون بفرنجيه الشاب الواحد تلو الآخر!».

بانتظار ذلك اليوم، صرح سليمان فرنجيه بتاريخ 23 كانون الثاني/يناير 2008، على قناة المنار، التلفزيونية التابعة لحزب الله قائلاً: «الغفران الحقيقي الآتي من القلب لا يأتي تبعاً لاستحقاقات انتخابية. لن يكون هناك من مصالحة سياسية قبل الانتخابات!».

---

(4) من حديث مع المؤلف في 15 كانون الثاني/يناير 2009.

الفصل العشرون

المصالحة العسيرة

«نام الخوري قليلاً تلك الليلة. اليومان العبثيان اللذان قضاهما على ظهر بغلته أثخنا جسده بالأوجاع دون أن يخففا من همومه.

قال للخورية: مع هذه البغلة نعرف على الأقل إلى أين تمضي، وأنه لا يخطر في بالها أن تسير جادة نحو الهاوية. هذا بينما أن هذا الشيخ وهذا البطريرك يحملان كل المسيحيين على ظهريهما ويجريان لكي يتناطحا كتيسين».

أمين معلوف، «صخرة طانيوس» (1996).

استتبع اغتيال رئيس الوزراء الأسبق رفيق الحريري اتخاذ الأمم المتحدة القرار 1559 وتأليف لجنة تحقيق دولية. تألفت هذه اللجنة برئاسة القاضي الألماني ديتليف ميليس واتهمت بصورة أحادية السلطات السورية بتدبير الاغتيال. لقد تم بلوغ الهدف السياسي المطلوب حتى لو تراجع الشهود الأكثر أهمية لدى القاضي ميليس عن أقوالهم أو اختفى أثرهم. بعد ذلك أجبرت الضغوط الدولية

الجيش السوري على مباشرة انسحابه من لبنان، الذي اكتمل في نيسان/أبريل 2005.

وفي 20 حزيران/يونيو أعلنت النتيجة الرسمية للانتخابات النيابية: نال الائتلاف المعادي لسوريا بزعامة سعد الحريري نجل رئيس الوزراء الأسبق 72 مقعداً من 128 مقعداً، مقابل 35 مقعداً لتحالف أمل ـ حزب الله، و21 مقعداً لفريق الجنرال ميشال عون. وأقرت الأكثرية البرلمانية التي تضم في صفوفها النائبة ستريدا جعجع، زوجة سمير، قانوناً للعفو عن قائد القوات اللبنانية السابق، كما أطلق سراح عدة عشرات من الناشطين السلفيين[1] الذين كانوا قد جابهوا الجيش اللبناني خلال كانون الأول/ديسمبر 1999 في الضنية. جرى التصويت على هذا العفو قبل أن تتألف الحكومة الجديدة، بناء على طلب صريح من السفير الأميركي، جيفري فيلتمان، الذي تصرف، هذه المرة مجدداً، تصرف حاكم منشغل بالأجندة الاقليمية الأميركية أكثر من انشغاله بمصلحة لبنان.

أطلق سراح سمير جعجع بتاريخ 26 تموز/يوليو 2005. وأثناء سفره إلى فرنسا لأجل الراحة وإجراء فحوص طبية، اتصل به سليمان فرنجيه هاتفياً لإظهار أول إشارة للمصالحة. رفض سمير جعجع أن يرد. يجزم المحامي السابق عن قائد القوات اللبنانية بأن هذا الأخير ليس مسؤولاً عن ذلك الرفض ويعزوه إلى أحد المقربين منه، بيار ضاهر، «ابن الشمال الذي لم يتحمل هيمنة آل فرنجيه قط». هناك شهود آخرون يؤكدون العكس، وهم يجزمون بأنّ بيار

(1) وجدت قوى الأمن اللبنانية في وجهها من جديد قسماً من هؤلاء الناشطين أنفسهم في المعارك التي شهدها مخيم نهر البارد مع المجموعات السلفية التي كانت متحصنة فيه، في أيلول/سبتمبر 2007.

ضاهر وسليمان فرنجيه متفاهمان جداً، وأن سمير جعجع بالذات هو من لم يتنازل ويرد على المكالمة. بعد عودته في الخريف استقر سمير جعجع في دارة في غابة الأرز، وجاهر بأنه أحد كبار قادة ائتلاف 14 آذار/مارس إلى جانب سعد الحريري ووليد جنبلاط. من ناحيته تحالف سليمان فرنجيه وأهل الشمال مع الجنرال عون، الذي كان يعد اتفاقه مع حزب الله الشيعي. وهكذا تكوّن العمود الفقري للمعارضة، وظلت المصالحة بين المسيحيين مؤجلة.

العقدة المارونية اشتدت حتى تراجع وضع مسيحيي لبنان عما كان عليه في ربيع 1978، في أعقاب انفجار الجبهة اللبنانية، وراح يميل حتى إلى التقهقر. إنّ النزاعات بين المسيحيين كانت على الأخص نزاعات بين الموارنة وإن تورطت فيها طوائف أخرى. وهكذا راحت هذه النزعة السائدة تفرض قانونها الخبيث. كتبت ريجينا صنيفر في ختام كتابها «حروب الموارنة 1975 ـ 1990» ما يلي: «إذا كانت الكتائب تجسد المارونية السياسية، فإن القوات اللبنانية، في إطار الحرب، مثلت المارونية العسكرية». وإذا كان قد تحقق إفراغ جزئي للترسانات، فإن نزع عسكرة النفوس لم يباشر بوضوح، على الرغم من كونه شرطاً لازماً لحلحلة العقدة اللبنانية.

فالمرجعيات السياسية الراهنة عند مسيحيي لبنان لا تزال خاضعة لهذه البنية الفوقية العسكرية، كما للإرث الثقيل لأمراء حربها، هذا الارث الذي ينقسم إلى مراحل ثلاث: الأولى (1975 ـ 1977) التي أرادت فيها الكتائب، وحزب الوطنيين الأحرار، والمردة، أن تحل محل الدولة؛ الثانية (1978 ـ 1982) التي شهدت تقاتل الميليشيات من أجل السيطرة على الدولة؛ الثالثة (1982 ـ 1990) وهي الذروة، يوم حاولت الميليشيات إلغاء الدولة. وتخلص ريجينا صنيفر إلى القول: «في آخر الأمر، فرض لبنان العشائر نفسه. لبنان

الطوائف ضد لبنان المواطنين. هكذا، في هذه الطائفة المسيحية، تغلب العنف كنمط لتسوية الخلافات، على التقليد الديموقراطي ذي اللون الغربي الذي طالما حمل الموارنة لواءه. خلافاً للروم الأورثوذكس أو الروم الكاثوليك الذين يحسون بأنهم عرب ولم يؤلفوا ميليشيات قط، لم يشأ الموارنة أن يمتزجوا بمحيطهم، وحاولوا أن يبسطوا سيطرة مسيحية، قليلة الواقعية في ظل أوضاع الشرق الأوسط، بينما عجزوا حتى عن التفاهم فيما بينهم»[2].

إن عدم التفاهم المسيحي هذا، الذي لا يزال أحد العوائق الرئيسية في طريق سياسة اقتصادية، واجتماعية، ودفاعية، وأمنية، مشتركة، تجلى مجدداً من خلال مواجهة بصرما في أيلول/سبتمبر 2008[3]، التي كانت وراء خطاب غفران سمير جعجع، الذي أثار حالات سوء فهم جديدة، ومزايدات، ومواعيد ضائعة، بدلاً من أن يفتح مجالاً للنقاش باتجاه المصالحة الحقيقية التي يأملها سليمان فرنجيه.

في ندوة صحفية عقدها غداة تلك «اليد المزيفة الممدودة» بحسب تعبير المردة، أعلن سليمان فرنجيه عدم وجود أي شك في أن تلك الاعتذارات لم تكن سوى «خدع ومجرد مناورات أعدت لإطلاق الحملة الانتخابية» الموجهة ضده وضد الجنرال عون. فإذا كان سمير جعجع يقر بارتكابه أخطاءً رهيبة فيما مضى فإنه يسارع إلى تبريرها باسم الواجب الوطني، مستعيداً هكذا «الخطاب الذي كان له قبل ثلاثين سنة، وهو خطاب يعيد تنشيط سياسة مقارعة العدو المتجسد اليوم في حزب الله وتيار الجنرال عون»، يقول

(2) ريجينا صنيفر، حروب الموارنة 1975 ـ 1990، منشورات لارماتان، 1995.

(3) أنظر الفصل الثامن عشر: اغتيال «أبو جو» القناص.

سليمان فرنجيه متأسفاً. قال سمير جعجع، طالباً الصفح من السماء، لا من الضحايا على هذه الأرض: «أطلب من أولئك الذين يستغلون أخطاءنا أن يكفوا عن ذلك، لأن الله وحده يستطيع أن يحاكمنا». وخلص إلى القول: «أعلم أن الشعب اللبناني سيفرح بحصول مصالحة وبالوحدة المستعادة. إن هدفنا هو التوحد، لكن على أي شيء؟».

لهذا السؤال رنين تكرار للأشياء لا يلين، على غرار أجراس «أحد الحياة» لريمون كونو. في ختام الحديث الذي كان بعد بضعة أيام على «المصالحة الزائفة» قد دار بيني وبين جوني عبده، أحد رؤساء جهاز المخابرات العسكرية السابقين في الجيش اللبناني، قال لي هذا إن «لعنة المسيحيين طويلة العمر لأنها قدرهم». لكن حيال عدم تصديقي لهذا القدر الذي ربما كان مكتوباً، فإنه سرعان ما تراجع قائلاً: «سيعرف هذا القدر ساعة الحقيقة بمناسبة الانتخابات التشريعية في حزيران/يونيو 2009» وأضاف: «لم ينتج المسيحيون أي جديد منذ 1975، وعادوا إلى خط جعجع ـ الجميل. القدر المسيحي هو سلسلة من عمليات تدمير الذات. إنها لعنة نظام يعطي الرئاسة وقيادة الجيش للمسيحيين. لكن المسيحيين اليوم متعبون وطموحهم الوحيد هو البقاء. فهل يجب تغيير النظام؟ يجب نزع مركزيته إلى الحد الأقصى. هذه هي الورشة التي يجب أن تعمل عليها الأكثرية النيابية التي ستخرج من صناديق الاقتراع. وعملاً بهذا الشرط، سيصل مسيحيو لبنان ربما إلى المصالحة. وعلى هذا الاستحقاق الانتخابي يتوقف بالتأكيد حل المعادلة التي ما برحت تفرض على بلادنا وساوس داخلية وتدخلات خارجية».

فتح الورشة قد ابتدأ. وتقدمها يتوقف على البطريرك وعلى رئيس الجمهورية كما يكرر القول أمين معلوف. لقد قام الجنرال عون

بزيارات كثيرة إلى الأول وكذلك إلى الثاني. ومن جهته زار سليمان فرنجيه البطريرك صفير، الذي حمى سمير جعجع دائماً، لكي يبلغه مجدداً شروط مصالحة حقيقية. وفي 17 حزيران/يونيو 2008، جمع الرئيس ميشال سليمان في قصر بعبدا جميع رؤساء الطوائف الدينية، قبيل انعقاد قمة روحية اعتبرت منطلقاً لورشة مصالحة وطنية واسعة وحوار بين جميع الأطراف. لقد أعرب الرئيس أمام المجتمعين عن الأمل بأن تكون هذه القمة «مرحلة تؤسس لمصالحة أوسع بين اللبنانيين، بغية مواصلة الحوار» وأكد عزمه على توطيد «جو التفاهم واحترام حقوق الانسان في لبنان، وكذلك احترام الأفراد والمجموعات صوناً لتنوع وثراء المجتمع اللبناني»[4].

وبوشرت مساع أكثر تكتماً لأجل حل العقدة المارونية وإزالة عسكرة القلوب والنفوس. واعترف ممثلون للمعسكرين المسيحيين طلبوا إغفال أسمائهم بأن «تناقضاتنا وخلافاتنا السياسية تمثل جدلياً فرصة خارقة لأجل المستقبل السياسي، لأنها بالضبط تظهر داخل طائفة بذاتها، ناقلة بذلك خط الصدع القديم القائم تاريخياً بين المسلمين والمسيحيين من مكانه ومتعالية عليه».

إن هذه التناقضات السياسية بين الطوائف تحمل بالفعل بذرة إمكانية إلغاء للطائفية، إن لم يكن علمنة مستقبلية للحياة السياسية. بهذا الشرط، قد يتمكن المسيحيون من استعادة وظيفتهم كشهود وهيئة تحكيمية في الشرق الأدنى المعقد. وبهذا الشرط قد يتمكنون من اكتساب مواطنية قادرة أن تخلص العرب المسيحيين من لعنتهم القديمة. على أنه لا بد من أن تتمكن هذه التناقضات من البقاء

(4) لوريان ـ لوجور، في 18 حزيران/يونيو 2008.

ضمن إطار سياسي بحت، وأن تلقي كل الأطراف سلاحها، كما فعلت ريجينا صنيفر.

قال الزعيم الدرزي كمال جنبلاط، قبل اغتياله في 16 آذار/مارس 1977، أمام الندوة اللبنانية ـ هذا التوضيح ليس بلا أهمية ـ ما يلي: «نلاحظ في الواقع أن الكيان اللبناني، بالرغم من العواصف التي يمر بها، يترسخ بلا انقطاع وبصورة نهائية في نظر كل اللبنانيين. لا ريب في أن هؤلاء سيرون بشكل أفضل يوماً ما أنهم بالدرجة الأولى أبناء هذه الوحدة الحيوية، وحدة الاقتصاد، والمجتمع، وتشابك البيئة، قبل أن يكونوا مسيحيين، أو سنّة، أو دروزاً، أو شيعة، إلى آخره. الدين يأتي بعد وفوق هذه الشراكة وهذا التشابك في وحدة الحياة. وإذا وصل الأمر بالناس أحياناً إلى الاختلاف حول أهداف العالم الآخر، فلا يسعهم في آخر الأمر أن لا يتفقوا على وحدة الوجود في هذا العالم الذي يجمع بينهم ولا يفرق بين تاجر مسيحي ومستهلك مسلم. فإن لهذه الوحدة من القوة ما يجعلها ترفض التقسيم. سيأتي يوم، ربما، يترك اللبنانيون فيه للعالم الآخر نزاعاته وخلافاته، ويتلاقون في اتفاقاتهم على شؤون هذا الوطن الذي صنعه الزمان والمكان لأجلهم والذي تحقق، قبل أن يقبلوه، كخيمة مادية يفيئون إليها في هذه الحياة القصيرة الفانية»[5].

إن نهاية التاريخ التي يصفها هيغل في الصفحات الأخيرة من كتابه «ظواهرية الروح»، «إذ يرى نابوليون يعبر على جواده الأبيض مساء معركة إيينا، متوسماً فيه روح العالم لأنه يجسد معنى التاريخ

(5) كمال جنبلاط في الخماسية الأنطاكية ـ الحقل الماروني، منشورات الندوة اللبنانية، المجلد 5، بيروت، 1984.

الشامل بالذات في تلك اللحظة. كما تنبأ في الوقت ذاته بانطلاق التاريخ مجدداً، من وجهة نظر مختلفة، ومع وجود فاعلين جددتهم وحولتهم تناقضاتهم التي تجاوزوها». يقول هيغل أيضاً: «التاريخ حافل بكثير من الحيل، التي لم ينشرها كلها بعد». إن تاريخ لبنان، الذي يصعب التنبؤ به، لم يقل كل حيله بعد، بما فيها الأمل.

الفصل الواحد والعشرون

لبنان المستحيل أو حال البشر

«يجري تاريخ لبنان دوماً على عدة مستويات: الطوائف، تاريخ العائلات، تاريخ الكيان وتحولاته. تعقّده إذن رهيف جداً؛ والتبسيط والتعميم مستحيلان».

جورج قرم «لبنان المعاصر» (2003).

فيما عدا مواجهة سنية ـ شيعية في دائرة بيروت الثالثة وتأرجح عند السنّة في البقاع الغربي، ستدور انتخابات 2009 بصورة أساسية بين المسيحيين، في زحلة وفي المتن، لأنَّ المسيحيين لم يتوصلوا لغاية الآن إلى حلّ العقدة المارونية، وبالتالي فهم لا يزالون يواجهون المصالحة المستحيلة. لقد ختم رئيس جهاز استخبارات القوات اللبنانية السابق الذي التقيته في باريس[1]، حديثنا قائلاً بنبرة يائسة: «الحرب بين المسيحيين موجودة منذ القدم. كانت تدور دوماً بين الطامح إلى رئاسة الجمهورية والقوى الحقيقية في الطائفة.

(1) أنظر الفصل الحادي عشر: تلاعب الموساد.

لماذا؟ لأن السلطان كان يريد الطاعة ضد متمردي الطائفة، وكان متمردو الطائفة يريدون الولاء ضد السلطان، الذي يجسده رئيس الجمهورية أو الزعماء المسيحيون»[2].

إن رواية أمين معلوف، «صخرة طانيوس» تتضمن وصفاً جميلاً لتاريخ المسيحيين هذا: «صحيح أنه كان دوماً يوجد شيء محير في سلوك أهل قريتي تجاه حكامهم. فكانوا يجدون أنفسهم في بعض من هؤلاء، دون الآخرين. الكلام عن رئيس شرعي وآخر مغتصب هو كلام ينقل المشكلة من مكان إلى آخر. ما يؤمن الشرعية في نظرهم ليس الأمد، وليس الجديد بحد ذاته، الذي يرفضونه. في ما يتعلق بالشيخ، كان لديهم شعور بأنه يخصهم. ويتصرف تبعاً لرغباتهم، لمخاوفهم، لنوبات غضبهم - حتى لو تعرضوا لغضبه هو؛ بينما كان خصمه يطيع الباشوات، والضباط، والأمير...»[3].

تاريخ لبنان هو «تاريخ ذو ألف منصة»[4]: منصات الطوائف الأخرى، والعائلات، والجاليات الأجنبية، والبلدان المجاورة، والدول والمنظمات الدولية، التي تتلاقى أبداً، وبالتالي لا تستطيع أبداً أن ترد على التحديات المتعاقبة لبلد يعيش أزمة متواصلة، يتوثب أبداً إلى إعادة تركيب وطني بعيد المنال. ما يزيد من سحر هذا التراكم ذي السخونة المتزايدة كون الكارثة التي يبدو أنه ينذر بحلولها لا تحصل أبداً، بحيث يستعيد البلد صحته دوماً، بين أزمة

(2) صخرة طانيوس، منشورات غراسيه، 1993.

(3) من حديث مع المؤلف بتاريخ 12 آذار/مارس 2009.

(4) مقال المؤرخ جيرار خوري لبنان، ولادة أمة، في صحيفة «التاريخ» (العدد 327، كانون الثاني/يناير 2008) يعتبر مرجعاً لا بد منه في هذا الموضوع.

وأخرى، في توازن عابر. بهذا يشبه تاريخ لبنان تاريخ بوسويه الشامل، تاريخ هدم متواصل لا يصل أبداً إلى تمامه.

بني لبنان على أنقاض السلطنة العثمانية، انطلاقاً من جبل لبنان ذي الحكم الاداري الذي جرى تكبيره بواسطة ضم أراض من ولايتي بيروت ودمشق السابقتين. لقد ولد لبنان الكبير رسمياً في أول أيلول/سبتمبر 1920، واستقل سنة 1943، إلا أن مصيره تقرر في التفاوض على معاهدات الصلح سنة 1919[5].

كانت السلطنة الاسلامية العثمانية، قبل الثورة العربية الكبرى سنة 1916، تشمل جميع الأقاليم العربية منذ بداية القرن السادس عشر[6] حيث كرست نهاية الحرب العالمية الأولى تقطيع أوصالها. ومع انعقاد مؤتمر الصلح في فرساي مطلع 1919، ازداد التنافس الفرنسي - البريطاني شدة. وبعد أن أمست لندن سيدة الموقف في المنطقة، فكرت أن تلغي اتفاقات سايكس - بيكو[7] لتقيم أنظمة تابعة لها، فطردت من دمشق الأميرين عبد القادر وسعيد الجزائري اللذين كانا قد ألفا حكومة موالية لفرنسا، كي تسلم الحكم للأمير فيصل. إنَّ كليمانصو كان مناوئاً ثابتاً للاستعمار لكنه عمل جاهداً مع ذلك لأجل حماية مصالح فرنسا عن طريق التمسك باتفاقات سايكس - بيكو التي تضع دمشق ضمن منطقة النفوذ الفرنسي. وكان

(5) اسطفان إبراسيموس، مسائل الشرق، الحدود والأقليات في البلقان والقفقاس، منشورات لاديكوفرت، 1993.

(6) اتفاقات سايكس - بيكو هي تلك الموقعة بتاريخ 16 أيار/مايو 1906 بين فرنسا وبريطانيا العظمى وروسيا القيصرية، والتي تلحظ تقاسم الشرق الأوسط أي الأراضي الممتدة بين البحر الأسود والبحر المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندي وبحر قزوين.

(7) يعود تاريخ هذا الاتفاق الموقت إلى 6 شباط/فبراير 1920.

النمر يسعى إلى إقناع الأمير فيصل بإحلال القوات الفرنسية محل القوات البريطانية.

في 15 شباط/فبراير 1919، استقبل مؤتمر الصلح أول وفد لبناني متعدد الطوائف (موارنة، دروز، سنة، روم أرثوذكس) برئاسة داود عمون. طالب الوفد باستقلال لجبل لبنان موسع حتى حدوده الطبيعية التي تشمل الأراضي التي كانت لتركيا سابقاً، مع ارتباطه بمعاهدة مع فرنسا. وفيما خص دمشق، أوضح الوفد: «يوجد تكامل كبير بين المصالح؛ سوريا بحاجة إلى مرافئنا وجبالنا، ونحن بحاجة إلى سهولها. إذا أقيم نظام فصل كامل فإنه سيلحق أذى كبيراً بنا وبهم على حد سواء». لكن هذا المسعى بقي من دون نتيجة.

بعدها ذهب وفد ثان على رأسه البطريرك الماروني الياس الحويك إلى باريس ليطالب باعادة بناء لبنان في حدوده الطبيعية، مستنداً إلى خرائط هيئة الأركان الفرنسية. أجاب كليمانصو بالايجاب، رابطاً مطلب الاستقلال اللبناني بتسوية المسألة السورية، مُعطياً الأولوية للتفاوض مع الأمير فيصل، الذي أفضى إلى توقيع اتفاق بالأحرف الأولى لم يكتسب قوة معاهدة أبداً[8].

اهتدى جيرار خوري إلى هذه الوثيقة، التي ظلت حبراً على ورق، والتي أعلنت وفاة سياسة فرنسا الشرقية المتواصلة منذ عهد فرانسوا الأول. فقد اعترفت فرنسا في هذه الوثيقة باستقلال وسيادة سوريا ونالت اعتراف الأمير بوجود لبنان مستقل وسيد (البند الرابع) «وافق الأمير على الانتداب الفرنسي وعلى وجود مستشارين تقنيين فرنسيين لديه – يوضح جيرار خوري – وتعهد بمكافحة مثيري

(8) جيرار خوري، المرجع المذكور آنفاً.

الاضطرابات وببسط النظام. كان هذا الاتفاق، أياً تكن نقاط ضعفه، يوفق بين الوعود المقطوعة للعرب. (الكثرة السنية) وتلك المقطوعة للموارنة (القلة). كما أنه كان منسجماً مع خط السياسة الفرنسية المتبعة منذ القرن السادس عشر»[9].

وقصد باريس وفد ثالث: «كان على رأسه المطران عبدالله خوري، وضم كلاً من السادة إميل إده، وجوزف الجميل، والأمير توفيق أرسلان، وألفرد سرسق. لم يدخر أعضاء الوفد جهداً، بين شهري شباط/فبراير وحزيران/يونيو، ولم يحجموا عن أي سعي لأجل دعم فكرة لبنان كبير مستقل، تحت انتداب فرنسي»[10]. وفي 24 نيسان/أبريل 1920 أعطى مؤتمر الصلح في سان ريمو بريطانيا انتداباً على العراق وفلسطين، وفرنسا انتداباً على سوريا ولبنان. لم يقبل ملك سوريا منذ آذار/مارس 1920، الأمير فيصل، بنود سان ريمو، وتردّت العلاقات حتى وصلت إلى الإنذار الذي سبق معركة ميسلون في 24 تموز/يوليو 1920. بعد ذلك أزيح فيصل. وبحسب الأسس التي وضعها روبير كيكس[11]، قسم الجنرال غورو سوريا ثلاث دول (دمشق، حلب، بلاد العلويين)، وأسس لبنان الكبير يوم أول أيلول/سبتمبر سنة 1920.

«كان هذا نصراً للنزعة القومية – يقول اسطفان إيراسيموس – العنصر الأسهل رؤية وتطبيقاً للنموذج الغربي، الذي سيطغى، ليس

(9) جيرار خوري، فرنسا والشرق العربي، ولادة لبنان الحديث، منشورات أرمان كولان، 1992.

(10) جيرار خوري، وصاية استعمارية. الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان – كتابات سياسية لروبير كيكس، منشورات بيلان، 2006.

(11) اسطفان إيراسيموس، المرجع المذكور آنفاً.

على السلطنة فحسب، بل أيضاً على أحلام الوحدة الاسلامية والوحدة العربية، عن طريق تبني نموذج واحد لدول وطنية في الشرق الأوسط، من خلال مظهر نظام الانتداب، مع فارق هو أن النزعة القومية ما كانت من طبيعة واحدة على الأرجح ولا سلكت مساراً واحداً للنضوج كما كانت الحال في الغرب. وبدلاً من تطور سياسي وثقافي يصنع بناه المجتمعية الخاصة به، وأدواته الاقتصادية الخاصة به، وأفكاره الخاصة به مدى قرن من الزمن، كان الأمر يستوجب أغلب الأحيان حرباً تحريرية مصحوبة على العموم بتدخل قوي من جانب الدول الكبيرة، لاصطناع أمة جديدة من خلال مؤتمر سلام. لقد استعارت النزعة القومية البلقانية حينذاك من الترسانة الايديولوجية الغربية الحجج التي استُخدمت من قبل لتسويغ لاحق لقيام كيانات وطنية وصلت إلى نهاية المسيرة، والاستعانة بها كصيغ جاهزة، قادرة أن تصنع أمماً جديدة».

بعد ذلك باتت الحياة السياسية اللبنانية تدور بين قطبين: الأول موال للعرب أو لسوريا الكبرى، والآخر موال لفرنسا أو موال للغرب. هذا هو التناقض الكبير. لقد صنعت الهوية الوطنية اللبنانية أفقياً بصورة متقطعة، من خلال توترات، وأزمات، ونزاعات، وعامودياً من خلال مأسسة طوائف تحدد بعلاقة الانشطار بين المسيحيين والمسلمين. وفي أواخر ثلاثينيات القرن المنصرم، اكتسب السنة والشيعة والدروز بعداً وطنياً شرط قبول المسيحيين عروبة لبنان وتخليهم عن حماية فرنسا. هذا هو معنى الميثاق الوطني الذي أقر سنة 1943. وصار لبنان عضواً مؤسساً لمنظمة الأمم المتحدة وللجامعة العربية.

في أعقاب هزيمة الجيوش العربية أمام إسرائيل في حزيران/يونيو 1967، استعاد لبنان صلته بالشيطان الانتدابي القديم، وبات مجدداً

«دولة عازلة»، بالاستناد إلى تعبير جورج قرم، الأمر الذي دفع به إلى تفكك شبه كامل ابتداء من سنة 1975. وعلى مدى خمس عشرة سنة، أدت التمزقات الداخلية ـ بين الطوائف وداخل الطوائف ـ والاقليمية والدولية إلى جولات من العنف متكررة وفتاكة. وأقامت على أرض لبنان بصورة سلمية أو عدوانية، عدة جيوش أجنبية، فأمسى مختبراً لكل الحيل الحربية.

وجعل الصلح المنفرد بين مصر وإسرائيل سنة 1978 ـ 1979 من لبنان ساحة حرب ظلت تتجمع فيها العوامل الداخلية والاقليمية والدولية. لكن بالرغم من الاحتلال الاسرائيلي، والدعم السوري لفئة من اللبنانيين، والارهاب المرتبط بالحرب بين إيران والعراق (1980 ـ 1988) التي وقفت فيها دمشق إلى جانب طهران، ظلت الصحافة الدولية مثابرة على حصر النزاعات الدائرة على الأرض اللبنانية في مجابهة عتيقة بين الطوائف. من ذلك مثلاً أن الحرب التي خاضها الجنرال عون في فترة 1988 ـ 1990 لتحرير البلد من الميليشيات ومن الهيمنة السورية فسرت بأنها حرب مسيحية على الهيمنة الاسلامية.

إن اتفاقات الطائف التي تبنتها الأمم المتحدة، لكنها جاءت نتيجة مفاوضات بين الرياض وواشنطن ودمشق، كرست إنهاء الحرب اللبنانية وتحققت عملياً بوصول رفيق الحريري، موضع ثقة العربية السعودية، إلى الحكم سنة 1992. وما عدا فترة الحكومة التي ترأسها سليم الحص (1999 ـ 2000) مارس رفيق الحريري الحكم بصورة متواصلة ودون معارضة تذكر عملياً حتى اغتياله يوم 14 شباط/فبراير 2005.

إن اتفاقات الطائف التي أقامت علاقات مميزة بين بيروت ودمشق، قد لحظت إعادة انتشار للقوات السورية، لكنها لم تلحظ

انسحاباً كاملاً لها من لبنان، وتجريد الميليشيات من سلاحها، بل الابقاء على القدرة العسكرية لمنظمات المقاومة ضد الاحتلال الاسرائيلي والتوغلات الاسرائيلية.

يقول جورج قرم: «إن هذه الاتفاقات، التي دخلت بنودها في صلب الدستور، تسجل التغيرات الكبرى في الجغرافيا السياسية الاقليمية بالنسبة إلى القرن التاسع عشر. فقد أُنقصت سلطات الطائفة المارونية في أداء الدولة بقدر كبير، بعدما لم يعد لها حام خارجي قوي؛ وانتقلت السلطة التنفيذية في الواقع إلى مجلس الوزراء، وبالتالي إلى رئيسه السني الذي بات، منذ سنة 1992، يحظى بحماية الثنائي السعودي ـ الأميركي، ذي الوزن الغالب في المنطقة؛ وتعززت سلطة الطائفة الشيعية إلى حد ما من خلال تعزيز صلاحيات الرئيس الشيعي لمجلس النواب، الذي هو، منذ سنة 1992، نبيه بري، رئيس حركة أمل القوي، والذي يعتبر معتدلاً بالنسبة إلى القوة الشيعية الكبيرة الأخرى التي برزت من خلال الحرب: حزب الله. إن هذا التعزز الشيعي يعكس بلا ريب تعاظم دور إيران، الذي ابتدأ في ظل نظام الشاه، هذا الذي أرسل الامام موسى الصدر إلى لبنان، لكن أيضاً من خلال دورها في الكفاح من أجل انسحاب الجيش الاسرائيلي الذي كان لا يزال يحتل جنوب لبنان، وذلك عبر تزويدها حزب الله بالسلاح»[12].

إن «الترتيبات الأمنية»، التي عقدت في نيسان/أبريل 1996، بين الولايات المتحدة وفرنسا وسوريا وإسرائيل، في أعقاب عملية «عناقيد الغضب» التي ارتكب جيش إسرائيل خلالها مجزرة قانا

(12) جورج قرم، مسير لبنان في الترتيب الاقليمي والدولي (1840 ـ 2005)، ندوة لبنان في الترتيب القانون الدولي، باريس، 29 أيلول/سبتمبر، 2007.

الأولى، كان هدفها حماية السكان المدنيين في جنوب لبنان المحتل، وكانت اعترافاً واقعياً بالمقاومة التي يخوضها حزب الله.

وحين قامت الولايات المتحدة بالرد غير المناسب على اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر 2001، إذ أعلنت «حرباً لا نهاية لها ضد الارهاب»، لكنها كانت في الحقيقة تستهدف مجموع بلدان العالم العربي ـ الاسلامي. فبدلاً من تركيز إدارة بوش الأولى والثانية جهدهما على الشبكات الجهادية، وعلى مصادر تمويلها ودعمها اللوجستي، راحتا تكثران من العمليات العسكرية الرامية إلى «تغيير» الأنظمة غير الملائمة لمصالحها الجيوستراتيجية. وفي إطار الفوضى التي تسبب بها تدخلها في أفغانستان ثم غزوها للعراق، سعت واشنطن إلى أن تجعل من لبنان مثالاً على نجاح المرحلة الثانية من سياستها: فالخطة المسماة «الشرق الأوسط الكبير» التي تشمل اثنين وعشرين بلداً تمتد من شواطىء المغرب إلى جبال باكستان. كانت واشنطن تسعى انطلاقاً من رأس الجسر اللبناني، إلى بلوغ ثلاثة أهداف: نزع سلاح حزب الله، وإلغاء دور سوريا، وتطويق النفوذ الايراني.

عاد الانشطار الطائفي إلى الظهور، على نحو أشد تعقيداً، وكانت تؤججه القوى الخارجية. فالموالون للغرب لم يعودوا يأتون فقط من بعض الأوساط المسيحية بل باتوا يأتون أيضاً من المحافل السنية والدرزية التي فُتنت بالقوة العظمى الأميركية، بينما المناهضون للغرب، الذين ينعتون بالموالين لسوريا ولإيران، لم يعودوا فقط شخصيات شيعية، بل درزية وسنية أيضاً، ومعهم جزء من الرأي العام المسيحي المساند لعمل الجنرال عون. ولقد اشتد سعير هذا التموضع الجديد من جراء الحرب الاسرائيلية في تموز/يوليو 2006، والذي استتبع شللاً دستورياً وعدم استقرار تخللته

اعتداءات واغتيالات نسبت بصورة آلية إلى «محور الشر» أي سوريا ـ إيران ـ حزب الله ـ حماس».

يخلص جورج قرم إلى القول: «أعيد إلى لبنان، أكثر من أي وقت مضى، دوره كدولة عازلة في الصراع الكبير الذي يخوضه المحور الأميركي ـ الاسرائيلي، مدعوماً من البلدان الأوروبية والعديد من البلدان العربية، ضد الثنائي السوري ـ الايراني الذي صمد في وجهه منددأً بعودة نزعة الهيمنة الغربية».

في هذه الأوضاع التي تشهد عودة بروز الشياطين القديمة بوجوه مجمّلة، كان العدد الخاص الذي أصدرته جريدة لوريان ـ لوجور في آذار/مارس 2008 تحت عنوان «اختراع لبنان من جديد» وكان مفتوحاً لشخصيات من جميع الاتجاهات، السياسية، والاجتماعية، والمهنية، عدداً مشوقاً لأكثر من سبب. لقد ابتدأ الكلام بعودة إلى التاريخ (الميثاق أمام امتحان الزمن). وأراد الجزء الثاني أن يراهن على المجتمع الأهلي، بدءاً بالفرد والمواطن وانتهاءً بالاقتصاد والمالية.

كانت الافتتاحيات الرئيسية تحمل تواقيع كبار ائتلاف 14 آذار/مارس الموالي للغرب (بحسب تعبير الصحافة الدولية): ميشال إده، رئيس مجلس إدارة لوريان ـ لوجور؛ عيسى غريب، كاتب افتتاحيات الجريدة إياها؛ نايلة دو فريج، عضو مجلس الادارة المنتدبة فيها؛ فؤاد السنيورة، رئيس الوزراء؛ غسان تويني، نائب بيروت.

أما طارق متري، المثقف ذو الشهرة الدولية، الذي كان وزير الثقافة آنذاك، فقد ختم كلمته التي حملت عنوان «مستقبل المواطنة والدولة»، بمعاينة من رجل دولة ورجل حر، قائلاً: «إن مطلب المواطنة هو أيضاً، بصورة بديهية، مطلب للدولة، أحبطته طائفية

مريبة، مكتفية بذاتها، متغطرسة، هشة، في آن، يسكنها وسواس اقتسام السلطة، وهي تنسخ المواقف الجماعية عن الأمم الأخرى. إن بلدنا يتأرجح، من خلال توتراتنا ونزاعاتنا، بين طموح إلى دولة سيدة، مستقلة، ضامنة لوحدتنا ومساواتنا، وبين التجربة اليومية للدولة ـ الغنيمة. مستقبل البلد ليس مستقبل اقتسام الحكم، مهما بدا من أهمية تعزى إليه. إن مستقبل البلد هو خصوصاً مستقبل الدولة».

أما توليفة ميشال توما التي حملت عنوان «الخدعة الثلاثية»، فليست من هذا الصنف، مع الأسف. فبدلاً من أن يرتفع الكاتب إلى المستوى الذي يتطلبه مقال يراد له أن يخلص إلى إعلان عزم على إعادة الاختراع، نراه يغمس من جديد في القِدر الطائفية السياسوية، معدداً بجهد ثلاث «خدع» أعدت لأجل أبلسة حزب الله وحلفائه المسيحيين: «إن خطاب حزب الله وأدبياته السياسية المأذونة تبين أن مشروع الحزب الشيعي هو في جوهره فوق الوطنية وغايته المعلنة جر اللبنانيين إلى طريق مجتمع محارب يخوض قتالاً بلا هوادة، وخصوصاً بلا أفق، ضد إسرائيل والغرب». ثم يتوسع، ليس بدون تهور تاريخي، في وصف الرؤية الجوهرانية والثنائية التي تبغي التمييز بين الأخيار والأشرار: «اللبنانيون اليوم مكرهون، ربما لأول مرة في تاريخهم المعاصر، على الاختيار بين ثقافتين ونموذجين مجتمعيين» كما ينوه سمير فرنجيه في مقاله، الذي يحدد مفهوم هذا الانشطار، هذه الأزمة الوجودية، قائلاً إن لبنان ممزق «بين ثقافتين، ثقافة الارتباط (بالآخر) وثقافة النبذ».

ثم تأتي خاتمة التمجيد، مع شدّ جديد لـ «العقدة المارونية»، لتضع أمام جدار الاعدام «التحالف المضاد للطبيعة كلياً المعقود بين حزب الله والتيار الوطني الحر الذي يترأسه الجنرال عون؛ هنا

تطرح الخدعة الكبيرة الثالثة. ذلك أن عدداً من مسؤولي وكوادر التيار الوطني الحر، كما عدة نواب من الكتلة العونية، يبذلون جهوداً كبيرة في رياضة فكرية كي يقنعوا أنفسهم بملائمة مثل هذا التحالف، أو كي يبرروا البعد فوق الوطني لمشروع حزب الله وكذلك ارتباطاته الايديولوجية والبنيوية مع الجمهورية الاسلامية الايرانية، عن طريق تسخيفها وربما إخفائها كلياً».

عند هذه النقطة من قراءتي، تساءلت لماذا لا يؤتى أبداً على ذكر «الارتباطات الايديولوجية والبنيوية» بين ائتلاف 14 آذار/مارس وبين المشروع الأميركي ـ الاسرائيلي، ورحت أقول في نفسي إن «إعادة اختراع» لبنان بمثل هذا النوع من التوليد، بدأت بداية سيئة، بحسب قول رينيه دومون عن إفريقيا.

فهل يمكن للمرء أن يفهم كيف يسمح مثل هذا العدد من مثقفي لبنان وسياسييه، على الرغم من إرث لبنان الثقافي والفلسفي والتاريخي الغني جداً، بأن يتركوا بلدهم يؤخذ رهينة للدول الاقليمية والعالمية التي تهيمن على الشرق الأوسط منذ مئتي سنة؟ قال لي الوزير السابق جورج قرم، في الحديث الذي دار بيننا، إنه يجد صعوبة هو أيضاً في فهم استحالة قدرة اللبنانيين على التفاهم حول تعريف الصديق أو العدو، ونفورهم من إظهار صحوة عقلية أو حتى حس نقدي. من جهتنا، ودون أن ننزلق بدورنا إلى الجوهرانية، رحنا نتساءل كيف ولماذا يجد لبنان نفسه إلى هذا الحد أسيراً للايديولوجيات السائدة، مع ما له من تاريخ مستحيل، أو على الأصح من رؤى متناقضة يبعثها هذا التاريخ؟

إنَّ الطريق من بوسويه إلى أهل ما بعد الحداثة ليست طويلة جداً، وهي تتقاطع مع مثقفين وجامعيين من الشرق الأدنى لم يخرجوا سالمين، طبعاً، من عدة عقود فتاكة. لقد عانى هذا البلد

أكثر من غيره أهوال الحروب الداخلية والاقليمية والدولية، وفيه أكثر مما في غيره يعلن زمن ما بعد الحداثة فوزه عنده، ويفتح متاجره الكبرى التي تبيع الأفكار الجاهزة في حقول الدمار المادي والايديولوجي.

لقد قيل كلام كثير عن حال إنسان ما بعد الحداثة، الانسان المحبط فيما بعد الحداثة: الثورة الصناعية، الثلاثينيات المجيدة، زوال الاستعمار... كان هناك انقلاب، وجيه بعض الأحيان، على «الحكايات المتحولة» كما اسماها جان ـ فرانسوا ليوتار:[13] فلسفة الأنوار، الهيغلية، الماركسية، التحليل النفساني، التي أعطت الممارسات الانسانية معنى. وبما أن تلك الحكايات المتحولة لم تنجز كل ما وعدت به، فقد باتت غير مقبولة. وفيما كان جدار برلين على حافة السقوط، لم يعد الوقت وقت الايديولوجيات، وقت الأوهام الثورية، وقت الحكايات الكبيرة، إن لم يكن حتى وقت نهاية التاريخ كما كانت الموضة في فترة ما! إن ردة الفعل هذه، التي كانت ناجعة في البداية لأن كل سؤال مشروع، قامت في أكثر الأحيان بطرح الرضيع مع الماء الذي غسل به، ونحت في معظم الحالات منحى رجعياً صريحاً.

يقال إنه لأجل «إعادة اختراع لبنان»، أو العالم، يجب «شطب الماضي كلياً» عن طريق إعادة النظر في مفهوم الأمة ومفهوم الدولة بحسب هيغلية مختزلة، باعتبارها ذروة عقلانية مقيتة. هكذا يتم الانتقال من كره الدولة، لا من نقدها المتعقل[14]، إلى كره العقل، وسريعاً إلى كره الفكر بكل بساطة. إن استنزال اللعنة على البربرية

(13) جان ـ فرانسوا ليوتار، حال ما بعد الحداثة، منشورات مينوي، 1979.

(14) أنظر الفصل السادس عشر، التباس مزيارة.

ذات الوجه البشري، يجعل جهابذة «الفلاسفة الجدد» الفرنسيين في أواخر السبعينيات، الذين نفهم بسهولة أية ايديولوجيا يخدمون، ينكرون في آخر الأمر كل جهد تفكري حول العالم، معتبرين إياه سعياً شمولياً. لقد شهدت الثمانينيات والتسعينيات غزارة فوضوية لهذا «الفكر» ما بعد الحداثي المزعوم، الذي ينكر على الدولة وعلى أجهزتها كل صفة رشيدة، وحتى كل وجود فعلي، ولا يتورع عن التشكيك بمفهوم العقل[15]، ليتغنى بزمن القبائل، زمن البداوة، والاحساس[16]، الممضوغ مجدداً من شعار ساذج رفع سنة 1968، «الاستمتاع دون قيود»، الذي كانت تحوم حوله الصقور، ذوات العيون الثاقبة، تنتظر اللحظة المناسبة للانقضاض على فرائس مسترخية من جراء فقدان الدماغ.

هذه هي الايديولوجيا نفسها التي تجري منذ فترة ما بعد الحداثة إلى الفلاسفة الجدد وإلى المحافظين الجدد الأميركيين. إن هذا التنكر للفكر النقدي، المادي والعقلاني، قد تسبب بخراب كبير في لبنان، وفي الشرقين الأدنى والأوسط، كما في أصقاع أخرى. وهو قد مهد الطريق أمام «بستانيي جهنم»، أمام الخلخلة البناءة، وأمام آكلي لحوم البشر.

---

(15) بول فييراباند، ضد المنهج، منشورات سوي، 1975؛ وداعاً أيها العقل، منشورات سيوي، 1987.

(16) أحد أكثر المتغنين الفرنسيين هذياناً بين ما بعد الحداثيين الجدد هؤلاء هو البروفسور ميشال مافيسولي، مؤسس حلقة برودون في غرونوبل في الثمانينيات، التي هي وكر منسي وقريب من اليمين المتطرف. عاد الكلام قليلاً عن هذا الشخص، يوم ارتأى، بعد توليه كرسي علم الاجتماع في جامعة السوربون، أن يهدي السيدة إليزابيت تيسييه، العرافة، أطروحة عن الدولة. وكان مستشار جان ـ ماري ميسييه قبل إفلاس هذا الأخير.

الفصل الثاني والعشرون

بستانيو جهنم أو اللااستقرار البنّاء

«لا يوجد في أي من بلدان الشرق الأدنى مثل هذا التنوع. وما من بلد معرض بهذا القدر أو ذاك للتلاعب الوقح بالنزاعات المحلية من جانب أجهزة «تخوض» فيما بينها حرباً بلا هوادة. موضوع الرهان بالنسبة إلى إسرائيل ـ كما إلى سوريا ـ وحلفاء كل منهما ـ ليس أقل من بقاء كل منهما: لبنان يبقى بالضرورة كبش المحرقة».

بول ـ مارك هنري، «بستانيو جهنم» (1983).

لقد كتب السفير بول ـ مارك هنري، في خاتمة كتابه، الذي هو بلا مراء من خيرة ما كتب حول الحروب اللبنانية، ما يلي: «وضعت أحداث السنوات الثلاث الأخيرة لبنان بين فكي الكماشة الاسرائيلية ـ السورية. وإنّ المسؤول عن ذلك ليس إفلاسه على الصعيد الدولي، وإنما إفلاس الغرب الأوروبي والأميركي العاجز عن إيجاد صيغة تعايش إقليمي «محيَّد» يستطيع وحده أن يضبط

الصدمة التي سببها قيام دولة إسرائيل، الذي يتحمل هذا الغرب نفسه تبعته الكاملة أصلاً»[1].

منذ سنة 1948، حين تحدث بن غوريون عن نظريته المتعلقة باستخدام الأقليات من أجل توطيد إقامة الدولة العبرية، وحتى تدمير البنى التحتية اللبنانية وموت نحو 1300 من مواطنيه سنة 2006، ظل الافلاس قائماً، ليس بسبب غياب بستانيي جهنم، بل بسبب إرادتهم.

إلى جانب «نظرية الأقليات» المتحكمة بنظرتها الجيوسياسية إلى المنطقة على مدى السنين الستين القادمة، رازت إسرائيل في لبنان الأفكار الرئيسية لمذهبها العسكري، بدءاً «بالاغتيال الهادف» الذي رأينا كيف كانت مجزرة إهدن مختبره. ومن خلال غزوها جنوب لبنان، اخترعت فكرة الحرب الوقائية التي بنت عليها هيئة الأركان الأميركية عملياتها الخارجية المتكررة المفترض أنها رد على اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر 2001. ومع الانسحاب الزائف من جنوب لبنان، والتلاعب بالوضع الساخن في الشمال، راحت الحكومة الاسرائيلية تعسكر معارضتها الشرسة لكل تفاوض هدفه إنشاء دولة فلسطينية ما. «بعد الآن ستضرب القوات الاسرائيلية، ليس فقط رداً على هجمات الفدائيين الفلسطينيين على الدولة العبرية» بل «كلما رأت وأينما رأت ذلك أمراً مرغوباً فيه». هكذا ولد مذهب الهجوم الوقائي الذي دار حوله جدال طويل، والذي حول جزءاً كبيراً من جنوب لبنان ومن الأراضي الواقعة خلفه إلى منطقة قنص»[2] يقول بول ـ مارك هنري: «إن منطقة جنوب لبنان

---

(1) بول ـ مارك هنري، المرجع المذكور آنفاً.

(2) جوناثان راندال، أمراء الحرب المسيحيون، والمغامرون الاسرائيليون، والحرب في لبنان، ذي فايكنغ بريس، 1983.

التي ما زال يحتلها الفلسطينيون تتعرض على الدوام للقصف على مدار السنة منذ سنة 1979. وبالاستناد إلى قول ممثل الولايات المتحدة، فكأن هناك حرباً وقائية تخوضها إسرائيل ضد منظمة التحرير الفلسطينية على أرض لبنانية»[3]. وتؤكد حكومة مناحيم بيغن أمام الملأ أن «لها الحق بالتدخل كل لحظة في جنوب لبنان ضد المنظمات الفلسطينية، وليس فقط بطريقة الرد».

أخيراً، منذ الغزو الاسرائيلي للبنان في حزيران/يونيو 1982 حتى الحرب الاسرائيلية صيف 2006، مروراً باعادة انتشار متكرر في الضفة الغربية وفي غزة، غيّرت الحكومة العسكرية الاسرائيلية الكثير من أساليبها في مكافحة الانتفاضات الحضرية؛ هذه الأساليب التي اعتمدتها أيضاً القوات الأميركية المقاتلة في العراق وفي أفغانستان. كما أن التقنيات التي تعتمد التنسيق بين الأسلحة، التي استعملت دون جدوى ضد حزب الله سنة 2006، قد طبقت دون جدوى أيضاً ضد حماس الفلسطينية في غزة سنة 2009. وبعد أن دمجت هيئة الأركان الأميركية مختلف التقنيات العسكرية الاسرائيلية في مقاربة توليفية، استنبطت المذهب المسمى «اللااستقرار البناء»، الذي بُني، بعد ترشيده، على نظرية الأقليات عند بن غوريون.

في هذا الاطار الاستراتيجي المسيطر عليه بنوع خاص، صرحت وزيرة الخارجية الاسرائيلية تسيبي ليفني، على درج الإليزيه حيث استقبلها نيقولا ساركوزي للتو[4]، وفي اليوم السادس من الغارات على غزة خلال كانون الثاني/يناير 2009، قائلة بأن الرد العسكري

---

(3) بول ـ مارك هنري، المرجع المذكور آنفاً.

(4) أول كانون الثاني/يناير 2009.

من جانب الدولة العبرية يقصد منه محاربة حماس والارهاب برعاية «العالم الحر»، موضحة أن تل أبيب تقف هكذا في الصف الأمامي للدفاع عن «قيمه الأساسية». هذه الحجة ليست بجديدة، فقد استخدمتها كتائب فرانكو كي تبرر انقلابها الدكتاتورية الاسبانية (1935 ـ 1975)، كما استخدمها متطرفو الجزائر الفرنسية (1954 ـ 1962)، وأنصار دكتاتورية العقداء في اليونان (1967 ـ 1974)، والأنظمة العسكرية في أميركا اللاتينية، والمدافعون عن التمييز العنصري في جنوب إفريقيا.

إن هذه النغمة القديمة التي رافقت الحملات الاستعمارية، من حرب فييتنام إلى الحروب التي شنت مؤخراً في العراق وأفغانستان، باسم التدخل الديموقراطي والدفاع عن العالم الحر وعن قيم الغرب الأساسية، تؤدي أكثر الأحيان إلى الكثير من الفظائع. إن هذه الفكرة، التي روج لها المحافظون الجدد، وتبنتها الأوساط «الليبرالية» الأميركية، حتى في محيط باراك أوباما، تتحول، فيما وراء الأطلسي، من مشروع «أسرة» إلى مشروع «ائتلاف للديموقراطيات» يضم القسم الأكبر من أوروبا وأميركا، مروراً باليابان واستراليا، بحيث يشكل نوعاً من غرب أقصى»[5]. لقد عُرض هذا المشروع في البدء من قبل مادلين أولبرايت يوم كانت وزيرة للخارجية، في عهد كلنتون، تحت تسمية «نادي الديموقراطيات»، ثم تبنته إدارة بوش تحت راية حلف الأطلسي الذي يراد له أن يغدو «منظمة كروية». لقد جعلت كونداليزا رايس من «حلف الأطلسي الكروي» حلفاً أطلسياً موسعاً يضم بلدان

(5) برتران بادي، الحلف المقدس الجديد، لاكروا، في 20 كانون الثاني/يناير 2009.

الشرق الجديدة، إحدى أولوياتها الاستراتيجية، التي يراد لها أن تأخذ مكان منظمة الأمم المتحدة التي هي معرضة دوماً للعرقلة بسبب حق النقض من جانب روسيا أو الصين أو فرنسا.

إنَّ العملية العسكرية الاسرائيلية الأخيرة في غزة تندرج في هذا المفهوم، الذي يماهي كل نوع من أنواع المقاومة مع الارهاب، منذ اللحظة التي تتعارض فيها هذه المقاومة مع «التدخلات الديموقراطية»، ويبرّر كل عنف من قبل الدولة. إن هذا المفهوم نفسه «يخرّج السيرورة الديموقراطية عوضاً عن جعلها تنبع من عمق المجتمعات المعنية. وهو يمنح الديموقراطيات حق شن الحرب على من ليسوا منها، ويبارك الدكتاتوريات متى كانت شواهد لزبائن طيعين، ويلعنها متى عارضت الهيمنات. إنه يستعيد ازدواجية الحقوق، والتفاوت في الألم وفي الموت. إنه يجعل المسكونية والانضمام أمراً مستحيلاً. إنه في الواقع يعيد اختراع الاستعمار»[6].

الاستعمار! إن السكان المدنيين في غزة، كما في سائر فلسطين، هم الذين يتجرعون أهواله. السكان المدنيون هم ضحايا جرائم القوات الاسرائيلية الغاشمة. لقد وصف منسق الأعمال الانسانية لمنظمة الأمم المتحدة جون هولمز الحصيلة البشرية لعملية «الرصاص المسكوب» بأنها «مقززة جداً». فبالاستناد إلى الأرقام النهائية التي نشرتها الدوائر الطبية الفلسطينية، أسفر الهجوم الاسرائيلي عن سقوط 1330 قتيلاً فلسطينياً، بينهم 437 ولداً دون السادسة عشرة، و110 نساء، و123 شخصاً مسناً؛ ووقوع 4500 جريح سيكون عدد كبير منهم معاقاً مدى الحياة. وأجرى المركز

(6) برتران بادي، المرجع المذكور آنفاً.

الفلسطيني لحقوق الانسان إحصاءً للضحايا في كل حي من الأحياء، جاءت نتيجته أقل ارتفاعاً بقليل: 1285 قتيلاً، بينهم 70% من المدنيين، و4336 جريحاً. واعتبر الجيش الاسرائيلي من جانبه أن عدد القتلى يتراوح بين 1100 و1200، بينهم 250 مدنياً. ومن جهة أخرى، دمر 5000 بيت بالكامل إبان الهجمات الاسرائيلية، وتضررت 22000 وحدة سكنية، بحسب مكتب الاحصائيات المركزي الفلسطيني، وقدرت الخسائر الناتجة عن هذا الدمار بـ «466 مليون دولار. كما حلت بالبنى التحتية أضرار قدرت بـ 150 مليون دولار، وبدوائر الخدمات قدرت بـ 120 مليون دولار»[7].

كذلك تم استخدام عدد كبير من الأسلحة التي تحرمها المعاهدات الدولية، بدءاً بالقنابل الانشطارية والقنابل الفوسفورية. فالفوسفور الأبيض مادة كيميائية تشتعل في الهواء، وهي، مثل النابالم، تسبب حروقاً خطيرة في الأنسجة البشرية قد تصل إلى العظام وتنتشر تحت الجلد حتى ينقطع عنها الأوكسيجين. «استعملت بكثافة في غزة، في أماكن مكتظة جداً بالسكان، بواسطة قذائف مدفعية، أي بطريقة قليلة الدقة» تقول دوناتيلا روفيرا، رئيسة بعثة العفو الدولية، مشيرة خصوصاً إلى المنطقة الواقعة شمال غزة، قرية بيت لاهيا وحتى مدينة غزة.

لقد اكتشف الأطباء داخل مستشفى القدس الذي تعرض للقصف، جزيئات كثيرة من الفوسفور لا تزال ناشطة. وفي مستشفى الشفاء «لم يكن للجراحين أية خبرة ولا جهاز لمعالجة الجراح كما يجب» يقول لنا الدكتور عبد خويدمي من الهلال الأحمر الجزائري؛

(7) لو كارفور دالجيه، في 2 آذار/مارس 2009.

«كنا نعاين مذهولين أن جرحاً يعتبر خفيفاً يظل ينهش لحم الضحية بعد معالجته بوقت طويل».

واستعملت ضد السكان أسلحة محرمة أخرى: «السهام الصغيرة» التي هي إبر دقيقة طولها أربعة سنتمترات تنتشر، بعد انفجار القنبلة في الهواء، على مساحة طولها 300 متر وعرضها 100 متر. تحتوي كل قنبلة على عدد يتراوح بين 5000 و8000 من السهام الصغيرة. وتبدي منظمة العفو الدولية دهشتها أيضاً من أن أسلحة دقيقة ـ القنابل الملقاة من المقاتلات ف ـ 16، والصواريخ التي أطلقتها مروحيات أباتشي، وقذائف الدبابات ـ أوقعت مثل هذا العدد الكبير من القتلى بين المدنيين الفلسطينيين، فتقول: «هل كان استهدافهم سيئاً؟ إذا كان هذا نتيجة خطأ، لماذا سقط هذا العدد؟ أم أن الجيش الاسرائيلي تعمد ضرب السكان؟». تتساءل دوناتيلا روفيرا.

أخيراً، كان العدوان على غزة بمثابة مختبر لتجربة أسلحة جديدة غير معروفة حتى حينه. وبالاستناد إلى شهادات لا شك في صحتها لأطباء غربيين، فقد نقل إلى المستشفيات جرحى من نوع جديد: «أولاد وبالغون لم تعد سيقانهم سوى رمم محروقة ملطخة بالدم»[8]. يضيف هؤلاء الأطباء في شهاداتهم:[9] «في مستشفى الشفاء في غزة لم نشاهد حروقاً ناجمة عن الفوسفور، ولا جرحى بقنابل انشطارية. لكننا شاهدنا ضحايا، ولدينا كل الأسباب لاعتبار

(8) صحيفة لوموند، في 12 كانون الثاني/يناير 2009.

(9) الطبيبان مادس جيلبرت وإريك فوس يعملان في الشرق الأدنى منذ نحو عشرين سنة مع المنظمة النروجيـة غير الحكومية نورواك.

اصاباتها ناجمة عن الطراز الجديد من أسلحة يختبرها العسكريون الأميركيون تعرف بالاسم المختزل.

تتألف هذه القنبلة من كرات صغيرة كربونية تحتوي على مزيج من التونغستن والكوبالت والنيكل أو الحديد؛ تحوز الكرات طاقة انفجارية ضخمة، لكنها تتبدد بعد مسافة عشرة أمتار. إذا أصابت جسد الانسان من مسافة مترين قطعته قطعتين؛ وإذا أصابته من مسافة ثمانية أمتار، قطعت ساقيه وأحرقتهما كما لو كان ذلك بواسطة آلاف الابر. لم نشاهد الجثث المقطعة، لكننا رأينا كثيراً من الجثث المبتورة. كان هناك حالات مماثلة في جنوب لبنان سنة 2006، ورأينا مثلها في غزة خلال السنة إياها، إبان العملية الاسرائيلية «المطر الصيفي». إن فاعليتها رهيبة إذا استهدفت الانسان، نظراً إلى انتشار آلاف الشظايا المجهرية؛ الجراح التي تسببها شبه مستعصية وتؤدي عموماً إلى البتر. يضاف إلى ذلك أن مفعولها المسبب للسرطان أمر أكيد. إن الجزيئات تسبب على المدى القصير سرطاناً يصيب خلايا العظم».

لقد طالبت عدة بلدان بفتح تحقيق دولي حول سلوك الجيش الاسرائيلي، وطلبت منظمة العفو الدولية من جهتها بإصرار إلى مجلس الأمن الدولي أن يسارع إلى اتخاذ قرار بتشكيل لجنة دولية للقيام بتحقيق «مسهب ومستقل ونزيه، من أجل ملاحقة المسؤولين عن جرائم الحرب والانتهاكات الأخرى للقانون الدولي وإحالتهم إلى القضاء». لكن من بين الحالات الأكثر دلالة حالة أسرة ساموني التي فقدت 22 شخصاً من أفرادها يومي 3 و4 كانون الثاني/يناير، في أثناء عملية إسرائيلية ضد حي الزيتون. لقد جمع نحو 90 شخصاً، معظمهم من النساء والأولاد في مزرعة أطلقت

عليها ثلاث قذائف صاروخية من دبابة. يعتبر مارك غارلاسكو، الخبير العسكري لدى منظمة مرصد حقوق الانسان الدولية أنه «ما من سبب عسكري يمكن أن يسمح بتبرير مثل هذه الأفعال. إنها حقاً عقاب جماعي».

إنَّ قضية أسرة ساموني ليست حالة فريدة على الاطلاق. لقد أجرى المركز الفلسطيني لحقوق الانسان في غزة 25 تحقيقاً حول «جرائم حرب»، فضلاً عن ملفات أخرى قد تفتح في المستقبل. يذكر المحققون حالة أسرة بالوش التي فقدت خمس بنات في الهجوم على بيتها في جباليا. لا شك في أن العمليات العسكرية الاسرائيلية كانت «ذا طابع لا إنساني» يذكر «بشبح جرائم حرب منهجية» يقول ريتشارد فالك، المراسل الخاص للأمم المتحدة في الأراضي الفلسطينية.

إنَّ لجنة الجزائر ـ غزة لأجل قيام محكمة رأي ضد العدوان والاحتلال والاستيطان لفلسطين، قد عقدت اجتماعاً بتاريخ 28 شباط/فبراير والأول من آذار/مارس في مدينة الجزائر، وأقرت خريطة طريق من سبع نقاط: 1) الارتباط البنيوي مع محكمة راسل بشأن فلسطين، التي أطلقت بعد مرور ثلاثة أيام في بروكسل؛ 2) مراجعة مجلس حقوق الانسان لدى الأمم المتحدة في جنيف؛ 3) مراجعة المحكمة الجزائية الدولية في لاهاي؛ 4) مراجعة مختلف هيئات الأمم المتحدة (الأمين العام، الرئاسة الدورية لمجلس الأمن وللجمعية العمومية)؛ 5) مراجعة الاتحاد الأوروبي واللجنة الأوروبية بشأن جرائم الحرب، والجرائم بحق الانسانية، كما بشأن التعويض من جانب إسرائيل عن تدمير الممتلكات الخاصة والبنى التحتية العامة؛ 6) تنسيق المبادرات والعلاقات العضوية بين المنظمات غير الحكومية وممثلي المجتمع الأهلي والهيئات الدولية؛

7) إبلاغ هذه المبادرات المختلفة إلى الأمين العام للجامعة العربية والأمين العام للاتحاد الافريقي في آن واحد[10].

فأبعد من جرائم الحرب والجرائم بحق الانسانية، توجه محكمة راسل أعمالها نحو تقنيات «الابادة الجماعية البيضاء» التي استعانت بها الدولة العبرية ضد الشعب الفلسطيني. ولقد كتبت في خريف سنة 2002 ما يلي[11]: «هذا الترتيب الواسع النطاق، المكيف مع الأراضي الفلسطينية، يستهدف، على صعيد آليات بسيطة ويسيرة النقل، الأداء الأساسي لمجمل المجتمع، الذي تتغلغل فيه وتخترقه نظم تأديبية». الغاية من هذا الحبس/ الاطلاق هي إذن جعل الحياة اليومية لا تطاق بكل معنى الكلمة. قال لي صديق من بيت لحم

---

(10) الموقعون العشرون من لجنة مدينة الجزائر هم: التنسيق بين المجتمع الأهلي الجزائري والتضامن مع غزة؛ اللجنة الاستشارية الوطنية لتشجيع وحماية حقوق الانسان في الجزائر؛ نايف الشاماتي ونايف الدواسري (معهد حقوق الانسان في قطر)؛ قدوما فاطوما (معهد حقوق الانسان في المغرب)؛ جمال العواضي (المدير التنفيذي للرابطة العربية الديموقراطية في اليمن)؛ صدام ابراهيم عبد الخل أبو عزام (معهد حقوق الانسان في الاردن)؛ شبيب لزيم مطرود المالكي (الأمين العام لاتحاد الحقوقيين العرب، في الأردن)؛ ماريو لانا (رئيس الاتحاد الدولي-إيطاليا)؛ ماجد نعمه (صحافي-سوريا)؛ زياد مدوخ (أستاذ اللغة الفرنسية في جامعة غزة-فلسطين)؛ جوزف شيشلا (منسق الائتلاف الدولي للسكن-مصر)؛ بيار غالان (عضو سابق في مجلس الشيوخ، رئيس منتدى شمال/ جنوب-بلجيكا)؛ إدمون جوف (استاذ القانون الدولي-فرنسا)؛ لوك ـ بايير دو ريك (صحافي-بلجيكا)؛ فرانسواز جرمين ـ رويان (صحافية-فرنسا)؛ بيار لا فرانس (سفير فرنسي)؛ آن ـ ماري ليزين (الرئيسة الفخرية لمجلس الشيوخ البلجيكي)؛ جان زيغلر (عضو اللجنة الاستشارية لحقوق الانسان لدى الأمم المتحدة-جنيف)؛ ريشار لابيڤير (صحافي-فرنسا).

(11) راقب، عاقب، ثم هجّر، مجلة دراسات فلسطينية، العدد 85، خريف 2002.

بمزيد من الوضوح، لكن بكثير من الانفعال: «ما يسعون إليه قبل أي شيء هو اقتلاعنا من أرضنا...». وبالفعل فإن سياسة أرييل شارون هي أكثر من مجرد عسكرة لغزة وللضفة الغربية، إذ إنها تسعى بلا كلل إلى تحقيق «وهم تأديبي» يمكن أن يرمي بالسكان غير المرغوب فيهم إما صوب قطاع غزة، أو صوب الأردن، أو صوب بلدان أخرى... «حرب الاستقلال لم تبلغ نهايتها» ـ يقول شارون ـ «1948 لم تكن سوى فصل من فصولها...». يعاين جيل دولوز، في محاولة لفهم هذه الدينامية الخبيثة، قائلاً: «إن اسرائيل لم تخفِ غايتها يوماً، فهي منذ البداية تهدف لتفريغ الأرض الفلسطينية. والأفضل هو التصرف كما لو كانت الأرض الفلسطينية خالية، معدة للصهاينة منذ الأزل. لقد كان في الأمر استيطان حقاً، لكن ليس بالمعنى الأوروبي في القرن التاسع عشر: هنا لا يستثمَر السكان، بل يهجّرون».

فإذا كانت الحرب الجديدة غير المتكافئة على غزة أعادت تفعيل مواقف عملانية باءت بالفشل في الحرب الاسرائيلية على لبنان صيف 2006، فإنها قد جرت في إطار مختلف جداً عن إطار جنوب لبنان. فإنه بقدر ما كان يتمتع حزب الله بعمق استراتيجي لجهة نهر الليطاني وسهل البقاع، كانت حماس محصورة داخل حدود قطاع غزة الضيقة، متحملة ـ أكثر من مليون ونصف المليون من السكان في مساحة تبلغ 360 كيلومتراً مربعاً ـ إحدى أكبر الكثافات السكانية في العالم. لكن من المفارقة، أن غياب العمق الجغرافي هذا، وهذا العدد الزائد من السكان قد شكلا عمقاً تكتيكياً ساعد مقاومة حماس الممتزجة مع السكان المدنيين وحال دون انتشار قطعات تقليدية ثقيلة واندفاع قوات خاصة في نسيج حضري مرصوص، ذي طبقات في الداخل متضامنة ومحصّنة.

على صعيد الاتصال أيضاً، انقلب عدم التكافؤ على الأقوى. فالكلام الرسمي الاسرائيلي، المبني على الدفاع عن النفس في وجه إطلاق صواريخ من قبل حركة إرهابية أقلوية، وحتى هامشية - بحسب قاموس المحافظين الجدد الأميركيين - سرعان ما حل محله الرأي العام العربي والأوروبي الذي أدان «الرد غير المتناسب» من قبل أحد أكثر جيوش العالم إتقاناً على سكان مدنيين يعيش أكثر من نصفهم تحت عتبة الفقر. وكما جرى في صيف 2006، الذي شهد الطيران الاسرائيلي يكثف قصفه بالقنابل العنقودية على جنوب لبنان فيما كان مجلس الأمن الدولي على وشك اتخاذ قرار بوقف القتال، كذلك أطلقت بغزارة قنابل فوسفورية واستعملت أسلحة أخرى محرمة، على غزة المكتظة بالسكان لحظة فتح قناة للنقاش بين حماس والسلطات المصرية.

ومما يزيد من الأثر التدميري لهذا البعد «الاختباري» كونه يعبر عن عجز دبلوماسي وسياسي صارخ عن تصور مستقبل عملية سلمية - بعد موت اتفاقات أوسلو - وعدم التجاوب مع خطة الملك عبدالله المعلنة في تشرين الأول/أكتوبر 2002، وعدم الاعتراف بفوز حماس في الانتخابات التشريعية الفلسطينية التي جرت في كانون الثاني/يناير 2006، على الرغم من كونها جرت تحت مراقبة دولية شديدة، وخاصة فرنسية. لقد كان بإمكان وزارات الخارجية الغربية آنذاك أن تلاحظ أن تقدم حماس كان ذا شبه غريب بتقدم فتح قبل ثلاثين سنة: خيار جذري في مواجهة مأزق سياسي. ذلك أن عجز السلطة الفلسطينية ومنظمة فتح عن الحصول على نتائج محسوسة وعن الوصول إلى نتيجة ما من وراء الانتفاضة الثانية التي انطلقت في أيلول/سبتمبر 2000، هو من دون أدنى شك الذي حدد خيار الناخبين أكثر من تجذر نشاط حماس.

إن رفض تل أبيب ووزارات الخارجية الغربية أن تطرح هذه الأسئلة على نفسها هو الذي يحمّلها اليوم تبعة تغذية عملية التجذر وعدم الفهم الذي يتعاظم بين الشرق والغرب. يقول دبلوماسي لبناني: «إن عدم وجود الارادة أو القدرة للتفاوض مع ياسر عرفات، أو مع السلطة الفلسطينية، أو مع حماس، سيجعلنا نرى أن الأمل بالتفاوض سيكون أكثر توهماً أيضاً مع القاعدة». إنّ أخطر ما في الأمر، دون شك، هو أن ارتياباً مديداً بات يكتنف بعد الآن، لا قيمة الانتخاب الديموقراطي فحسب، بل بصورة أعمق أيضاً، أسس المثل الأعلى الديموقراطي وشمولية مبادئه.

لقد زعمت الولايات المتحدة أنها تحتل العراق لكي تنشر الديموقراطية فيه. أية ديموقراطية؟ إننا نرى بوضوح أكثر ما تعني هذه الكلمة عملياً، وليس في العراق فحسب. فإن إعادة بناء النظام السياسي على قاعدة التمثيل الطائفي والاثني أيقظ التوترات بين مختلف مكونات المجتمع. وإن إجراء انتخابات تشريعية على الرغم من المقاطعة الكثيفة من جانب «العرب السنة» لا يعبر فقط عن استعجال أميركي لإدارة البلاد من خلال حكومة ذات صفة تمثيلية نسبية، بل إنه يتفق خصوصاً مع استراتيجية طوائفية وصفها روبول غيريتش في مقال له نشر قبل الاقتراع جاء فيه: «يجب على علاوي وعلى الأميركيين أن يؤكدوا جهاراً وبصورة منتظمة أن الجيش العراقي الجديد سيضم أكثرية من الشيعة والأكراد، لأن السنّة العرب لم يتركوا لهم الخيار... يجب أن يعلم السنة العرب، وأن يشعروا في داخلهم، أنهم سائرون إلى خسارة كل شيء في العراق»[12].

(12) رويول مارك غيريتش، الصراع على الشرق الأوسط، ذي ويكلي ستاندارد، واشنطن، 3 كانون الثاني/يناير 2005.

إننا نشهد انتصار مفهوم لنظام اثني ذي أساس طائفي، من خلال انتخابات متكررة وشكلية تبقى نتائجها الرقمية خارجة عن كل مراقبة، مع تكرار تأليف حكومات «انتقالية». هناك ثلاثة عوامل تشجع هذا التطور: إرث حكم صدام حسين الشخصي التدميري؛ الارث الاستشراقي الذي يصف المنطقة بفسيفساء قبائل متضادة لا بشعوب قادرة على أن تكون لها إرادة وطنية وإرادة مشتركة؛ تلاقي واشنطن مع هذا المفهوم الطوائفي للحكم، الذي يرفع إلى أعلى مستويات المسؤولية عملاء سابقين لأجهزتها السرية، من أمثال أحمد جلبي وإياد علاوي.

لا تُختصر استراتيجيا الولايات المتحدة بالتأكيد في ترجمة آلية لهذه العوامل الثلاثة، لكنها، باعتراف رئيس الولايات المتحدة ومستشاريه بالذات، تسمح باستنباط «رؤية شاملة» و «خطوط توجيهية». لقد أطلق المدير التنفيذي الكبير لـWashington Institue for Near East Policy، البالغة النفوذ روبرت ساتلوف، على هذه الاستراتيجيا اسم «الفوضى البناءة». إنه يرى أن سعي الولايات المتحدة إلى استقرار دول المنطقة، الذي كان السمة الغالبة لسياسة الولايات المتحدة في الشرق الأدنى «تاريخياً»، قد أفضى إلى «مآزق». «ففي مناطق أخرى من العالم، كان الاستراتيجيون الأميركيون يتجادلون حول ملاءمة الاستقرار، لكن جورج بوش كان أول رئيس يعتبر الاستقرار بحد ذاته عائقاً في طريق تقدم المصالح الأميركية في الشرق الأدنى (....). لقد استعانت الولايات المتحدة بتشكيلة من التدابير الاكراهية وغير الاكراهية، تتراوح بين استعمال القوة العسكرية لتغيير الأنظمة في أفغانستان وفي العراق، مروراً بسياسة العصا والجزرة (...) لعزل ياسر عرفات وتشجيع

قيام قيادة فلسطينية جديدة ومسالمة، وصولاً إلى تشجيع مصر والعربية السعودية على السير في طريق الاصلاحات»[13].

لقد شجعت هجمات 11 أيلول/سبتمبر 2001 بلا ريب إعادة النظر هذه في سياسة خارجية تفضل «الاستقرار»، لكن ورشتها كانت قد فتحت قبل ذلك بعشر سنوات، في مطلع سنة 1991، حالما انتهت حرب الخليج. فقد قال خبراء أوكار المحافظين الجدد، أمثال بول وولفوفتس الذي صار الشخص الثاني في وزارة الدفاع فيما بعد، إنه كان يجب «مواصلة حرب تحرير الكويت حتى بغداد، لأجل تفكيك بلد سيبقى دائماً مصدر تهديد لمصالحنا على مستوى الطاقة ولأمن إسرائيل في الوقت ذاته... كانت الهجمات على البنتاغون وعلى برجَي مركز التجارة العالمية حجة جديدة لمنظِّري الفوضى البناءة، الذين اعتبروا أن التهديد الارهابي متأصل في بعض دول المنطقة، وبينها العراق وسوريا وإيران. وكانت السياسة الأميركية الجديدة تدعي، من وراء افتعال «عدم الاستقرار» في هذه الدول الثلاث، أنها تستطيع أن تخلخل التهديد الارهابي وشبكاته العابرة للدول أيضاً، لكنها أنتجت ظاهرة مضادة: وبالاستناد إلى عدة تقارير صادرة عن الادارة الأميركية، ازداد التهديد الارهابي ستة أضعاف بعد التدخل الأميركي - الانكليزي في العراق. غير أن عدداً من محللي البنتاغون ووزارة الخارجية لا يرون في هذه النتيجة العكسية المضادة هزيمة، ويقولون إنها، بالعكس، تندرج في إطار تنفيذ استراتيجيا الفوضى البناءة.

(13) Robert Satloff, «Assessing the Bush Administration's Policy of Constructive Instability» (Part II): *Regional Dynamics*, Washington Institue for Near East Policy, 16 mars 2005.

لقد كان التذرع الأقصى بهجمات 11 أيلول/سبتمبر غطاءً إعلامياً مثالياً لتبرير أولويات السياسة الخارجية الأميركية في استراتيجيا الفوضى البناءة تلك. لذلك فإن «أصحاب القرار في الولايات المتحدة»، بإعلانهم أولوية «الحرب التي لا نهاية لها على الارهاب» ومطاردة بن لادن وشركائه، «قد حصلوا على أجمل غطاء تاريخي منذ انتهاء الحرب الباردة» بالاستناد إلى رأي ملحق عسكري أوروبي في واشنطن إذ يقول: «باسم مكافحة الارهاب، بوشر أعظم انتشار عسكري أميركي منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية».

في آذار/مارس 2004، كانت شهادة ريتشارد كلارك ـ مسؤول مكافحة الارهاب في إدارة وليم كلنتون وإدارة جورج بوش حتى شباط/فبراير 2003 ـ أمام اللجنة الوطنية، حول هجمات 11 أيلول/سبتمبر، مدوية: قبل الهجمات بكثير، كان معلوماً أن شبكات بن لادن تشكل الخطر الرئيسي على الولايات المتحدة، لكن إدارة بوش لم تفعل شيئاً لأنها كانت مهووسة بالعراق وببلدان أخرى في المنطقة. «كنت أحضر اجتماعات متوقعاً إعداد عمليات لضرب شبكات بن لادن، بينما كان المجتمعون لا يكفون عن الكلام عن العراق وسوريا وإيران. كنت أشدد على شرح أن شبكات بن لادن تكونت وفق مقاييس مغايرة، عابرة للبلدان، جانبية ومحلية، فكانت كوندوليزا رايس ترد عليَّ قائلة: أسامة بن لادن... من هو هذا الرجل؟»[14].

وحين كان ريتشارد كلارك يدعو دونالد رامسفيلد وبول وولفوفتس

(14) Richard Clarke: *Against All Enemies, Inside America's War on Terror,* Washington, 2004.

وكوندوليزا رايس والرئيس بوش إلى القيام بتدخل عسكري في أفغانستان لا في العراق وإبعاد الخطر المتمثل ببن لادن وشركائه، كان هؤلاء لا يتكلمون إلا عن مهاجمة صدام حسين: «كانت كل طاقات البنتاغون ووزارة الخارجية محصورة بالقضية العراقية، دونما سعي حتى إلى فهم ما جرى فعلاً يوم 11 أيلول/سبتمبر 2001. كان واضحاً أن المسألة لم تعد هنا».

في 23 آذار/مارس، سألت اللجنة مسؤولين في إدارتَي كلنتون وبوش عن سبب عدم شنهم الحرب في وقت أسرع على قواعد بن لادن وعدم قصف أفغانستان جواً قبل 11 أيلول/سبتمبر. وفي اليوم التالي، وخلال استماع جديد إلى ريتشارد كلارك، اتخذت المناقشات منحى حزبياً. فهاجم جيم طومسون وجون ليهمان، المفوضان الجمهوريان، صدقية ريتشارد كلارك وما جاء في كتابه. رد المسؤول السابق عن مكافحة الارهاب قائلاً إنه خلال الادلاء بشهادته الذي استغرق خمس عشرة ساعة، لم يسأله أحد عن رأيه في غزو العراق. «إذا كنت أتكلم بمثل هذه الحدة في انتقادي لجورج بوش فذلك بالضبط لأن رئيس الولايات المتحدة قد عطّل عملية مكافحة الارهاب بقدر كبير حين قرر القيام بهذا الهجوم الخالي من الأساس على صعيد أسلحة الدمار الجماعي كما على صعيد الروابط مع بن لادن».

تعرض ريتشارد كلارك بعد ذلك لحملة تحقير قادتها بصورة رئيسية فوكس نيوز، شبكة روبرت موردوخ الداعمة للحزب الجمهوري. وكانت «الريبورتاجات» تتحدث حصراً عن مساندته للمرشح الديموقراطي لانتخابات الرئاسة جون كيري، وعن حياته الخاصة ومشاكله السابقة مع إدارة الضرائب. لقد كان يصوَّر كأميركي سيء، وحتى كخائن لبلاده.

إنَّ «رفع راية مكافحة الارهاب لأجل استهداف بلدان مختلفة – وليس العراق وحده: لنفكر بكوبا وفينزويلا – مع العلم بأن لا علاقة لهما ببن لادن، كانت هذه هي الاستراتيجيا التي اتبعها البيت الأبيض لتبرير الزيادات الباهظة في النفقات الدفاعية التي قاربت 400 مليار دولار». هذا ما شرحه لي الملحق العسكري الأوروبي في واشنطن، وأضاف: «لم نشهد مثل هذا منذ حرب كوريا». يبين كل هذا أن مكافحة الارهاب استخدمت لتصنيف بلدان الشرق الأدنى فئتين: حلفاء واشنطن وخصومها. لكن بعد الغرق في وحول العراق، بات صد النفوذ الايراني أولوية جديدة عند واشنطن. فأمسى المطلوب مضاعفة الضغوط الدولية على طهران لحملها على التخلي عن برنامجها النووي أو، على الأقل، للحد من قدرتها على الرد في شن هجوم على منشآتها.

«هذا الصد يفترض إجبار سوريا، آخر حليف لإيران على قطع هذا التحالف وعلى تجريد حزب الله من السلاح» يقول وليد شرارة. «حيال الرفض السوري، المبرر بصورة رئيسية بعدم وجود مقابل جدي – استئناف المفاوضات الاسرائيلية السورية حول الجولان مثلاً – حصلت واشنطن، التي انضمت إليها باريس، من مجلس الأمن الدولي، في أيلول/سبتمبر 2004، على تبني القرار 1559 الذي طلب انسحاب القوات السورية من لبنان، ونزع سلاح الميليشيات اللبنانية (حزب الله والمنظمات الفلسطينية)، ونشر الجيش اللبناني في جنوب البلاد»[15]. رأى عدد كبير من القوى

(15) وليد شرارة، الفوضى البناءة، لوموند دبلوماتيك، تموز/يوليو 2005، ومن حديث مع المؤلف.

السياسية والطائفية اللبنانية في هذا القرار[16] إيذاناً من الأسرة الدولية بنهاية الانتداب السوري الذي أقيم لخمس عشرة سنة خلت بموافقة الولايات المتحدة مكافأة لدمشق على اشتراكها في الائتلاف الأول ضد العراق.

لقد كان هذا بالنسبة إلى المعارضين لسوريا إشارة لتعبئة أنصارهم ضد قوات دمشق. ثم جـاء اغتيال رئيس الوزراء الأسبق رفيق الحريري يوم 14 شباط/فبراير 2004 فعجّل في سير العملية التي أدت إلى انسحاب الجنود السوريين من لبنان حيث رافقت هذا الانسحاب ضغوط دولية متزايدة على البلدين: في لبنان سعى معارضو سوريا إضافة إلى واشنطن وباريس لدفع الرئيس إميل لحود إلى الاستقالة؛ وفي سوريا، عملت الأطراف إياها جاهدةً، لكن دون أن تقول ذلك جهاراً، على تغيير النظام.

كذلك حظيت «ثورة الأرز»، على غرار أخواتها في صربيا وفي جورجيا وأوكرانيا، بدعم منظمات غير حكومية ومؤسسات مختلفة أميركية، مدللة بذلك على نمط غير مسبوق من التدخل الدولي يصفه جيل دورونسورو بـ «استراتيجيا الخلخلة الديموقراطية». يُقصد بذلك «الاستناد إلى قطاعات من المجتمع الأهلي تطالب بالتغيير، ودعم نشاطها عن طريق تعبئة وسائل الاعلام المحلية والدولية لصالحها، واختراع بطل يجمع عناصر الطعن، بحيث يصار إلى تشديد الضغط الدولي على السلطات المطعون بها. لكن تطبيق

(16) أنظر ريشار لابيڤيير «القصة السرية للقرار 1559» في، التحول الكبير: بغداد – بيروت، منشورات سوي، 2006.

الاستراتيجيا في لبنان أدى إلى تفاقم الطائفية، واضعاً مكونات البلد بعضها في مواجهة بعضها الآخر»[17].

إن ما جرى في بلد الأرز يشكل، في رأي روبرت ساتلوف، «حالة نموذجية يجب استلهامها متى أردنا افتعال تغيير في بلدان أخرى». وفي رأيه أنه يمكن، استناداً إلى المختبر اللبناني، أن نستخلص ثلاثة أطوار تصلح أن تكون «مقدمات لكل ثورة مقبلة»[18]: يقوم الطور الأول على دفع قوى المعارضة إلى أن تفرض، بواسطة تعبئة كثيفة في الشارع، إجراء انتخابات استثنائية يراد لها أن تطيح النظام القائم؛ ويقوم الطور الثاني على الاعتناء بتهيئة الاقتراع، من خلال نشاطات مختلفة شبيهة بالتسويق كتبني لون معين، أو شعار، أو جريدة، ثم العمل على تأمين الاشراف عليه من جانب مراقبين دوليين؛ أما الطور الثالث، فقوامه مواصلة الضغوط الدولية، بغية اجتثاث آخر مرتكزات النظام السابق من أحزاب سياسية، ومجموعات مسلحة أو أجهزة أمنية واستخباراتية موازية.

إنَّ استغلال الطائفية مطروح أيضاً في بلدان أخرى في المنطقة التي تستهدفها «الفوضى البناءة». ففي سوريا، تسعى إدارة بوش إلى افتعال تغيير للنظام. وكما يشير ساتلوف أيضاً، فإن الأميركيين «لا مصلحة لهم في بقاء نظام الأسد، النظام الأقلوي، القائم على أسس هزيلة هي التخويف والترهيب. فمن الممكن أن تتحول

---

(17) ليبراسيون، في 10 آذار/مارس 2005.

(18) Robert Satloff, «Assessing the Bush Administration's Policy of Constructive Instability» (Part I): *Regional Dynamics*, Washington Institue for Near East Policy, 15 mars 2005.

زعزعات المبنى بسرعة إلى تصدعات ثم إلى هزة أرضية»[19]. وفي رأيه أن على الولايات المتحدة أن تركز اهتمامها على أولويات ثلاث، هي:

- جمع أكثر ما يمكن من معلومات عن التحركات السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، و «الاثنية» في سوريا؛
- شن حملة حول مواضيع كالديموقراطية، وحقوق الانسان، ودولة القانون؛
- عدم إعطاء النظام السوري أي مخرج انقاذي، إلا إذا كان الرئيس بشار الأسد مستعداً لزيارة إسرائيل في إطار مبادرة للسلام، أو لطرد المنظمات المناهضة لإسرائيل من سوريا وإعلان تخليه عن العنف. «الكفاح المسلح أو المقاومة الوطنية، بحسب التسمية المحلية».

ليس بالمستغرب أن نجد في فريق روبرت ساتلوف تروتسكيين سابقين عملوا فيما مضى على فكرة «الثورة الدائمة»، هذه الفكرة المطاطة التي يمكن أن تفتح سبلاً للبحث، إن لم يكن تقنيات قابلة للتطبيق في البلدان المستهدفة من قبل البنتاغون. فإنه في خط «الثورة المحافظة، التي أطلقت في عهد ريغان، راح الباحثون المرتبطون بالادارة الأميركية يُقبلون على درس الانقطاعات التاريخية الكبرى كالثورتين الفرنسية والروسية، كي ينظّروا «للتقنيات الانتفاضية» التي يمكن أن تغذي منهجية تستعين بها برامج الفوضى البناءة. وراحت مذكرات بيضاء تدخل التداول، مستعيرة الخطوط الكبيرة لمؤلفات عن مكافحة المنظمات المسلحة كانت قد كتبت وطبعت ونشرت من قبل الموساد ووكالة الاستخبارات المركزية

---

(19) المرجع المذكور آنفاً.

الأميركية خلال ستينيات وسبعينيات القرن الفائت، واستعانت بها الكونترا\ وسائر المجموعات شبه العسكرية في أميركا اللاتينية.

«هكذا صار من آخر مظاهر الأناقة أن يُستشهد بتروتسكي على الدوام، في الـWahsington Institue, au Defense Policy Board.

وفي كل نوع من الأوكار التي تزود البنتاغون بالنصائح» كما يتذكر باحث سابق في راندكوربوريشن. «إن مبتكري الأفكار من بين المحافظين الجدد يتنافسون في صنع المفارقات كي يظهروا قدرتهم على التجديد وانفتاحهم الفكري. وكان ساتلوف يردد أن جورج بوش فتح الطريق. فلم يعد هناك من محرمات...».

لقد كان لـ «شباب ساتلوف» همٌّ آخر هو «تسخيف الفوارق الثقافية مع العالم العربي، كيما يصبح ما كان ممكناً في أميركا اللاتينية إبان الحرب الباردة ممكناً في الشرق الأوسط أيضاً» يضيف باحثنا. ففي رسالة بعث بها إلى كارين هوغز، نائبة وزير الخارجية للدبلوماسية العامة، ينصح ساتلوف بـ «شطب عبارتَي» «العالم العربي» و «العالم الاسلامي» من القاموس الدبلوماسي الأميركي. «دافعي قدر المستطاع عن مقاربة نوعية لكل بلد بحد ذاته، بالأقوال وبالأفعال. الأصوليون الاسلاميون يريدون إلغاء الحدود وإنشاء عالم فوق الأوطان تفصل خطوط التماس فيه بين دار الاسلام ودار الحرب. لا تتنازلي لهم عن الأرض قبل خوض المعركة»[20]. على أن مصدر الوحي الكبير في هذه المسائل الدلالية هو برنارد لويس.

لقد ولد هذا الأخير سنة 1916 في لندن، واستقر سنة 1974 في برنستون حيث عمل استاذاً ممتازاً في جامعتها، وتوفي بتاريخ

(20) Robert Satloff, *Memo to Karen P. Hughes*, Washington Institute for Near East Policy, 28 mars 2005.

24 كانون الأول/ديسمبر 2008، وهو مؤرخ مرموق للعالم الاسلامي، اشتهر خصوصاً بأعماله المتعلقة بالعصر الوسيط، وأمسى، على مدى مسيرة جامعية لا مفاجأة فيها، المرجع المطلق للمحافظين الجدد. كان بوصفه اختصاصياً شبه رسمي بالاسلام، يمارس تأثيراً كبيراً على الادارات الأميركية المتعاقبة، وذلك إلى حد القول بأنه صانع خيارات رونالد ريغان الشرقية ومقدم خبرة حاسمة في إدارة حرب الكويت في عهد بوش الأب. وهو أحد المستشارين السريين الأكثر استماعاً لآرائهم من قبل إدارة بوش الابن. لكنه بعد أن ناء بحمل اعتراف جاء متأخراً، وبمظاهر التكريم والاهتمام من قبل وسائل الاعلام، وصار ثرثاراً مقدار ما هو متصلب عقائدياً، خرج من الحيز العلمي وراح يكثر من اتخاذ مواقف متزايدة الجذرية، قادته بعد حرب الكويت إلى إعلان موت العالم العربي كفاعل سياسي وتهميش منظمة التحرير الفلسطينية بشكل مديد. ومن إحدى مقالاته استعار صموئيل هانتنغتن عنوان كتابه الشهير «صدام الحضارات». وإلى صموئيل هانتنغتن كما إلى برنارد لويس، يلمح روبرت ساتلوف حين يذكر بأن عبارة «الشرق الأدنى» باتت تحل من الآن وصاعداً محل عبارة «العالم العربي». من جهته كان إدوار سعيد قد لاحظ أن «أعمال برنارد لويس تدعي أنها جامعية، موضوعية، وليبرالية، بينما هي في الواقع أقرب إلى كونها دعاية منقلبة على موضوعها بالذات»[21].

وفي سياق ما ورد سابقاً، نشير إلى مقتطفات مما كتبه حيث يقول: «لا توجد إلا سياسة واحدة لمواجهة الانتفاضة العراقية: شطبها. الحكم نفسه يصدر بحق حماس في الأراضي الفلسطينية

(21) إدوار سعيد: «استشراق» ـ راندون هاوس، نيويورك، 1978.

المحتلة: منظمة إرهابية خطرة يجب التعاطي معها بوصفها هذا».

وعن إيران: «إميل إلى الاعتقاد بأن الرئيس أحمدي نجاد رجل مجنون. إنه يؤمن حقاً بما يشبه نهاية العالم الذي يبشر به. فإذا حصل الايرانيون على القنبلة الذرية سيصبحون على درجة من الغطرسة لا تحتمل. إنهم لن يستعملوها في أعمال قصف، بل في أعمال إرهابية، دون تحديد هوية الفاعل». في البيت الأبيض، لا ينصح الرجل سوى بشيء واحد: الحزم. وفي الختام، لا يستبعد «سيناريو كارثياً يدمر فيه الغرب والعالم الاسلامي بعضهما الآخر، تاركين للصين وللهند السيطرة على القرن الواحد والعشرين»[22].

أما الصديقان الآخران في نادي الحقد هذا فهما دانيال بيبز، المساجل المحترف الذي يدير مجلة The Middle East Quarterly وفؤاد عجمي الذي تجعل منه جذوره اللبنانية خير ناطق بلسان التحليل الطائفي للواقع العربي. لقد كان هذا شديد الحضور لدى نائب الرئيس السابق ديك تشيني، الذي كان لا يكف عن إغراقه في تعليلات مؤاتية للحرب على العراق.

وعلى نقيض شهامة فرسان ألكسندر دوما، لم يتنافس هؤلاء الفرسان الأربعة في التفاني من أجل تبرير الحرب على العراق فحسب، بل إنهم عملوا خصوصاً على تغذية قراءة هذيانية للتاريخ، محاولين إسباغ صدقية على الفرضية الجوهرانية القائلة بأنَّ هناك جنوناً قاتلاً ملازماً لطبيعة العالم العربي ـ الاسلامي وبعجزه العضوي عن التحلي بأي نوع من الاعتدال. إن الشكل الدولتي، في رأيهم، لم يعد متلائماً مع هذا العالم الذي لم يعرف ولم يستطع يوماً أن يخرج من أفكاره القبلية. لذلك ـ وهذا شكل جديد

(22) من حديث إلى جريدة لوفيغارو في 4 أيار/مايو 2006.

للفوضى البناءة ـ فإن الواجب يحتم تفعيل وتغذية هذه الأفكار القبلية بغية بلوغ هدفين: تشجيع القوى المتناقضة والمتضادة داخل العالم العربي ـ الاسلامي بغية شل قدراتها على الايذاء، وتجميع القبائل المنبعثة في محميات جديدة تابعة لمحور الخير واشنطن ـ تل أبيب.

لقد كانت هذه اللازمة تتدرج من قبل في قاموس حكومة شارون وإيتان في التسعينيات. إذ إنَّ هناك مذكرة توجيهية تحمل توقيع موظف كبير في وزارة الخارجية الاسرائيلية يدعى أوديد يينون تشرح بالتفصيل المشروع الجيوستراتيجي لتجزئة الشرق الأدنى إلى أصغر وحدات ممكنة، أي ما معناه تقطيع أوصال الدول العربية المجاورة لإسرائيل. يقول أوديد يينون في ديباجة مذكرته ما يلي: «ليس العالم العربي الاسلامي سوى قصر من ورق بنته دول أجنبية ـ فرنسا وبريطانيا العظمى في العشرينيات ـ دونما اعتبار لطموحات السكان المحليين. لقد قسمت هذه المنطقة بصورة اعتباطية إلى تسع عشرة دولة تتألف كلها من إثنيات مختلفة وأقليات تتبادل العداء، لذا فإن كل دولة من الدول العربية الاسلامية اليوم تجد نفسها مهددة من داخلها بسبب الخلافات الاثنية والاجتماعية، وأصبحت الحرب الأهلية داخل بعضها قائمة»[23].

واستناداً منها بصورة رئيسية إلى مكتبة أميركية، ومستشهدة بغزارة ببرنارد لويس وصموئيل هانتنغتن وبمسؤولين سياسيين وعسكريين

(23) أوديد يينون: كيفونيوم، العدد 14، شباط/فبراير 1982. مجلة تصدر عن مصلحة الدعاية، المنظمة الصهيونية العالمية، القدس. إرسل هذا المقال إلى مجلة الدراسات الفلسطينية من قبل إسرائيل شاهاك ونشر في العدد 5، خريف 1982.

إسرائيليين، تستعرض المذكرة تلك الدول العربية التسع عشرة وتحصي عوامل تفجيرها الرئيسية، المنذرة باضطرابات وتفكك ممكنة: «هذا هو الوضع الحقيقي المحزن والمضطرب للبلدان المحيطة باسرائيل». إنَّ التوصية التي يقدمها أوديد يينون واضحة جداً: «هذا وضع مشحون بالتهديدات، بالأخطار، لكنه غني بالامكانات، لأول مرة بعد 1967. فالفرص التي لم تغتنم آنذاك يمكن أن تتاح من جديد، وأن تكون أقرب منالاً في التسعينيات، ضمن ظروف وعلى قدر من الضخامة لا نستطيع أن نتصورها اليوم».

التحليل السياسي يستحق كل انتباهنا هو أيضاً: «إن سياسة «السلام»، وإعادة الأراضي، تحت ضغط الولايات المتحدة، يستبعدان هذه الفرصة التي تتاح لنا. وإن الحكومات الاسرائيلية المتعاقبة منذ 1967 علقت أهدافنا الوطنية على أمور سياسية طارئة، على سياسة داخلية عقيمة كانت تكبل أيدينا في الداخل كما في الخارج».

بعد توصية أخيرة تدعو إسرائيل إلى «العمل مباشرة أو بصورة غير مباشرة إلى استرجاع سيناء بوصفها احتياطياً استراتيجياً واقتصادياً وطاقياً» يخلص أوديد يينون إلى القول: «إن تقسيم لبنان إلى خمسة أقاليم هو صورة مسبقة للمصير الذي ينتظر العالم العربي بكامله، بما فيه مصر، وسوريا، والعراق، وكامل شبه الجزيرة العربية. هذا الأمر أمسى واقعاً في لبنان. إن تقطيع أوصال كل من سوريا والعراق وجعلهما أقاليم متجانسة اثنياً أو دينياً، كما في لبنان، هو الهدف الأول، في المدى الطويل، على الجبهة الشرقية؛ أما في المدى القصير، فالهدف هو التفكيك العسكري لهذه الدول. ستقسم سوريا إلى عدة دول تبعاً للجماعات الاثنية، بحيث يصبح

الساحل دولة علوية شيعية، ومنطقة حلب دولة سنية، وفي دمشق تقوم دولة سنية أخرى معادية لجارتها الشمالية؛ ويؤلف الدروز دولتهم الخاصة بهم، التي ستشمل ربما جولاننا وكذلك كل حوران وشمال الأردن. إن هذه الدولة ستضمن السلام والأمن في المنطقة على المدى الطويل: هذا هدف بات في متناول يدنا منذ الآن».

إن قوام «الهدف الأول عند إسرائيل على المدى الطويل» هو إذن تشجيع كل عوامل تفكك الدول العربية، بحيث يؤول إلى بلقنة المنطقة. إن هذا التشجيع الذي ينذر بتطهير اثني وديني، قبل عشر سنوات من المذابح والقبور الجماعية والفظائع الأخرى التي شهدتها البوسنة يبعث قشعريرة في المفاصل.

لقد شهدت الجمعية العمومية للأمم المتحدة هجوماً جديداً للفوضى البناءة في أيلول/سبتمبر 2005. فبعد أن تقدمت بنحو 750 تعديلاً لمشروع إصلاح منظمة الأمم المتحدة، وبعد أن أسهمت إسهاماً قوياً في إفراغ القمة \الألفية من رهاناتها الرئيسية، عرضت الدبلوماسية الأميركية أولوياتها فيما خص الشرق الأدنى. لم تنس واشنطن أولوياتها، في إطار أكبر قمة في تاريخ الأمم المتحدة:

- إبقاء الضغط على سوريا، المتهمة بالسماح لعدد من الناشطين الأمميين بالدخول عبر أراضيها إلى العراق. توجيه التهمة إلى سوريا أيضاً فيما خص الملف اللبناني. لكن حتى لو تعهدت سوريا بالتعاون الكامل في التحقيق الدولي حول اغتيال رئيس الوزراء السابق رفيق الحريري، فإن واشنطن تواصل السعي إلى نزع سلاح حزب الله الذي تطالب به إسرائيل بحرارة.
- محاولة إقناع الأسرة الدولية باتهام إيران أمام مجلس الأمن في القضية النووية.

«يقضى على التعددية لأجل تحسين خدمة المصالح الثنائية...

وفقاً لخير استخدام لما يسمى الفوضى البناءة»، حسب قول سفير لدى مجلس الأمن الدولي.

بعد مرور ثلاثة أشهر على وصول إدارة الرئيس باراك أوباما إلى الحكم، لم تستطع أن تتخلص من هذه الأجندة، وإن كانت تحاول فرض أسلوب جديد. لقد كانت إسرائيل ترمي، من وراء شن عدوانها على غزة قبيل تسلم الادارة الديموقراطية الجديدة مهامها رسمياً، إلى بلوغ ثلاثة أهداف: مزايدة أمنية وعسكرية بين ليكود وحزب العمل وكاديما قبيل الانتخابات التشريعية الاسرائيلية التي جرت في شباط/فبراير 2009؛ مواصلة السعي من أجل بلوغ الأهداف الاستراتيجية لمذهب الفوضى البناءة؛ تبادل هذه الأهداف إياها مع الشركاء الأميركيين الجدد.

وفي الخطاب الذي ألقاه باراك أوباما بمناسبة تنصيبه، بتاريخ 20 كانون الثاني/يناير 2009، أكد أن الخيارين الرئيسيين للسياسة الأميركية في الشرقين الأدنى والأوسط هما مكافحة الانتشار النووي، والمعني بذلك إيران بالدرجة الأولى، والحرب على الارهاب في أفغانستان. لم يقل كلمة واحدة عن النزاع الاسرائيلي ـ الفلسطيني، الذي لا يبدو أنه يمثل أولوية عنده. وبعد أن خاض حملة حول انسحاب عسكري تدرّجي من العراق من أجل تعزيز العمل العسكري الجاري في افغانستان، لم يبتعد باراك أوباما عن الخطوط الأساسية لإدارتي بوش، وإن زعم أنه يريد مباشرة «حوار متجدد» مع إيران ومع شركائه الأوروبيين. وهو، على غرار سلفه، يبدو كأنه ينفي عن النزاع الاسرائيلي ـ الفلسطيني كونه النقطة المركزية في قوس أزمات الشرقين الأدنى والأوسط، ويؤثر الانصراف إلى معالجة الملفين الأفغاني والعراقي.

إن تعيين هيلاري كلنتون وزيرة للخارجية وتثبيت روبرت غيتس

في البنتاغون يؤكدان استقرار المقاربة الفكرية، لكن بلباس جديد. على أن الرئيس الديموقراطي يحاول أن يشجع مصالحة سورية ـ سعودية، كي يضعف الشراكة الاستراتيجية القائمة بين دمشق وطهران. وبما أن الأمير سلطان بن عبد العزيز، صاحب اليد الطولى في تطبيق الفوضى البناءة في المنطقة، مصاب بمرض خطير، فيبدو أن الملك عبدالله يستعيد زمام الأمور بمساندة من فريق أوباما. ففي لبنان، استدعي السفير السعودي الغائص في دعم مالي لائتلاف 14 آذار/مارس[24] إلى الرياض واستبدل بدبلوماسي قريب من الملك، وأكثر تسامحاً مع حزب الله والمعارضة. إن سياسة «فك ارتباط» العربية السعودية هذه في الانتخابات التشريعية اللبنانية التي ستجري في 7 حزيران/يونيو القادم، هذه السياسة المدعومة من جانب الادارة الأميركية، قد تمثل علامة إضافية لأسلوب أوباما الجديد، من شأنه أن يخفف حدة المواجهة بين العالمين السني والشيعي وأن يشجع في آخر الأمر انطلاق «الحوار المتجدد» مع إيران، الذي هو مفتاح التخفيف من حدة الأزمة النووية الاقليمية، والانسحاب من العراق، ومعالجة مسألة الأمن في أفغانستان. بيد أنه إذا كان هذا التطور يشير إلى انحراف في تطبيق الفوضى البناءة، فهو لا يبشر بوضع حد لها.

على أي حال، وكما ردد على الدوام رئيس الوزراء الاسرائيلي، الذي لا يزال في غيبوبة، أرييل شارون: الانسحاب من غزة في آب/أغسطس 2005 هو «آخر تضحية تقدمها إسرائيل» بينما كان

---

(24) تعهد سفير السعودية في بيروت بدفع ثمن تذاكر النقل بالطائرة للمغتربين اللبنانيين في استراليا وكندا وإفريقيا، كي يشاركوا في الانتخابات، وذلك لأجل مساندة تيار المستقبل التابع لسعد الحريري، وائتلاف 14 آذار/مارس.

استيطان الضفة الغربية لا يتوقف فحسب، بل يتزايد. وظل هذا البرنامج يراعى بكل دقة غداة الهجوم الأخير على غزة في كانون الثاني/يناير 2009. فالاستيطان يتفاقم أكثر منه في أي وقت مضى في الضفة وفي القدس الشرقية. لكن الفلسطينيين ليسوا الضحايا الوحيدين لتمديد هذه الفوضى البناءة ولأزمتها الاستعمارية، إذ إن العرب المسيحيين في بلدان عدة في المنطقة يعانون هم أيضاً بشكل مباشر من آفات هذه الرؤية «الديموقراطية» للعالم.

الفصل الثالث والعشرون

العرب المسيحيون ضد صدام الحضارات

«تعرض رؤساء الكنائس المسيحية في القدس أكثر من مرة للانتقاد من جانب السلطات بحجة أنهم يتدخلون في السياسة دون حق ويناصرون طرفاً ضد آخر. أؤكد مجدداً: من حق الرؤساء الدينيين ومن واجبهم أن يتدخلوا في وضع سياسي بسبب عدم الاستقرار العام في الحياة اليومية، ويولّد مظالم، ويحد من الحريات، وينتج الحرمان، وبالتالي ذاك العنف الذي يقال إنه يراد تلافيه، بينما تدأب المظالم على تغذيته وتعميقه. الكنيسة لا تتكلم من أجل مساندة أو تحريض طرف ضد آخر، بل من أجل أداء واجبها الذي يدعو إلى استنكار الظلم والدفاع عن المظلوم، والقول بحقه في المطالبة بكل حقوقه».

ميشال صباح، بطريرك اللاتين، في كانون الأول/ديسمبر السنة 2000.

في 11 تشرين الثاني/نوفمبر 2008، قال حاكم المنطقة دريد قشمولا لوكالة الصحافة الفرنسية إنه في الأربع والعشرين ساعة

الأخيرة غادر مدينة الموصل الواقعة في شمال العراق حوالى ألف عائلة مسيحية كلدانية[1]، هرباً من أعمال العنف المرتكبة بحق الطائفة، وأضاف: «إنها أعنف حملة، تشن على المسيحيين منذ سنة 2003».

وبالاستناد إلى أقوال الحاكم، اغتيل أحد عشر مسيحياً على الأقل في الموصل منذ 28 أيلول/سبتمبر بسبب انتمائهم الديني. ودمرت ثلاثة بيوت للمسيحيين بواسطة متفجرات في سوقا، أي الحي الشمالي للمدينة. كان «مجهولون» يجوبون الأحياء المسيحية على متن سيارات جيب عسكرية، ويوقفون المارة وأهالي الشوارع التي يجتازونها، مطلقين الإنذارات بوجوب مغادرة المدينة في أسرع وقت، تحت طائلة التعرض للانتقام. وعاينت وكالة الصحافة الفرنسية أن عائلات عديدة نزحت ولجأت إلى قرى مسيحية تقع على أطراف الموصل الشمالية، وأن مداخل هذه القرى، كقرية تل أسكوف، كانت محروسة من قبل السكان المسلحين.

قبل ذلك ببضعة أيام، كان مطران كركوك لويس ساركو، أحد رؤساء الكنيسة الكلدانية في العراق، قد استنكر شن «حملة تصفية» منظمة على المسيحيين، خصوصاً في منطقة الموصل قائلاً: «نحن نتعرض لحملة تصفية، حملة أعمال عنف ذات أغراض سياسية»، وأعلن عن تخوفه من «استمرار الهجمات والاعتداءات» في المنطقة التي تعيش فيها أقدم طائفة مسيحية في العراق. قال الأسقف إن عدد مسيحيي العراق، قبل الغزو الأميركي في آذار/مارس 2003،

(1) الكلدان وهم من الكاثوليك الشرقيين، ويشكلون أكبر طائفة مسيحية عراقية.

كان يقارب 800000 نسمة. بعد ذلك، غادر العراق حوالى 250000 من هؤلاء ولجأوا إلى سوريا. وفي شباط/فبراير 2008، اختطف المطران فرج راهو، رئيس أساقفة الموصل، وفي 13 آذار/مارس عثر عليه ميتاً.

«خلال ستة أشهر، أمست الموصل أخطر مدينة في العراق على المسيحيين» يقول عزيز الزيباري استاذ اللغة الانكليزية في جامعة صلاح الدين في أربيل. ويتحدث عن المصير المأساوي لشقيقتين قتلتا في بيتهما في كانون الأول/ديسمبر 2008: «كنت يومها في الموصل حيث انتشر خبر الفاجعة في الحي المسيحي. دخل القتلة البيت وطعنوهما بالسكاكين ثم أجهزوا عليهما بالمسدسات وحاولوا قتل الأم. ثم خرجوا بعد أن أضرموا النار في البيت». لقد عثرت الشرطة في المكان على منشورات تحمل توقيع محكمة الجمهورية الاسلامية العراقية، وهي منظمة إرهابية معروفة عند العراقيين وذات ارتباطات أكيدة بالبشمركا: «لأجل فرض احترام تعاليم الدين الاسلامي في دار الاسلام هذه، قررنا أن على المسيحيين أن لا يعيشوا بعد الآن في الموصل، عاصمة أمارتنا. على كل عائلة مسيحية أن تعتنق الاسلام وأن تزوج إحدى بناتها بأحد مجاهدينا البواسل، وإلا كان عليها أن تغادر المدينة خلال ثمان وأربعين ساعة».

هذه التهديدات لم تكن جديدة. فإنه بين 4 و12 تشرين الأول/أكتوبر 2008، أُلصقت مناشير على جدران الكنائس، واغتيل خلال بضعة أيام خمسة عشر شاباً مسيحياً في الشارع، أمام بيوتهم أو في متاجرهم. «الموصل صارت جحيماً» يؤكد الشاب ميخائيل،

الترجمان لدى الشركات الأجنبية في داهوك، المدينة الصغيرة الواقعة في شمال العراق. لذلك غادرت المدينة آلاف العائلات في حالة من الذعر تاركة وراءها كل شيء»[2].

هذه الأحداث تجري في منطقة كردستان ذات الحكم الذاتي حيث البشمركا، أصدقاء برنار كوشنير[3]، هم الحاكمون، وهم الذين يساندون عملية التطهير الاثني هذه التي تعزى بطلاناً إلى مجموعات قريبة من القاعدة. من جهته، يتحدث المجلس الشعبي للكلدان والسريان والآشوريين، وهو منظمة سياسية تنطق باسم المسيحيين العراقيين، عن فرار 2351 عائلة، أي ما يزيد عن 10000 شخص. وبالاستناد إلى قول هذه المنظمة، لم يعد يوجد في الموصل سوى بضع مئات من العائلات، الحبيسة في بيوتها.

انتشر، في 13 تشرين الثاني/نوفمبر 2008 عدة مئات من رجال الشرطة العراقيين في الموصل وفي شمال العراق لأجل حماية آخر البيوت التي تسكنها عائلات مسيحية. «أرسلت كتيبتان إلى الأحياء المسيحية، والكنائس تحت حماية صارمة» كما صرح لوكالة الصحافة الفرنسية عبد الكريم خلف، الناطق بلسان وزارة الداخلية العراقية، تضم كل كتيبة 440 شرطياً. «أرسلنا أيضاً فريقين أحدهما أمني، والآخر من الشرطة الجنائية للتحقيق بالحوادث» أضاف السيد خلف.

وأكد خليل عبد الستار، الناطق باسم القيادة العسكرية في الموصل، لوكالة الصحافة الفرنسية، من جهته: «أبلغنا المسيحيين بواسطة كنائسهم وكهنتهم أننا مستعدون لتأمين حماية كل بيت وكل

---

(2) الأسرة المسيحية. في 6 كانون الأول/ ديسمبر 2008.

(3) أنظر: العالم حسب ك.، بيار بيان. منشورات فايار، 2009.

شخص. لدينا قوات كافية لأجل ذلك. المسيحيون شرعوا بمغادرة بيوتهم تحت تهديد مجموعات مختلفة من مثيري الشغب. لقد رحلوا بسبب الاغتيالات المنتقاة التي حصلت في الأسابيع الأخيرة».

لثلاث سنوات خلت، وبفضل سياسة الحزم التي تحلى بها سرجيس أخاجان، المسيحي النافذ الذي صار وزيراً للمالية في الحكومة الكردية ذات الحكم الذاتي، تمكن المهجورن من الموصل وبغداد وحتى من البصرة، من العيش مجدداً في قرى بنيت خصيصاً لهم، بعيداً عن الدم والخوف. «إنني عملت على بناء مئة وخمس وعشرين قرية للمسيحيين» يقول الوزير[4]. لقد تمّ بناء نحو عشر من هذه القرى الجديدة على طول الحدود التركية والسورية. وفي فيشابور، التي تبعد ساعة ونصف ساعة عن دهوك، تقع القرية ضمن انعطاف جليل لنهر دجلة، تحت حماية حاجز مسلح. الشوارع هنا مرسومة بخط مستقيم، والبيوت نظيفة، والكنيسة والمدرسة حديثتان. سكان القرية نازحون من بغداد. لقد كان سائق تكسي، يقول: «الحياة هنا أفضل منها في أميركا!»، مع أنه عاطل عن العمل: «هذا غير مهم. أنا لا أزال حياً! سأعود إلى بغداد كي أكسب مالاً، لكن عائلتي ستبقى هنا». في سهل نينوى العتيق هذا، يحكى دوماً عن خطط لإنشاء اقليم مسيحي يتمتع بحكم ذاتي «لا تحتاج إلى تأشيرات دخول» يقول سرجيس أخاجان بنبرة حماسية، «بل إلى سند سياسي. يجب أن يستخدم الأميركيون والأوروبيون نفوذهم كي نستطيع البقاء والعيش في أرضنا! مستقبلنا في العراق، لا في الخارج»[5].

---

(4) الأسرة المسيحية، المرجع المذكور آنفاً.

(5) الأسرة المسيحية، المرجع المذكور آنفاً.

يصعب على الناظر من أوروبا أن يحيط بوضع العرب المسيحيين: كلدان، سريان، أقباط، ملكيين، كنائس متعددة، وخصوصيات متعددة، وأوضاع متنوعة. إن تاريخهم غير معروف جيداً، ويعتقد الرأي العام في الغرب أغلب الأحيان بأن العراق وسوريا ومصر بلدان مسلمة صرف. إن مسيحيي الموصل وكردستان، المفتقرين إلى قدرة فعلية على الصمود، يعانون أهوال التطهير الاثني، الملازم لاستراتيجيا الفوضى البناءة[6]، التي تطبق باسم مفهوم جوهراني عند الغرب اليهودي ـ المسيحي وباسم خدمة مصالحه.

يذكّر بول ـ مارك هنري، في هذا الصدد، بما يلي: «في هذه اللعبة المعقدة التي لا تفضي أبداً إلى نتائج غير قابلة للارتداد، لم يشكل الغرب والشرق تاريخياً كتلة، واحدهما ضد الآخر. كان الغرب في البداية مشغولاً بانشطاره الجوهري والمزمن بين بيزنطية وروما. ولم يحسن أبداً التوفيق بين المدينة اللاتينية والمدينة اليونانية. أما الشرق، ذو الغالبية الاسلامية منذ الهجرة، فكان له سنّته، وشيعته، المنقسمون أيضاً إلى شيع وفرق متنوعة. فكل حالة مجابهة تحمل إذن في طياتها ما هو عكسها، عن طريق إعادة توزيع الأوراق المتضادة»[7].

المسيحية الشرقية، السابقة للاسلام، لا تزال باقية في كل بلدان المنطقة، ما عدا بلدان شبه الجزيرة العربية حيث يمثل العرب المسيحيون ما بين خمسة وعشرة بالمئة من سكان المنطقة، ما خلا الحالة اللبنانية النوعية حيث يتعادلون تقريباً مع المسلمين، وهم

(6) أنظر الفصل الثاني والعشرين: بستانيو جهنم أو اللاستقرار البنّاء.

(7) بول ـ مارك هنري. المرجع المذكور آنفاً.

يشكلون مجموعة من «المخلفات»[8] المعرضة لخطر دائم. ومع أن القرآن يمنحهم صفة «أهل الكتاب» الخاصة، أسوة باليهود، فإن حياتهم الفعلية تجعل منهم رعايا من الدرجة الثانية في دار الاسلام، لكن هذا لا يعود بالضرورة إلى تعارض «جوهراني وحضاروي» مع مختلف الفرق الإسلامية، وسنعود إلى هذا الموضوع لاحقاً.

إن الكنائس الشرقية، القائمة في شرق الأمبراطورية الرومانية، قد عاشت الانشقاق بين روما وبيزنطية وأنتجت في داخلها الخلافات البيزنطية. وبين القرن الخامس والقرن الحادي عشر، ابتعد عدد من الكنائس عن بيزنطية وعن روما لكن بعد الحروب الصليبية وسقوط بيزنطية، عادت تلك الكنائس نفسها، بهذا القدر أو ذاك، إلى كنف روما التي لم يتنكر لها موارنة لبنان وقبرص أبداً دون غيرهم. ولما كان العرب المسيحيون شديدي التمسك بهويتهم المهددة، فقد سعوا إلى تأمين بقائهم، متأرجحين بحسب العصور، والظروف، والدعم الخارجي، بين الثورة، «القومية العربية التي ستتجاوزهم»[9] وبين الخضوع.

لقد عاش العرب المسيحيون، منذ نهاية ممالك الفرنجة حتى مطلع القرن التاسع عشر، دون أي اتصال خارجي تقريباً، وفي حالة خضوع شبه كامل لمختلف أنظمة الحكم الزمنية والروحية الاسلامية، وبينها أربعة قرون من الاحتلال العثماني. وفي ظل هذا الوضع، الأقل صرامة مما يعتقد عموماً، لعب هؤلاء دوراً معقداً

(8) بحسب تعبير آلان شويه، الذي أجرى المؤلف معه أحاديث كثيرة. هذا الفصل يستوحي الكثير من أعماله وخصوصاً مذكرته التي تحمل عنوان مسيحيي الشرق.

(9) آلان شويه. المرجع المذكور آنفاً.

لاتزال المؤسسات الوطنية والاجتماعية المعاصرة تحتفظ بآثار عميقة منه. فالقانون العثماني، الذي يفرق كي يسود على امبراطوريته الواسعة، كان يعترف لهم بكيانات إدارية متميزة يرأسها زعماؤهم الروحيون، وكان يمكن أن تفوض إليها، وفقاً لصيغ متنوعة، أجزاء صغيرة من السيادة والحق في إقامة بعض العلاقات الخارجية مع «حماتهم» الغربيين.

يقول آلان شويه: «نشأ عن ذلك شيء من الميل عند المسيحيين الشرقيين إلى اعتبار طوائفهم نوعاً من كيانات شبه وطنية، تسعى بالتأكيد وراء دعم خارجي».

ثم جاءت حملة نابوليون بونابرت على مصر، التي أيقظت العرب المسيحيين من سبات طويل، وإن لم تسفر عن مكسب جغرافي مديد، وأدركوا دبيب الضعف في جسد السلطنة العثمانية والامكانات الجديدة للانعتاق، فتصدروا الحركات القومية العربية.

كان القرن التاسع عشر بالنسبة للعرب المسيحيين مرحلة اضطهاد على جانب من الدموية، تارةً من جانب العثمانيين، وطوراً من جانب الكيانات الوطنية التي كانوا قد أسهموا في ولادتها لأن هذه كانت لا تأمن لارتباطاتهم بالغرب. نذكّر هنا بمذابح الموارنة سنة 1860، ومذابح الأرمن سنة 1894[10]. إذ لم يتمكن إلا الذين كانوا من بينهم يحوزون ملجأً جغرافياً منيعاً في وجه مضطهديهم، من أن يقيموا لهم، بصورة عرضية، كيانات ذاتية مستقلة عن القوانين الاسلامية. نذكر من هذه الكيانات لبنان من سنة 1926

(10) وقعت المجزرة ضد الأرمن من نيسان/أبريل 1915 إلى تمز/يوليو 1916. لقد سقط القسم الأعظم من الأرمن المقيمين على أراضي تركيا ضحايا جراء النفي إلى المعتقلات والمجازر الواسعة النطاق المرتكبة ضدهم.

حتى اليوم، وجمهورية أرمينيا القفقاسية (1919 ـ 1923) وجمهورية أرمينيا الاشتراكية السوفياتية سنة 1920، والجمهورية الآشورية (1923 ـ 1932).

أما الباقون، المشتتون داخل الأكثرية المسلمة، والأقل حظاً من الناحية الجغرافية والتحالفات الخارجية، فكان بقاؤهم يتوقف على الخضوع أو على صيغ للتعايش متفق عليها إلى هذا الحد أو ذاك. إن الفاتيكان، الحريص على حماية الأقليات المسيحية في الشرق، كان دوماً شديد التحفظ حيال نزعاتها الاستقلالية السلمية أو المسلحة. ويبدو أن التاريخ يثبت صحة موقفه، إذ إنَّ أياً من هذه النزعات، باستثناء لبنان، لم يكتب لها البقاء. إن مصير لبنان، كما مصير جمهورية أرمينيا، لا يزال حتى اليوم غير أكيد، متقلباً عبر أزمات متكررة داخل الإطار الموسع، إطار سيرورة «الفوضى البناءة»، هذه التي باتت الآن تطال كل العرب المسيحيين.

كان العرب المسيحيون، منذ بداية القرن التاسع عشر، رواد النهضة الثقافية والسياسية العربية. لكنّ ضعف السلطنة العثمانية، التي تمثل الخلافة، بالاضافة إلى مطالب الدول الغربية، قد بدا لهم كأنه فرصة مؤاتية لوضع منظومة إيديولوجية لا تكون مرجعيتها الأساسية الدين بل المبادىء القومية الكفيلة بإزالة التفاوتات الطائفية. هكذا، بالجمع بين ثقافتهم التعددية، وحيويتهم، وعلاقاتهم التجارية والدبلوماسية، استنبط العرب المسيحيون نظاماً نظرياً وثقافياً نهل منه كل القادة القوميين العرب الكبار. وظلت هذه الفكرة القائلة باندماج بواسطة السياسة لازمة متكررة عند جميع العرب المسيحيين حتى الحقبة المعاصرة. لقد كان هذا بصورة جوهرية من فعل أبناء الطائفة الأرثوذكسية، الطائفة المسيحية المشرقية الثانية، التي لم تحظ بمعقل جغرافي منيع، أسوة بالموارنة

أو الكلدانيين أو الأرمن. وبعد تقطيع أوصال السلطنة العثمانية سنة 1920، وجدت الطائفة الأرثوذكسية سنداً ومشورة من جانب الاتحاد السوفياتي الذي تبنى تقليد روسيا القيصرية في حماية الأقليات الأرثوذكسية داخل امبراطورية الباب العالي.

كان هناك منظوران لأجل مواجهة الهيمنة الدينية الاسلامية: «نزعة قومية عربية كبرى يمكن لها أن تطعن بالأعلوية الدينية، وأشكال متنوعة من العلمانية الاجتماعية العابرة للدول. وقد جرى استكشاف هذين المنظورين، من خلال تجارب سياسية متعددة. إن كل الأحزاب الشيوعية التي عرفتها المنطقة، والحزب السوري القومي، وحزب البعث، والحركات القومية العربية (حركة القوميين العرب) ومنظمات التحرير الفلسطينية (منظمة التحرير الفلسطينية، الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين)، كانت بهذا القدر أو ذاك نتاج النبوغ السياسي عند أرثوذكسيي الشرق الأدنى. على أن هذا التوظيف لم يفد أصحابه إلا قليلاً. أما الشيوعيون، فإنهم بسبب ضعفهم الناجم عن إلحادهم الناشط، لم يحظوا بالمساندة والمشاركة في خياراتهم الاجتماعية والثورية؛ وتعرض قادتهم للاضطهاد فاضطروا إما للرحيل أو لكم الأفواه».

يضيف آلان شويه: «إن الحزب السوري القومي، الذي تحول إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي، أمسى أداة للهيمنة السورية في لبنان. وحزب البعث، الذي ورثته أقليات أخرى (علوية في سوريا، وسنية في العراق) كان ستاراً لاستراتيجيات سيطرة هذه الأقليات. أما حركة القوميين العرب، فبعد أن كانت «مدرسة ثورية» للقادة الحاليين اليمنيين، والليبيين، والسودانيين، وسائر أهل الرفض في شبه الجزيرة العربية، لم تعد سوى ذكرى رومنطيقية في ذاكرة

قادة أمسوا إسلامويين. وأخيراً، هناك القادة المسيحيون للحركات الفلسطينية، الذين وقعوا في انحرافات ارتزاقية متنوعة». إن دور المحرك الذي كان للعرب المسيحيين في ظهور وترسيخ القومية العربية، بات طي النسيان في كل مكان تقريباً وتراجع أمام ثبات هويات دينية كما أمام ظهور فكرتي «العروبة ـ الاسلاموية، والاسلاموية ـ القومية»[11].

أمام هذا التطور، هل سيغدو مصير مجمل العرب المسيحيين كمصير أقباط مصر؟ إن المسيحيين المصريين أسهموا بقسط كبير في منتصف القرن التاسع عشر، في مشروع محمد علي باشا الاستقلالي عن اسطنبول، الذي جعل من مصر قمة للحداثة وللفكر القومي العربي. بعد ذلك، حينما اصطدم ملوك مصر بالمطامع الفرنسية ـ البريطانية، عادوا إلى التقارب مع السلطنة العثمانية مضحين بالمسيحيين الذين اشتبه بتعاطفهم مع الغرب. وبعد أن منع المسيحيون المصريون رسمياً من إشغال مناصب رفيعة في الدولة، لم يعد لهم خيار سوى الخضوع أو الرحيل. فاختارت النخب من بينهم الرحيل، الذي تسارع بعد 1952 من جراء قرارات السياسة الناصرية، تاركة وراءها سكاناً غارقين في العوز إلى حد يجعلهم عاجزين عن الصمود بفاعلية أمام ضروب التمييز التي تلحق بهم. وحصل هذا السيناريو نفسه، مع بعض الفوارق، ومنها مجازر أحياناً كثيرة، في جميع بلدان الشرق الأدنى عملياً: تركيا، العراق، السودان، إيران.

واليوم، ومع أخذ هذا التاريخ في الاعتبار، فإن مستقبل العرب

---

(11) وليد شرارة وفريدريك دومون، حزب الله، حركة اسلاموية ـ قومية، منشورات فايار، 2006.

المسيحيين غير الأكيد ليس محكوماً بتآكل قد يجد تفسيراً له في مجابهة مع الاسلام، وربما في نزاع موهوم بين الحضارات. إن أحداث الموصل وكردستان العراقية هي قبل أي شيء من عواقب الغزو الأميركي. فهذه العملية العسكرية الواسعة النطاق، التي تمثل حلقة قصوى في تطبيق مذهب الفوضى البناءة، كانت نتيجتها الرئيسية انفجار الاطار الدولتي ـ الوطني العراقي وأجهزته الدولتية، الذي أفسح المجال لانفجار جغرافي وسياسي يولد الاستقطاب الطائفي.

بعد غوص طويل في بيت لحم سنة 1999، نظمنا، بيار بيان وأنا[12]، معاينة واحدة لمستقبل المسيحيين الفلسطينيين؛ فالذين يغادرون أرضهم يفعلون ذلك تحت ضغط الاحتلال والاستيطان الاسرائيليين وليس بسبب عدم توافق جوهري مع مواطنيهم المسلمين. ولن يكون القول كافياً، مهما كررناه، بأنه في بداية السبعينيات كانت السلطات الاسرائيلية هي التي شجعت انغراس الأخوان المسلمين في الأراضي الفلسطينية، بغية افتعال مجابهة بينهم وبين منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات وسائر المنظمات الفلسطينية التي كان كثير من كوادرها من المسيحيين.

في نيسان/أبريل 1999، حصلت صدامات طائفية سقط خلالها نحو مئة جريح في الناصرة، حيث كان ناشطو الجبهة الاسلامية يريدون إنشاء جامع في ساحة باسيلية البشارة. «كانت السلطات الاسرائيلية تذكي في الخفاء نار هذه الحرب الدينية الصغيرة التي تزيد من انقسام الأسرة الفلسطينية» بحسب تعليق سفير دولة أوروبية لدى تل أبيب. كذلك أكدت مذكرة سرية للأجهزة الخارجية

---

(12) بيار بيان وريشار لابيڤيير، بيت لحم في فلسطين، منشورات فايار، 1999.

الفرنسية هذا التحليل إذ جاء فيها: «اختارت إسرائيل منذ قيامها إدارة تجزيئية لسكانها العرب. فإنه لأجل منع العرب من أن ينتظموا في جماعة وطنية متضامنة حقيقية، وقادرة أن تقوم بعمل جماعي، على هذا الأساس، كانت الدولة العبرية تحاول بصورة منهجية أن تقوي الفوارق الدينية والاجتماعية ـ الثقافية الخاصة بالمجتمع الفلسطيني. وقد أفضت هذه السياسة إلى تكوين طوائف منفصلة بعضها عن بعض، وخصوصاً لجهة الدروز والبدو، الذين يختلف سلوكهم الانتخابي، مثلاً، عن سلوك سائر المواطنين العرب. إن بروز «الحركة الاسلامية» كقوة سياسية واسعة في إسرائيل، مع ما يصاحبه من توترات طوائفية، يندرج على خط مستقيم في خطة تجزئة الهويات الجماعية. ولا يصح تحليل هذه الظاهرة من خلال موشور الاسلام السياسي». وكما يلاحظ بصوابية جيل كيبل، فإن «الحركة الاسلامية قد تكون أيضاً وربما قبل كل شيء حركة طائفية ليست غايتها العودة إلى أصول الدين الاسلامي بقدر ما هي تعبئة المسلمين على اختلاف مشاربهم»[13].

ولقد اكتشفنا من خلال مواصلة أبحاثنا أن الليكود كان قد خص الحركة الاسلامية بمساعدة قيمتها خمسة ملايين شيكل من أجل تمويل حملتها الانتخابية في ربيع 1999. هذه السياسة التي تقوم على إذكاء نار التوترات الطائفية بغية شق الجماعات الوطنية، هي أداة قديمة في الاستراتيجيا الاستعمارية. هكذا شجع الشين بيت، جهاز الأمن الداخلي الاسرائيلي، بروز حماس في منتصف السبعينيات، عن طريق تمويل مدارسها وهيئات العون الاجتماعي التابعة لها. إن هذه السياسة، التي تعتمد منطق «الأعداء

---

(13) جيل كيبل، النبي والفرعون، منشورات سوي، 1993.

المتكاملين» كانت تهدف إلى «تحطيم من الداخل» للحركة الوطنية الفلسطينية عن طريق حقنها بالجرثومة الأصولية، الأمر الذي يعترف به اليوم مسؤولون عسكريون إسرائيليون كبار[14].

كان وضع مسيحيي لبنان دائماً بمثابة بارومتر، وحتى معيار ضبط، بالنسبة إلى مسيحيي مصر أو العراق أو فلسطين. وفي سياق أحاديثه مع فريدريك دومون[15]، ينادي الجنرال ميشال عون بانتمائه إلى المسيحية، «ديانة المستحيل». وهو في هذا السياق يذكّر بما قاله السيد المسيح: «أحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم» أو «أحبوا قريبكم كما تحبون ذواتكم» أو «أحبوا أعداءكم كما تحبون ذواتكم، وباركوا مبغضيكم»، فهذا لا يدخل في نطاق الممكن، بل في فن المحال. من هذا المنظور، لماذا تتحجر الديانات؟ لأنها تؤمن بأن الحقيقة غير قابلة للتطور. أما في نظري، «فكل الحقائق قابلة للتطور». ثم يوضح في مكان آخر مفهومه اللاهوتي ـ السياسي: «الرسالة المسيحية في جوهرها رسالة انعتاق لا يمكنها أن ترضى بالاستعباد والطغيان (...). هناك فضيلة تستخلص من الأناجيل، هي الحرية!». ثم يضيف: «أنا مسيحي بالارث وبقيت مسيحياً بالاختيار. حين أسمع أحياناً أن الكنيسة المارونية متعصبة، أرد بالقول إن المسيحي مسيحيّ بالمسيح لا من خلال الأكليروس أو الموروثات الثانوية كالطوائف، هذه التي لا شك في كونها تغني المسيحية. كوني مارونياً هو إرث ثانوي أضيفه إلى هويتي المسيحية التي نواتها كانت وستبقى المسيح (...). من هذا المنظور،

---

(14) ريشار لابيڤيير، دولارات الارهاب ـ الولايات المتحدة والاسلامويون، منشورات غراسيه، 1999.

(15) الجنرال عون مع فريدريك دومون، رؤية ما للبنان، منشورات فايار، 2007.

المطلوب هو تطوير المجتمع، وجعله يتحسس، وحتى تربيته على احترام الاختلاف. ليس المقصود هنا مجرد حوار بين الثقافات أو «الحضارات»، وإنما هو ضرورة استنباط نموذج مجتمعي جديد قائم بصورة رئيسية على احترام الاختلاف مع الآخر. بهذا يكون لبنان بلداً ـ رسالة».

وإنه وفقاً لهذا التصور للبنان وقع الجنرال في 6 شباط/فبراير 2006 اتفاقاً سياسياً سمي «وثيقة تفاهم» مع حزب الله. يتناول هذا النص الذي هو بمثابة منطلق سياسي، إن لم يكن برنامجاً انتخابياً، عشر ملفات وطنية ذات أولوية: الحوار الوطني، الديموقراطية ـ التوافقية، قانون الانتخاب، بناء الدولة، المفقودون في زمن الحرب، لبنان وإسرائيل، مسألة الأمن، العلاقات اللبنانية ـ السورية، العلاقات اللبنانية ـ الفلسطينية، حماية لبنان وتوطيد استقلاله وسيادته. «كان من الواجب وضع تدابير تعيد الثقة بين الطوائف للتخلص من رواسب الحرب وترسيخ أمن البلاد» يقول شارحاً. «وثيقة التفاهم هذه تشكل قاعدة مستقبل مطمئن وطموح»[16].

ويضيف قائلاً: «يجب تحريك الخطوط، لأن المستشرقين يحولون دون قيام أي نوع من تطور العلاقات بين العرب المسيحيين وسائر العالم العربي ـ الاسلامي، بل ينكرونها، وعلى العرب المسيحيين أن يقلعوا عن انعزاليتهم. وبعد أن انتقلوا صوب الغرب إبان الثلاثين سنة الأخيرة، فقد آن أوان الانتقال صوب الشرق، والبقاء فيه، حيث يكونون شهوداً على الانفتاح الذي هم رسله. لا

---

(16) من حديث مع المؤلف، في 21 كانون الثاني/يناير 2009.

أكف عن ترداد هذه الرسالة أمام قادة البلدان العربية المعنية. بهذه الروحية قمت بالرحلة إلى دمشق».

لقد سجلت زيارة الجنرال عون لسوريا التي استغرقت خمسة أيام، في كانون الأول/ديسمبر 2008، انعطافاً سياسياً وتاريخياً كبيراً. وبعد أن زار الجامع الأموي الكبير في دمشق، الذي يؤوي قبر يوحنا المعمدان، قام يوم الأحد في 6 كانون الأول/ديسمبر بزيارة قبر مار مارون، شفيع طائفته، في شمال حلب، وحضر قداساً في الهواء الطلق. إنَّ الطائفة المسيحية في سوريا، التي يبلغ تعدادها مليوناً وسبعماية ألف مؤمن، تمتع بحرية كاملة في ممارسة دينها.

لقد كتبت مجلة إيبدو ـ ماغازين[17]: «سيراً على خطى مار مارون، بعث رئيس التيار الوطني الحر بعدة رسائل ترسي قواعد المرحلة الثانية من استرتيجيته السياسية». فالذي حارب سوريا عسكرياً بين 1988 و1990، وسياسياً حتى تاريخ انسحاب القوات السورية من لبنان سنة 2005، قد صفّى في سوريا ماضي لبنان. وتضيف المجلة قائلة: «الرحلة إلى سوريا أتاحت للجنرال عون فرصة مواصلة حملته لصالح مسيحيي الشرق. كان عدد هؤلاء عشرين مليوناً في مطلع القرن العشرين، وقد غادر كثيرون منهم أرضهم الأصلية أو بدلوا هوياتهم، كما فعل مثلاً أقباط مصر الذين لا يزال عددهم مع ذلك يتراوح بين خمسة وسبعة ملايين، أو مسيحيو فلسطين. إن أوضاع هؤلاء متنوعة جداً. فالطائفة المسيحية في إيران تحظى بمعاملة جيدة جداً وتتمتع بحرية ممارسة طقوسها

---

(17) مجلة إيبدو ـ ماغازين، في 12 كانون الأول/ديسمبر 2008.

الدينية، لكن المسيحيين في العراق يذبحون. في هذا الاطار يتخذ ميشال عون موقف الناطق بلسان مسيحيي الشرق».

يكرر لي الجنرال ما هو أساسي في نظره: «إنه لبتمسكهم ببلدانهم يخدم العرب المسيحيون العالم العربي، فيما يخدمون أنفسهم في الوقت ذاته، لأن كل تاريخهم، وإن كان في منتهى المأساوية أحياناً كثيرة، يشهد على التعددية، والانفتاح، وبالتالي نبذ التطهير الاثني، والابادة الجماعية، وفي آخر الأمر نبذ الاستعمار».

إن سليمان فرنجيه، «الوارث»، يواجه مستقبل عمله السياسي من هذا المنظور إياه، منظور صفة تمثيلية لمسيحيي لبنان تشمل العرب المسيحيين في الشرقين الأدنى والأوسط. «لمسيحيي لبنان دور إقليمي يجب أن يؤدوه باتجاه سوريا وإيران ومصر وفلسطين، كي يحولوا دون أن يصبح صراع الحضارات، أمراً لا مفر منه كما يصورونه لنا منذ انتهاء الحرب الباردة. إن بقاء العرب المسيحيين في بلدانهم يشكل أحد العوائق في وجه هذا السيناريو «الحضاروي» الخبيث، الذي تبدو أسسه النظرية والجيوسياسية أبعد ما تكون عن الواقع، وحتى مصطنعة من أساسها. إن عملنا السياسي في لبنان وفي منطقة الشرق الأدنى يندرج في إطار تعارض مع ما يسمى «صدام الحضارات» الذي نرفض برنامجه وإيديولوجياه»[18].

«موت المسيحية الشرقية ليس بالأمر الحتمي» يقول الدبلوماسي والمؤرخ جان ـ بيار فالوني[19]. «فإن مسيحيي الشرق، الذين لهم

---

(18) من حديث مع المؤلف، في أول شباط/فبراير 2009.

(19) جان ـ بيار فالوني، حياة وموت مسيحيي الشرق ـ منذ القدم حتى اليوم، منشورات فايار، 1999.

جذور عربية في الأساس، لا يشكلون طعماً على شجرة غريبة لا بد أن تلفظه هذه الشجرة. فالتمايزات الدينية التي يعانون منها يمكن أن تفقد أهميتها في المستقبل وأن تحل محلها أشكال أخرى للتراتب المجتمعي مؤاتية أكثر لاندماجهم (...). وإن انتماء مسيحيي ومسلمي الشرق الأوسط إلى العروبة يمكن أن يسمح بمفرده بتجاوز علاقة السيطرة بين الأكثرية والأقلية، التي أقامها الاسلام، وذلك ليس فقط لأن هذا الانتماء يقرب ما بينهم (حول ثقافة واحدة وفي كنف أمة واحدة)، بل أيضاً لأنه يميزهم عن غير العرب (حتى لو كانوا مسلمين) ويزودهم بقضية مشتركة يجب الدفاع عنها، في ظل وضع حافل بالنزاعات التي تشهدها المنطقة منذ عقود».

نحن من جهتنا نفضل على هذا الرهان الثقافوي عند جان ـ بيار فالوني، رهاناً «سياسياً» يستند إلى الآراء التي سمعناها من كثيرين من العرب المسيحيين الذين التقيناهم لأجل هذا التحقيق حول مجزرة إهدن. نقصد بذلك توظيف العقل المعاصر في السياسة، على نحو ما فعل باسكال سنة 1670 في رهانه الشهير حول وجود الله. فقد كتب في مؤلفه «الأفكار» ما يلي: «لديكم شيئان تخسرونهما: الحق والخير، وشيئان توظفونهما: عقلكم وإرادتكم، معرفتكم وغبطتكم؛ ولطبيعتكم شيئان يجب اجتنابهما: الغلط والبؤس. لن يضير عقلكم أن يختار هذا الشيء لا الآخر، لأن عليه بالضرورة أن يختار. هذه نقطة منتهية. لكن ماذا بشأن الغبطة؟ لنزن الربح والخسارة، مختارين أن الله موجود. لنأخذ في الاعتبار هاتين الحالتين: إذا كسبتم كسبتم كل شيء؛ وإذا خسرتم فلن تخسروا شيئاً. راهنوا إذن على أنه موجود. دون أن تترددوا».

ومع أخذ دائية مختلف أزمات الشرقين الأدنى والأوسط في

الاعتبار، يمكن لنا أن نستند، دون تردد، إلى متغير الضبط الذي يجسده العرب المسيحيون، كي نراهن على خريطة طريق أخرى، قد تقلب رأساً على عقب الأجندة الدولية التي فرضتها الادارتان الأميركيتان الأخيرتان، وتعيد إلى النزاع الاسرائيلي ـ الفلسطيني كل مركزيته بالنسبة إلى الملفات اللبنانية والسورية والعراقية والايرانية النابعة منه. تضاف إلى هذا الطرح لازمتان *more geometrico* هما: 1) نبذ احتكار الوساطة الأميركية؛ 2) تعزيز الوساطات الاقليمية كما أدرجت في قمة دمشق العربية بتاريخ 29 و30 آذار/مارس 2008: وساطة قطر، وتركيا، وبلدان أوروبية تثبت إرادتها السياسية الحازمة والمستقلة لهذا الغرض.

خلاصة: عودة إلى إهدن

«المحاكمة التي ستبدأ ستلقي مزيداً أو قليلاً من الضوء. ليس المهم ماذا ستكون النتيجة، المهم هو الاجراءات. يبقى أنه يجب إيجاد من الذي ضربك بعصا حديدية، ذاك الذي أمر أحدهم والذي بدوره أمر شخصاً آخر بأن يقتلك. في الجهة المقابلة، تطلى الشرفات باللون الأحمر. لقد اصفرّت أسناني. أتوقف عن الكتابة إليك».

فاسيليس فاسيليكوس. Z (1966).

الغاية من عملية الأرز كانت احتلال إهدن وشمال لبنان، وكان الكتائبيون يبغون من وراء ضرب نفوذ أسرة فرنجيه وأهل الشمال، «توحيد البندقية المسيحية»، والفوز برئاسة الجمهورية. إنَّ برنامجاً كهذا كان يقتضي بالضرورة تصفية المنافسين المحتملين لبشير الجميل، كل المنافسين بدءاً بطوني فرنجيه، النجم الصاعد في السياسة اللبنانية؛ فبعد أن عقد الكتائبيون شراكة استراتيجية مع أجهزة المخابرات الاسرائيلية منذ ربيع 1976، قاموا بتدبير هذه العملية مستفيدين من التعاون اللوجستي والسياسي الضروري مع هذه الأجـهزة، إذ إنَّ كل المصادر الاسرائيلية التي سئلت عن هذا الأمر قد أكدته: كان بشير الجميل الشاب، ذو الست والعشرين

سنة آنذاك، عديم الخبرة بالاستراتيجيا، وأقل من ذلك أيضاً كي يضع التصوّر لهذه العملية العسكرية بحد ذاتها، كما لكي يعمل على معالجة تداعياتها الجيوسياسية.

فعملاً بفكرة قديمة لبن غوريون الذي كان ينصح الجيش الاسرائيلي باعتماد خدمات أي صف ضابط لبناني تداركاً لظهور دولة معادية على الحدود الشمالية، لم تكتف أجهزة المخابرات الاسرائيلية بتأمين التأطير واللوجستية اللازمين لعملية الأرز، بل بادرت إلى تفخيخها وذلك من خلال عملية سرية في داخلها. فحين نصح الموساد بشير الجميل بأن يعهد بإمرة الوحدة المكلفة بالهجوم على قصر إهدن إلى سمير جعجع، فإنه قام بتلاعب مهني يبلغ الكمال تقنياً. لقد كان هذا ذا فائدة ثلاثية من المنظور الاسرائيلي: يضمن تصفية مسؤول سياسي لبناني من الدرجة الأولى معاد لإسرائيل؛ يفتح طريق الحكم المسيحي أمام مسؤول «عالجته» أجهزتها السرية؛ وأخيراً، يكون بمثابة حقل اختبار لأحد التصورات الأساسية للعمليات التي يقوم بها الجيش الاسرائيلي في الخارج، أي «الاغتيال الهادف».

في هذه القضية، سيكون على المؤرخين أن يوضحوا الدور المحدد الذي كان للمكتب الثاني في الجيش اللبناني ولكبار مسؤولي هذا المكتب. وسيكون عليهم أيضاً أن يزيحوا الستار عن المكيدة التي جعلت من «الاغتيال الهادف» أداة الضبط السياسي المركزية. وسيكون عليهم أخيراً أن يرفعوا القناع عن الهويات القاتلة التي أجاد أمين معلوف في فضحها[1]. إن النقد الرصين

(1) أمين معلوف، الهويات القاتلة، منشورات غراسيه، 1998.

لتهور ووقاحة بستانيي جهنم، بدءاً بمن هم وراء سياسة واشنطن الخارجية، لن يبعث ضحايا إهدن الاثنتين والثلاثين، ولن يعيد آلاف المفقودين إلى عائلاتهم، لكنه قد يسهم في تضييق الشرخ الوهمي[2]، المصطنع والمعتنى به ما بين الشرق والغرب، والذي في ظله بوشر هذا التحقيق.

إن هذه الرؤية الايديولوجية، الموروثة بقدر واسع من علم الاجتماع عند ماكس ويبير، الذي يعارض بين المجتمعات الحديثة والعقلانية وتلك التي يغلب فيها الدين وأواصر النسب والزعامات العائلية القديمة، هي اليوم ناشطة في العالم «المكوكب» أكثر منها في أي وقت مضى، وقد أمست تشكّل شبكة القراءة السائدة لعولمة مشرعنة، ومجافية لكل شكل من أشكال الفكر النقدي. لقد أعلنت البلدان الغربية، نهاية التاريخ بنرجسية وغطرسة لا حد لهما، وأقامت نظامها الديموقراطي بوصفه النظام الوحيد القابل للحياة، الشرعي، والشامل. وقد استقوى هذا الموقف بعناصر ثلاثة: سقوط جدار برلين، اعتداء 11 أيلول/سبتمبر 2001، وتقدم آليات مالية لا ضابط لها سيطرت في آخر الأمر على كل نوع من أنواع الاقتصاد الحقيقي.

لقد ترافق هذا التطور مع الحفاظ على «علمانية زائفة» وظاهرية، كما يقول جورج قرم[3]. أما في العمق، فكانت العولمة بحسب صيغة واشنطن وزمنيتها البروتستانتية تعملان جاهدتين على تجزئة إقليمية وسياسية للعالم، على قبلنة جديدة للكرة الأرضية بغية إزالة

(2) جورج قرم الشرق ـ الغرب: الشرخ الوهمي، منشورات لاديكوفرت، 2002.

(3) من حديث مع المؤلف في ربيع 2008.

كل مقاومة بهدف ترسيخ نظام سيطرة بلا منازع. إنَّ أعداء هذه النزعة الرئيسيين هم الدولة ـ الأمة، وحركات التحرر الوطني وقواعدها العلمانية. لكن، بما أن السلطان كان دوماً بحاجة إلى تسويغ انتشاره وأرباحه واغتيالاته، فإن واشنطن وحلفاءها، يستعينون بالأخلاق، والعواطف الطيبة، وبالدين أحياناً كثيراً، لمحاربة السياسة والعقل النقدي، فيكثرون من التدخلات الانسانية العزيزة على قلب برنار كوشنر، ومن الحروب العادلة، والحروب الوقائية، والاغتيالات المنتقاة.

إن هذه الايديولوجيا التي تستند، بالرغم من طلائها العلماني، إلى الاعتقاد بأن للغرب رسالة سامية وشاملة، هي على عكس ذلك إيديولوجيا دينية بكل معنى الكلمة. فهي إذ ترمي إلى تحطيم كل مقاربة علمانية للعالم، إنما تقوم بتجريم القوى الوطنية التي تصمد لها، مولدة بذلك التيارات المتطرفة الضرورية لنشر الفوضى البناءة[4].

«يلوح لي أن التطرف يجد مصدره الرئيسي ـ لا أقول الوحيد وإلا وقعت في الخطأ الذي استنكره ـ في إرساء الوحدانية على الفكر الثنائي، في تطعيم الاثنين بالواحد، الذي أسميه، كي يكون له اسم، بالـ «مونو بيناريسم» (Monobinarisme). إن هذا المنحى في التفكير، هذه الذهنية، هذا الخيار القومي الخاص بأهل التوراة، يقوم على القول بأن في حياة الجماعة متضادين أحدهما إيجابي والآخر سلبي، وأن على الايجابي أن يلغي السلبي كي يبقى وحده في قطب الحق والخير. من هذا المنظور، لا يكفي أن يكون لك

(4) أنظر الفصل الثاني والعشرين: بستانيو جهنم أو اللااستقرار البنّاء.

إله واحد فحسب، بل يجب أن تهدم آلهة الآخرين؛ ولا أن تؤلف شعباً متحداً حول مذهب وحيد وحسب، بل يجب أن تلغي المعارضين، المنشقين؛ إلخ، لذلك، فإنَّ العنف يتبدى ملازماً لجوهر هذه الايديولوجيا»[5]. لن نكون مبالغين مهما كررنا القول كيف تلاعبت الحكومات الأميركية المتعاقبة بالأقليات الاثنية والدينية، وكيف فبركت أسامة بن لادن ومن جاؤوا بعده، ليس فقط لأجل محاربة الاتحاد السوفياتي بل أيضاً لأجل إضعاف الدول ـ الأمم التي قد تطعن بمصالحها.

لقد مر الترسّخ الجيوسياسي لهذه الأيديولوجيا بمراحل ثلاث متتالية: شهدت الأولى تجنيد الديانات التوحيدية الثلاث في كفاح مستميت ضد الشر المطلق: الشيوعية. من هذا القبيل، لم يهبط تعيين بابا بولوني، في غمرة الحرب الباردة، من السماء بواسطة حبل عادي... المرحلة الثانية شجعت قيام دول ـ أمم على أسس دينية: العربية السعودية سنة 1925، وباكستان سنة 1947، وإسرائيل سنة 1948. يمكن أن نضيف هنا تفجير وتجزئة يوغسلافيا السابقة إلى دويلات صافية اثنياً ودينياً. آخر حلقة في تجزئة العالم هذه كانت خلق دولة كوسوفو في 17 شباط/فبراير 2008.

إن خلق هذه الدولة الأخيرة، هذه الظاهرة الرمزية للعولمة الجاري تنفيذها، والتي سيتحمل الاتحاد الأوروبي عبئها المالي بصورة رئيسية، ينسجم تماماً مع الفوضى الاقتصادية الكروية: «إن المبالغ المالية الآتية من مئات آلاف الالبانيين المغتربين، المقيمين

(5) جان سولير، العنف التوحيدي، منشورات دوفالوا، 2009 ـ أرشدني جيرار خوري واسطفان هيسيل إلى صوابية هذا الكتاب.

في سويسرا، وألمانيا، وفي البلدان الاسكندينافية، وبلجيكا، والولايات المتحدة، هي ذات قيمة حيوية بالنسبة إلى كوسوفو. إنَّ موجات الهجرة هذه ليست على وشك التوقف، بينما البطالة تطال 60% من السكان العاملين في هذا الاقليم، و60% من سكان كوسوفو هم دون الخامسة والعشرين من العمر، ويبلغ 40000 شاب الثامنة عشرة من العمر شهرياً دون أن تتاح لهم أية فرصة تقريباً لبناء حياتهم في بلدهم...»[6]. إن هذا القرار الأحادي، الذي صُور على أنه أمر لا مناص منه بعد فشل المحادثات بين بريستينا وبلغراد، يسبغ الصفة الرسمية على وجود دويلة يقل عدد سكانها عن مليونين ونصف مليون نسمة. ويأتي هذا الاعتراف تصديقاً لانسحاب الأقلية الصربية من أرض كوسوفو، الذي هللت له الأسرة الدولية إياها التي تنكر على الشعب الفلسطيني حقه في تقرير المصير منذ 1948.

وأبعد من ممارسة سياسة المعيارين والمكيالين المطبقة بصورة منهجية على الاستثناء الفلسطيني منذ أكثر من ستين سنة من جانب الأسرة الدولية، وعلى طرفي نقيض مع نجاحات حركات التحرر الوطني، وضد كل شكل من أشكال مقاومة النظام العالمي، فإن إعادة قبلنة العالم هذه هي خيانة متمادية لإرث عصر الأنوار، خيانة لقيم الثورة الفرنسية وللعلمانية الحقة. إننا عندما نشدد على إرث عصر الأنوار، ينبغي أن نوضح بأن المقصود ليس مجرد تمويهات برلمانية مستوحات بهذا القدر أو ذاك من مونتاني أو روسو، أو

(6) جان ـ أرنو ديرانس في لوموند دبلوماتيك، بتاريخ 17 كانون الأول/ دسمبر 2008.

كوندورسيه، وإنما هو السلالة الممتدة من ديكارت، وسبينوزا، وهيغل، وبابوف، وماركس، وصولاً إلى مؤتمر باندونغ[7]، هذا الذي أعاد التشديد على مبادىء علمانية سياسية كاملة، حين أعلن مبادىء الدول ـ الأمم غير المنحازة.

وفي هذا السياق لا بدّ لي من تقديم هذا التعريف[8] لجورج قرم حيث يقول: «ينبغي للعلمانية أن تنعتق من قيد النوعية التي تطبع ظهورها التاريخي، أي الخصومة بين السلطات الزمنية والروحية والنضال ضد احتكار الكنيسة الرومانية لتعريف العقيدة الدينية. عليها أن ترتفع إلى مستوى أعلى، مستوى الفلسفة الكونية والانسانية التي انبثقت منها، وأن تثبت مجدداً كونها الركيزة الكبرى لممارسة ديموقراطية الجوهر؛ من واجبها إذن أن تذكر بأن العلمانية الحقة هي أولاً مذهب وئام مدني داخل الدول، كما في العلاقات بين الدول، كما أنها مذهب يحمي الفرد من الامتثالية والضغوط النفسانية التي يمكن أن تأتيه من أعيان وقادة طائفته الدينية أو الاثنية؛ وهي من جهة أخرى مذهب يتوخى صون سلامة الدين والقيم الروحية بجعلها في مأمن من تلاعبات السياسيين في تسابقهم إلى الحكم، كما أنه يصون سلامة الدولة بجعلها في مأمن من هذه التلاعبات من جانب الطرف الديني».

(7) انعقد مؤتمر باندونغ من 18 إلى 24 نيسان/أبريل في مدينة باندونغ الأندونيسية، وضم لأول مرة ممثلي تسعة عشر بلداً إفريقياً وآسيوياً كان بينها المصري جمال عبد الناصر، والهندي نهرو، والأندونيسي سوكارنو، والصيني شوان لاي. سجل هذا المؤتمر دخول بلدان الجنوب المسرح الدولي.

(8) من محاضرة لجورج قرم بعنوان: *Globalisationet communautarisation du monde: quel future la laïcité?* Janvier 2006.

وفيما أغلق ملف مجزرة إهدن موقتاً، وحين أحدّق في عيون من شاركوا فيها، أطرح عليهم، وأطرح على نفسي هذا السؤال: ماذا حل بتلك الأنوار الجذرية؟ السؤال موجه بالدرجة الأولى إلى حكام البلدان التي شهدت ولادة الأنوار، والتي عاشت ثوراتها وادعت تأمين توريثها للآتي من الأزمان. إنني بعد أن مُنعت عن الكلام في بلادي، أقمت في بيروت، خلال شهر آب/أغسطس 2008[9]، ندوة صحافية حول حرية الصحافة والتعبير تعذر عليّ أن أقيمها في باريس. لقد كنت إلى جانب محمد بعلبكي، نقيب الصحافة اللبنانية، ونددت بأرولة[10] قسم من الصحافة الفرنسية والدولية. هذه الأرولة التي ترتكز على ثلاثة أنواع من التطور: الأول هو الذي يرى التواصل يأخذ مكان الاعلام ومبادئه الأساسية؛ والثاني هو الذي يلغي الاعلام في الثنائية الخلقية، ثنائية الأخيار ضد الأشرار، والديموقراطية ضد الارهاب، والمدنية ضد البربرية، والخير ضد الشر، وأخيراً هناك تجريم العقل النقدي والحرية والمقاومة.

وكما أشرت في مقدمة هذا التحقيق حول مجزرة إهدن، فإنني أشعر كلما وصلت إلى بيروت - حتى في أدق اللحظات وبمعزل عن كل التناقضات المحلية والاقليمية والدولية - بتلك النسمة من الحرية التي تتميز تميزاً فريداً عن الجو الثقيل الذي يخيم على فرنسا ما بعد شيراك. على فرنسا هذه التي يصعب التعرف إليها، الفاسدة، المتغطرسة، والمنحازة، ما زلت أفضّل فرنسا أخرى،

---

(9) بيروت في 26 آب/أغسطس 2008.

(10) نسبة إلى اسم الكاتب جورج أورويل (المترجم).

تلك التي لا تزال حية، فرنسا جنود جيش السنة الثانية، أفضّل فرنسا انتفاضة باريس على رجال المجلس الوطني للمقاومة؛ أفضّل فرنسا روبسبيار، وكمي دي مولان، ولويز ميشال، وجان مولان حتى الجنرال ديغول الذي أخرج بلادي من القيادة المشتركة لحلف الأطلسي. هؤلاء جميعاً يجسدون الحرية، والاستقلال الوطني، ومقاومة النظام العالمي.

إهدن، الاثنين في 23 آذار/مارس 2009.

معالم تاريخية

1831 ـ 1840: الأمير بشير الثاني يساعد ابراهيم باشا على فتح عكا ثم سوريا. إدارة الباشا تثير انتفاضات. الحملة المصرية على سوريا تفضي أيضاً الى نفي بشير الثاني نهائياً.

1840 ـ 1842: بشير الثالث أمير ضعيف الشخصية. العثمانيون والبريطانيون يتلاعبون بالخلافات بين المسيحيين والدروز. ابتدأت المجازر الطائفية.

16 كانون الثاني/يناير ـ 6 كانون الأول/ديسمبر 1842: الادارة العثمانية المباشرة للبنان تخفق.

1842 ـ 1848: تقسيم جبل لبنان الى قائمقاميتين، درزية ومارونية. أحدثت نهاية نظام الامارة مشاكل عديدة، كان بينها أعمال عنف طائفية جديدة.

1858 ـ 1860: مذابح جديدة في الجبل. أفضى تدخل الدول الكبرى لصالح المسيحيين الى إقرار النظام الأساسي سنة 1861، الذي جعل لجبل لبنان نظاماً مالياً، وقضائياً، وإدارياً، خاصاً وأخرجه من وصاية الباب العالي.

16 أيار/مايو 1916: توقيع اتفاقيات سايكس ـ بيكو.

10 حزيران/يونيو ـ 1916: أطلق شريف مكة إشارة الثورة العربية وأعلن استقلال الحجاز.

11 كانون الأول/ديسمبر 1917: دخل الجنرال البريطاني أللمبي مدينة القدس.

30 أيلول/سبتمبر 1918: القوميون العرب السوريون يسيطرون على دمشق.

7 تشرين الأول/أكتوبر 1918: القوات الفرنسية بقيادة الكونتر ـ أميرال فارنيه تدخل بيروت.

20 كانون الأول/ديسمبر 1918: ذهاب أول وفد لبناني الى مؤتمر السلام في فرساي.

30 كانون الثاني/يناير 1949: الحلفاء يقررون تقسيم السلطنة العثمانية.

13 شباط/فبراير 1919: رئيس اللجنة المركزية السورية شكري غانم يطالب بإنشاء اتحاد سوري-لبناني تحت رعاية فرنسا.

15 شباط/فبراير 1919: رئيس الوفد اللبناني داود عمون يطالب بالعودة الى الحدود «التاريخية والطبيعة» وبالاستقلال وبمساندة فرنسا.

20 أيار/مايو 1919: المجلس الاداري لجبل لبنان يقر إعلان الاستقلال.

16 حزيران/يونيو 1919: ذهاب وفد لبناني ثان الى مؤتمر السلام.

20 شباط/فبراير 1920: ذهاب وفد لبناني ثالث الى مؤتمر السلام.

25 نيسان/أبريل 1920: مؤتمر سار ريمو يمنح فرنسا الانتداب على سوريا ولبنان، وبريطانيا العظمى الانتداب على العراق وفلسطين.

14 تموز/يوليو 1920: الجنرال غورو يوجه إنذاراً الى الأمير فيصل.

24 تموز/يوليو 1920: اندحار قوات الشريف في ميسلون.

الأول من أيلول/سبتمبر 1920: الجنرال غورو يعلن استقلال لبنان الكبير.

23 أيار/مايو 1926: أول دستور لبناني.

الأول من أيلول/سبتمبر 1926: دولة لبنان الكبير تتبنى تسمية الجمهورية اللبنانية.

17 تموز/يوليو 1929: ثورة جبل الدروز.

20 كانون الثاني/يناير 1936: انتخاب إميل إده رئيساً للجمهورية اللبنانية.

7 تشرين الثاني/نوفمبر 1936: الكتائب اللبنانية التي أسسها بيار الجميل، وجورج نقاش (صحافي)، وشارل حلو (صار فيما بعد رئيساً للجمهورية)، وحميد فرنجيه، وشفيق ناصيف، يصدرون أول بيان يطالب بالاستقلال الوطني. الكتائبيون الأولون، المتجمعون حول صيدلية بيار الجميل في ساحة البرج (ساحة الشهداء حالياً) يناضلون في سبيل استقلال لبنان وسيادته.

18 حزيران/يونيو 1940: الجنرال ديغول يطلق نداءه من لندن.

24 حزيران/يونيو 1941: الجنرال ديغول يعين الجنرال كاترو مندوباً عاماً لفرنسا الحرة وقائداً أعلى في المشرق.

26 تشرين الثاني/نوفمبر 1941: الجنرال كاترو يعين ألفرد نقاش رئيساً للجمهورية اللبنانية.

21 أيلول/سبتمبر 1943: انتخاب بشارة الخوري رئيساً للجمهورية اللبنانية.

7 تشرين الأول/أكتوبر 1943: البيان الوزاري لرياض الصلح الذي يرسم وجه لبنان الجديد: «لا شرق ولا غرب».

23 تشرين الثاني/نوڤمبر 1943: اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني تصدق من مدينة الجزائر على استقلال لبنان.

الأول من كانون الأول/ديسمبر 1943: النواب يعدلون الدستور ويقرون العلم الوطني الجديد.

22 آذار/مارس 1945: لبنان يشارك في تأسيس الجامعة العربية.

31 آذار/مارس 1945: لبنان يدعى رسمياً الى مؤتمر سان فرنسيسكو الذي أنشأ منظمة الأمم المتحدة.

15 أيار/مايو 1948: إعلان قيام دولة إسرائيل وأول حرب إسرائيلية ـ عربية.

16 تموز/يوليو 1951: اغتيال رئيس الوزراء رياض الصلح في عمان على يد أعضاء في الحزب القومي السوري.

23 أيلول/سبتمبر 1952: انتخاب كميل شمعون رئيساً للجمهورية اللبنانية.

18 ـ 24 نيسان/أبريل 1955: مؤتمر باندونغ (أندونيسيا) يجمع لأول مرة ممثلي تسعة وعشرين بلداً إفريقياً وآسيوياً كان بينهم جمال عبد الناصر (مصر) نهرو (الهند)، سوكارنو (اندونيسيا)، شو وان لاي (الصين). سجل هذا المؤتمر دخول بلدان العالم الثالث الى المسرح الدولي.

18 حزيران/يونيو 1956: آخر جندي بريطاني يرحل عن مصر.

23 حزيران/يونيو 1956: انتخاب عبد النصار رئيساً للجمهورية المصرية.

26 تموز/يوليو 1956: عبد الناصر يؤمم قناة السويس.

29 تشرين الأول/أكتوبر 1956: إسرائيل تشن هجوماً على مصر.

30 و31 تشرين الأول/أكتوبر 1956: الاسطولان الفرنسي والبريطاني يدخلان المياه الاقليمية المصرية. الرئيس شمعون يدعو القادة العرب الى اجتماع في بيروت.

7 تشرين الثاني/نوڤمبر 1956: منظمة الأمم المتحدة تقر انسحاب القوات الأجنبية فوراً من مصر.

16 آذار/مارس 1957: لبنان ينضم الى «مذهب أيزنهاور». هذا المذهب الذي حمل اسم رئيس الولايات المتحدة كان يسعى الى الحد من تقدم الشيوعية والاتحاد السوفياتي في العالم، عن طريق القيام بتدخلات عسكرية واقتصادية. وانضم الى هذا المذهب أيضاً كل من تركيا وإيران والعراق والاردن.

30 أيار/مايو 1957: تظاهرة مناوئة للرئيس شمعون تتحول الى قتال حقيقي.

الأول من شباط/فبراير 1958: اندماج مصر وسوريا تحت تسمية الجمهورية العربية المتحدة.

9 أيار/مايو 1958: نشوب الانتفاضة. خلال 24 ساعة، أمسى نصف لبنان خارج سلطة الدولة. اتهم كميل شمعون الجمهورية العربية المتحدة بالتدخل ورفع الأمر الى مجلس الأمن الدولي.

15 تموز/يوليو 1958: قرر الرئيس أيزنهاور إرسال مشاة بحرية الأسطول السادس الى لبنان.

31 تموز/يوليو 1958: انتخاب الجنرال فؤاد شهاب رئيساً للجمهورية اللبنانية.

18 أيلول/سبتمبر 1958: تأليف الحكومة الموقتة للجمهورية الجزائرية في القاهرة.

19 أيلول/سبتمبر 1958: اختطاف الصحافي الكتائبي فؤاد حداد في بيروت يشعل الحرب الأهلية مجدداً.

25 تشرين الأول/أكتوبر 1958: مشاة البحرية الأميركيون يغادرون لبنان.

14 تموز/يوليو 1959: إصدار 162 مرسوماً اشتراعياً أعادت تنظيم أجهزة الدولة اللبنانية.

31 كانون الأول/ديسمبر 1959: تدشين كازينو لبنان.

5 تشرين الأول/أكتوبر 1961: عبد الناصر يعترف بسوريا ونهاية الجمهورية العربية المتحدة.

منتصف كانون الثاني/يناير 1962: تخويل المكتب الثاني (جهاز استخبارات الجيش اللبناني) صلاحيات واسعة تشمل كامل الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

12 كانون الأول/ديسمبر 1962: إنشاء مصرف لبنان المركزي.

18 آب/أغسطس 1964: المجلس النيابي ينتخب شارل حلو رئيساً للجمهورية.

12 أيار/مايو 1967: إسرائيل تتهم سوريا بتدبير هجمات إرهابية على أراضيها.

5 حزيران/يونيو 1967: ابتداء الحرب الاسرائيلية - العربية الثالثة.

22 تشرين الثاني/نوفمبر 1967: مجلس الأمن الدولي يتبنى القرار 242 الذي يطلب انسحاب إسرائيل من الأراضي الفلسطينية المحتلة. مصر والأردن يقبلان هذا القرار.

28 كانون الأول/ديسمبر 1968: فريق كوماندو إسرائيلي يدمر 13 طائرة مدنية لبنانية.

22 كانون الثاني/يناير 1969: معركة بين الجيش اللبناني والفدائيين الفلسطينيين في قرية مجدل سلم.

28 - 30 تشرين الأول/أكتوبر 1969: مفاوضات لبنانية - مصرية حول تمركز المنظمات الفلسطينية في الأراضي اللبنانية.

3 تشرين الثاني/نوفمبر 1969: الجنرال بستاني وياسر عرفات يوقعان اتفاق القاهرة الذي ينظم حضور المنظمات الفلسطينية في لبنان.

17 آب/أغسطس 1970: سليمان فرنجيه ينتخب رئيساً للجمهورية اللبنانية بأكثرية صوت واحد.

17 أيلول/سبتمبر 1970: حرب بين الجيش الأردني والمنظمات الفلسطينية.

الأول من تشرين الأول/أكتوبر 1970: مأتم جمال عبد الناصر.

15 تشرين الأول/أكتوبر 1970: انتخاب أنور السادات رئيساً للجمهورية المصرية.

شباط/فبراير 1971: الرئيس سليمان فرنجية يقلّص صلاحيات المكتب الثاني في الجيش اللبناني.

16 آذار/مارس 1971: **المجلس الوطني الفلسطيني يقرر نقل هيئة قيادته وأجهزة استخباراته الى بيروت.**

12 آذار/مارس 1971: انتخاب الجنرال حافظ الأسد رئيساً للجمهورية السورية.

16 آذار/مارس 1971: الرئيس سليمان فرنجيه يقصد دمشق لتهنئة الرئيس الأسد.

26 شباط/فبراير 1972: مدرعات إسرائيلية تهاجم عدة قرى في جنوب لبنان.

5 أيلول/سبتمبر 1972: هجوم في ميونيخ على 9 رياضيين إسرائيليين مشاركين في الألعاب الأولمبية، والجبهة الشعبية

لتحرير فلسطين ـ القيادة العامة التي يرأسها أحمد جبريل تتبنى العملية.

7 أيار/مايو 1973: اتفاق جديد لبناني ـ فلسطيني يوقع بعد صدامات عديدة بين الجيش اللبناني وفصائل فلسطينية.

8 أيار/مايو 1973: معركة بين الجيش اللبناني والفدائيين حول المخيمات الفلسطينية في بيروت.

15 آب/أغسطس 1973: الوزير طوني فرنجيه يزور دمشق حيث يستقبله الرئيس الأسد الذي يقرر فتح الحدود اللبنانية ـ السورية.

6 تشرين الأول/أكتوبر 1973: مصر تشن «حرب رمضان» على إسرائيل.

22 تشرين الأول/أكتوبر 1973: هنري كيسنجر يباشر في القاهرة دبلوماسيته المسماة «دبلوماسية الخطوات الصغيرة».

7 كانون الثاني/يناير 1975: الرئيس الأسد يقوم بزيارة رسمية الى لبنان.

26 شباط/فبراير 1975: تظاهرة في صيدا (جنوب لبنان) لصيادي السمك تتحول الى اشتباكات.

13 نيسان/أبريل 1975: في عين الرمانة، مجهولون يطلقون النار على حشد من الناس أمام كنيسة يجري تدشينها بحضور بيار الجميل. بعد ساعة، كانت حافلة تنقل فدائيين تتعرض لرشقات أسلحة رشاشة في الشارع إياه. بعد الظهر، أقام الفدائيون والكتائب متاريس في أحيائهم. الحركة الوطنية تطالب بحل حزب الكتائب. ياسر عرفات يرد بالقول إن بعض اللبنانيين يريدون «ذبح الفلسطينيين».

16 نيسان/أبريل 1975: إعلان وقف إطلاق النار.

23 أيار/مايو 1975: الرئيس سليمان فرنجيه يعين الجنرال نور الدين الرفاعي رئيساً للحكومة.

30 أيار/مايو 1975: في بيروت الغربية، 24 قتيلاً يوقعون «الخميس الأسود».

23 حزيران/يونيو 1975: الرئيس سليمان فرنجيه يستدعي ياسر عرفات إلى قصر بعبدا. يتعهد رئيس منظمة التحرير الفلسطينية بـ «الحياد الفلسطيني» في القضايا الداخلية اللبنانية.

24 حزيران/يونيو 1975: مجابهة جديدة دموية بين الميليشيات المسيحية والمنظمات الفلسطينية.

الأول من أيلول/سبتمبر 1975: مصر وإسرائيل توقعان اتفاقاً ثانياً على فك الاشتباك في سيناء يجعل الدولة العبرية في مأمن من هجوم مصري جديد.

7 أيلول/سبتمبر 1975: شاب زغرتاوي يقتل 12 رهينة انتقاماً لاغتيال أخيه، ونشوب مجابهات دموية بين زغرتا وطرابلس. ابتداء «حرب السنتين».

17 أيلول/سبتمبر 1975: الميليشيات المسيحية تضرم النار في أسواق بيروت الصغيرة، والميليشيات التقدمية ترد بإضرام النار في سوق الطويلة. ابتداء حرب وسط المدينة.

20 تشرين الأول/أكتوبر 1975: بداية معركة الفنادق الكبرى.

4 كانون الثاني/يناير 1976: الميليشيات المسيحية تحاصر مخيم تل الزعتر الفلسطيني.

31 كانون الثاني/يناير 1976: الزعماء المسيحيون يعلنون تأليف جبهة الحرية والانسان التي عرفت فيما بعد بالجبهة اللبنانية.

21 آذار/مارس 1976: الميليشيات الفلسطينية ـ التقدمية تتمركز في حي الفنادق الكبرى. ابتدأت بموازاة ذلك معركة الجبل.

منتصف نيسان/أبريل 1976: الجيش السوري يعبر الحدود عند نقطة المصنع ويتقدم نحو البقاع.

8 أيار/مايو 1976: النواب المجتمعون في فيلا منصور وعددهم 69، ينتخبون الياس سركيس رئيساً للجمهورية اللبنانية.

16 أيار/مايو 1976: الرئيس الأسد يستقبل كريم بقرادوني ويطلع على خطة السلام التي أعدها الرئيس سركيس.

21 أيار/مايو 1976: الرئيس الفرنسي جيسكار ديستان يعلن أن فرنسا مستعدة لإرسال «قوة فصل» الى لبنان. المعسكر المسيحي يوافق. الحركة الوطنية ترفض.

الأول من حزيران/يونيو 1976: الجيش السوري يتدخل في لبنان بواسطة 8000 جندي و200 دبابة.

22 حزيران/يونيو 1976: الميليشيات المسيحية تهاجم مخيم تل الزعتر الفلسطيني.

10 آب/أغسطس 1976: سقوط مخيم تل الزعتر.

28 أيلول/سبتمبر 1976: الجيش السوري يشن عملية واسعة على الميليشيات الفلسطينية ـ التقدمية.

18 تشرين الأول/أكتوبر 1976: قمة الرياض تقرر إنشاء قوة الردع العربية.

7 تشرين الثاني/نوفمبر 1976: قوة الردع العربية تباشر انتشارها في لبنان.

16 آذار/مارس 1977: اغتيال كمال جنبلاط. بعد ذلك بيومين، يصبح ابنه وليد، زعيم الطائفة الدرزية، رئيساً للحركة الوطنية.

27 أيار/مايو 1977: الجبهة اللبنانية تعلن أنّ اتفاقية القاهرة لاغية.

19 كانون الأول/ديسمبر 1977: الرئيس المصري أنور السادات يزور القدس. في اللحظة ذاتها، تقوم تظاهرات في كل مكان في العالم العربي ـ الاسلامي. ويُعلن السادات «خائناً للأمة العربية».

7 شباط/فبراير 1978: اشتباك دموي بين جنود لبنانيين وسوريين في الفياضية.

15 آذار/مارس 1978: إسرائيل تشن عملية «الليطاني». أول اجتياح إسرائيلي لجنوب لبنان. مجلس الأمن الدولي ينشىء قوة يونيفل تابعة للأمم المتحدة.

11 أيار/مايو 1978: الرئيس سليمان فرنجية يخرج من الجبهة اللبنانية ويتصالح مع رشيد كرامي.

12 حزيران/يونيو 1978: عشية خروج آخر جندي إسرائيلي من جنوب لبنان، تل أبيب تعلن أنه لم تحصل معركة في الشريط الحدودي الذي لا يخضع لسيطرة اليونيفل.

13 حزيران/يونيو 1978: مجزرة إهدن، وسقوط 31 ضحية بنيران الكتائبيين.

17 حزيران/يونيو 1978: سليمان فرنجيه يعلن أن على الكتائبيين أن يرحلوا عن لبنان الشمالي.

28 حزيران/يونيو 1978: 40 شاباً يقتلون في أربع قرى بقاعية.

الأول من تموز/يوليو ـ 31 تشرين الأول/أكتوبر 1978: إضراب عام في بيروت الغربية و «حرب المئة يوم» بين القوات المسيحية وقوة الردع العربية.

31 آب/أغسطس 1978: اختفاء الامام موسى الصدر في ليبيا.

15 ـ 17 تشرين الأول/أكتوبر 1978: مؤتمر بيت الدين لوزراء خارجية البلدان المشاركة في قوات الردع العربية. انسحاب الجنود السوريين من بيروت الشرقية.

11 شباط/فبراير 1979: إعلان الجمهورية الاسلامية في ايران.

26 آذار/مارس 1979: توقيع معاهدة الصلح المصرية ـ الاسرائيلية.

13 أيلول/سبتمبر 1979: الرئيس سركيس يستقبل بشير الجميل لأول مرة في بعبدا.

23 شباط/فبراير 1980: كريم بقرادوني يذهب الى دمشق في محاولة لإيجاد تقارب سوري كتائبي.

2 ـ 3 تموز/يوليو 1980: عناصر من ميليشيا حزب الوطنيين الأحرار يهاجمون مكتب الكتائب في وادي شحرور. بشير الجميل يرد بتوحيد الميليشيات المسيحية بالقوة.

ايلول 1980: نشوب الحرب بين إيران والعراق. تحالف استراتيجي بين سوريا وإيران.

31 تشرين الأول/أكتوبر 1980: القوات اللبنانية تسيطر كلياً على بيروت الشرقية.

22 تشرين الثاني/نوفمبر 1980: بشير الجميل يعلن ترشحه لرئاسة الجمهورية اللبنانية.

28 تشرين الثاني/نوفمبر 1980: ممثلون لبشير الجميل ولوليد جنبلاط يعقدون اجتماع عمل في منزل العقيد جوني عبده.

الأول من نيسان/أبريل ـ 30 حزيران/يونيو 1981: حصار زحلة وقصفها من جانب الجيش السوري؛ تدخل الطيران الاسرائيلي.

7 حزيران/يونيو 1981: غارة جوية إسرائيلية على المفاعل النووي العراقي «تموز/يوليو».

29 آب/أغسطس 1981: وزير الخارجية الفرنسية كلود شيسون يلتقي القادة اللبنانيين وياسر عرفات في بيروت.

4 أيلول/سبتمبر 1981: اغتيال سفير فرنسا في بيروت لوي دولامار.

6 تشرين الأول/أكتوبر 1981: اغتيال الرئيس المصري أنور السادات في أثناء عرض عسكري بمناسبة ذكرى حرب تشرين الأول/أكتوبر 1973.

7 تشرين الأول/أكتوبر 1981: حسني مبارك يخلف السادات على رأس الدولة المصرية.

12 كانون الثاني/يناير 1982: أرييل شارون وهيئة أركانه في بيت بشير الجميل في بيروت للقاء كميل شمعون وبيار الجميل من أجل بحث الخطة العسكرية الاسرائيلية ضد منظمة التحرير الفلسطينية.

4 حزيران/يونيو 1982: الغزو الاسرائيلي الثاني للبنان (عملية «سلام الجليل») ومحاصرة بيروت الغربية؛ انسحاب ياسر عرفات والفدائيين الفلسطينيين تحت حماية قوة متعددة الجنسيات ضمت قوات فرنسية وأميركية وإيطالية. الجناح العسكري لحزب الله يتكون كقوة مقاومة لهذا الغزو الثاني.

23 آب/أغسطس 1982: انتخاب بشير الجميل رئيساً للجمهورية اللبنانية في دورة الاقتراع الثانية.

14 أيلول/سبتمبر 1982: سقط الرئيس ضحية تفجير لبيت الكتائب حيث كان يعقد اجتماعاً.

15 أيلول/سبتمبر 1982: حزب الكتائب يرشح أمين الجميل لخلافة أخيه.

16 أيلول/سبتمبر 1982: أرييل شارون يقوم بزيارة تعزية لأسرة الجميل.

17 أيلول/سبتمبر 1982: مخيما صبرا وشاتيلا يتعرضان لفظائع ارتكبتها القوات اللبنانية انتقاماً لرئيسها. جرت المجازر بالتواطؤ مع أرييل شارون والجيش الاسرائيلي.

21 أيلول/سبتمبر 1982: انتخاب أمين الجميل رئيساً للجمهورية اللبنانية.

31 تشرين الأول/أكتوبر 1983: انعقاد مؤتمر لبناني في جنيف بمشاركة وزير الخارجية السوري عبد الحليم خدام.

29 شباط/فبراير 1984: أول زيارة قام بها أمين الجميل لدمشق.

12 ـ 20 آذار/مارس 1984: انعقاد مؤتمر لبناني في لوزان بحضور نائب الرئيس السوري عبد الحليم خدام.

الأول من حزيران/يونيو 1985: انسحاب جزئي للجيش الاسرائيلي من لبنان وإقامة «منطقة أمنية» إسرائيلية عهد بها الى الجنرال اللبناني المنشق أنطوان لحد، قائد جيش لبنان الجنوبي.

28 كانون الأول/ديسمبر 1985: توقيع الاتفاق الثلاثي في دمشق بين نبيه بري (أمل) ووليد جنبلاط (الحزب الاشتراكي التقدمي) وإيلي حبيقه (القوات اللبنانية).

13 كانون الثاني/يناير 1986: القمة الحادية عشرة بين الجميل والأسد. الرئيس اللبناني يرفض تصديق الاتفاق الثلاثي.

15 كانون الثاني/يناير 1986: مجابهات داخل المسيحيين بين أنصار وأخصام الاتفاق الثلاثي. سقوط إيلي حبيقه الذي التحق بدمشق قبل أن يستقر في زحله.

22 أيلول/سبتمبر 1988: تأليف حكومة انتقالية لتنظيم انتخاب رئيس للجمهورية. أمين الجميل يعهد بالحكم الى الجنرال عون. سليم الحص يرفض وضعه أمام أمر واقع ويصرح بأنه مستمر في تمثيل الشرعية.

24 أيلول/سبتمبر 1988: مع وجود رئيسي حكومة، وفي غياب رئيس للجمهورية، لبنان يعاني أزمة دستورية جديدة.

6 آذار/مارس 1989: ميشال عون يقرر إغلاق كل المرافىء غير الشرعية.

14 آذار/مارس 1989: الجنرال ميشال عون يباشر «حرب تحرير» لبنان من الاحتلال السوري.

19 أيلول/سبتمبر 1989: الجنرال عون يوافق على وقف إطلاق النار.

22 تشرين الأول/أكتوبر 1989: النواب اللبنانيون، والجامعة العربية، ووسطاء البلد المضيف، المجتمعون في مدينة الطائف السعودية، يوقعون على وثيقة التفاهم الوطني التي عرفت بـ «اتفاقات الطائف» فيما بعد، والتي وضعت حداً لأربع عشرة سنة من الحرب، وأنجبت ما سمي «الجمهورية الثانية» اللبنانية.

4 تشرين الثاني/نوفمبر 1989: الجنرال عون يحل مجلس النواب.

15 كانون الثاني/يناير 1990: لأجل توحيد صفوف المقاومة، الجنرال عون يقرر حل القوات اللبنانية.

31 كانون الثاني/يناير 1990: حرب جديدة بين المسيحيين، بين القوات اللبنانية وألوية الجيش اللبناني التابعة للجنرال عون.

آب/أغسطس 1990: سوريا تنضم الى الائتلاف الذي تقوده

الولايات المتحدة ضد العراق. مقابل ذلك، وافقت واشنطن على العملية العسكرية السورية ضد الجنرال عون.

21 أيلول/سبتمبر 1990: الرئيس هراوي يعلن ولادة الجمهورية الثانية.

13 تشرين الأول/أكتوبر 1990: الطيران السوري يقصف قصر بعبدا. الجنرال ميشال عون يدعو قواته، من السفارة الفرنسية، للالتحاق بألوية الجيش اللبناني التي يقودها الجنرال إميل لحود.

كانون الثاني/يناير - شباط/فبراير 1991: حرب العراق الأولى، المسماة حرب الخليج.

22 أيار/مايو 1991: معاهدة الأخوة والتعاون والتنسيق بين لبنان وسوريا.

19 تشرين الأول/أكتوبر 1992: رجل الأعمال رفيق الحريري يصبح رئيساً لوزراء لبنان.

13 أيلول/سبتمبر 1993: توقيع اتفاقات أوسلو في واشنطن.

7 أيار/مايو 1995: انتخاب جاك شيراك رئيساً للجمهورية الفرنسية.

4 تشرين الثاني/نوفمبر 1995: اغتيال إسحق رابين على يد أصولي إسرائيلي.

27 و28 تشرين الثاني/نوفمبر 1995: توقيع الشراكة الأوروبية - المتوسطية في برشلونه.

13 نيسان/أبريل 1996: الجيش الاسرائيلي يشن عملية «عناقيد الغضب» ويهاجم مواقع لحزب الله في جنوب الليطاني. القصف الاسرائيلي لمركز الأمم المتحدة في قانا يوقع مئة

وقتيلين ويثير انفعال الرأي العام الدولي. مجلس الأمن الدولي يتخذ قراراً بوقف إطلاق النار وإدانة قتل مدنيين.

تشرين الثاني/نوفمبر 1998: الجنرال إميل لحود يخلف الياس الهراوي في رئاسة الجمهورية اللبنانية.

31 كانون الأول/ديسمبر 1999: مجابهة بين الجيش اللبناني وجماعات سلفية في جرد الضنية.

3 أيلول/سبتمبر 2000: الدورة الثانية للانتخابات التشريعية اللبنانية. فوز لوائح رفيق الحريري، وتعيينه رئيساً للحكومة مرة ثانية.

29 أيلول/سبتمبر 2000: الانتفاضة الثانية.

7 تشرين الثاني/نوفمبر 2000: انتخاب جورج بوش الابن رئيساً للولايات المتحدة.

14 شباط/فبراير 2003: خطاب لدومينيك دو فيلبان قوبل بالتصفيق في مجلس الأمن الدولي، أكد فيه معارضة فرنسا لشن حرب جديدة على العراق.

20 آذار/مارس 2003: الغارات الجوية الأولى على العراق من جانب القوات الأميركية - البريطانية.

2 أيلول/سبتمبر 2004: فرنسا والولايات المتحدة تقدمان معاً، وبدعم من ألمانيا والمملكة المتحدة، مشروع القرار 1559 الذي أقره مجلس الأمن الدولي بأكثرية 9 أصوات وامتناع 6 عن التصويت.

3 أيلول/سبتمبر 2004: البرلمان اللبناني يعدل الدستور لتمديد ولاية الرئيس لحود.

3 تشرين الثاني/نوفمبر 2004: إعادة انتخاب جورج بوش الابن رئيساً للولايات المتحدة.

11 تشرين ثاني/نوفمبر 2004: وفاة ياسر عرفات في مستشفى كلامار العسكري، قرب باريس.

14 شباط/فبراير 2005: اغتيال رئيس وزراء لبنان السابق رفيق الحريري.

14 آذار/مارس 2005: المعارضة اللبنانية الرافضة للاحتلال السوري وللنظام القائم في بيروت، تحشد مليون متظاهر في ساحة الشهداء. تطالب بالحقيقة حول اغتيال رفيق الحريري، وبرحيل القوات السورية والرئيس لحود.

15 آذار/مارس 2005: سوريا تبدأ سحب قواتها.

26 نيسان/أبريل 2005: منظمة الأمم المتحدة تأخذ علماً بانسحاب القوات السورية من لبنان.

7 أيار/مايو 2005: الجنرال ميشال عون يعود الى لبنان بعد نفي دام خمس عشرة سنة.

6 حزيران/يونيو 2005: انعقاد المؤتمر العاشر لحزب البعث السوري الذي أكد فيه الرئيس بشار الأسد مجدداً «ضرورة التماسك الداخلي لأجل مواجهة الضغوط الدولية».

15 آب/أغسطس 2005: الجيش الاسرائيلي يباشر الانسحاب بصورة أحادية من مستوطنات قطاع غزة.

25 كانون الثاني/يناير 2006: فوز حماس، المدرجة على لائحة المنظمات الارهابية الأميركية، في الانتخابات التشريعية الفلسطينية. الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي وإسرائيل تقطع مدفوعاتها عن المؤسسات الفلسطينية. إيقاف كل تفاوض حول تطبيق خريطة الطريق.

12 تموز/يوليو 2006: هجوم من جانب حزب الله على الخط الأزرق بين إسرائيل ولبنان: مقتل 8 جنود إسرائيليين وأسر

جنديين. إسرائيل ترد بحوالى أربعين غارة جوية على جنوب لبنان، أعقب ذلك اندلاع مواجهات استمرت 33 يوماً.

14 آب/أغسطس 2006: بعد مرور يوم على تبني القرار 1701 من قبل مجلس الأمن الدولي، تنفيذ وقف القتال بين إسرائيل وحزب الله. حصيلة الحرب: نحو 1200 قتيل وأكثر من 900000 نازح في لبنان، وتدمير البنى التحتية؛ و150 قتيلاً و400000 نازح في إسرائيل.

23 آب/أغسطس 2006: الرئيس بشار الأسد يرفض نشر قوات الفينول على الحدود اللبنانية ـ السورية.

29 و30 آذار/مارس 2008: انعقاد قمة الجامعة العربية في دمشق.

7 و8 أيار/مايو 2008: مجابهات بين حزب الله وميليشيات 14 آذار/مارس في بيروت، عجلت في عملية الدوحة.

22 أيار/مايو 2008: انتخاب ميشال سليمان رئيساً للجمهورية اللبنانية.

12 تموز/يوليو 2008: قمة ثنائية فرنسية ـ سورية في باريس، بحضور الرئيسين ساركوزي وبشار الأسد وميشال سليمان، وأمير قطر.

13 تموز/يوليو 2008: إقامة الاتحاد لأجل المتوسط.

3 و4 أيلول/سبتمبر 2008: قمة رباعية في دمشق يحضرها الرئيسان ساركوزي والأسد، ورئيس الوزراء التركي أردوغان وأمير قطر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني.

18 أيلول/سبتمبر 2008: اغتيال يوسف الشاب فرنجيه الملقب «بأبو جو»، الضحية الثانية والثلاثين لمجزرة إهدن.

4 تشرين الثاني/نوڤمبر 2008: انتخاب باراك أوباما رئيساً للولايات المتحدة، وهو الرئيس الأميركي الرابع والأربعون.

27 كانون الأول/ديسمبر 2008: الجيش الاسرائيلي يشن هجوماً عسكرياً على قطاع غزة بواسطة غارات جوية كثيفة.

3 كانون الثاني/يناير 2009: حوالى الساعة 19 والدقيقة 30 ابتدأ الهجوم البري الاسرائيلي على غزة. سقوط حوالى 1200 قتيل فلسطيني معظمهم من الأطفال والنساء والمسنين. المجتمع المدني الدولي يستنكر جرائم الحرب والجرائم ضد الانسانية ويطالب بتأليف لجنة تحقيق دولية ومحكمة جنائية دولية على غرار ما جرى بالنسبة الى يوغسلافيا السابقة ورواندا.

18 كانون الثاني/يناير 2009: الحكومة الاسرائيلية تقرر وقف إطلاق النار، قائلة إنها حقّقت أغراضها من الحرب. بعد بضع ساعات، أعلنت حماس بدورها وقف إطلاق النار لمدة أسبوع بغية إفساح المجال لانسحاب القوات الاسرائيلية من قطاع غزة وفتح المعابر لأجل وصول العون الانساني والمواد الضرورية. وحسب تل أبيب، كل القوات الاسرائيلية انسحبت من الأرض الفلسطينية منذ 20 كانون الثاني/يناير.

20 كانون الثاني/يناير 2009: الادارة الأميركية الجديدة تباشر أداءها.

7 حزيران/يونيو 2009: موعد الانتخابات النيابية اللبنانية.

13 حزيران/يونيو 2009: الذكرى الواحدة والثلاثون لمجزرة إهدن.

Repères bibliographiques

Ouvrages généraux

Badiou Alain : *De quoi Sarkozy est-il le nom ?* Nouvelles Editions Lignes, 2007.

Balanche Fabrice : *La Région alaouite et le pouvoir syrien*. Editions Karthala, 2006.

Balawi Hassan : *Gaza, dans les coulisses du mouvement national palestinien*. Editions Denoël, 2008.

Barthes Roland : *Mythologies*. Editions du Seuil, 1957.

Bataille Georges : *La Part maudite*. Editions de Minuit, 1967.

Ben-Israël Isaac : *Philosophie du renseignement – Logique et morale de l'espionnage*. Editions de l'éclat, 1999.

Caroz Yaacov : *Moukhabarat – Les services secrets arabes*. Editions Stanké, 1978.

Chehab Zaki : *Inside Hamas*. I.B. Tauris, 2007.

Clastres Pierre : *La Société contre l'Etat*. Editions de Minuit, 1974.

Cooley John K. : *CIA et Jihad, 1950 – 2001*. Editions Autrement 2002.

Corm Charles : *6 000 ans de génie pacifique au service de l'humanité*. Editions de la revue phénicienne, 1949.

Corm Georges : *Histoire du pluralisme religieux dans le bassin méditerranéen*. Librairie orientaliste Paul Geuthner, 1998.

Corm Georges : *La Méditerranée, espace de conflit, espace de rêve* Editions L'Harmattan, 2002.

Corm Georges : *Orient-Occident, la fracture imaginaire*. Editions La Découverte, 2002.

Corm Georges : *La Question religieuse au XXIe siècle*. Editions La Découverte, 2006.

Corm Georges : *L'Europe et le mythe de l'Occident – La construction d'une histoire*. Editions La Découverte, 2009.

Dan Uri : *Mossad, 50 ans de guerre secrète*. Editions des Presses de la Cité, 1995.

Darwich Mahmoud : *Etat de siège*. Editions Actes Sud, 2004.

Devouassoux Christophe et Labévière Richard : *Duel aux sommets – La montagne à l'épreuve de la démocratie*. Editions Syros-alternatives, 1992.

Djaït Hichem : *La Grande discorde – Religion et politique dans l'Islam des origines*. Editions Gallimard, 1989.

Duroselle Jean-Baptiste : *Clémenceau*. Editions Fayard, 1988.

Duvignaud Jean : *L'Anomie – Hérésie et subversion*. Editions Anthropos, 1973.

Eck Bernard (sous le direction de) : *Le Massacre, objet d'histoire*. Editions Gallimard, 2005.

Eddé Dominique : *Pourquoi il fait si sombre ?* Editions du Seuil, 1999.

El-Atrache Talal : *Géopolitique de la Syrie*. A paraître.

El-Daïf Rachid : *Passage au crépuscule*. Editions Actes Sud, 1992.

Foulquier Jean-Michel : *Arabie Saoudite – La dictature protégée*. Editions Albin Michel, 1995.

Gibran Khalil : *Le Jardin du prophète*. Editions Casterman, 1979.

Gibran Khalil : *Le Prophète*. Editions Gallimard, 1992.

Hemingway Ernest : *Pour qui sonne le glas*. Editions Gallimard, 1961.

Hemingway Ernest : *Histoire naturelle des morts*. Editions Gallimard, 1949.

Hoveyda Fereydoun : *Que veulent les Arabes ?* Editions First, 1991.

Jouanna Arlette : *La Saint-Barthélémy – Les mystères d'un crime d'Etat (24 août 1572)*. Editions Gallimard, 2007.

Kepel Gilles : *Le Prophète et le Pharaon*. Editions du Seuil, 1993.

Kimche David : *The Last Option*. MacMillan, 1991.

Kissinger Henry : *Les Années de renouveau*. Editions Fayard, 2000.

Laurens Henry : *Le Grand Jeu – Orient arabe et rivalités internationales*. Editions Armand Colin, 1991.

Lartéguy Jean : *Dieu, l'or et le sang*. Editions Paris Match/Presses de la Cité, 1980.

Le Gac Daniel : *La Syrie du général Assad*. Editions complexe, 1991.

Lyotard Jean-François : *La Condition postmoderne*. Editions de Minuit, 1979.

Mearsheimer John J. et Stephen M. Walt : *Le Lobby pro-israélien et la politique étrangère américaine*. Editions La Découverte, 2007.

Malaparte Curzio : *Technique du coup d'Etat*. Editions Grasset, 1931.

Malraux André : *L'Espoir*. Editions Gallimard, 1937.

Malraux André : *La Condition humaine*. Editions Gallimard, 1946.

Machiavel : *Le Prince*. Editions Garnier Frères, 1962.

Morris Benny : *Victimes – Histoire revisitée du conflit arabo-sioniste*. Editions Complexe/CNRS, 1999.

Norwich John Julius : *Histoire de la Méditerranée*. Editions Perrin, 2008.

Ostrovsky et Hoy Claire : *Mossad, un agent des services secrets israéliens parle*. Editions des Presses de la Cité.

Orwell George : *La Ferme des animaux*. Editions Champ Libre, 1981.

Pakradouni Karim : *Le Piège – De la malédiction libanaise à la guerre du Golfe*. Editions FMA/Grasset, 1991.

Péan Pierre et Labévière Richard : *Bethléem en Palestine*. Editions Fayard, 1999.

Péan Pierre : *Le Monde selon K.* Editions Fayard, 2009.

Poche Bernard : *Le Monde bessanais – Société et représentation*. CNRS-Editions, 1999.

Primor Avi : *Le Triangle des passions – Paris, Jérusalem, Berlin*. Editions Bayard, 2000.

Yerasimos Stéphane : *Questions d'Orient, frontières et minorités, des Balkans au Caucase*. Editions La Découverte, 1993.
Ziegler Jean : *Les Vivants et les morts*. Editions du Seuil, 1975.
Ziegler Jean : *La Haine de l'Occident*. Editions Albin Michel, 2008.
Zisser Eyal : *Commanding Syria – Bashar A-Assad and the First Years in Power*. I.B. Tauris, London, 2007.

Ouvrages sur le Liban

Abou Selim : *Liban déraciné – Immigrés dans l'autre Amérique*. Collection Terre humaine, éditions Plon, 1978.
Abou Selim : *Béchir Gémayel ou l'esprit d'un peuple*. Editions Anthropos, 1984.
Abou Khalil Joseph : *Les Maronites dans la guerre du Liban*. EDIFRA, Paris-Beyrouth, 1992.
Ammoun Denise : *Histoire du Liban contemporain*. (tomes I et II). Editions Fayard, 2004.
Aoun Général Michel (entretiens avec Frédéric Domont) : *Une certaine vision du Liban*. Editions Fayard, 2007.
Azzam Roger J. : *Liban, l'instruction du crime – 30 ans de guerre*. Editions Cheminements, 2005.
Beydoun Ahmad : *Le Liban – Itinéraires dans une guerre incivile*. Editions Karthala/CERMOC, 1993.
Blanford Nicholas : *Killing Mr Lebanon*. I.B. Tauris, London, 2006.
Bordeaux Henry : *Yamilé sous les cèdres*. Editions Plon, 1923.
Chamoun Camille : *Crise au Moyen-Orient*. Editions Gallimard, 1963.
Charara Walid et Domont Frédéric : *Le Hezbollah, un mouvement islamo-nationaliste*. Editions Fayard, 2004.
Chebli Michel : *Une histoire du Liban à l'époque des émirs (1635-1841)*. Editions de Beyrouth, 1955.
Corm Georges : *Le Liban contemporain – Histoire et société*. Editions La Découverte, 2003.

Rabbath Edmond : *Unité syrienne et devenir arabe*. Librairie Marcel Rivière et Cie, Paris, 1937.
Rondot Philippe : *La Syrie*. Editions des Presses universitaires de France, 1978.
Saïd Edward : *Orientalism*. Random House, New York, 1978.
Salamé Ghassan : *Quand l'Amérique refait le monde*. Editions Fayard, 2005.
Sand Shlomo : *Comment le peuple juif fut inventé*. Editions Fayard, 2008.
Sarner Eric (sous la direction de) : *Villes en guerre*. Editions Autrement, 1986.
Seward Desmond : *Les Chevaliers de Dieu – Les ordres religieux militaires du Moyen Âge à nos jours*. Editions Perrin, 2008.
Scott Walter : *Richard en Palestine*. Jouvet et Cie. – Garnier Frères, Libraires-éditeurs, 1913.
Shaaban Bouthaina : *Arab Women Talk About Their Lives*. First Midland Book Editions, 1991.
Shamir Yitzhak : *Ma vie pour Israël – Mémoires de combat*. Editions Ramsay, 2000.
Sharett Moshe : *Journal* (huit tomes). Editions Maariv, Tel-Aviv, 1978.
Soler Jean : *La Violence monothéiste*. Editions de Fallois, 2009.
Steiner Georges : *Les Antigones*. Editions Gallimard, 1986.
Terray Emmanuel : *Clausewitz*. Editions Fayard, 1999.
Thomas Gordon : *Histoire secrète du Mossad, de 1951 à nos jours*. Nouveau Monde Editions, 2006.
Thomas Gordon : *Les Armes secrètes de la CIA – Tortures, manipulations et armes chimiques*. Nouveau Monde Editions, 2006.
Valter Stéphane : *La Construction nationale syrienne*. CNRS-Editions, 2002.
Valognes Jean-Pierre : *Vie et mort des Chrétiens d'Orient – Des origines à nos jours*. Editions Fayard, 1994.
Vassilikos Vassilis : *Z*. Editions Gallimard, 1967.
Volney Constantin-François : *Voyage en Egypte et en Syrie*. Editions Mouton et Cie, 1959.

Debié Franck et Danuta Pieter avec la collaboration d'Eric Verdeil : *La paix et la crise : le Liban reconstruit ?* Editions des Presses Universitaires de France, 2003.

Dib Boutros (sous la direction de) : *Histoire du Liban – Des origines au xx^e siècle.* Editions Philippe Rey, 2006.

Dufour Pierre : *La France au Levant – Des croisades à nos jours.* Editions Pygmalion, 2001.

Duplan Nathalie et Raulin Valérie : *Le Cèdre et la croix – Jocelyne Khoueiry, une femme de combat.* Editions des Presses de la Renaissance, 2005.

Eddé Henri : *Le Liban d'où je viens.* Editions Buchet-Chastel, 1997.

El-Daïf Rachid : *Learning english.* Editions Actes Sud, 1998.

Farchakh Georges : *Oum Farès, une mère dans la tourmente libanaise.* Editions Publisud, 1995.

Farchakh Georges : *Sleimane Frangieh 1992-2002.* Editions Bissan, 2004.

Fayyad Ali : *Fragile States – Dilemmas of Stability in Lebanon and the Arab World.* International NGO Training and Research Center, 2008.

Feki Jean et Arnaud de Ficquemont : *Géopolitique du Liban* ; Editions Studyrama, 2008.

Gémayel Amine : *L'Offense et le pardon.* Editions Gallimard, 1988.

Harb Marwan : *Le Chehabisme ou les limites d'une expérience de modernisation politique du Liban.* Prix Samir Kassir 2008.

Henry Paul-Marc : *Les Jardiniers de l'enfer.* Editions Olivier Orban, 1984.

Heyberger Bernard (sous la direction de) : *Chrétiens du monde arabe – Un archipel en terre d'Islam.* Editions Autrement, 2003.

Jaber Hala : *Hezbollah.* Fourth Estate, London, 1997.

Joumblatt Kamal : *Pour le Liban.* Editions Stock, 1978.

Kassir Samir : *La Guerre du Liban – De la dissension nationale au conflit régional.* Editions Karthala/CERMOC, 1994.

Khoury Gérard D. : *La France et l'Orient arabe, naissance du Liban moderne.* Editions Armand Colin, 1992.

Khoury Gérard D. : *Une tutelle coloniale – Le mandat français en Syrie et au Liban (Ecrits politiques de Robert de Caix).* Editions Bellin, 2006.

Khoury Gérard D. : *La France et l'Orient arabe – Naissance du Liban moderne 1914-1929.* Editions Albin Michel, 2009.

Khouri Robert : *Liban 1860/Chronique des événements.* Editions Daccache, 2003.

Labaki Boutros et Abou Rjeily Khalil : *Bilan des guerres du Liban, 1975-1990.* Editions L'Harmattan, 1993.

Laurent Annie et Basbous Antoine : *Guerres secrètes au Liban.* Editions Gallimard, 1987.

Maalouf Amin : *Le Rocher de Tanios.* Editions Grasset, 1993.

Ménargues Alain : *Les Larmes de la colère.* Editions des Presses de la Cité, 1991.

Ménargues Alain : *Les Secrets de la guerre du Liban – Du coup d'Etat de Bachir Gémayel aux massacres des camps palestiniens.* Editions Albin Michel, 2004.

Meney Patrick : *Même les tueurs ont une mère.* Editions de la Table Ronde, 1986.

Mermier Franck et Picard Elisabeth (sous la direction de) : *Liban, une guerre de 33 jours.* Editions La Découverte, 2007.

Mervin Sabrina (sous la direction de) : *Le Hezbollah, état des lieux.* Editions Actes Sud, 2008.

Naba René : *Rafic Hariri, un homme d'affaires premier ministre.* Editions L'Harmattan, 1999.

Najjar Alexandre : *L'Ecole de la guerre.* Editions Balland, 1999.

Nakad Nahida : *A la recherche du Liban perdu.* Editions Calmann-Lévy, 2008.

Newman Barbara : *The Covenant – Love and Death in Beyrouth.* Crown Publishers, INC, New York, 1989.

Pakradouni Karim : *La Paix manquée – Le mandat d'Elias Sarkis (1976/1982).* Editions FMA, 1984.

Pinta Pierre : *Introduction au Liban, le Pays des cèdres.* Editions Olizane, 1994.

Douaihy Antoine : *Structures socio-politiques de la montagne libanaise – La société de Zghorta*. Thèse pour le doctorat de troisième cycle sous la direction du professeur André Adam. Université Paris V-Sorbonne, Paris, 1979.

Douaïhi Chawki : *Organisation politique à Zghorta (Liban nord)*. Thèse pour le doctorat de troisième cycle sous la direction du professeur Jacques Berque. Ecole des Hautes Etudes (Section VI), Paris, 1979.

FMA/*Les Fiches du monde arabe*, Lucien George.

Géostratégiques numéro 22 : *La géostratégie au « Grand Moyen-Orient »*. Publication trimestrielle de l'Institut d'études stratégiques, février 2009.

Histoire sociétés et pouvoir aux Proche et Moyen Orient. (tomes I et II). Librairie orientaliste Paul Geuthner S.A., 2001.

Jamil Mouawad : *Liens familiaux et leadership politique – Le cas de Zghorta*. Mémoire de maîtrise en science politique sous la direction du professeur Fadia Kiwam. Université Saint-Joseph, Beyrouth, octobre 2005.

La France face au terrorisme – Livre blanc du Gouvernement sur la sécurité intérieure face au terrorisme. La Documentation française, 2006.

La pensée de Midi : *Beyrouth XXI^e siècle*. Numéro 20, mars 2007. Editions Actes Sud.

La Nouvelle Société libanaise dans la perception des Fa'aliyat (Decision Makers) des communautés chrétiennes (tomes I, II et III). Bibliothèque de l'université Saint-Esprit, Kaslik, Liban, 1984.

La Revue d'études palestiniennes. Numéro 5, automne 1982.

La Revue d'études palestiniennes. Numéro 85, automne 2002.

Les Cahiers de l'Orient : *Les paradoxes libanais*. Numéro 52, quatrième trimestre 1998.

Les Cahiers de l'Orient : *Liban, Syrie/Israël – Entre le conflit et l'entente*. Numéro 11, troisième trimestre 1988.

L'Histoire : *Rome et les barbares*. Numéro 327, janvier 2008.

Qâssem Na'ïm : *Le Hezbollah, la voie, l'expérience, l'avenir*. Editions Abouraq, 2008.

Randal Jonathan : *La Guerre de mille ans – Jusqu'au dernier chrétien, jusqu'au dernier marchand, la tragédie du Liban*. Editions Grasset, 1984.

Ristelhueber René : *Traditions françaises au Liban*. Librairie Félix Alcan, 1918.

Rougier Bernard : *Le Jihad au quotidien*. Editions des Presses Universitaires de France, 2004.

Salibi Kamal : *Une maison aux nombreuses demeures – L'identité libanaise dans le creuset de l'histoire*. Editions Naufal, 1989.

Salibi Kamal : *Histoire du Liban – Du XVII^e siècle à nos jours*. Editions Naufal, 1998.

Sara Albert : *Liban, survol de trente années tragiques*. Foyer Oriental Chrétien, Bruxelles, 2002.

Sneifer Régina : *Guerres maronites, 1975-1990*. Editions L'Harmattan, 1995.

Sneifer Régina : *J'ai déposé les armes – Une femme dans la guerre du Liban*. Editions de l'Atelier, 2006.

Taleb-Bendiab : *Le Liban à la veille de la guerre civile – Journal d'un ambassadeur 1967-1970*. Casbah-Editions, 2007.

Touma Toufic : *Paysans et institutions féodales chez les Druzes et les Maronites du Liban, du XVII^e siècle à 1914* (tome I et II). Publications de l'université libanaise, Beyrouth, 1986.

Tuéni Ghassan : *Une guerre pour les autres*. Editions JC Lattès, 1995.

Younes Massoud : *Ces morts qui nous tuent – La vengeance du sang dans la société libanaise contemporaine*. Editions Almassar, 1999.

Divers

Al-Qaïda dans le texte, présenté par Gilles Kepel. Editions des Presses universitaires de France, 2005.

L'Orient-Le-Jour (numéro spécial) : *Identité, pluralisme, Etat de droit. L'avenir en points d'interrogation.* Mars 2007.

L'Orient-Le-Jour (numéro spécial) : *Réinventer le Liban.* Mars 2008.

Reconstruire Beyrouth – Les paris sur le possible, sous la direction de Nabil Beyhum. Etudes sur le monde arabe, numéro 5. Maison de l'Orient, 1991.

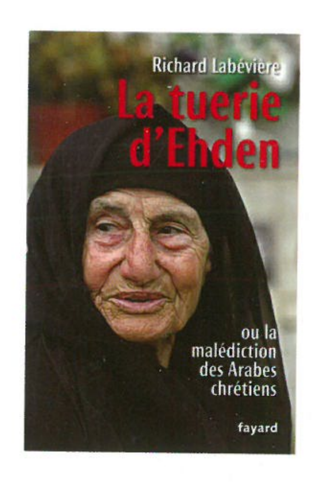
Revue du Monde Musulman et de la Méditerranée : *Etat moderne, nationalismes et islamismes.* Edisud, numéro 68-69, juin 1994.

Revue Maghreb/Machrek : *Liban, la montée des périls.* Numéro 192, été 2007. Editions Choiseul.

المحتويات

الإهداء 7
تمهيد 9
مقدمة 19
ليل السكاكين الطويلة 19
الفصل الأول: 13 حزيران/يونيو 2008، قداس - اجتماع حاشد 33
الفصل الثاني: 13 حزيران/يونيو 1978، الهجوم على القصر 52
الفصل الثالث: جبهة الشرق 67
الفصل الرابع: اجبع، فاجعة آل غالب 78
الفصل الخامس: بيت بلعيس، مقاومة آل دحدح 87
الفصل السادس: معركة كرم - سدة 96
الفصل السابع: مأتم وطني 107
الفصل الثامن: كوكب، عذراء الشهداء السوداء 122
الفصل التاسع: طوني بك، الوريث المصعوق 136
الفصل العاشر: الإعداد العسكري لـ «عملية الأرز» 155
الفصل الحادي عشر: تلاعب الموساد 172
الفصل الثاني عشر: غطاء معامل الترابة
في شكا والاقتصاد الجناحي 188
الفصل الثالث عشر: انقلاب مبرمج، وعسكرة مستمرة 216
الفصل الرابع عشر: سمير جعجع، الملاك المبيد 230

الفصل الخامس عشر: الروايات المتخيّلة 243
الفصل السادس عشر: التباس مزيارة 258
الفصل السابع عشر: التحقيق القضائي المستحيل 268
الفصل الثامن عشر: اغتيال «أبو جو»، القناص 283
الفصل التاسع عشر: سليمان بك، الوارث الجديد 292
الفصل العشرون: المصالحة العسيرة 301
الفصل الواحد والعشرون: لبنان المستحيل أو حال البشر 309
الفصل الثاني والعشرون: بستانيو جهنم أو اللااستقرار البنّاء 323
الفصل الثالث والعشرون: العرب المسيحيون
ضد صدام الحضارات 353
خلاصة: عودة إلى إهدن 373
معالم تاريخية 383



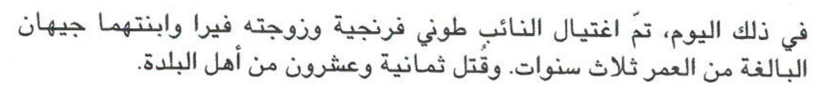
مجزرة إهدن

13 حزيران في جبال لبنان الشمالي.

منذ منتصف الليل، تطوّق وحدات القتال في حزب الكتائب التابع لآل الجميّل منطقة إهدن، وهي بلدة في الجبل، في قلب معقل آل فرنجية.

إنها الساعة الرابعة صباحاً: دوًى مدفعٌ.. إنها إشارة الهجوم.

لم تكتف الاستخبارات الإسرائيلية بالتخطيط لـ «عملية الأرز»، بل نظمت أيضاً عملية سرية ضمن العملية قضت بإقناع بشير الجميّل بإيكال قيادة الهجوم إلى سمير جعجع للتأكد من بلوغ الأهداف المرجوّة.



في ذلك اليوم، تمّ اغتيال النائب طوني فرنجية وزوجته فيرا وابنتهما جيهان البالغة من العمر ثلاث سنوات. وقُتل ثمانية وعشرون من أهل البلدة.

فمن خلال إلغاء زعيم مسيحي من الصفّ الأوّل معادٍ لإسرائيل، ابتدعت استخبارات الموساد مفهوم الاغتيال الهادف لشخصيات محددة. وبذلك، أهدت السلطة المسيحية إلى بشير الجميّل، وأوصلت إلى سدّة رئاسة الجمهورية عائلة مؤيّدة لها تستطيع تل أبيب أن توقّع عبرها اتفاق سلام منفصلاً مع لبنان.

لقد شهد لبنان سلسلة طويلة من الحروب بين المسيحيّين إثر مجزرة إهدن التي ضيّقت أكثر بُعْدَ «العقدة المارونية» بين الكتائب حلفاء إسرائيل والعرب المسيحيّين المنادين بانتمائهم الكامل والتام للعالم العربي.

وبعد مرور ثلاثين عاماً، لم تُحَلّ تلك العقدة: فالجنرال ميشال عون وسليمان فرنجية، ابن النائب المغدور به، يجسّدان اليوم مستقبل العرب المسيحيّين. والكفاح الذي يخوضانه معاً إنما يدحض ما يُسمّى بـ «صدام الحضارات» الذي يسعى إلى مواجهة بين الشرق والغرب.

ريشار لابيفيير رئيس تحرير «لا ديفانس» (معهد الدراسات العليا في الدفاع الوطني ـ IHEDN) ومن بين مؤلفاته: دولارات الارهاب؛ من بيت لحم إلى فلسطين، مع بيار بيان (Péan)؛ وبدأت معركة الشمال الكبير، مع فرانسوا تويال (Thual)؛ الولايات المتحدة والأصوليون الاسلاميون، غراسيه 1999؛ أسامة بن لادن أو اغتيال الأب، فافر 2001؛ كواليس الارهاب، غراسيه 2003؛ التحول الكبير (بغداد – بيروت)، دار الفارابي، بيروت 2008.

ISBN 978-9953-71-452-3

